مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر
في
القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمد الميلي

الجزء الثاني

المؤسسة الوطنية للكتاب

مبارك بن
محمد الميلي
تاريخ الجزائر في القديم والحديث
2
المؤسسة الوطنية للكتاب

تاريخ الجزائر
في
القديم والحديث

مبارك بن محمد الميلي

تاريخ الجزائر في القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمد الميلي

الجزء الثاني

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

الرقم التسلسلي
تاريخ الجزائر
T 1 et 2
3e 214.89.01.09

الكتاب الثاني

في العصـــر العربـــي

غزا العرب الشمال الافريقي • وفتحوه • وأسسوا بـه امارة عربية تابعة للخلافة الشرقية • واخضعوا البربـر لامارتهم حينا من الدهر • ثم اخـذوا كعادتهم يسترجعون قوتهم الحـربية ويعملون للاستقلال • فاقتطعوا من تلك الامارة جانبا مـن الوطن الجزائري أسسوا به دولة مستقلة • هي الدولة الرستمية • ثم جـاء ادريس الاكبر الى المغرب الاقصى • وأسس بـه دولة مستقلة امتدت الى النواحي الغربية من الجزائر • ثم استقل بنو الاغلب بتونس من غير ان يقطعوا صلتهم بالخلافة • وكان شرقي الجزائر تابعا لهم • ثم جاءت الدولة العبيدية فقضت على هذه الدول الثلاث • وفي عهدها شغل البربر أهـم مناصب الحكومة • وبلغـوا اخيرا أن قطعوا صلتهم بالعبيديين واستقلوا بالحكم •

في القرن الخامس الهجري انقطع سلطان العرب على الجزائر • وقد كاد جنسهم ينقطع تبعا لسلطانهم لولا نزوح الهلاليين • وأبى الله الا ان يستوطن العرب شـمال افريقية • ويبقوا جيرانا للبربـر اخوانهم في الدين • والدين أمتن رابطة •

هذا الدور كله نطلق عليه اسم العصر العربي ، وان كان أكثره عربيا بربريا ، نظرا الى ان الادارة العليا بيد العرب في جميعه ما عدا الدولة الرستمية • فهو عصر عربي حقيقة في أوله وتغليبا في باقيه • وبهذا الاعتبار اشتمل هذا العصر على ستة أبواب :

الباب الاول في غزو العرب لافريقية وتأسيس امارتهم بها •

الباب الثاني في الدولة الرستمية •

الباب الثالث في الدولة الادريسية •

الباب الرابع في الدولة الاغلبية •

الباب الخامس في الدولة العبيدية •

الباب السادس في نزوح الهلاليين الى افريقية الشمالية •

الباب الأول

في غزو العرب لافريقية وتأسيس امارتهم فيها

ا — جزيـرة العـرب

جزيرة العرب هي الوطن الذي اختص العرب به واختص بهم • فلا يوجدون بغيره الا وهم منتقلون منه ، ولا يوجد به غيرهم الا وهو طارئي عليهم من وطن آخر •

هذا الوطن واقع في الطرف الغربي من آسيا • يحـده شمالا الشام ، وشرقا العراق والخليج الفارسي ، وجنوبا المحيط الهندي ، وغربا بحر القلزم (البحر الاحمر) •

ومن هذا التحديد تعلم أن اطلاق الجزيرة عليه غير منظور فيه الى الاصطلاح الجغرافي : اذ الجزيرة عند الجغرافيين ما أحاط بـه الماء من جميع جهاته • وجزيرة العرب انما أحاط بها الماء من أغلب جهاتها • فهي شبه جزيرة في عرف الجغرافيين •

وبجزيرة العرب سلسلة جبال موازية لبحر القلزم • تقطعها من الشمال الى الجنوب وتنتهي بالمحيط الهندي •

وتنقسم الجزيرة الى أقسام :

1 — اليمن جنوبا • ويشمل حضرموت ومهرة والشحر وعمان • ومن أشهر مدنه صنعاء وعدن وظفار • ومن مدنه التاريخية مدينـة أوفير • وهي تبعد عن عدن شرقا (400) ميل • ورد ذكرها في التوراة • وعفا رسمها • فلم تكتشف الا في هذه السنة (1346 هـ) •

2 — تهامه • وهي غرب الجزيرة على بحر القلزم بين اليمن والحجاز •

3 — الحجاز • وهو يلي تهامة شمالا على البحر • ومن مدنه الطائف ومكة وجدة والمدينة • وهو القسم الذي يشتمل على المشاعر الدينية للعرب في جاهليتهم ، واهم ولغيرهم من المسلمين بعد الاسلام •

4 — نجد • في وسط الجزيرة • وهو هضبة فسيحة تربط بين بقية أقسام الوطن العربي : العراق شرقا ، واليمن جنوبا ، والحجاز غربا ، والشام شمالا •

5 — اليمامة • وهي بين نجد واليمن •

هذه الاقسام منها ما فيه الصحاري القاحلة والاراضي الخصبة الصالحة لضروب كثيرة من الحبوب والاشجار ، وعليها مراس غنية باللؤلؤ والعقيق • وفيها معادن الذهب والنحاس والحديد وغيرهن •

2 — العرب قبل الاسلام

العرب أوضح الامم نسبا وأبعدها عن الامتزاج والاختلاط • اتفقت الكلمة وأجمعت الآراء على أنهم من سام بن نوح • نزحوا من العراق الى جزيرتهم في أعصر متفاوتة ومتناهية في القدم • واتخذوها موطنا حفظوا به أنسابهم من الاختلاط ، وحافظوا عليها من الاندماج المفضى الى الاضمحلال •

وهم شعوب وقبائل تجمعها ثلاث طبقات :

1 — العرب البائدة • وهي الطبقة المتناهية في القدم • سميت كذلك اما لبيود أخبارها وانقطاع الصلة بيننا وبين تاريخها • واما لبيود قبائلها وفناء أعقابها بذوبانهم فيمن بعدهم من أجيال العرب •

وكلا المعنيين صادق في الجملة : فان من هذه الطبقة من علمت أخباره ولو على سبيل الاجمال ، ومنها من لم ينقطع عقبه •

ومن قبائل هذه الطبقة طسم وجديس وعاد وثمود ومدين وعمليق •

2 — العرب العاربة • سموا كذلك لاصالتهم في العربية • وجذم هذه الطبقة قحطان • وأشهر قبائلها وأجمعها لبطونهم قبيلتا كهلان وحمير •

3 — العرب المستعربة • وهم بنو اسماعيل الطارئون على القحطانيين • سموا كذلك لانهم عبرانيون ، واستعربوا بمخالطة العرب العاربة • وهم شعوب وقبائل يجمعها أصل عدنان المنتهي في نسبه الى اسماعيل • وأجمع قبائلهم وأشهرها مضر وربيعة واياد وانمار • ومن مضر قبيلة قريش •

ونحن نرى أن أول أساس للحياة البشرية هي الحياة الدينية التي تستمد من الرسل والانبياء • فتكون في قرب عهدها بالرسل المستمدة منهم صحيحة • ثم تتغير بطول العهد بالمغالاة والابتعاد حتى تنحرف عن أصلها وتصبح وثنية •

ولم يخرج العرب عن هذه السنة الكونية • فانحرفوا عن الدين الحق ، وتنكبوا الصراط السوي • فأرسل الله في قبيلة عاد منهم هودا ، وفي ثمود صالحا ، وفي مدين شعيبا • وذلك في أوقات مختلفة • فآمن من آمن منهم ، وهلك من كفر • وبادت تلك الاديان ببيود أممها • وكان في الحجاز اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام • فانتشرت على يده ديانة ابراهيم الخليل (ص) في العرب العاربة والمستعربة • وجاء بعض الاسرائليين بديانة موسى (ص) الى الجزيرة • فاعتنقها بعض العرب • ثم بعد ظهور المسيحية أخذ بها بعض القبائل منهم •

ولم يزل جل العرب على ديانة ابراهيم (ص) غير أنهم أحدثوا فيها أحداثا وابتدعوا فيها بدعا . فصاروا يعبدون الاصنام والاوثان والطواغيت . وقد يعبدون الارواح كالجن والملائكة .

قال السهيلي : « يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم . ولا يقال وثن الا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه »[1] وقال ابن هشام عن الطواغيت : « وهي بيوت تعظيمها كتعظيم الكعبة : لها سدنة وحجاب ، وتهدي اليها كما تهدي للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها . وهي تعرف فضل الكعبة عليها : لانها كانت قد عرفت أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده »[2] وأصل عبادة العرب للاصنام أن أهل مكة كانوا لا يظعن منهم ظاعن الا حمل معه حجرا من الحرم تبركا به . وحينما يقيم يضعه ويطوف به طوافه بالكعبة . وبطول العهد صاروا يعبدون ما أعجبهم من الحجارة . وذكر السهيلي وجها آخر في أصل دخول الوثنية الى العرب . وهو لا يتعارض مع ما سبق . قال : « وقد ذكر البخاري عن ابن عباس : قال صارت الاوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد . وهي أسماء قوم صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم : ان انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها انصابا ، وسموها بأسمائهم . ففعلوا . فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك وتنوسخ العلم عبدت »[3] .

وقد بقيت للعرب بقايا من شريعة ابراهيم (ص) كتعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن ، مع ادخالهم في ذلك ما ليس منه . قال ابن هشام : « فكانت

---

(1) الروض الانف ج1 ص62 .
(2) السيرة المطبوعة مع الروض ج1 ص64 .
(3) الروض ج1 ص62 .

كنانة وقريش اذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك • فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده • يقول الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » [1] •

هذه الوثنية التي كان عليها العرب مع اعترافهم بوحدانية الله واقرار بعضهم بالبعث وكونهم يقولون ـ كما جاء في القرآن ـ : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ـ هذه الوثنية هي التي لم يرضها منهم الاله جل وعلا ، وأرسل اليهم رسوله صلى الله عليه وسلم ليمحوها من قلوبهم ويذهب أثرها من بين أعينهم • وفي اسلام كثير منا ما يشبه هذه الوثنية ، غير ان الاسلام لما كان أصله محفوظا بحفظ القرآن وضبط الحديث لا يحتاج في تجديده الى نبوة جديدة وانما يحتاج الى احياء أصله والتقاضي اليه والتراضي به حكما •

ولقد كان لهؤلاء العرب ملوك فخام ودول عظام • اشتهر من دولهم ثلاث : دولة التبابعة ودولة المناذرة ودولة الغساسنة • والدولة الاولى أسست في الالف الثاني قبل الميلاد • فان المؤرخين يذكرون منها ملوكا كثيرين قبل بلقيس التي كانت في زمن سليمان عليه السلام ابن داوود عليه السلام • وهي مؤسسة على أنقاض دولة قحطان التي كانت قبل الميلاد بنحو ألفي سنة • فهي أقدمهن عهدا وأكثرهن حضارة وأبقاهن أثرا وأوسعهن ملكا • كان منها بعد بلقيس شمريرعش حوالي المائة الثامنة (ق•م) ودخل أرض فارس • وخرب مدينة الصغد خلف نهر جيجون • وبنى مدينة هنالك سميت باسمه • وهي المعروفة اليوم بسمرقند • وقد وجد في بعض قصورها المنهدمة

(1) السيرة ج1 ص63 •

عمود مكتوب عليه بالحميرية : « هـذا ما بناه شمريرعش لسيدة شمس » .

دولتا المناذرة والغساسنة كانتا شـمالا ، ودولة التبابعة كانت جنوبا . ومعلوم أن الدول لا تقام الا بالعلوم والصناعات خصوصا وقد دلت الآثار على عظمة تلك الدول . قال صاحبا الوسيط : « واذن تكون هندسة ارواء الارض وعمارة المدن والحساب والطب والبيطرة والزراعة ونحوها معروفة في الجنوب والشمال ، مدونة في الكتب ، وان لم يحفظ لنا الدهر صورا منها . أما البدو منهم وان كانـوا أميين يمقتون الصناعات وينتقصون أهلها فلا غنى لهم عن تجـربة ترشدهم الى ما ينفعهم في بواديهم المقفرة ومجاهلهم الطامسة : ليعلموا ما به تصح أنفسهم وانعامهم وتستطلع خفايا أمورهم وتدون فيـه مفاخرهم، وليعرفوا متى تجود السماء، وبم يتميز الاقرباء من البعداء . فكسبهم ذلـك علم النجوم والطب الضروري والانساب والاخبار ووصف الارض والفراسة والعيافة والقيافة والكهانة والعرافة والزجر وقرض الشعر » [1].

قالا : واشتهر منهم في علم النجوم بنو حارثة بن كلب وبنو مرة ابن همام الشيباني ، وفي الطب الحارثة بن كلدة الثقفي وابن حذيم التيمي ، وفي الانساب دغفل بن حنظلة الشيباني وزيد بن الكيس النمري وابن لسان الحمرة ، وفي القيافة بنو مدلج وبنو لهب ، وفي الكهانة شق أنمار وسطيح الذئبي وطريفة الخير وسلمى الهمدانية ، وفي العرافة الابلق الاسدي عراف نجـد ، ورباح ابن عجلة عراف اليمامة ، وفي الزجر بنو لهب وأبو ذؤيب الهذلي ومرة الاسدي . أما الشعر فقد اشتهر فيه كثيرون معروفة أخبارهم في كتب الادب .

---

(1) الوسيط في الادب العربي وتاريخه ص38 .

3 ـــ العرب بعـــد الاســـلام

قد رأيت أن العرب قبل الاسلام كانت لهم دول شمالا وجنوبا • أما قلب الجزيرة فكان تحت امراء ورؤساء عديدين • فلم تكن لهم وحدة سياسية ، وقـــد كادوا يفقدون استقلالهم قبيل الاسلام : اذ استولى الفرس على اليمن ، وكان المناذرة تحت حمايتهم ، والغساسنة تحت حماية الروم البيزنطيين •

وكانوا من حيث الدين أيضا على أديان مختلفة • فكانت الفوضى شاملة للوجهتين الدينية والسياسية •

والامم غير العرب ليسوا بأسعد منهم في هاتين الوجهتين ، بل ان العالم كله أمسى في فوضى عامة لا يبصر في ظلامها الدامس سبيلا للرقي والكمالات البشرية • يشهد بذلك التاريخ الصادق •

وقد امتاز العرب عن غيرهم من أهل عصرهم بالاخلاق الفاضلة مثل الصدق والوفاء وحماية الجار الى غير ذلك مما لا يسعنا تتبعه وامتازوا أيضا بقربهم من الفطرة • فكانت أذهانهم صافية وعقولهم راجحـــة •

كان العالم في حاجة شديدة الى نـــور يهديه سبل الكمال ، وصيحة عظيمة توقظه وتلفت نظره نحو ذلك النور • وكان العرب ــ كما قلنا ــ أقرب من غيرهم الى الفطرة وأقوم أخلاقا • فكانوا أهلا لان يبدو من جزيرتهم ذلك النور ، وان يكون صاحب الصيحة رجلا منهم قـــد عرفوا فضـــله على رجالهم وفضل عشيرته وقبيلته على عشائرهم وقبائلهم •

هذا الرجل هو محمد بن عبـــد الله بن عبـــد المطلب الهاشمي القرشي • رجل أمي نشأ بين قوم أميين • وكان المثل الاعلى عندهم في

الاخلاق الفاضلة من صدق ووفاء عهد وأمانة ورأفة بالضعفاء واحسان الى عموم الناس • ناهيك أنه كان له عبد يدعى زيد بن حارثة ، ولم يكن أبوه حارثة عالما بمكانه حتى عرف انه في مكة• فقصده هو وعم زيد • وطلبا الى ربه محمد ان يسرح ولدهما يذهبان به معهما • فأحالهما على اختيار زيد للاقامة معه أو الذهاب معهما • فقالا له : لقد انصفتنا • وجاء زيد فاختار ربه على أبيـه •

هذا الرجل الامي الكامل في بشـريته لم يجلس الـى العلماء ولا صاحب زعيما من الزعماء ولا خرج مـن بين قومه الى أي بلدة سوى أنه سافر مرتين الى الشام ، الاولى كان فيها صبيا ابن اثنتي عشرة سـنة ، تعلق بعمه وكافله ابي طالب عنـد خروجه اليـه ، فاستصحبه ، والثانية كان فيها فتى قد عرف فضله وأمانته ، فرغبت اليه خديجة في أن يذهب ببضاعتها الى الشام تاجرا • ففعل •

لسنا نريد ان نشرح حياة هذا الرجل قبل ان يبلغ الاربعين شرحا وافيـا • ولكنا نريد ان نعلم أنـه عاش في تلك المدة كرجل أمي سوى ما كان عليـه من خلق عظيم •

ولما بلغ الاربعين من عمره اصطفاه الله وعهد اليه بمهمة القيام باصلاح المجتمع البشري من جميع مناحيه • تلك المهمة التي لم يقم بها أحد قبله ، ولا يستطيع أن يقوم بها أحد بعده ولو قرأ في أعلى مدارس الفلسفة وعاش أكثر من قرن قضاه بحثا ودرسا عمليا • وبذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلائق على الاطلاق •

كانت الفوضى اذ ذاك بالغة منتهاها • فكانت دعوته بالغة منتهى التوحيد ، اذ دعا الناس الى عبادة اله واحد ، والعمل بشريعة واحدة جامعة بين الوحدتين الدينية والسياسية ، شاملة للسعادتين الدنوية والاخروية •

قضى في نشر دعوته بمكة ثلاث عشرة سنة قاسى فيها من كبراء قومه وسفهائهم ما لا يحتمله الا من خلقه الله وهيأه لان يكون أفضل الخلق أجمعين • ثم هاجر الى يثرب حيث كان له أنصار • فأقام بها عشر سنوات ، أكمل فيها برنامج دعوته ،وقضى على معانديه بالسنان بعدما أفحمهم بالحجة والبرهان • فصار العرب يدخلون في دين الله أفواجا حتى لم يبق بجزيرة العرب غير من يدين بالاسلام •

هذا الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الجامع للفضائل الباطنية والظاهرية ، الدال علـى طـرق السعادتين الدنوية والاخروية • فكان خاتمـة الاديان وأداة الكمـال لنـوع الانســان •

دعا الناس عامة الى الاعتقاد باله واحد • وحرض مجيبيه على التسامح مع أهل بقية الاديان ومعاملتهم بالجميل والاحسان • جـاء في سورة الانعام : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » وجاء في سورة الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم • ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم الله عن الذين قتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم • ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » وقال صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه » •

هذا الدين على موافقته للفطرة وفضله عـلى البشـرية عمل لتشويهه ومحوه أناس سرا تحت ظله • حتى اذا تم لهم صرف العامة من أهله عن صراطه السوي قام من بعدهم بمحاربته جهرا وصاروا يضعون على حسابه القواعد الفلسفية • واليك كلمة واحدة في هذا الموضوع ننقلها عن سلامة موسى أحـد متجردي العصر وملحدي

مصر . قال : « وعند ظهور الآلهة وانتظام العبادة ازداد الكهنة قوة وجمدت نواهي الطبو . فتقيد فكر الانسان . انما يجب أن نذكر ان الآلهة القديمة لم تكن في قوة آلهة الاديان الحاضرة لانها لم تكن قادرة على كل شيء كما يعتقد الآن المسيحي أو المسلم في إلهه . فكان بين الانسان وربه مجال للفكر في جملة موضوعات لا يستطيع أهل الاديان الحاضرة ان يفكروا فيها ما لم يتناقضوا مع ما ذكرته الآلهة »[1] .

خلاصة كلامه هذا تفضيل الوثنية على الوحدانية اعتمادا على تلك الشبهة التي لبس بها على بسطاء العقول ممن يفزعون الى الاخذ بالجديد من الافكار مطلقا فزع النساء الى الجديد من الازياء .

نظرته هذه نظرة خيالية لا تتفق ومفعول الديانة الاسلامية وفضلها على البشرية جمعاء كما ينطبق تاريخها أيام عظمتها . وعلاوة عن كون هذه الفلسفة النظرية تدحضها الفلسفة العملية نزيد دحض هذه الشبهة من الوجهة النظرية أيضا : ان الوثنيين يعتقدون في آلهتهم المتعددة القدرة على كل شيء مثل ما يعتقد المسلم في إلهه الواحد ، غير أن الآلهة الوثنية ليس لعبادتها نظام ولا لمرضاتها سبيل مقرر انتهاجها ، وهذا الاله الواحد عبادته مضبوطة وأوامره مقررة . وهو يأمر البشر بالنظر في ماضيهم لاصلاح مستقبلهم ، وأن نظام هذا الكون واحد : ما كان علة لانحطاط الماضين فهو علة انحطاط الآتين ، وما كان سببا لرفعة أولئك فهو سبب لرفعة أولاء « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

كل هذا لا يخفى حتى على سلامة موسى واضرابه . ولكن هي

(1) حرية الفكر وابطالها في التاريخ ص25 .

الاهواء ودعاية الكيد للاسلام عامة والعرب خاصة [1] •

وان عذلت في هذا الاستطراد القصير فسيعذرني من رأى تحامل هؤلاء الرهاط علـى الاسلام والعرب متسترين بالفلسفة النظرية متجاهلين الحقائق الواقعية •

اعتز العرب بهذا الدين واتحدت كلمتهم واستجدت قوتهم • فعظمت دولتهم وتمكنت في قلوب الاعداء هيبتهم • فأخذوا يفتحون البلدان ويستولون على الاوطان بسرعة ليس لها في تاريخ البشر مثيل • وليس ذلك بتقدمهم على الامم الاخرى في الفنون الحربية

---

(1) اشتد كلب الزارين على الاسلام والعرب في هذه الايام لظهور دولة عربية اسلامية هي دولة عبد العزيز بن السعود . وقد رايت في عدد واحد من الهلال (الجزء الخامس من السنة السادسة والثلاثين) التي تدعى بعدها عن السياسة والدين التحكك بالاسلام في ثلاثة مواضع : الاول (ص 555) جاء فيه ان الاباحة اوفق من الحظر وان الجبر شر منه . ومثل للجبر بجبر الوهابيين الناس على الصلاة . وخفى عليه ان ضرر الجبر انما يكون اذا كان المجبور غير معتقد الخير فيما اجبر عليه . وهؤلاء مسلمون يرون الصلاة أهم ركن في دينهم الذي يرون نسبتهم لغيره سبة لا نظير لها .

الثاني (ص 611) جاء فيه ان المنع احسن من الاباحة ، نقيض الاول . ولكن سهل هذا التناقض ان الاول ضد الجبر على الصلاة والثاني ضد اباحة الطلاق . وكلاهما يتفقان مغزى .

الثالث (ص 586) جاء فيه ان الجرائم تكثر تبعا للحضارة وتقل مع البداوة « والوهابيون في نجد أقل جرائم منا ودعائم الامن ارسخ عندهم مما هي عندنا ، لا لانهم اكثر خشية للعقوبة بل لان وسائل الجريمة عندهم قليلة لا تتعدى سرقة الماشية أو الملابس » ولا أدري أهذا الفيلسوف .. يعتقد ان الحجاز على عهد الاتراك والشريف حسين كان أرقى حضارة منه على عهد ابن السعود ؟ لا يا فيلسوف ! انه لا علاج للاجرام غير التهذيب الديني وعدل الحاكم ، ولا سبب لكثرتها غير استبدال الايمان بالمادة بالايمان باله عالم قادر .

واختراعهم للاسلحة القاضية على النفوس المخربة للعمران • وانما بعدل أمرائهم واخلاص جيوشهم وكفاءة قوادهم • وهـذه ميزات لا توجد في محاربيهم • اختصوا بها : لبعدهم عن النعيم والترف الموجبين للراحة وسآمة مقارعة الخطوب ، ولكونهم متدينين بدين مهذب للنفوس ومعتقدين باله واحد مطلع على القلوب لا تخفى عليه خيانة خائن ولا جور جائر •

ومما يدلك على شدة تأثير الاسلام في العرب وسرعته وفضله في تطهير القلوب وانارة العقول اتفاقهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على تقديم أبي بكر لخلافته واسراعهم لذلك ، وهم الذين كانوا لا يدينون لاحد بالطاعة ، وكـل يرى نفسه أميرا • هؤلاء صاروا يخضعون لرجل واحد ليس له سلف في الملك والامارة ، ويحسنون انتخابه واختياره • وان أرقى أمة اليوم في العلم وأعرقها في الحضارة لم تزل تفتك بها الاغراض الشخصية في الانتخابات العمومية •

ومن كلام أبي بكر الدال على فضله وكفاءته خطبته التي خطبها في اليوم الثاني لخلافته • قال ــ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ــ : « أيها الناس ! قـد وليت عليكم ولسـت بخيركم • فان أحسنت فأعينوني ، وان أسأت فقوموني • الصدق أمانة والكذب خيانة • والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ان شاء الله تعالى • لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل • أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » •

ومن كلامه الدال على عدله وحسن سياسته وصيته لجيشه الذي وجهه الى الشام • قال : « عليكم بتقوى الله في السر والعلانية • واذا قدمتم على جندكم (يخاطب القواد) فأحسنوا صحبتهم وأبدأوهم

بالخير • واذا وعظتموهم فأوجزوا فان كثير الكـلام ينسى بعضه بعضا • واصلحوا أنفسكم يصلح لكم الناس • وصلوا الصلوات في أوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها • واذا قدم عليكم رسل الاعداء فأكرموهم ، وأقللوا لبثهم حتى يخرجوا من عسكركم وهم جاهلون به • وأكثروا حرسكم ، وبددوهم في عسكركم ، وأكثروا مفاجأتهم بمحارسهم بغير علم منهم بكم ، فمن وجدتموه غفل عن محرسه فأحسنوا ادبه وعاقبوه • وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » •

ولما احتضر دعا بعض الصحابة منهم عثمان وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف • وأعلمهم برأيه في استخلاف عمر • فاستحسنوه • ودعا عثمان ليكتب العهد • وأملى عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم • هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن فيها الفاجر : اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب • ولم آل لكم خيرا • فان صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيـه ، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب • وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » •

نكتفي بهذه النتف من كلام أبي بكر عن بقية خطبه وخطب بقية الخلفاء وعظماء القواد ، اذ لا يتسع المقام لذلك ولا نتتبع سيرهم وأعمالهم ولا لشرح فضل الاسلام في نهضة العرب وعظمتهم وتكوين مدنية اساسها العقل الصحيح وأثرها سعادة البشر عامة •

4 ـ العرب في افريقيـة

في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح العرب الشام ومصر وطرابلس • وفي عصر عثمان (ض) دخلوا افريقية •

في سنة (27 هـ ــ 647 م) صدر الامر من الخليفة لوالي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري بالهجوم على افريقية • فقدمها بعشرين ألفا • وكان في جيشه مــن وجوه الصحابة أهل الشجاعة والدهاء مثل عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس وعقبة بن نافع • فخرج اليهم جرجير صاحب سبيطلة بمائة وعشرين الفا من الروم والبربر • والتقى الجمعان على مسافة يوم وليلة من سبيطلة • فاستعر القتال بين الفريقين • وانتهت المعركة بقتل جرجــير وانهزام جيشه •

وبعد هذا الانتصار المشــجع المرعب دخل العــرب سبيطلة ، وانتشروا في البسائط والسهول ، يشنون الغارات على الروم والبربر • وبلغوا في غاراتهم قفصة ، وفتحوا قصر الاجم صلحا •

وبعد سنة وثلاثة أشهر أقامها الجيش العربي بافريقية طلب أهلها الصلح ، وتحملوا لعبد الله بن أبي سرح بمال عظيم قبل انجلاء العرب عنهم • فقبل المال • وعاد الى مصر يحمل غنائم جليلة •

بلغ هرقل امبراطور القسطنطينية خبر انهزام الروم والبربر ، وما تحملوه من المال لابن أبي ســرح • فغضب عليهم ، ونقم منهم تسليم ذلك المال للعرب • فأمرهم أن يؤدوا له من المال مثل ما أدوه للعرب • ووجه بطريقا لتنفيذ هذا الامر • فلما نزل البطريق بقرطاجنة وأعلمهم أمر الامبراطور حنقوا عليه وقالوا : الواجب في هذه الحال اعانتنا لا تغريمنا • وأصر البطريق على تنفيذ أمر الامبراطور • فأفضى الجدال الى القتال ، وانتصــر البطريق عليهم • وخلع ملكهم الذي نصبوه مكان جرجير • فذهب الى الشام مستنصرا بالعرب •

قضى البربر والروم ثمانية عشرة سنة بعد انجلاء العرب عنهم في الفوضى • وشغل العرب عن العود الى غزوهم بما كان مــن شأن

الثورة على سياسة عثمان (ض) ثم قتله الذي نشأت عنه حروب علي (ض) مع عائشة (ض) ثم معاوية (ض) •

افضت الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان (ض) فطلب منه ملك افريقية المخلوع ان يعينه على استرجاع منصبه • فوجه معه جيشا عربيا بقيادة معاوية بن حديج السكوني الكندي الصحابي • ولما بلغوا الاسكندرية توفي الملك المخلوع ، ومضى الجيش لطيته •

كان مجيء معاوية سنة (45 هـ ــ 665 م) في عشرة آلاف ، فيها من عظماء العرب أمثال عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الملك بن مروان • وخرج البطريق لملاقاتهم في ثلاثين ألفا • فانهزم عند قصر الاجم • وفتحت سوسة وبنزرت وجربة ، وغزيت صقلية • واتخذ معاوية آبارا للجيش بمكان القيروان •

وفي سنة (46 أو 47 هـ) استقدم الخليفة معاوية بن حديج ، وولاه على مصر وافريقية • ثم انتزع منه افريقية • ثم عزله عن ولاية مصر سنة (50) •

وبعد معاوية ارسل الخليفة الى افريقية عقبة بن نافع الفهري • قيل سنة (46) وقيل سنة (50) وفي كتب الافرنج : انه جاء سنة (668 م) غازيا ثم سمي واليا عليها سنة (669 م) • ولعل هذه الرواية تقرب الجمع بين روايتي مؤرخي العرب ، فيكون مجيئه سنة (46) أو بعدها بقليل بصفة أمير جيش ، وفي سنة (50) الموافقة لسنة (669 م) سمي واليا •

اشتغل عقبة باخضاع البربر والروم لولايته ، وتثبيت قدم العرب بافريقية • فأسس مدينة القيروان سنة (50) (670 م) بمواد من الخرابات الرومانية • ثم عزله معاوية • وولى على مصر وافريقية معا مسلمة بن مخلد •

5 ـ العرب في الجزائــر

في سنة (50) عزل الخليفة والي مصر معاوية بن حديج • وولى مكانه مسلمة بن مخلد الانصاري • وجمع له بين ولايتي مصـر وافريقيــة •

وفي سنة (55) (675) م استعمل مسلمة على افريقية مولاه أبا المهاجر دينارا • فقدمها واساء عزل عقبة • وخرب مدينته القيروان • وأسس أخرى قربها • وأخذ يغزو ويفتح •

وكان من ملوك البربر ملك يدعى كسيلة . قـد جمع جموعه بالمغرب الاوسط • وزحف بها لقتال المسلمين • فخرج اليه ابو المهاجر • وهزمه حول تلمسان • قال غروت : « بوادي اسر »[1] وظفر به • فاعتصم بالاسلام • فاستبقاه • وقربه • قال الزياني : وتوجه أبـو المهاجر لغزو البربر • فبلغ تلمسان • ونزل على عيون تحتها • تسميت به الآن • وقال ابن خلـدون : « وبـه سميت عيون ابي المهاجر قريبا منها »[2] •

قال الزياني ما ملخصه : أن أبا المهاجر بعد عوده من غزو المغرب الاوسط خرب القيروان • وأسس أخرى أنزل بها حامية المسلمين • وأقام هنالك الى أن بلغته وفاة معاوية • وفي غروت : انه نقل مركز الولاية الى ميلة • ولم أقف على هذه الرواية في غيره • ويظهر أن رواية الزياني أصح •

ولما أفضت الخلافـة الى يزيد بن معاوية أعـاد عقبة الى ولاية

---

(1) وادي اسر منبعثه من جبال جنوب تلمسان. وينعطف شرقيها ويميل مغربا . فيمر شمالها . الى أن يلتقي بنهر تافنا. وقد ذكره في المغرب 77 وفي بلاد القبائل واد آخر يدعى اسر ايضا . وليس بمراد هنا .

(2) ج7 ص 76 .

افريقية • فقدمها سنة (62) (681) م وانتقم مـن ابي المهاجـر • فاعتقله • ونكب صاحبه كسيلة • وخرب مدينته • وعمر القيروان من جديد • ثم أخذ في غزو الروم والبربر •

بلغ مدينة باغاية • والتقى هنالك بجموع البربر والروم • قال البكري : « فدارت بينهم حروب عظيمة • وكانت الدبرة فيها على أهل باغاية • فهزمهم عقبة بن نافع • وقتلهم قتلا ذريعا • ولجأ فلهم الى الحصن • وغنم منهم خيلا لم يروا في مغازيهم أصلب ولا أسرع منها ، من نتاج خيل أوراس • فرحـل عنهم عقبة • ولم يقم عليهم كراهة ان يشتغل بهم عن غيرهم »[1] •

ومنها توجه الى لمبس (تازولت) • واشتد دفاع الروم والبربر عنها • وكان النصر حليف العرب • ثم سار الى الزاب • وسأل عن أعظم مدنه • فقيل له : مدينة أربة[2] فقصدها • وبلغها عشية • ومن الغد هجم عليها • وكان البربر قد هابوه والتجأوا الى حصونهم • فلما هجم عليهم دافعوه • واستمر القتال بين الفريقين • ثم انجلى عن

---

(1) المغرب ص 145 .

(2) نقل الكعاك بهامش موجزه عن اليعقوبي : أنها آخر مـدن الزاب مما يلي المغرب ، وعن النويري : أنها قصبة الملك ومجمع الامراء ، حولها نحو ثلاثمائة وستين قرية آهلة عامرة . وقال ابن خلدون : انها قاعدة الزاب (4 : 186) .

وبعمالة وهران قرية قديمة تدعى اربة ، واخـرى حديثة تدعى كذلك أيضا . ويعبرون عن ثنيتهما بلفظ اربوات . وحولهما قرى كثيرة متقاربة ، بعضها عامر وبعضها خرب . وهما يبعدآن عن تيهرت بنحـو ثلاث مراحل الى الجنوب الغربي .

والظاهر ان اربة القديمة التي بعمالة وهران اليوم هي المرادة . وليس في عبارة المؤرخين ما ينافي ذلك سوى قول ابن خلدون : انها قاعدة الزاب . ولا يبعد آن يكون غالطا في هذا التعبير .

هزيمة البربر • وتركوا قتلى كثيرين • ومن أربه سار الى تيهرت • وانتصر بها على جموع البربر والروم • ومنها توجـه الى المغرب الاقصى • فجاس خلاله بسرعته المدهشة حتى بلغ المحيط الاطلانتيقي • ثم قفل راجعا الى القيروان • واذن لجيوشه في اللحاق بها •

وكان أبو المهاجر في اعتقاله مصاحبا لعقبة في غزواته هاته ومعه أيضا كسيلة • وكان يستهينه • قال ابن خلدون : « يقال انـه كان يحاصره في كل يوم ، ويأمره بسلخ الغنم اذا ذبحت لمطبخه »(1) •

أبو المهاجر — وان كان بينه وبين عقبة حزازات شخصية — لم يكن ليخون دينه ودولته • فأخذ يشير على عقبة باصطناع كسيلة ، ويوقظه الى سوء سياسته ، ويذكره بسيرة رسول الله (ص) مـع جبابرة العرب واستئلافه لهم • كل ذلك لم يلين من سورة عقبة ، فلم يقلع عن سياسته •

ولما انتهى الى مدينة طبنة صرف الجنود الى القيروان • ولم يبق الا في طائفة قليلة ثقـة بانتصاراته على البربر ، واستخفافا بشـأن كسيلة • وسار في تلك البقية قاصدا تهودا لينزل بها الحامية •

علم كسيلة بقلة من بقي مـع عقبة فأرسل الى الروم والبربر يعلمهم بذلك • وأرسل أيضا الى الكاهنة صاحبة جبـل أوراس • فأقبلوا في جموع عظيمة • وأحاطوا بشرذمة عقبة • فلما رأى كثرتهم وقلته علم أنه مستشهد لا محالة • فسرح أبا المهاجر وقال له : الحق بالقيروان ، فقم بأمر المسلمين • وأنا أغتنم الشهادة • وكان أبو المهاجر تتيسر له النجاة لما بينه وبين كسيلة من المودة • ولكنه أبى أن يرجع سالما ويهلك عقبة • فأجابه بقوله : وأنا أغتنمها ايضا • هكذا كان

---

(1) ج4 ص186 •

أسلافنا ، اذا كان بينهم أشياء شخصية لا يذكرونها وقت الشدة ، ويتناسونها أمام الصالح العام .

لما أحاط البربر والروم بأصحاب عقبة نزلوا عن خيولهم وكسروا أجفان سيوفهم استطابة للموت على الاسر ، وحبا في الموت الشريف ، وكراهية للحياة اذا كان فيها ذل وهوان . فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم . وكانوا زهاء ثلاثمائة من الصحابة وكبار التابعين .

قال ابن خلدون : « واجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد . وقد جعل على قبر عقبة اسنمة ، ثم جصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه . وهو في عداد المزارات ومظان البركة . بل هو أشرف مزور من الاجداث في بقاع الارض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد احدهم ولا نصيفه »[1] ومسجد عقبة هو المسجد الجامع للقرية التي تعرف لعهدنا هذا باسم سيدي عقبة . وضريحه داخل المسجد .

وظاهر كلام ابن خلدون ان عقبة صحابي . وهو ليس كذلك . وانما ولد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم فقط ولذلك يقولون فيه : صحابي بالمولد . فاطلاق الصحابي عليه توسع . وصريح كلامه ان تلك القطعة من وطن الجزائر أشرف بقعة تزار يريد غير البقاع التي عرفت للانبياء . وكلامه هذا صحيح . فللجزائر مفخرة لا ينازعها فيها وطن آخر بضمها لاجساد أولئك العظماء في الدين والتاريخ ، عظماء في الدين لانهم من أهل القرنين المفضلين على ما بعدهما من القرون ، وقد ماتوا شهداء ، واليهم يرجع الفضل في اسلامنا الذي نعده أنفس شيء أخذه الاسلاف عن أمثالهم ، وأعز تراث تركه لنا

---

(1) ج6 ص146–147 .

الاجداد الامجاد ، وعظماء في التاريخ لانهم جاسـوا خلال الشمال الافريقي من تونس الى سوس الاقصى في ظرف ثلاثة أعوام — على ما في الزياني — من غير معرفة بهذ' الوطن ولا مساعدة مـن أهله

وان عقبة بن نافع لجدير بأن يخص بالتأليف فانه من أعظم أبطال التاريخ ، غزا الروم بحرا من مصر • وافتتح غدامس وذهب منها الى ودان ففزان • وانتهى الى السودان وفتح كورامنه • كل هذا قبل أن يشرع في حرب افريقية • وان من نظر الى ابعاده في الغزو وانتصاره على العدو مع تماثل السلاح وفقد وسائل النقل والاطلاع اذ لم تكن لهم آلات هذا العصر وخرائط الجغرافية — من نظر الى ذلك مع تلك الحال أكبر عقبة ايما اكبار ، وأكبر تغافلنا عن تاريخ عظمائنا ، الامر الذي جرأ كثيرا من خونة التاريخ أو الجاهلين به المتطفلين عليـه على تشويه ماضينا ودوس حاضرنا •

6 — الجزائر تحت ملوك البربر

البربر بعد قضاء الرومان على دولهم الكبرى بقـوا يتطلبون الاستقلال حتى نالوا منه حظا وافرا على عهدي الوندال والروم • لكن لم يكونوا دولا عظمى كسابق عهدهم • وانما كانوا طوائف تحت ملوك متعددين ، قد مر ذكرهم •

ولما جاء العرب وجدوا أمامهم دويلة جرجير • فقضوا عليهـا بسهولة ، وانضم الروم الى البربر • وصاروا يدا واحدة على العرب • وهؤلاء ملوك البربر الذين عرفوا في بداية الفتح العربي :

1 — صولات بن وزمار • كان أميرا على قبيلة مغراوة • وأسلم في عهد عثمان بن عفان (ض) قيل وفد عليه مهاجرا ، وقيل أسيرا ،

أسره عبد الله بن ابي سرح • وعقد له عثمان على قومه • وبقي لعقبة ملك في العصر العربي •

2 — ستردير بن رومي • كان أميرا على قبيلة أوربة • قال ابن خلدون : « ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة • وأدرك الفتح الاسلامي • ومات سنة احدى وسبعين »[1] •

3 — كسيلة بن لزم • كان على قبيلة أوربة • قال ابن خلدون : « وولي عليهم من بعده (يعني ستردير) كسيلة بن لزم الاوربي • فكان أميرا على البرانس كلهم • ولما نزل أبو المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين كان كسيلة ابن لزم مرتادا بالمغرب الاقصى في جموعه من أوربة وغيرهم • فظفر بـه أبو المهاجر وعرض عليـه الاسلام • فأسلم • واستنقذه وأحسن اليه وصحبه »[2] •

وقال غروت : « اتفقت كلمة البربر على قبول رئاسة كسيلة • وكان الوطن تحته مستقلا تماما • وهذه أول مرة اتحد فيها البربر تحت ملك واحد » •

ولم يزل كسيلة على الاسلام في صحبة أبي المهاجر حتى قدم عقبة ونقم منه تلك الصحبة وامتهنه • فضغن عليه وأسرها في نفسه حتى أمكنته الفرصة • فحشد له جموع البربر والروم • فاحتشدوا • واستشهد عقبة وأبو المهاجر وغيرهما • قال ابن خلدون : « وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الانصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهم • ففداهم بن مصاد صاحب قفصة »[3] •

(1و2) ج6 ص146 وفي كلامه نظر اذ جعل وفاة ستردير سنة 71 وولاية كسيلة بعدها . ثم يقول : ان كسيلة لاقى بعد ولايته أبا المهاجر سنة ٥٥ ، على ان كسيلة نفسه لم يعش الى سنة 71 فكيف ولي بعدها . ولا تستقيم روايته الا بان يكون ستردير توفي قبل سنة 5 5 أو يكون كسيلة ولي حياته . (3) ج6ص 147 .

بعد هذه الوقعة الغريبة ـ وهكذا كل ما يتعلق بعقبة غريب ـ اجتمع الى كسيلة جميع من في المغرب من بربر وروم • فزحف بهم الى القيروان • وكان بها زهير بن قيس البلوي • تركه عقبة خليفة عنه بها • فلما بلغه خبر عقبة وزحف كسيلة اعتزم القتال • فخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني واتبعه الناس • فلم يسع زهير الا متابعتهم • فارتحلوا من القيروان • وبقي زهير ببرقة ينتظر مدد الخليفة •

دخل كسيلة القيروان • والفى بها بقايا من العرب ثقلوا عن الارتحال • فأمنهم • وأقام بها أميرا على المغرب خمس سنوات • اشتغل أثناءها بتعمير ما خربته الحروب من الوطن • وكان حبل الخلافة في هذه المدة مضطربا بما كان من ثورة عبد الله بن الزبير التي أستمرت الى زمن عبد الملك وثورات غيرها •

ولما قضى عبد الملك بن مروان على الثورات أرسل سنة 67 المدد الى زهير بمكانه من برقة • فزحف الى القيروان في آلاف من العرب • وخرج له كسيلة في جموعه والتقى الجمعان بنواحي القيروان• ووقعت بينهما معارك شديدة • حكمت أخيرا بفوز العرب • وقتل فيها كسيلة وكثير من أشراف البربر ورجالاتهم •

بعد هذه المعركة الفاصلة تتبع زهير البربر حتى وادي ملوية • وقد ظن أنه قلم أظفار البربر نهائيا • وذلك غلط وقع فيه قبله عقبة • فحسب ان الامن قد استتب • فزهد في الامارة • وارتحل من القيروان مشرقا • فاستشهد ببرقة مقاتلا للروم •

4 — دهيا بنت ينفاق الشهيرة باسم الكاهنة • كانت أميرة على جراوه من زناتة بجبل أوراس • قال ابن خلدون : « وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم ، وربوا في حجرها • فاستبدت عليهم وعلى قومهم بهم وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم • فانتهت اليها رئاستهم • وملكت عليهم خمسا

وثلاثين سنة • وعاشت 127 سنة • وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبل أوراس باغرائها »[1] •

ولما غادر زهير القيروان واستشهد ببرقة أمر عبد الملك بن مروان عامله بمصر حسان بن النعمان الغساني بفتح افريقية • قال البكري : « فخرج اليها في المحرم سنة ثمان وستين »[2] وكان الروم بعد تخريب سبيطلة يلتجئون الى قرطاجنة • فقصدها حسان وفتحها عنوة ثم خربها • وقضى بذلك على الروم • ولم يبق أمامه الا البربر • فسأل عن مكان الشوكة منهم • فدل على الكاهنة بجبل أوراس • فتوجه اليها •

بلغ الخبر الكاهنة • فذهبت الى باغاية • وهدمت أسوارها خشية ان يفتحها حسان ويتحصن بها • وسارت من هناك الى مسكيانة • وكانت لها بها حصون • فالتقت بجيوش حسان • وتقابل الجمعان • على وادي مسكيانة • فاقتتلوا قتالا شديدا • وحكمت المعركة للكاهنة • فهزمت العرب وسارت في أثرهم حتى أدخلتهم تراب طرابلس • وأسرت منهم نحو ثمانين • فسرحتهم سوى خالد بن يزيد القيسي فانها أبقته لديها وتبنته •

أصبحت الكاهنة بعد هذا الانتصار ملكة على مابين السرت والمحيط الاطلانتيقي • قال غروت : « وجعلت عاصمتها تيسدروس »•

ومع اتساع ملكها هذا وانتصارها لم تزل رهبة العرب من قلبها ولم تشك في أنهم سيعودون لحربها • وظنت أنهم مثل الرومان : انما

---

(1) ج7 ص9 •

(1) المغرب ص7 واعاد ذكر حسان (ص37) وساق نسبه هكذا : حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر الازدي •

يحاربون لتين المغرب وخيراته • فقطعت أملهم ـ على ظنها ـ بأن أمرت بتخريب المدن والحصون ونسف العمران • وقالت لقومها : نحن انما نريد المزارع والمراعي • ولا شأن لنا بما عدا ذلك • فعلت هذا من جهة • واتخذت يدا عند العرب من جهة أخرى بتسريح أسراهم والاحسان الى خالد • فاحتاطت لنفسها وقومها من جهتين • ولكنها لم تفهم غرض العرب من غزو افريقية • فكان أمرها ذلك خاليا من الحكمة • فقد أفسدت عليها البربر بذلك • وصاروا مضمرين نصرة حسان عليها ان هو عاد لحربها •

حسان بعد هزم الكاهنة له أقام ببرقة بأمر من عبد الملك منتظرا انجاده • وكان عبد الملك في شغل عن ذلك بفتن داخلية • وفي سنة(74) جاء المدد الى حسان فخرج من برقة لغزو الكاهنة • وكان على علم بتضعضع مركزها بما كان بينه وبين خالد من الصلة السرية •

تلقاه البربر وبقايا الروم هذه المرة بوجه غير الاول • فبذلوا له طاعتهم • وأمدوه بالاموال • وأدركت الكاهنة خذلان الامة لها • فتحصنت بعاصمتها • وقضت بها ستة أشـــهر تحت الحصار • ثم غادرتها من نفق • وناوشت العرب القتال من غـــير ثبات لعدم ثقتها بالبربر •

قال غروت : « بعد أن أيست الكاهنة من النصر ورأت خذلان البربر واليونان لها أرادت الانتقام منهم • فأرسلت الى حسان تعرض عليه اسلامها واسلام من بقي تحت أمرها ، والوقوف في صفه • ووجهت ذلك مع ولديها • فلم يقبل حسان • وأسر الولدين • واذ ذاك تأخرت الى أوراس • وكانت لها بنت تدعى مشوشة ، قد أعدت لها ملجأ هنالك بمكان يدعى جفة • وتمكنت بذلك من دفاع العرب مرارا • ولكنهم دخلوا أخيرا ملجأها • ففرت • وقتلت في طريق فرارها

عند بئر تدعى بئر العطر ثم اطلق عليها بئر الكاهنة • وذلك سنة 705م » •

وفي كلامه هذا نقطتان غير مسلمتين : أولاهما ان مؤرخي العرب لم يذكروا أسر حسان للولدين • بل ذكروا انه عقد لهما على قومهما بعد والدتهما • وهذا هو الصحيح الموافق لما عرف عن العرب جاهلية واسلاما من عدم الاساءة الى الرسول ، والموافق ايضا لما عرف به حسان من الحنكة السياسية ، اذ لو فعل ذلك لنفر منه البربر • ثانيتهما ان غيره ذكر ان قومها دعوها الى الاسلام لما أيقنوا بهلاكها فامتنعت منه وامتنعت من الفرار أيضا • ومن كلامها في هذا الشأن ما في تاريخ دول الاسلام : « **انما الملكة من تعرف كيف تموت** »[1] وفي موجز الكعاك من خطابها لقومها : « الفرار عار وسبة في وجه أمتي • والتي قادت البربر والروم ضد العرب يجب ان تموت موت الملكات » • ولا شك ان طلبها الاسلام طمعا في النجاة لا عن ايمان انما هو نوع من الفرار • ويؤيد عدم طلبها للاسلام انها لو فعلت ما قاتلها حسان • وكل من له المام ضعيف بتاريخ الاسلام يعلم ان العرب لا يقاتلون الا بعد ان يعرضوا على محاربيهم الاسلام أو الجزية • فكيف يعقل رفض حسان لاسلام الكاهنة وهو انما يحارب لتلك الغاية ؟

والخلاصة أن رواية غروت فيها طعن في أعظم رجل من فاتحي المغرب ، وهو طعن باطل • وفيها تنقيص لملكة عظيمة من البربر • وهو باطل أيضا • وكل من ينظر التاريخ بعين الحقيقة يراها درة في جيد تاريخ المرأة لما كانت عليه من حسن التدبير وشدة البأس وصدق الدفاع عن الوطن والثبات على المبدأ •

---

(1) ج1 ص240 •

7 ـ الفتـــح العربـــي

بعد قتل الكاهنة دخل حسان جبل أوراس • وخضع له البربر • فعقد لاكبر ابني الكاهنة على جبل أوراس وقومه جراوة • وجند من البربر اثني عشر الفا لا يفارقونه في جميع مواقفه الحربية • وذلك كي يأمن ثورتهم ، ويستعين بشجاعتهم •

وبعد فتح جبل أوراس عاد حسان الى القيروان • ووجه همه الى الادارة والحربية • فدون الدواوين • وكتب الخراج • وضرب الجزية على من أقام على المسيحية • ثم أنشأ بتونس دارا لصناعـــة المراكب البحرية والآلات الحربية •

وعلى يدي حسان تم الفتح العـــربي حربيا وسياسيا ودينيا ، فاستتب الامن • واقبل الناس عـــلى شؤونهم • ولكن الغلطة التي غلطها معاوية بن أبي سفيان (ض) باضافة المغرب الى ولايـــة مصر ما زالت تفتك بالمغرب ، وتهدم ما بنته جهود الفاتحين • كان عقبة بن نافع قد وضع أساس الفتح العربي بالمغرب • وبينما هـــو مشتغل بتكميله اذ أضاف معاوية المغرب الى والي مصر مسلمة بن مخلد • وكانت نتائج هذه الاضافة عزل عقبة ، واستحكام العداوة بينه وبين أبي المهاجر ، وصاحبه كسيلة • الامر الذي أفضى الى قتله • ولم يزل المغرب تابعا لمصر • فلما تمم حسان الفتح ، وعمم الامن عزله والي مصر • فارتحل الى المشرق • واستخلف مكانه أحـــد عظماء الجند • ولكن لم تكن له كفاءة حسان • فاضطرب حبل الامـــن • وكثرت الفتن • وخلت أكثر البلاد • وكادت جهود حسان تذهب هباء ، لولا ان تداركها الله بمجيء موسى بن نصير •

لما حل هذا الوالي بالقيروان أخذ في اخضاع البربر من جديد • ففرق البعوث في النواحي • وافتتح طبنة من جديد • وارسل أحـــد

قواده بشر بن ارطاة الى مجانـــة فافتتحها • وافتتح قلعة حولها • فأضيفت اليه • وسميت قلعة بشر •

بلغ موسى في غزواته بحـــرا جزيرة ميورقة ، وبـــرا السوس الادنى • قال بيروني : « كان موسى فاتحا عظيما • أخضع قسنطينة الثائرة والمغرب الاقصى وتافيلالت ودرعة وسوس • وجند تسعة عشر الفا من البربر • وأسس طنجة • وجعلها قاعدة الشمال الغربي • وجعل لها حامية ذات سبعة عشر الفا ما بين عرب وبربر » وكان العامل عليها من قبله طارق بن زياد الليثي •

ولما ثبت الفتح بالمغرب أمر طارقا بغزو الاندلس • فتوجه اليها سنة 92 في جيشين أحدهما تحت رئاسته ، نزل بـــه الجبل المعروف باسمه الى اليوم ، والآخر تحت رئاسة طريف بن مالك النخعي ، ونزل مكانا سمي به أيضا • ولما اجتازوا البحر كسر طارق المراكب كي لا يطمع في الفرار ضعفة الصبر من الجيش • وخطب فيهم خطبته الشهيرة التي ضاعفت شجاعتهم واقدامهم •

قد وضع عقبة في ولايته الاولى أساس الفتح العربي بتأسيس عاصمة المغرب • وجاء حسان فرفع البنيان وأحكم بناء الاركان • وجاء موسى فوضع السقف وحفظ هذا الصرح من عوامل الضعف ، ولولا غلطات الخلفاء وجهل الامـــراء بدواخل الوطن وطبائع أهله وجهل البربر بغرض الفاتحين ما بقي العرب في تشييد صرح الفتح نحو من اربعين عاما • ومع ذلك فهو فتح ســـريع لم يكتم مؤرخـــو الافرنج تعجبهم منـــه •

بحث الافرنج عن سر هذه السرعة العجيبة فوجدوها فيما كان عليه الوطن البربري من عموم الفوضى منذ اواخر العصر الروماني • وليس ذلك بصحيح • وقد قدمنا بحثنا في التعليل بالفوضى في الفصل

الرابع من الباب السابع • ولو كانت الفوضى تفيد الفاتح سرعة الفتح فلم لم تفد الروم البيزنطيين بمعشار عشر ما أفادت العرب ؟ وهل هذه الفوضى التي قربت للعرب فتح المغرب موجودة بصفتها لدى الفرس أيضا وغيرهم من أهل الشام ومصر والاندلس وبقية الاوطان التي سار فيها الفتح العربي سير الشمس غير انه ليس سريع الافول ؟

لسنا ننكر ان البربر كانوا في فوضى ، ولا نخصهم بها • ولكنا لا نراها صالحة لان تكون سببا لسرعة الفتح •أما السبب في نظري فهو ان العرب لم يحملهم على غزو الامم كسب ثروة ولا استعباد ضعيف • وانما كانوا يريدون نشر الاسلام بصدق واخلاص • فكانوا يعرضونه على محاربيهم اولا • فان أجابوا صاروا مساوين للعرب في جميع الحقوق • لا سيد ولا مسود ولا غالب ولا مغلوب • وان امتنعوا عرضوا عليهم الجزية • فان قبلوها حفظوا بها حقوقهم الذاتية وعقائدهم وعوائدهم تحت العدل الاسلامي • وهذا السبب أراه عاما في سرعة الفتح العربي لجميع الاوطان •

8 ــ البربــر والاســلام

علمت سابقا أنه كان بالمغرب ثلاث ديانات : الوثنية والموسوية والمسيحية ، وان المسيحية ذات مذاهب ثلاثة متباينة : الارثذوكس شيعة الرومان والاريويين من الوندال ، والدونويين من بربر الجزائر •

وان كان لاصحاب تلك الديانات والمذاهب شيء من التعاليم الموروثة والتقاليد الجامدة فقد قضت عليها الفوضى من جهة والسلطة البيزنطية من جهة أخرى ، ولم تبق هيئة دينية الا في كنائس الارثذوكس لما لهم من السلطان والصلة بالبابا •

وقد أخذ الاسلام يظهر بالمغرب بين البربر لاول ما غزاهم العرب. فقد أسلم صولات بن وزمار أحد ملوكهم على يد الخليفة الثالث . وسرحه لقومه . ولا شك انه قد عمل لنشر الاسلام بينهم لما عاد اليهم .

وفي ولاية عقبة بن نافع الاولى التي وضع فيها أساس الفتح العربي كان الاسلام منتشرا جدا . قال ابن خلدون : « فدخل افريقية. وانضاف اليه مسلمة البربر . فكبر جمعه .. ودخل أكثر البربر في الاسلام ، واتسعت خطة المسلمين . ورسخ الدين »[1] .

وفي ولاية ابي المهاجر اسلم كسيلة من ملوكهم . وكاد الاسلام يعم المغرب أجمع في ولاية عقبة الثانية لولا اساءته لكسيلة . تلك الاساءة التي انتجت قتله ووقف سير الفتح العربي .

ولما فتح حسان جبل أوراس أسلم أهله ، واتخذ منهم جيشا اسلاميا . ولما فتح موسى بن نصير طنجة عام (88) ولى عليها طارق بن زياد . وأنزل معه آلافا من العرب والبربر . وأمر العرب أن يعلموا اخوانهم البربر القرآن وفقه الدين .

واذا كان من البربر من قبل الاسلام عن علم واعتقاد راسخ فان جمهورهم انما قبلوه لما رأوا من قوة الجند العربي ، وأنه لا يسلم من سيوفهم الا من أسلم أو دفع الجزية . فاختاروا الاسلام لما فيه من عز . وأنفوا من الجزية لما فيها من صغار . ولذلك كانوا اذا جاءتهم جنود العرب أسلموا ، واذا رجعت عنهم ارتدوا . ويروى عن ابن أبي زيدانة قال : ارتد البربر اثنتي عشرة مرة .

ولما فتح الاندلس وثبتت قدم الامارة العربية بالمغرب وخالط البربر العرب ثبتوا على الدين . ثم لما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز

---

(1) ج3 ص10 .

اسماعيل بن عبيد الله واليا على المغرب ارسل معه عشرة من التابعين يعلمون البربر الدين ولغته • فعم الاسلام البربر • ولم يقف دون قلوبهم •

وقد اختارت بقايا الرومان والروم بالمغرب البقاء على المسيحية وقبول الجزية • فترك لهم العرب حريتهم الدينية • وقال غروت : « والباقون على المسيحية جبرهم عمر بن عبد العزيز سنة (719) على الاسلام أو الخروج من المغرب • فهاجر كثير منهم الى أروبا • ولكن أكثرهم أسلموا • ولم يبق بالمغرب مسيحي غير المعتصمين بشواهق الجبال • وهؤلاء بطول المدة أسلموا • وحسن اسلامهم » •

وظاهر ان المعتصمين بشواهق الجبال من البربر ، والمهاجرين الى أروبا من غيرهم • وما يظهر من كلام غروت من ان الاسلام عم جميع أهل المغرب على عهد عمر بن عبدالعزيز صحيح تؤيده أقوال مؤرخي العرب والافرنج • وما صرح به من نقض ذلك الخليفة لحكم الجزية غير صحيح : اذ لم يذكره احد من مؤرخي العرب • بل كلهم مجمعون على انه كان ذا عدل ووقوف عند احكام الشريعة الاسلامية • فلا يعقل أن يخالفها في حكم من أوضح أحكامها ، فلا يقبل الجزية من مسيحي • بل انه يقبلها ويحترم أهلها • وقد سمى العرب أهل الجزية ذميين ، نسبة الى الذمة التي هي عهد يستوجب مضيعه الذم • وهم معروفون قبل الاسلام وبعده بالمحافظة على العهود • والظاهر ان هجرة المسيحيين اذ ذاك انما كانت منهم اختيارا • رأوا انتشار الاسلام ورسوخه بهذا الوطن ، ففروا الى حيث يأمنون على ذريتهم سريان الاسلام اليهم •

كان البربر أولا يظنون ان هذا الدين آلة بيد العرب يخضعون به الامم لسلطانهم ؛ ويفرض طاعة العرب على من سواهم • فكانوا

اذا ثاروا على العرب ثاروا سياسيا ودينيا • وفي خلافة عمر بن عبد العزيز فقهوه حق الفقه ، وأدركوا أنه أداة سعادة البشر عامة ، وليس من تلازم بين العرب والاسلام • فأذعنوا له اذعانا أورثوه أعقابهم الى الابد • وصاروا اذا ثاروا على العرب ثاروا سياسيا فقط •

ان ظهور الاسلام بالمغرب لاول غزو العرب له ، وانتشاره من بعد ، وتمكنه من قلوب البربر في أمد قليل ــ لشيء عجاب في تاريخ البربر • فقد رأيناهم قبل متساهلين في المعتقد لا يصعب عليهم الانتقال من وثنية لاخرى أو ديانة سماوية لغيرها • واليوم رأيناهم ثابتين على الاسلام ثبوتا لا يضعفه مرور المئات من الاعوام •

يسند بيروني سرعة اقبال البربر على الاسلام الى ثلاثة أسباب :

1 ــ تساهل البربر في المعتقد •
2 ــ بساطة العقيدة الاسلامية •
3 ــ انتشار الفوضى الى درجة لم تبق معها فكرة قارة تعارض فكرة الاسلام •

ولعل هذه الاسباب ترجع الى الاعتذار عن انهزام المسيحية أمام الاسلام • والسبب الاول حجة للاسلام حيث ان البربر المعروفين بالتساهل الديني ثبتوا على هذا الدين القرون العديدة ، رغم عواصف الجهل وزوابع الفتن الكاثوليكية والبروتستانية • والسبب الثاني صحيح في نفسه • ولكن لو كان عدم اقبال البربر على المسيحية لكونها معقدة العقيدة لكانوا يفهمونها بطول المدة • فقد عاشت بينهم قريبا من سبعة قرون لا مزاحم لها • والسبب الثالث اعتراف بضعف المسيحية بهذا الوطن ، وانها على طول أمدها لم توجد به فكرة قارة •

أما غروت فقد علل سرعة اسلام البربر بمايرجع الى ثلاثة أشياء :

1 ـ تساهل البربر في المعتقد • وقد علمت أنه لا ينتج ثباتهم على الاسلام •

2 ـ امتياز الاسلام على غيره باشياء عددها • وقد قارب في هذا •

3 ـ اشتماله على حقوق فيها منافع للبربر • وهذا انما يصلح ايضا بالنظر لاسلامهم أولا •

والسبب الوحيد عندي لاقبال البربر على الاسلام بسهولة قربهم من الفطرة وتعشقهم للحرية وحاجتهم الى الرقي الاجتماعي • والاسلام دين الفطرة دين الحرية الصادقة دين الرقي الشريف •

9 ـ الفتح العربي والحضارات القديمة

حضارة أي أمة بما فيها من عقائد وعوائد وأخلاق ومعارف انما تسري لامة أخرى وتثبت فيها على نسبة سريان لغتها بين أفراد تلك الامة الاخرى وثبوتها في أجيالها ، لا على نسبة سلطانها وقوتها الحربية ونفوذها السياسي • وفيما تقدم من حياة الحضارة القرطاجنية بلغتها الى الفتح العربي ، وذهاب حضارة الرومان بأثر ذهاب سلطانهم لعدم انتشار لغتهم ـ دليل كاف على صحة نظرنا هذا •

ولما جاء العرب الى المغرب كان انتشار لغتهم به مسايرا لجنودهم • فما فتحت قطعة منه حربيا الا انتشرت بها لغتهم • وكان لذيوع حضارتهم بين البربر نفس السرعة التي كانت لفتوحهم • قال اغسال : « وقد انتشرت العربية بين البربر بسرعة » ولذلك قضوا أيضا بسرعة على حضارات الامم السابقة • وحلت حضارتهم من البربر مكانا لم يكن حل من قبل ولا يحل من بعد •

قال اغسال : « هذا القطر الذي تقاتل عليه الشرق والغرب ،

والذي ترك به كل طابعه ، والذي اختلط فيه الرومان والروم ليغرسوا به المسيحية اللطينية ــ أصبح من هذا الحين (يعني الفتح العربي) كله شرقيا • وانقضى بذلك عصر الاتحاد اللطيني الذي كان حول البحر الابيض »[1] •

هذه الشهادة من اغسال الاختصاصي في التاريخ القديم ندفع بها في وجوه المتفيهقين المتطفلين عــلى التاريخ الزاعمين ان الجزائر وبقية افريقية الشمالية وطن غربي لا صلة له بالشرق أصلا • وهاك شهادة أخرى من هذا المؤرخ عن علم وبحث • قال أثــر ما تقدم : « البربر كانوا يثورون على العرب اما انفة من أداء الخراج واما طمعا في الاستقلال • وغرضهم اخراج العرب من وطنهم • وقد استطاعوا أن يؤسسوا دويلات أو دولا من طرابلس الى الاندلس • ومع ذلك لم يفكروا ولا يوما واحدا في رفض لغة العرب ودياتنهم والرجوع الى اللغة اللطينية والدين المسيحي • فبقي مؤلفوهم في التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تآليفهم باللغة العربية • وملوكهم شادوا قصورهم على الفن العربي • وصارت بعض القبائل البربرية تلفق انسابا تتصل بها من العرب • ولم يبق من حضارة الرومان والبيزنطيين غير خرابات عظيمة وتذاكير للقوة الرومية » •

هكذا كان تأثير العرب على البربر بعيد الاثر حتى انتهى الى الانساب • ولذلك قال بيروني في وجوه تمييز العرب مــن البربر ــ وصدق فيما قال : « من انتسب الى البربر أو تكلم بلغتهم فلا شك أنه بربري • ومن انتسب الى العرب أو تكلم بلغتهم فلا يجزم بانه عربي » وهذا التأثير السريع العميق الخالد لا تجد له نظيرا في تاريخ البربر •

---

(1) الجزائر في القديم ص 143 •

قال بيروني : « احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في دياتهم وعاداتهم واخلاقهم • ويوجه ذلك بعضهم بأن العرب والفينيقيين متقاربون في اللغة ، ومتحدون في الاصل الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع » ومراده أن الفينيقيين أثـروا في البربر • وبقي تأثيرهم ذلك الى أن جاء أخوانهم العرب فلحقوه • وهذا غير صحيح على اطلاقه • فانا مـع اعترافنا بمحافظة البربر على ما أخذوه عـن قرطاجنة لا نعتقد أن البربر صاروا فينيقيين : ليست بينهم وبين العرب فوارق شديدة في مناحي حياتهم • فهم ــ وان أخذوا حظا وافرا من حياة البونيقيين ــ قد صبغوه بالصبغة البربرية ، وابتعدوا به عن أصله• وهذا ما لا ينكره بيروني ولا غيره • واذن فان الفينيقيين ليست لهم يد فيما كان للعرب من تأثير على البربر • اللهم الا ما كان من قبل اللغة فلا ننكره بل نقول كما قال اغسال : ان بقاء الفينيقية بألسنة البربر سهل عليهم تعلم العربية • ولا نكبر هذه المساعدة أيضا : فانه لا يعقل أن تبقى البونيقية بألسنة البربر تلك القرون من غير ابتعاد عن أصلها •

والوجه عندي أن العرب هم الذين كونوا أسباب هذا الانقلاب السريع الغريب من غير مساعدة خارجية • ذلك أنهم لم يأتوا الى هذا الوطن لغرض سياسي أو تجاري أو استعماري • وانما أتوا لنشر مبدأ فيه سعادة البشر في الحياتين • وأيدوا صدقهم في قصدهم بقسطهم • فأقبل البربر على ذلك المبدا وهــو الاسلام • ولم ينفروا أولا من العرب لعدلهم • ثم لما رأوا آثار الجور أخذت تبدو منهم قلبوا لهم ظهر المجن • وبقوا متمسكين بحضاراتهم ودياناتهم • وهذا الوجه تجده أيضا في كل الاوطان التي كان للعرب بها سلطان •

وقبل أن نختم هذا الفصل ننبــه القارىء الى أن العــرب لم يهدموا في فتحهم المغرب غير صروح الخرافات ومعاقل الفوضى • أما

ما كان للفاتحين قبلهم من أعمال العمران فلم يخربوا منه شيئا • أما أعمال الرومان فقد قال عنها بيروني : « ولم يتحد البربر والوندال الا في تخريب افريقية والقضاء على عمرانها الذي لم يبق منه الا آثار تشهد بعظمته » وأما أعمال الوندال والروم فقد قال في شأنها أيضا : « وقد ذهبت أعمال الوندال والبيزنطيين من نفسها لعدم اتقانها • ولم يكن للعرب يد في هدمها » •

ولم نعلم من تخريب للعرب الا ما كان من تخريب حسان لقرطاجنة • ولكن لم يخربها على ساكنيها من صبية ونساء وشيوخ • وانما خربها بعدما خرج أهلها منها لئلا يعودوا للتحصن بها • ولكن أين هذا من تخريب الرومان لها ؟ وأين هذا مما يفعله الاروبيون اليوم بالامم الضعيفة ؟ لم أدر كيف يغتر بعض الجزائريين بدعاية الملوثين لسمعة العرب بمثل هذه الاختلافات وهم يقرأون حقائق عن تخريب أولئك المعمرين ووحشية أولئك المحتكرين للمدنية ؟

10 — العرب والبربر بعد الفتح

أصبح العرب بعد الاسلام أعظم دول العالم فتوحا • ولكنهم يمتازون عن الفاتحين سواهم ممن تقدم أو تأخر بأنهم لم يفتحوا وطنا لامتصاص خيراته ولا لسلب حرية أهله • بل كان غرضهم الوحيد نشر الاسلام الذي رأوا فيه سعادتهم • فاحبوا أن يعمموا نشره ما استطاعوا كي تعم السعادة • ولميزتهم هاته عن بقية الامم الفاتحة كان فتحهم ممتازا عن سائر الفتوحات •

لما فتح العرب المغرب اختلطوا بالبربر وامتزجوا بعضهم ببعض من غير اندماج • فتصاهروا وتساكنوا في المدن والضواحي • ولم يكن للعرب تفوق على البربر في جميع الحقوق ، الا ما كان من الولاية

العامة فانها كانت بأيدي العرب لخبرتهم بالشؤون الدولية . ولم تسند للبربر لعراقتهم في الفوضى وحدوث عهدهم بالنظام . ومع ذلك فان العرب قد أقروا بعض رؤساء البربر على رئاستهم .

ولقد ساس العرب البربر سياسة الاخاء والحرية والمساواة حقا . فتركوا لهم أراضيهم ولم يثقلوا كاهلهم بالضرائب . حتى ان مالية ولاية المغرب كانت غير كافية ، وتمدها ولاية مصر بمائة الف دينار كل عام . ولما بويع المنصور العباسي أرسل الى عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان متغلبا على المغرب ، يدعوه الى الطاعة . فلباه عبد الرحمن . وبعث اليه بهدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل . واعتذر له عن ضعف هديته بأن المغرب اليوم بلاد اسلامية لا سبي فيها . ولعلك لم تنس ان ايطاليا كانت تأخذ من المغرب مؤونة ثمانية أشهر . فقابل بين السلطتين : الرومانية والعربية .

وقد أدرك البربر فضل السلطة العربية . فأخذوا يخدمون دولتهم باخلاص . ودخلوا الجندية لاول الفتح على عهد حسان . وكانت لهم اليد الطولى في فتح الاندلس على عهـــد موسى بن نصير . وظلوا مغتبطين بالسياسة العربية الى أن أخذ الجور يبدو من بعض الولاة . فذكروا هواهم الدفين . وشرعوا يعملون لاستقلالهم بوطنهم وطرد النفوذ العربي منه مع المحافظة على ما أخذوه عن العرب من دين ولغة وحضارة .

في سنة (102) كان الوالي على المغرب يزيد بن أبي مسلم . فأراد أن يأخذ من البربر الجزية وهم مسلمون . فبادروا بقتله لشهر من ولايته . ونصبوا مكانه أحد الولاة السابقين . قيل محمد بن يزيد ، وقيل اسماعيل بن عبيد الله . وكتبوا الى الخليفة يزيد بن عبد الملك بالطاعة والعذر . فقبل عذرهم وأقر الامير الذي نصبوه .

وفي سنة (114) ولي على المغرب عبيد الله بن الحبحاب • وتوسع في الفتوحات برا وبحرا • ونصب عماله في الجهات • فكان بعضهم يجور على البربر • فثار أهل المغرب الاقصى على عاملهم بطنجة • وقتلوه من غير أن يشتكوا به الى أميره • فرأى عبيد الله بن الحبحاب ان هذا ثورة على الدولة نفسها • فأرسل اليهم الجنود • وتقاتلوا بأحواز طنجة • ثم تحاجزوا • واجتمع البربر من بعد على رئيسهم خالد بن حميد الزناتي • فأرسل اليه ابن الحبحاب الجنود بقيادة خالد ابن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري • والتقى الجمعان على وادي شلف • فقتل خالد وجماعة من وجوه العرب • وانهزم الجيش العربي • وسميت الوقعة وقعة الاشراف •

بلغ الخبر الخليفة هشام بن عبد الملك • فاستضعف بن الحبحاب وعزله • وأرسل الى المغرب كلثوم بن عياض القشيري • فدخله في سبعين الف مقاتلا • وكان بتلمسان حبيب بن أبي عبيدة أبو خالد المقتول مواقفا للبربر • فلحق به كلثوم • وزحف الجميع لقتال البربر • فكانت الغلبة لهم أيضا • وقتل كلثوم وحبيب • وتفرق جيشهما أيادي سبا •

ولما بلغ خبر هذه الخيبة الى هشام وجه الى المغرب حنظلة بن صفوان الكلبي • فقاتل الثوار وانتصر عليهم • وسكن المغرب أيامه ، لكن سكونا موقتا •

وبينما البربر يعملون لاسترداد استقلالهم اذ بالعرب يختلفون ويتقاتلون فيما بينهم على مرأى ومسمع من البربر • وابتدأ دور هذه الرواية حبيب وكلثوم • فان كلثوم لما نزل القيروان أساء الى أهلها • فشكوه الى حبيب وهو بتلمسان • فكتب اليه حبيب ينهاه ويتوعده • فأصرها في نفسه • وذهب لقتال البربر مارا بتلمسان • فابتدأ بقتال

حبيب • فتقاتلا • ثم اصطلحا واتفقا جميعا على حرب الثوار من البربر • وبعد استشهاد حبيب فر ولده عبد الرحمن الى الاندلس

وفي سنة (126) عاد عبد الرحمن بن حبيب الى المغرب • ونزل بتونس • ودعا أهلها الى طاعته • فلبوه • وبلغ ذلك حنظلة • فتعفف عن اراقة الدماء • وتحرج من تفريق الكلمة • فأرسل طائفة من وجوه الجند الى عبد الرحمن يدعونه الى الطاعة • فأوثقهم في الحديد • وذهب بهم ليفتح القيروان • وأرسل الى أوليائهم يحذرهم قتاله ، ويهددهم بقتل من تحت يده ان هم حاربوه • فأشفقوا على أشرافهم وأمسكوا عن القتال • ولما رأى حنظلة عناد عبد الرحمن وعدم مبالاته بالوحدة العربية ترك له القيروان • وعاد الى المشرق سنة (127) •

ضبط عبد الرحمن المغرب • وقاتل ثوار البربر وانتصر عليهم • وزحف سنة (135) الى جموع من البربر بنواحي تلمسان • فظفر بهم • وغزا صقلية وسردانيا • وكتب الجزية على أهلهما • ولكن انقسام العرب ما زال يفتك بهم • فقد ثار عليه أخوه الياس بن حبيب • وقتله سنة (137) واستولى على المغرب مكانه • ونجا الى تونس ولد لعبد الرحمن اسمه حبيب • فثار على عمه • وقتله سنة (138) • وكان عبد الوارث بن حبيب مظاهرا لاخيه الياس • فلما قتله حبيب طلب عمه عبد الوارث هذا • ففر منه الى ورفجومة من افخاذ نفزاوة احدى بطون لواتة • واستجار بهم • فأجاروه • وذهب حبيب لقتالهم • فهزموه • واحتلوا القيروان • ثم قتلوه سنة (140) •

واستولى على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي • وسار في العرب سيرة العسف والظلم • فافترقوا في النواحي • وشاع خبرهم في الآفاق • وكان بنواحي طرابلس ابو الخطاب عبد الاعلى ابن السمح من وجوه العرب • فقام على وفجومة منكرا لعسفها •

واستصر عليها • وملك القيروان • واصبح المغرب خارجا عن قبضة الخليفة بالمشرق •

وفي سنة (144) وجه المنصور العباسي محمد بن الاشعث الخزاعي واليا على المغرب • فقاتل ابا الخطاب • وقتله • وملك القيروان • ولكن ثورات البربر لم تنقطع • وأشدها ما كانت أيام عمر بن حفص من آل أبي صفرة • فقد ذهب هذا الوالي لادارة سور بطبنة قاعدة الزاب • فحاصره البربر بهـا في جموع لا تحصى • وكـان مـن رؤسائهم أبو قرة اليفرني في أربعين ألفا ، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا ، والمسور بن هانيء الزناتي في عشرة آلاف ، ولم يتخلص عمر بن حفص من هذا الحصار الا بالدهاء • فاستمال بعض الرؤساء بالمال • وأعمل الحيلة في تفريق كلمتهم • فانجلوا عنه • وذهب الى القيروان • فحاصره البربر بها أيضا • وقتل في مدافعتهم •

توصل البربر بثوراتهم المتكررة الى اضعاف السلطة العربية • وأعانهم على ذلك — من غير قصد — آل عقبة بن نافع • واستقل البربر بجهات من المغرب • ولم يبق للعرب منه الا ما يقرب مـن نصـفه •

11 — ولاة المغـرب مـن قبـل الخلفـاء

فتح العرب المغرب ثم الاندلس • فكان ما فتح مـن المغرب كله ولاية واحدة ، والاندلس تابعة لها • وقاعدة المغرب هي القيروان • ينزل بها الولاة من قبل الخلفاء ، ويولون العمال في النواحي ، ينزلون مدنا معتبرة هي القواعد لتلك النواحي •

وكانت طبنة هي قاعدة الزاب من الوطن الجزائري • وهي مدينة قديمة من العصر الروماني • ذكر البكري : ان لها خمسة ابواب •

قال : « وخارج المدينة بازاء باب الفتح سور مضروب علـى فحص فسيح ، يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة • بناه عمر بن حفص • ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب •• وليس من القيروان الى سلجماسة مدينة أكبر منها »[1] وقد ذهب عمرانها من بعد • واصبحت ليس لها من قيمة ولا أهمية غير أهميتها التاريخية • وكان لها في أوائل العصر الاسلامي شأن عظيم • وتدرس بها العلوم شأن المدن الكبرى • وكان منها علماء أجلة •

كان المغرب والاندلس ولاية واحدة الى أن دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاموي الى الاندلس سـنة (138) واستولى عليها • وجدد بها ملك بني أمية • وأورثها عقبة من بعده • وكانت تلك الدولة غـرة في جبين تاريخ العرب • وفي سنة (140) تأسست سجلماسة • وكانت بها دولة بني مدرار • وفي سنة (144) تأسست تيهرت • وكانت بهـا دولة الرستميين • وفي سـنة (172) دخـل ادريس الاكبـر المغـرب الاقصى • وأسس بهـا دولـة الادارسة •

كانت هذه الدول جمعاء مستقلة عن ولاة المغرب وغير مرتبطة بدار الخلافة بالمشرق • فانحصرت ولاية المغرب بعد في الجهات الشرقية للجزائر وفي عمالة تونس وبعض تراب طرابلس • تداول عليها ولاة من طرف الخلفاء • وكانت ولايتهم غير وراثية الى أن تولى ابراهيم ابن الاغلب سنة (184) • فأصبحت ولاية وراثية مستقلة اسـتقلالا داخليـا •

وهاك أسـماء ولاة المغرب مـن لدن بدايـة الغزو الى حـين استقلال بني الاغلب :

---

(1) المغرب ص 51 •

الامـــير	تاريخ الولاية الهجري	الميلادي	الخليفـــة	التعليق
عبد الله بن سعد	27	647	عثـــمان	
معاوية بن حديج	45	665	معـــاوية	1
عقبة بن نافـع	50	669	معـــاوية	2
أبو المهاجر	55	675	معـــاوية	
عقبة ثانيـا	62	681	يزيد بن معـاوية	
زهير بن قيس	67	688	عبد الملـك	
حســـان	68	697	عبد الملـك	3
موسى بن نصير	87	705	الوليد بن عبد الملك	4
محمد بن يزيـد	97	715	سليمان بن عبد الملك	
اســـماعيل	100	718	عمر بن عبد العزيز	
يزيد ابن أبي مسلم	102	720	يزيد بن عبد الملك	
بشر بن صفـوان	103	721	يزيد بن عبد الملك	
عبيدة السـلمي	110	728	هشام بن عبد الملك	5
ابن الحبحاب	114	734	هشام بن عبد الملك	

(1) ذكر الزياني : ان معاوية بن حديج غزا افريقية ثلاث مرات : احداهن سنة 34 وثانيتهن سنة 35 والثالثة ما في الاصل• وحكى صاحب المؤنس ذلك أيضا مع اختلاف بينهما في تاريخ الغزو (2) ذكر الزياني : بين معاوية وعقبة واليين ، رويفع بن ثابت الانصاري ، وليها سنة 47 وفي المؤنس : انه لم يكن واليا وانما كان عاملا لمعاوية بن حديج على طرابلس ومنها غزا افريقية سنة 47 ، وعقبة بن عامر الجهني ، ولي افريقية سنة 49 وذكر ان عقبة بن نافع وليها سنة 51 وقد جاء في ابن خلدون (10:3) ذكر عقبة بن عامر، ثم أعاده (135:3) بلفظ عقبة بن نافع، وحديثه عنهما متحد (3) أخذنا التاريخ الميلادي لهؤلاء الولاة من تاريخ مرسيي• والسنة التي ذكرها لولاية حسان لاتوافق حتى سنة 74 هجرية• وهي التي عاد فيها حسان لحرب الكاهنة لا انه ولي فيها • على ان ما أثبتناه من تواريخ الولايات ليس كله متفقا عليه ، وانما اقتصرنا على بعض الروايات (4) فتح الاندلس • وكان غرضه ان يعود الى المشرق من أروبا ويدخل الشام من ناحيةالقسطنطينية • فلم يأذن له الخليفة لصعوبة ذلك على الجند (5) ذكر مرسيي بينه وبين ابن الحبحاب عقبة بن قدامة سنة 732 وفي المؤنس : ان عبيدة بن عبد الرحمن استخلفه لما قفل الى المشرق • فليس بوال •

الامير	تاريخ الولاية الهجري	الميلادي	الخليفة	التعليق
كلثوم بن عياض	123	741	هشام	
حنظلة بن صفوان	124	742	هشام	
عبد الرحمن بن حبيب	127	744		1
الياس بن حبيب	137	755		
حبيب بن عبد الرحمن	138	756		
عبد الملك بن ابي الجعد	140			
أبو الخطاب	141			
محمد بن الاشعث	144	761	المنصور	
الاغلب بن سالم	148	765	المنصور	2
عمر بن حفص	151	768	المنصور	3
يزيد بن حاتم	155	772	المنصور	
داوود بن يزيد	171	787		
روح بن حاتم	171	788	هرون الرشيد	
النصر بن حبيب	174	791	هرون الرشيد	
الفضل بن روح	177	793	هرون الرشيد	
هرثمة بن اعين	179	795	هرون الرشيد	
محمد بن مقاتل	181	797	هرون الرشيد	
ابراهيم بن الاغلب	184	800	هرون الرشيد	4

(1) هذا الوالي أول متغلب على المغرب وفي أيامه سنة 132 سقط ملك بني أمية بالمشرق ، واجتاز عبد الرحمن منهم بالقيروان ذاهبا الى الاندلس حيث أسس دولةعربية مستقلة. وبقيت ولايةالمغرب بيدالمتغلبين الى أن جاء محمد بن الاشعث فاعادها الى نظر الخليفة الشرقي من بني العباس بن عبدالمطلب (2) كان بطبنة عاملا على الزاب لمحمد بن الاشعث. وهو ابو ابراهيم مؤسس الدولة الاغلبية (3) هو من ولد قبيصة اخي المهلب ابن أبي صفرة . أسرتهم شهيرة بالجود والشجاعة . ولي المغرب منهم ستة أحدهم داوود لم يكن واليا من قبل الخليفة . وانما ولي بعد أبيه الى أن جاء عمه روح (4) بولايته أصبح المغرب مستقلا عن دار الخلافة تحت دويلات لا صلة لها بالخلافة غير دولته فانها تحت الخلافة العباسية اسما فقط .

تم الجزء الاول والحمد لله أولا وآخرا

الباب الثاني

في الدولــة الرســتمية

ا ـ تمهيـــد

كان المسلمون على غاية من الاتحاد واجتماع الكلمة • يتلون من كتاب الله ويروون من أحاديث رسوله ما يقوي ميلهم الى الاتفاق ونفورهم من دواعي الشقاق • فلقد بويع أبو بكر (ض) بالخلافة • ولم يرض بيعته كثير من الصحابة • ولكنهم آثروا اجتماع الكلمة وحافظوا على الجامعة الاسلامية • فلم يعترضوا بيعته بالفعل وسلموا لحكم الجمهور •

وعهد ابو بكر (ض) بالخلافة لعمر (ض) فنفذوا كذلك عهده • ثم بويع عثمان (ض) واتسعت على عهده الفتوحات • ففنيت الطبقة الاولى من المسلمين استشهادا وتشتتا في الاوطان • وخلفتها طبقة من اغمار العرب ومسلمة الفتح • وكان فيهم من تدثر بالاسلام فرارا من ذل الجزية وطلبا للانتقام من أهله بالدسائس وكان من أمر هــذه الطبقة ان تداخل جمهور منها في سياسة هذا الخليفة وأسسوا جمعيات بمصر والكوفة والبصره لبث دعاية ضده • وانتهى الامر الى حصاره ثم قتله رضي الله عنه وغضب عن قتلته •

نتج عن هذا الحادث الجليل خطوب جسام لــم تزل أدواؤها تفتك بالجامعة الاسلامية الى اليوم • فمن هذا الحادث حييت في العرب العصبية القومية وحلت محل العصبية الدينية ، وظهرت مذاهب الخوارج والشيعة ، وانقضى نظام الخلافة وحل محلها نظام الحكومات

الوراثية • وعلى هذا النظام تأسست دولة بني أمية ثم بني العباس وهلم جرا •

تأسست دولة بني أمية وكانت خطتها توسيع نطاق الممالك العربية من جهة والمحافظة على الجامعة الاسلامية من جهة أخرى • فغزت وفتحت وحاربت الثوار السياسيين والدينيين ولم تزل على ذلك حتى قضى عليها بنو العباس •

فتح بنو أمية فيما فتحوا المغرب ووحدوه دينيا وسياسيا • ولكن كان بعيدا عن الشام مركز حكومتهم وأهله البربر ألفوا حياة الانقسام والفوضى منذ قرون • ولم يخف عليهم تطاحن العرب بالمشرق • وبلغهم ما به من مذاهب دينية وأحزاب سياسية • فقاموا على السلطة العربية • وسعوا في تمزيق تلك الوحدة وزادهم اقداما ما كان من تغلب آل عقبة بن نافع على المغرب واستبدادهم به وتواثبهم على امارته • وشغلت عنهم الدولة الاموية • فقضوا على ذلك التوحيد جنينا • وعمت الفوضى وطن البربر من مبتداه الى منتهاه • ولم يبق للعرب به أمر ولا نهي •

ولما تم لبني العباس تأسيس دولتهم بالمشرق التفتوا الى المغرب• فجهزوا له الجيوش • وكانت حروب أسفرت عن استرجاع قسم من المغرب للدولة العباسية واستقلال قسم منه تحت رؤساء متعددين من الخوارج •

2 ــ الخوارج

(ح)

بعد مقتل عثمان (ض) كان الناس فرقا • فرقة وقفت موقف الحياد • وفرقة لم ترض خلافة علي (ض) وأخذت تطالب بدم عثمان ، وفرقة بايعت عليا بعضها يرى أنه أحق بالخلافة • وأكثرها من الثوار على عثمان لم يريدوا من مبايعتهم لعلي الا الاحتماء به من العثمانيين

اذ كانوا يظنون انه يرضى عن صنيعهم ويقرب منزلتهم • ولكنهم تبينوا من بعد انه غير راض عنهم وسمعوا منه مرارا التصريح بلعن قتلة عثمان • فاوجسوا خيفة من اصطلاحه مع العثمانيين فكانوا هم السبب في وقعة الجمل سنة 36 ثم كانوا هم الحاملين لعلي على قبول التحكيم الذي دعا اليه معاوية سنة 37 وبعد امضائه على عهد التحكيم طلب اليه فريق من العرافيين نقض العهد واشهار الحرب فلم يستطع مجاراتهم في هذا التلاعب • فانعزلوا عنه • وأعلنوا بالخروج عن طاعته • وغادروا الكوفة الى النهروان • فارسل اليهم عبد الله ابن العباس ليستصلحهم بالحجة والمفاهمة • ثم لحق هو نفسه • ونتج عن هذه السياسة الحكيمة ان عاد فريق منهم الى الطاعة وأصر آخرون على الخلاف • فأعرض عنهم • حتى بلغه انهم قتلوا صحابيا وزوجه • فارسل اليهم بالكف عن الفساد • فقتلوا الرسول • وهنالك توجه اليهم بجيوشه وخاطبهم خطابا بين لهم فيه صوابه وخطأهم • فلم ينفعهم خطابه • وكانت الحرب • فأتى القتل على أهل النهروان • ولم ينج منهم الا قليل تفرقوا في الجهات •

هؤلاء هم المسمون بالخوارج لخروجهم عن الامام علي • واصل معنى الخوارج الطوائف الخارجة عن طاعة امامها • وخصه المتكلمون والمؤرخون بالخارجين عن علي ومن والاهم ورضي سيرتهم • فصار علما لاصحاب فكرة خاصة • وليس مرادا به مدح او قدح اذ لا يعقل ذم طائفة ـ ايا كانت ـ لعملها بمبدأ استصوبته • وانما ينظر في مبدأها وما فيه من مقبول أو مردود •

كان شعار الخوارج في الثورة على علي « لا حكم الا لله » وهو شعار لا خلاف في مدلوله الحقيقي بين المسلمين • وأصله قوله تعالى « ان الحكم الا لله » • وانما انفرد الخوارج بهذا الشعار لكونهم

انه حكم الرجال بدين الله • وعلي أجل من ان تعلق بـه هـذه الوصمة • وهم يلقبون أنفسهم الشراة جمع شار بمعنى بائع • يريدون انهم باعوا أنفسهم في سبيل الله أخذاً من قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » •

لم تمت فكرة الخوارج بالنهروان شأن الافكار لا تبلى ببلاء الاجسام ولا يقضي عليها سنان ولا حسام • بل ظهرت من بعد • وكانت لاهلها مع خصومهم حروب شهيرة ومعارك مذكورة مع الامويين والعباسيين •

وكان الخوارج على رأي واحد لا يختلفون الا في اليسير من الفروع حتى جاء أحد موالي بني هاشم الى نافع بن الازرق فقال له : ان من خالفنا مشركون وأطفالهم في النار وقتلهم جائز ، بدليل قوله تعالى : « ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » فأخذ نافع بقوله • وجعل يبدي آراء في تكفير المسلمين مشطة • فانكر عليه نجدة بن عامر في طائفة معه • وكانوا بالاهواز • فارتحل نجدة باتباعه الى اليمامة • ووقعت بينه وبين نافع مراسلات ومناظرات لم تزد عود الخلاف الا صلابة • وكان بالبصرة أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي وعبد الله ابن اباض (بفتح الهمزة وكسرها) المري في جمع من الخوارج • فكاتبهم نافع يدعوهم الى قتال المخالفين • فقال هيصم لابن اباض : « ان نافعا غلا فكفر » • وانك قصرت فكفرت اذ زعمت ان من خالفنا غير مشرك وانما هم كفار النعم • وان مناكحهم ومواريثهم والاقامة فيهم حل طلق • قال المبرد في كامله : « والصفرية والنجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن اباض » •

ومن تلك المقالات افترق الخوارج الى مذاهب اشهرها : الازارقة أصحاب نافع بن الازرق • يقولون بالبراءة والاستعراض

وقتل الاطفال واستحلال الامانة . والنجدية أصحاب نجدة بن عامر المنكر على نافع تلك الآراء . والصفرية قال المبرد : « قال قوم سموا صفرية لانهم أصحاب ابن صفار . وقال قوم انما سموا بصفرة علنهم » . والاباضية أصحاب عبد الله بن اباض . قال ابن خلدون : « والصفرية موافقون للاباضية الا في القعدة فان الاباضية أشد على القعدة منهم » وهم وان اختلفوا في معاملة من خالفهم ــ متفقون على ان أعداءهم كاعداء رسول الله (ص) ! قال المبرد : وقول ابن اباض أقرب الاقاويل الى السنة من أقاويل الضلال ، يريد الخوارج .

هذا ما أردنا أن نقتصر عليه من حديث الخوارج الطويل العريض . وغرضنا أن يتصور القارىء بوجه اجمالي نشأتهم وقوتهم وأصولا من آرائهم . وقد شهد الكتاب للاباضية بانهم أعدل الخوارج .

3 ــ الخوارج بالمغرب

في خلافة هشام بن عبد الملك وولاية عبيد الله بن الحبحاب ظهرت أول فتنة بالمغرب . فاجتمعت جموعهم برئاسة ميسرة المطغري . وقصدوا طنجة ففتحوها وقتلوا عاملها . وذلك سنة 122 وبايعوا ميسرة بالخلافة . ثم قتل البربر خليفتهم ميسرة . وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي . وتوالت عدة وقائع بين الخوارج وولاة القيروان . انتصر في جميعها البربر . فازدادوا على الولاة جراءة . وازدادت الخارجية انتشارا .

ظهرت الخارجية أولا حوالي طنجة البعيدة عن القيروان في حال غيبة الجيش العربي بصقلية تحت رئاسة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع . وأخذت تنتشر في القبائل حتى بلغت طرابلس . وأصبح

المغرب أجمع بيد أهله البربر الذين لم يتمرنوا بعد على النظام • فاضطربت الاحوال •

عرف البربر من مذاهب الخارجية الصفرية والاباضية • وكانت الاولى منتشرة في الجهات الغربية والثانية غالبة على النواحي الشرقية • وكان أظهر القبائل في الاخذ بالخارجية والدفاع عنها زناته وهواره في قبائل دونها كثرة وغناء • وكان موطن الخارجية الصحراء والهضاب • وابتعدت كلما شرقت عن السواحل الجزائرية • فلم تدخل موطن كتامة ودخلت أطراف صنهاجة ولم تطل فيهم •

ولما تغلب آل عقبة على المغرب ووليه منهم حبيب بن عبد الرحمن ابن حبيب بن أبي عبيدة ازداد حبل الامن بالمغرب اضطرابا • فان عبد الوارث بن حبيب ثار على ابن أخيه ولحق بورفجومة • ونزل على أميرهم عاصم بن جميل بأوراس • وكان كاهنا • فأجاره واجتمعت اليه نفزاوة • وكان من رجالاتهم عبد الملك بن أبي الجعد ويزيد بن سكوم وكانوا على رأي الاباضية • وخرج حبيب من القيروان لقتالهم • فهزموه الى قابس • واستولوا على القيروان واستهانوا مساجدها • ثم أخرجوا حبيبا عن قابس فلحق باوراس • وأجاره أهله • وجاء عاصم لقتالهم • فهزموه • ثم قام بأمر ورفجومة والقيروان من بعد عاصم عبد الملك بن أبي الجعد • فقاتل حبيبا حتى قتله • واستولى على القيروان سنة 140 وقتل من بها من العرب وربط الدواب بالمسجد •

وكان ابو الخطاب بن السمح الاباضي بطرابلس بين بربرها من هوارة وزناتة • فبلغته مناكر ورفجومة • فقام منكرا عليها • وقصد القيروان بجموعه • فقاتل ورفجومة ونفزاوة • وقتل عبد الملك • ثم بلغه ان المنصور العباسي جهز جيشا لحرب خوارج المغرب • فعاد الى طرابلس لقطع مدد الخليفة عن افريقية • وترك بالقيروان عبد

الرحمن ابن رستم • ولكن لم تزل افريقية في اضطراب حتى قدم محمد ابن الاشعث الخزاعي سنة 144 •

ثم انتقضت مغيلة ويفرن بنواحي تلمسان • وقدموا على أنفسهم أباقرة اليفريني وقيل المغيلي • وبايعوه بالخلافة سنة 148 وزحف اليه عامل طبنة الاغلب بن سالم • ففر امامه ، ثم زحف الخوارج اباضية وصفرية لحصار عمر بن حفص الملقب هزارمرد بطبنة • وفيهم ابو قرة في أربعين الفا من الصفرية • وعبد الرحمن بن رستم قال ابن خلدون في موضع : في خمسة عشر الفا ، وفي آخر ستة آلاف • والمسمور بن هانيء الزناتي في عشرة آلاف من الاباضية • وجرير بن مسعود المديوني في جمع من قومه • وعبد الملك الصنهاجي في الفين من الصفرية • ولم يكن لعمر قبل بهذه الجموع • فبذل لاصحاب أبي قرة مالا فانصرفوا • واضطر ابو قرة للحاق بهم • ونجا عمر بدهائه من هذا الحصار •

وفي أيام عمر بطبنة وغيبته عن القيروان قدم ابو حاتم يعقوب بن حبيب المغيلي لحصار القيروان • وقد بايعته اباضية طرابلس بالخلافة فخرج عمر من حصار الى حصار • وأنجده المنصور بيزيد بن حاتم المهلبي • ولكن قتل قبل وصول يزيد آخر سنة 154 • وتوجه ابو حاتم للقاء يزيد بطرابلس • فقتل هنالك يوم 27 ربيع الاول سنة 155 (7 مارس 772 م) •

وفي سنة 57 ثارت ورفجومة • فحاربها يزيد بن حاتم • وانتصر عليها • ثم في سنة 161 ثارث نفزاوة وهي اباضية • وأميرها صالح ابن نصير • فسرح اليهم داود بن يزيد عشرة آلاف من جنده • فهزموهم •

هذا وحروب الخوارج بالمغرب كثيرة • وذكروا انها بلغت منذ حصار طبنة خمسا وسبعين وثلاثمائة حرب • وذلك يوضح قوة

الخارجية بالمغرب وسعة انتشارها وعدم استسلامها وصعوبة قيادها •

وليس منشأ تلك الحروب اختلاف العقيدة بل منشؤها ما كان عليه البربر من خلق الفوضى وكراهية السلطة المحلية كيفما كان عدلها فليست حروبهم دينية بل ولا سياسية • اما كونها غير سياسية فان البربر لم ينظموا صفوفهم ويوحدوا جهودهم ضد السلطة العربية ليكونوا دولة بربرية • فهم يحاربون العرب من جهة ويحارب بعضهم بعضا من جهة أخرى • وغايتهم الرجوع لما ألفوه من الفوضى •

واما كونها غير دينية فذلك ان التاريخ الاسلامي لم يحو بين دفتيه ان المسلمين رفعوا سيوفهم لالزام مخالفيهم بعقيدتهم اذ العقيدة سبيلها البرهان • وايضا فقد كانت الدولة الاباضية بتيهرت تجمع طوائف مختلفي العقيدة من صفرية وسنية ومعتزلة • ولم تجبرهم الحكومة على عقيدتها • وايضا الخارجية الممتدة في المغرب بكل سرعة لا يعقل ان البربر تمسكوا بها في تلك الحصة من الزمان عن فهم لمبادئها وادراك لاصولها وايمان بصحتها وفساد غيرها • وانما الذي فهموه منها وعقلوه عنها هو الثورة على السلطة المحلية لا لكونها عربية او غير عربية • هذا الذي أدركوه سريعا وهو ما كانوا عليه قديما • فقد نصروا قبل مذهب دونتوس المسيحي لكونه ثائرا على حكومة الرومان • يوضح لك كون البربر لم يكونوا خوارج عن علم كخوارج العرب ما أتته ورفجومة من العبث بمسجد القيروان وسكانها حتى غير منكرهم ابو الخطاب الخارجي العربي • وذكر اليعقوبي في كتاب البلدان برقة وأهلها الذين منهم مزاته • فقال : « ومزاتة كلها أباضية على انهم لا يفقهون ولا لهم دين » هذا في القرن الثالث عصر اليعقوبي • ولكون الخارجية البربرية عبارة عن ثورة فوضوية فارق أكثر البربر الخارجية في كل جهة استتب بها النظام وثبتت بها قدم دولة غير خارجية • فقد انقطعت الخارجية أو كادت

من المملكة الاغلبية شرقا والادريسية غربا • وبقيت بالمملكة الرستمية الاباضية حتى قضى عليها الشيعة • نعم بقيت الخارجية في الجهات الجنوبية كورقلة ومزاب متحصنة بعطش الصحراء وسمائها بعيدة عن نفوذ أغلب الدول الشمالية فحافظت على عقائدها وعوائدها غير متأثرة بالانقلابات السياسية •

4 — الامـارات الاباضيـة

خمدت الصفرية بالجزائر ، فلم يكن لها شأن يذكر بعد حصار طبنة • وبقيت الاباضية في أفخاذ وبطون من قبائل لماية ولواتة وزجالة ونفزاوة وهوارة ومزاتة وزواغة ومطماطة ومكناسة ويفرن ومغراوة وبني سنجاس وبني برزال وبني دمر •

ولم يتحد الاباضيون من هذه القبائل تحت امرة واحدة • بل كان منهم الخاضعون للاغالبة أو للادارسة واخوانهم بني سليمان ، ومنهم المستقلون تحت امارات متعددة • واشتهر من اماراتهم امارة بني رستم بتاهرت • وافادنا اليعقوبي من أهل القرن الثالث بثلاث امارات سواها وهي :

1 — امارة بني دمـر

هم قوم من زناتة في بلاد واسعة ذات زرع ومواش • موقعها على مرحلة غربي هاز • ويليها في الشمال الغربي سوق كرام • قال اليعقوبي في كتاب البلدان : « ورئيسهم يقال له مصادف بن جرتيل • بين حصنه وبلد متيجة مسير ثلاثة أيام مما يلي البحر » •

وذكر البكري في الطريق من تاهرت الى المسيلة حصن تامغيلت• فقال : « هو على مرحلتين من تاهرت • مبني بالطوب على نهر • له ربض وسوق • يسكنه بنو دمر منزناتة • الى ايزمامة ، حصن له سوق • وفيه فنادق تسكنه لواتة ونفزاوة • الى مدينة هاز » •

وسوق كرام منهم من يحذف ميمها أو يبدلها نونا • قال البكري : « وهي على نهر شلف » وموقعها على مرحلة شرقي مليانة • ومنها الى اشير ثلاث مراحل •• ولها سوق يوم الجمعة يقصده بشر كثير •

قال اليعقوبي : « وليس أهله بشراة • ولكنهم جماعية •• بلدهم بلد زرع » • أهو يظهر ان هذه الامارة بنواحي قصر البخاري •

2 — امارة هوارة

قال اليعقوبي : « ومن تيهرت وما يحوزه عمل ابن افلح الرستمي الى مملكة رجل من هوارة • يقال له ابن مسالة الاباضي الا أنه مخالف لابن افلح يحاربه • ومدينته التي يسكنها يقال لها الجبل • الى مدينة يلل ، تقرب من البحر المالح ، مسيرة نصف يوم • ولها مزارع وقرى وعمارات وزرع وأشجار • ثم من مملكة ابن مسالة الى مملكة ابني محمد بن سليمان » •

وذكر البكري قلعة هوارة فقال : « وبغربي مستغانم على نحو ثلاثة أميال مدينة تامزغران • وهي مسورة لها مسجد جامع • وعلى مقربة منها قلعة هوارة • ويسمونها تاسقدالت • وهي في جبل • لها ثمار ومزارع • وتحت هذه القلعة يجري نهر سيرات • وهو النهر الذي يسقي به فحص سيرات » •

وفحص سيرات هو سهل سيق • ولا يصح ان تكون هذه القلعة هي مدينة الجبل لانها غربي يلل • ومدينة الجبل شرقيها • فتكون قريبة من غليزان • نعم تكون قلعة هوارة من جملة هذه الامارة •

والظاهر ان الجبل هي قلعة مغيلة دلول • فان البكري لما ذكر الغزة — وهي غليزان — قال · « وبقربها على البحر قلعة مغيلة

دلول • وهي في أعلى جبل منيف هناك شديدة الحصانة • بينها وبين البحر خمسة فراسخ • وبها عين ماء تسمى عين كردي • وبين قلعة دلول هذه ومدينة مستغانم مسيرة يومين » •

ومن هذا يظهر ان هذه الامارة واقعة جنوب اسافل شلف حوالي نهر مينة بين سهلي منداس شرقا وسيق غربا •

3 — امارة بني مســرة

مدينتها تدعى أوزكي على ثلاث مراحل من تيهرت في الجنوب الغربي • ومنها الى سجلماسة نحو سبع مراحل • قال اليعقوبي : « والغالب عليها فخذ من زناتة يقال لهم بنو مسرة • رئيسهم عبد الرحمن بن أودموت بن سنان • وصار البلد بعده لولده • فانتقل ابن له يقال له زيد الى موضع يقال له ثاربينة • فولده به » •

والظاهر ان هذه الامارة كانت ناحية سعيدة • هذا ما علمنا من حديث الامارات الاباضية وغالب الظن ان هناك امارات أخرى جهلناها• فان البربر يومئذ انما يألفون سيادة العشيرة • ويأنفون من الخضوع لرئيس من قبيلة أخرى • ولم تقم بالمغرب الاوسط دولة قوية تحملهم على الانضواء تحت لواء حكومة مركزية • نعم كانت الدولة الرستمية تحاول ذلك ولكن لم تستطع تحقيق هذا الحلم •

5 — تأسيس الدولة الرستمية

استولى ابو الخطاب على القيروان • فعزم ابو جعفر المنصور على افتكاكها منه • فولى محمد بن الاشعث مصر والمغرب وأمره بحرب البربر • فجهز ابن الاشعث جيشا بقيادة ابي الاحوص عمرو ابن الاحوص العجلي • وبلغ أبا الخطاب • قدوم ابي الاحــوص الى افريقية • فترك بالقيروان عبد الرحمن بن رستم واليا وذهب هو

الى طرابلس كي يعترض جيش ابي الاحوص وذلك سنة 41 ولما نشبت الحرب انهزم ابو الاحوص سنة 42 فخرج ابن الاشعث نفسه من مصر يقود الجيوش • وبلــغ خبره ابا الخطاب • فارسل الى ابن رستم بتجهيز الجيوش • واللحاق به • ولكن ابن الاشعث بلغ طرابلس قبل مدد عبد الرحمن • فدارت الحرب واشتد القتال وانجلى عن قتل ابي الخطاب في صفر سنة 44 •

ولما كان عبد الرحمن بقابس بلغته وفاة ابي الخطاب • ففت ذلك في عضد جيشه • وتفرق عنه • وثارت قابس بعاملها ، فكر عبـــد الرحمن الى القيروان في فالفاها ثائرة عليه أيضا ، فاحتمل أهله وولده وتوجه الى المغرب الاوسط ، ونزل على لماية من قبائله ، وكانت قبائل غيرها أباضية أيضا ، ولكنه اطمأن الى لماية لقديم حلف بينه وبينهم ، فان النزعة المذهبية وحدها لا تكفي ، وقد شاهد قبــل عدم ثبات الاباضيين معــه •

نزل عبد الرحمن جبل سوفجج • ولا نعرف جبلا بهذا الاسم • ولكن لا بد ان يكون بنواحي تيهرت حيث لماية ، وذاع خبر نزوله بهذا الجبل فقصده ابن الاشعث في جيش عظيم ، ونزل بسفحه وخندق على معسكره ، وحاصر الجبل زمنا فامتنع عليــه ، ولما طال مقامه استشار اركان حربه ، فبعضهم اشار بالمقام حتى يفتح الجبل وبعضهم اشار بالاقلاع والعود الى القيروان ، فاقلع عن الحصار لما رأى من مناعة الجبل واختلاف كلمة أصحابه •

وبقي عبد الرحمن في الجبل وقصده الاباضية هناك من كــل مكان حتى جبل نفوسة بطرابلس ، ولما كثر جمعه خرج من حصــن الجبال الى حصن الرجال ، وفكر هو واصحابه في تأسيس مدينــة تكون رمزا لاستقلالهم وحصنا يمتنعون به على من ناواهم ، فأنشأوا

مدينة تيهرت سنة 144 وبذلك تأسست الدولة الرستمية وحافظت على استقلالها زمنا طويلا ، ولـم يكن اباضيتها كغالب الخوارج همهم الثورة بل كانوا كخوارج العرب همهم تنظيم دولة على مباديهم •

ومن ههنا يظهر ان تأسيس الدولة الرستمية بعد جواز عبد الرحمن ابن معاوية الى الاندلس ، وقال المقري في نفح الطيب عن ابن عبد الحكم ان عبد الرحمن الداخل لما فر من بني العباس ودخل المغرب الاوسط استجار بني رستم ملوك تيهرت وتقلب في قبائل البربر حتى استقر بساحل البحر عند قوم من زناتة ، وهي رواية مشكلة لان عبد الرحمن دخل الاندلس سنة 38 قبل تأسيس تيهرت بست سنوات ، الا أن يكون لعبد الرحمن بن رستم نفوذ ديني في بعض قبائل المغرب الاوسط ، فقد ذكر ابن خلدون وغيره ان حلفه مع لماية قديم ، فاستجار به عبد الرحمن الداخل لذلك ، وعلى ان يكون ابن‌عبدالحكيم تجوز في قوله ملوك تاهرت يريد الذين صاروا ملوكها من بعد • ويرشح صحة رواية ابن عبد الحكم على ذلك التجوز انه كان بين رستمي تيهرت واموي الاندلس علاقات حسنة •

هكذا تأسست دولة الرستميين اسلامية في قضائها عربية في معارفها بربرية في عصبيتها فارسية في ادارتها • وما جمع بين هـذه الاجناس غير الرابطة الدينية • فلتحي الرابطة الاسلامية !

6 ـ المملكـة الرسـتمية

المملكة الرستمية واقعة بين مملكة الاغالبة شـرقا والادارسة غربا ، وتمتد شمالها ممالك صغيرة للعلويين من اخوان الادارسة ، وينفسح لها المجال جنوبا الى ورقلة ، ويمتد منها شريط على وادي ريغ الى الجريد وجبال دمر الى طرابلس وجبال نفوسة •

وقد عنيت بالبحث عن تعيين حدود هذه المملكة بالجزائر فلم أظفر برواية شافية ، وقد ذكر ابن الصغير في كتابــه اخبار الايمة الرستميين ان عبد الوهاب ثاني ايمتهم « دان له ما لم يدن لغيره حتى انه حاصر مدينة طرابلس وملك المغرب بأسره الى مدينة يقال لهــا تلمسان ، وأجمعت عليه كلمة الناس الى آن حدثت الفرقة بتداخل العامة في شؤون الملك وطلبها عزل قاضي تيهرت وصاحب بيت المال وصاحب الشرطة ، فلم يجبها عبد الوهاب ، وحدثت الفتنة » •

وهذه الرواية على اجمالها تفيد ان امتداد المملكة الى ناحيــة تلمسان انما كان أيام عظمة عبد الوهاب قبل حدوث الفتنة ، ونقــل الباروني عن أبي عبد الله البنا الذي ألف كتابه سنة 375 نسبة مدن كثيرة الى تيهرت ، وبنى على هذه الرواية قوله : « كل المدن والقرى الواقعة بين الزاب وفاس وسجلماسة داخلة في مملكة تيهرت » •

وهذا بناء على غير اساس ، أما أولا فان البنا لم يذكر أن تلك المدن تبعت تيهرت ايام الرستميين ، وقد ذكر منها وهران التي أسست سنة 290 وأفكان التي أسست سنة 338 واما ثانيا فان اضافة تلك المدن الى تيهرت انما هي لكونها اشهر مدن الاقليم يومئذ فهي اضافة جغرافية لا سياسية ، وقد ذكر من الامصار برقة واضاف اليها مدنا لشهرتها بذلك الاقليم ليس الا ، واما ثالثا فان أكثر تلك المدن كان تابعا للعلويين أو الاغالبة كما يأتي في البابين الثالث والرابع ، وتقدم ذكر ما كان منها تابعا للامارات الاباضية غير الرستمية ، ولكن يظهر أن من تلك الامارات ما انفصل عن تيهرت بعــد الثورة على عبد الوهــاب •

ويمكننا ان نحد الجزائر الرستمية بعد انفصال تلك الامارات عنها بتلول منداس شمالا الى قرب غليزان • ويذهب الخط جنوبا من هناك

الى فرندة وينعطف شرقي جبل العمور لان أهله يومئذ بنو راشد وهم غير اباضية وأولو قوة • ومن هنالك يذهب الى وطن ميزاب الى ورقلة • هذا في الجهة الغربية • ومن الجهة الشرقية يذهب الخط الى تيسمسيل والسرسو ويتصاعد الى ثنية الاحد • ويذهب مشرقا الى قصر البخاري وأعالي وادي شلف • ويذهب جنوبا شرقي الاغواط الى تقرت ووادي ريـغ • ويظهر ان هوارة أوراس خارج هـذا الخط كانت خاضعة لتيهرت للعصبية المذهبية •

هذا ما هدانا اليه البحث وطول التروي واجالة النظر في طبائع السكان ومذاهبهم وقوتهم يومئذ • ولا يعرف ما في ذلك من عنـاء الامن خاض أمثال هذه المواضيع • وخانته الرواية • وحمله دينه على الامانة • وكلفته عنايته بالقارىء الايضاح •

وبعد فاننا نجهل مبلغ النفـوذ السياسي للرستميين في هـذه المملكة • ويظهر من حديث ابن الصغير عن أسباب حدوث الخلاف على عبد الوهاب ووقوع تلـك الفتنة ان نفوذهم ذلك لا يعـدو تيهرت • وهاك ملخص كلامه • قال :

« كانت قبائل مزاتة وصدراته وغيرهم ينتجعون في فصل الربيع احواز تيهرت • فيدخل رؤساؤهم المدينة وينزلون على اخوانهم بها • فيبرون ويكرمون • ثم يخرجون الى نعمهم فيقيمون معها الى ظعنهم •

وفي سنة الفرقة اجتمع من المنتجعين عدد كثير لم يجتمع قبل • فلما دخلوا المدينة وخلا وجوه كل قبيلة من سكانها باخوانهم النازلين عليهم شكوا اليهم جور القاضي وخيانة صاحب بيت المال وفسـق صاحب الشرطة • وطلبوا منهم ابلاغ ذلك الى الامام عبد الوهاب • ففعلوا • وسألوه عزلهم وتولية من هو خير منهم • فأبى ذلك حاشية الامام • وكانت الفتنة » •

وهذا يشعر بأن أولئك المنتجعين ليس عليهم من قبل الامام قاض ولا وال • والا كانوا يسألون عزل ولاتهم قبل أن يسألوا ذلك لاخوانهم أهل تيهرت • على أن نفوذ الرستميين بتاهرت كانوا مزاحمين فيه • فقد يخرجون منها ويتغلب عليها مزاحموهم •

7 ـ الحكومة الرستمية

الدولة الرستمية مستقلة استقلالا تاما • وحكومتها كسائر الحكومات الاسلامية مقيدة بالكتاب والسنة وأثر السلف • فهي دستورية انما دستورها الهي تقبله العقول وتذعن له القلوب • فهي في غنى عن مجلس تشريعي • انما حاجتها لرجال الدين • والسلطة التنفيذية للرئيس وأعوانه • والقضائية مستقلة تماما •

والرئيس الاعلى يعين بالانتخاب لمدة حياته أو بالعهد اليه من سابقه • ويلقب الامام والخليفة وأمير المؤمنين • و لايدعى هذه الالقاب من رؤساء الدول الصغرى غير الخوارج • وللامام مستشارون كالوزراء في الدول الكبرى وحفظة لبيت المال ومحتسبون ورجال شرطة •

وظيفة المحتسبين الرفق بالحيوان وقمع الغش والمحافظة على النظافة • فيؤدبون الغاش ويخففون حمل الدواب ويأمرون بازالة القاذورات • والشرطيون يطوفون بدروب المدينة وانهجها لحفظ الامن وتغيير المنكر • ولما اضعفت الفتن الدولة كثر الفجار وشربة الخمور • فلما كانت امامة ابي حاتم ولى الشرطة رجلين اشتدا في تغيير المنكر • فكسرت خوابي الخمر وشردت الغلمان واخدانهم في الجبال •

وكان للقاضي دار وسجل وخاتم • وولي القضاء على عهد أفلح محكم الهواري من أهل أوراس • فتنازع ابو العباس أخو أفلح

وصهر له على أرض • وترافعا الى أفلح فردهما الى القاضي • فسبق أبو العباس • وجلس حذاء القاضي واستسقى جاريته • وبصر الخصم بمنزلة أبي العباس • فجلس خارج الباب • فلما رآه القاضي سأله عن موقفه • فأخبره الخبر • فغضب من هذا التحيل • ووبخ أبا العباس • واستدنى الخصم وسقاه ماء اظهارا للمساواة • وهذا اصل القضاء الاسلامي اذ يوجب التسوية بين الخصوم •

ولنفوسه المنزلة السامية • فهم الذين يعينون الائمة فمن دونهم • ويشاركهم زعماء القبائل في النظر في الامور العامة • يجمعهم الامام بالمسجد اثر الصلاة •

وللحكومة جند من العرب والعجم • وجل الاعتماد على القبائل الموالية لها • وكان للماية وحدهم ثلاثون الف فارس • والمالية تجمع من الزكوات والجزية وخراج الارضين • قال ابن الصغير متحدثا عن الجباة ومصارف مال الجباية :

« يخرج أهل الصدقات أوان الطعام • ويأتون أهل النعم • فيقبضون الواجب لا يظلمون ولا يظلمون • فالطعام يدفع للفقراء • والشاة والبعير تباع • ويدفع منها عطاء العمال • وما بقي يوزع على الفقراء • فيحصون من في البلد منهم ومن حولها • ويحصى ما في الاهراء من الطعام • ويشترى من باقي مال الصدقة اكسية صوف وجباب وفراء وزيت • ويدفع لاهل كل بيت بقدر ذلك • ويؤثر بأكثر ذلك الاباضيون • وما اجتمع من الجزية والخراج وما أشبه ذلك يقطع منه الامام لنفسه وحشمه وقضاته وأهل شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم • وما فضل صرف في مصالح المسلمين » •

وهكذا ترى أن مالية الدولة على ضيق مواردها يرد أكثرها على فقراء الامة لبساطة النظام وانحصار المملكة في تيهرت وما حولها •

وكان بنو رستم يرومون التوسع شرقا ليرتبطوا ببني جنسهم وأهل مذهبهم • ولكن امامهم دولة بني العباس القـوية التي تود سحقهم لولا ان وجودهم لازم لحفظ الموازنة بين دول المغرب • فبنو امية والادارسة يرونهم حاجزا بينهم وبين الاغالبة • والاغالبة عرفوا صعوبة مراس البربر • فضنوا بسلطانهم عن ان يضيعوه في حربهم ارضاء لبني العباس • وبنو العباس ليس لهم بد من ابقائهم سدا في وجوه تلك الدول •

وعلاقة الرستميين مع دولة مكناسة بسجلماسة حسـنة لرابطة الخارجية وتقارب الاباضية والصفرية • وعلاقتهم كذلك مع بني أمية امراء الاندلس • قال البلاذري في كتابه فتوح البلدان :

« وكان محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب احدث سنة 239 مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية • فأخربها أفلح بن عبد الوهاب الاباضي • وكتب الى الاموي صاحب الاندلس يعلمه ذلك تقربا اليه به • فبعث اليه الاموي مائة ألف درهم » •

وعلاقتهم مع أمراء القيروان تختلف سلما وحربا • ولم نعلم لهم حربا مع الاغالبة بالجزائر • وقبلهم عقدوا سلما مع روح بن حاتم • قال ابن الخطيب في كتاب الاعلام : « وملىء البربر من روح رعبا • ورغب الاباضيون منهم في موادعته » • وفي ابن خلدون ان موادعة روح كانت لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم سنة 171 ذكر ذلك في موضعين وحرفهما النساخ بما يجعل بينهما اختلافا •

واشتبك الرستميون بالبربر بعدة مصاهرات • فكانت أم عبد الوهاب يفرنية وزوجه لواتية • وهذه سياسة رشيدة • خالفها أفلح ابن عبد الوهاب • فانه خشي من قوة القبائل المجاورة لتيهرت • فعمد الى سياسة التفريـق • وبث الجواسيس والمفسدين بـين الرئيس

ومرؤوسه والقبيلة وحليفتها • فاختلفت الآراء • وانحلت الروابط • وانطوت الصدور على الضغائن • واستحكمت النفرة بين القبائل • وظن أفلح أنه أفلح في سياسته • ولكنه ترك لمن بعده تراثا سيئا • فان سيادة تبنى على الدسائس لا بد ان ينهار صرحها لاول ضعف يبدو في الدولة • وهذا ما وقع بعد أفلح • فقد كانت أيامه خاتمة شباب الدولة وسياسته علة ضعفها •

8 ـ الايمة الرستميون

مبدأ الخوارج ان الامامة لا تنحصر في أسرة معينة • ولكن امامة تيهرت انحصرت في بني رستم • ولعل سبب ذلك المنافسة البربرية والسياسة الرستمية • فان منافسة البربر بعضهم لبعض أشد من منافستهم لاجنبي عنهم • فلو انتقلت الامامة الى قبيلة منهم لرامت الاستئثار بها ونازعتها بقية القبائل • والرستميون كانوا يقربون اليهم النقوسيين الاجانب مثلهم من المملكة ثقة بعدم مزاحمتهم لهم لفقد عصبيتهم •

ـ عبد الرحمن بن رستم 144ـ68 هـ 761ـ84 م

لا خلاف انه فارسي • ونسب البكري رستما الى بهرام بن ذو شرار بن سابور بن بابكان بن سابور ذي الاكتاف الملك الفارسي • فيكون عبد الرحمن من سلالة الملك • وجعله ابن خلدون من ولد رستم امير الفرس يوم القادسية • وهو ليس من بيت الملك بل هو أرمني •

بويع عبد الرحمن أولا بالامارة ثم بالامامة سنة 60 بعد وفاة امامهم أبي حاتم ، وقدموه لانه لا قبيلة له تحميه اذا جار • وكان عالما زاهدا متواضعا • يجلس في المسجد للارملة والضعيف • قال ابن

الصغير : « وسيرته واحدة وقضاته مختارة وبيوت أموالـه ممتلئة واصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب » .

— عبد الوهاب 168ــ88 هـ 784ــ803 م

بويع بعد وفاة أبيه . وكان مرشحا للامامة في حياته . واختلفت عليه الكلمة ، فاسكت الخصوم بالحرب والسياسة . قال ابن الصغير : « وكان عبد الوهاب ملكا ضخما وسلطانا قاهرا . اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع لاباضي قبله . ودان له منهم ما لم يدن لغيره . واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لاحد قبله » .

— افلح بن عبد الوهاب 188ــ238 هـ 803ــ52 م

كان مرشحا للامامة حياة والده . فبويع بها بعد وفاته . وكان داهية استطاع ان يحافظ على هنـاء تيهرت مدة امامته . قال ابن الصغير : « وعمر في امارته ما لم يعمره أحد ممن كان قبله . أقام خمسين عاما أميرا حتى نشـأ لـه البنون وبنو البنـين وشـمخ في ملكه » .

ولم يذكر ابن الصغير سنة وفاته . وتقدم عن البلاذري أنـه أخرب العباسية سنة 39 ولكن ابن خلدون يقول أنه أخربها سنة 27 فيحتمل أن أفلح توفي لتمام خمسين سنة مـن أمارته وانـه عاش بعدها قليلا .

— ابو بكـر بن أفلح

بايعته نفوسة ولم يرضه بعض أهل المدينة . وكان ميالا الى الراحة مولعا بالادب تاركا الامر لاخيه أبي اليقظان وصهره محمد بن عرفة وهو رجل من وجهاء المدينة . فنفس عليه حاشية الامام تلك المنزلة . وسعوا في اغتياله . فقتله غيلة . وفتحت عليه فتنة أخرجته

من تيهرت • واستولى عليها محمد بن مسالمة الهواريبي ، قال الباروني : « والظاهر أن مدته لم تبلغ سنتين » •

— أبو اليقظان محمد بن أفلح 241ـ81 هـ 855ـ94 م

حج أيام والده ، وتقبض عليه العباسيون ، فسجنه الواثق مع أخيه المتوكل ، فلما توفي الواثق وخرج المتوكل من السجن الى قصر الخلافة سرح أبا اليقظان وأحسن اليه ، فعاد الى تيهرت ، وقد اكتسب خبرة بشؤون الملك • فلما اخرج ابو بكر من المدينة خرج هو أيضا ، ونزل بحصن لواتة ، وهنالك بويع حوالي سنة 41 وزحف الى تيهرت ، فامتنعت عليه سبع سنين • ثم دخلها • وعفا عن الثوار • واحيا رسوم الدولة ، وكان يباشر التدريس بنفسه وتوفي باتفاق سنة 281 •

قال ابن الصغير : « عاش ابو اليقظان مائة سنة او نحوها • وبقي في امارته نحوا من اربعين سنة • أدركته وحضرت مجلسه • وكان مربوع القامة ابيض الرأس واللحية (لانه أدركه شيخا) زاهدا ورعا ناسكا • افتتنت به نفوسة الجبل حتى انها أقامته في دينها وتحليلها وتحريمها مثل ما أقامت النصارى عيسى بن مريم » • وهذا ان كان فانما هو من بسطاء العامة التي لا تعرف للتعظيم حدا •

— أبو حاتم يوسف 281ـ94 هـ 894ـ906 م

هو ابن أبي اليقظان • بويع بعده • وكان شابا جميل الهيئة كثير المروءة واسع الاحسان محببا لدى العامة قبل ولايته • فلما بويع اضطربت عليه الامة • وثارت به الفتن • فأخرج من المدينة • ثم عاد اليها ، وأئتمر به بعض قرابته فقتلوه سنة 294 •

وكان بكر بن حماد قد أوضع في الفتنة • فلما عاد الى تيهرت اعتذر له بقوله :

ومؤنسة لي بالعـــراق تركتها | وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها : | «عزيز علينا ان نراك تسير»[1]
فقلت جفاني يوسف بن محمد | فطال علي الليل وهو قصير
ابا حاتم ما كان ما كان بغضة | ولكن أتت بعد الامور أمور
فاكرهني قوم خشيت عقابهم | فداريتهم ، والدائــرات تدور
واكرم عفو يؤثر الناس أمره | اذا ما عفا الانسان وهو قدير

— يعقوب بن أفلح

هو أخو أبي اليقظان • كان يأمل الامارة بعده ، فلما صرفت الى أبي حاتم ارتحل الى زواغة ، فلما أخرج أبو حاتم من المدينة وحاصرها ، استقدم أهلها يعقوب ، وبايعوه • فحارب ابن أخيه ، ثم سعى الى أهل الفضل في ايقاف الفتنة ، فعقدوا مجلسا حضره المبعوثون من الطرفين : فحكموا برفع يديهما معا عن الحكومة لمدة أربعة أشهر ، وهذا هو التحكيم الذي أنكره سلفهم على علي (ض) •

وفي هذه المدة كان ابــو حاتم يستميل اليـــه الناس بسياسته ويستألفهم بصلاته ، فلم تمض المدة حتى كان جمهور الناس معـــه • فاستقدموه من قصره بابي مينة ، وأعادوه الى قصر الامارة •

وغادر يعقوب المدينة ليلا الى زواغة بعدما قام أميرا نحو أربع سنوات ، وكان بعيد الهمة نزيه النفس ذا غرائب في مأكله وملبسه ، وعاش حتى استولى الشيعة على تيهرت ، فارتحل الى ورقلة ، وعرض عليه أهلها بيعتهم ، فقال : « لا يستتر الجمل بالغنم » ومات هنالك •

---

(1) النواسي هو ابو نواس الحسن بن هانيء الحكمي . من أهل المائة الثانية • وذلك الشطر من كلمة له طويلة يمدح بها الخصيب .

بويع بعد قتل أخيه أبي حاتم ، ولم يتمتع بالملك طويلا ، فبقي مدة عامين وأمره في اضطراب الى أن قتله الشيعة في طائفة من أسرته ، في شوال سنة 96 وانتهت به الدولة الرستمية .

تناسل بنو رستم بتيهرت وكثر عددهم ومع ذلك لم يزدحموا على الملك الا ما كان أيام ادبار دولتهم من القيام على ابي حاتم ثم قتله . فلهم بذلك مزية على غالب الاسر المالكة .

9 ـ الاقتصـاد والحضـارة

المملكة الرستمية صحراوية . ولهـذا اتخذت عاصمتها حيث الجبال المتصلة بالصحراء . فالغالب على أهلها الترحال وسكنى الخيام والقيام على المواشي والتجارة في البر اما التجارة البحـرية فبأيدي غيرهم لعدم اتصال المملكة بالسواحل . فلم يكن للرستميين مراكب بحرية ولا مصانع لها .

والتجارة البحرية يومئذ للاندلسيين . فهم الذين يؤمون ببضائعهم المختلفة مراسي الجزائر مثـل مرسى الدجاج وتنس ومرسى فروخ القريبة مـن مستغانم شـرقا . ولهم اتصال بالرستميين في التجارة خصوصا من مرسى فروخ .

وأهم تجارة تيهرت الى السودان . ولملوكها علائق حسنة مع الرستميين . ولها اتصال بالمشرق أيضا عـلى طريق الصحراء الى القيروان وطرابلس ومصر .

وعني بنو رستم بتأمين طـرق القوافل . فكانوا يرسلون من طرفهم حامية تتلقى القوافل . وهذا ابو حاتم توفي والده وهو غائب . ذهب في جيش لحماية قوافل من المشرق .

وهكذا كانت البضائع تصدر من تيهرت واليها برا وبحرا وغربا وشرقا وشمالا وجنوبا • فتأتيها بضائع الاندلس والمغرب الاقصى والسودان وافريقية ومصر والشام والعراق والحجاز واليمن •

وكانت الدواب والمواشي كثيرة بمملكة تيهرت • يكثر بها البقر والغنم وتوجد بها الخيل المسومة والبراذين الفراهيد • وللناس عناية بالفلاحة خصوصا حوالي الاودية • يزرعون القطن والكتان والسمسم والكسبر والكمون وغيرها • ويغرسون الاشجار المختلفة •

ونشط الناس لانشاء العمارات والقصور في الاماكن الصالحة لها • فكان للاسرة الرستمية حصن في جوار لواتة يدعى تالميت به مواشيهم وعبيدهم • وللامراء منهم قصور ومنتزهات في أملاكهم خارج تيهرت • وقد أطال ابن الصغير الحديث عن القصور • وقال : « وكانت العجم قد ابتنت القصور ونفوسة قد ابتنت العدوة والجند القادمون من افريقية قد ابتنوا المدينة العامرة اليوم » •

وانتقلت مع التجارة التي هي أهم موارد تيهرت حضارات الممالك الاخر • واضيفت الى حضارة البلاد الموروثة عن الرومان والروم • وتكون من مجموع ذلك حضارة تيهرتية مزيجة من عدة حضارات • فكانت تصنع بهذه المملكة نسائج الصوف والكتان وأواني الخزف والطين والزجاج والاثاث من الخشب المنحوت والمخروط والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف • والصنائع متركبة من بربرية وفارسية وعربية ورومية واندلسية • عليها طابع الحضارة الاسلامية •

وقد جاء بعد الرستميين دول اسلامية ذات حضارات متقاربة • فلا سبيل الى تمييز ما أبقته الحضارة الرستمية بالوطن الجزائري • ولو عني بالبحث عن آثار تيهرت لامكن الوصول الى شيء عن معرفة هذه الحضارة • ووطن مزاب حافظ حقا على عوائده القديمة ولكن

طول المدة وتوالي الفتن وضعف أهله مما يمنع الاعتماد على حضارته لمعرفة الحضارة الرستمية •

10 — العـلوم والآداب

نشأت الدولة الرستمية في بداية تاريخ المسلمين العلمي بما كان من اقبال المنصور العباسي فمن بعــده على تجهيز المسلمين بالعلوم والمعارف بعد ما قضوا لبانتهم من الآداب العربية وبلغوا فيها الدرجة السامية أيام بني أمية •

وقد عني الرستميون بنقـل الكتب التي تظهر بالمشـرق منبع الحركة الفكرية الاسلامية • ولكن عنايتهم بالعلوم الدينية أشد • فكانوا ايمة في العلم كما كانوا ايمة في السياسة يتدارسون التفسير والحديث والفقه والكلام والاخبار والاشعار والعــلوم الرياضية • واشتهروا بالتنجيم والرمل • فعبد الرحمن كان مفسرا وله في التفسير تأليف • وابنه عبد الوهاب برز في العلوم الدينية • ونبغ أفلح في الادب وله في فضل العلم ومزاياه والتحريض عليه قصيدة مطلعها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا يريك اشخاصهم روحا وابكارا

وهي طويلة جيدة أثبتها الباروني بتمامها مشطرة • وكان من ايمة بني رستم من انتصب للتدريس بالمساجد العامة • وارسل عبد الوهاب الى اباضية البصرة الف دينار ليشتروا له بها كتبا • فلما بلغتهم اشتروها ورقا استنسخوه كتبا • قالوا فكانت تلك الكتب وقر اربعين جملا . وجهوها له واتصل بها • وكانت بتيهرت مكتبة تدعى المعصومة قد حوت آلافا من المجلدات • ولما دخلت الشيعة تيهرت أحرقوا مكتبتها ما عدا كتب الرياضة والصنائع والفنون الدنيوية •

وكانت العربية هي لسان الدولة الرسمي • يدل لذلك رســائل

الرستميين الى الامة البربرية في الحث على الطاعة والتمسك بالدين ، وعقود ولايتهم لعمالهم بطرابلس • وقد أثبت الباروني نصوص رسائل وعقود • وكانت العربية لسان علومهم وآدابهم أيضا • اذ جل عنايتهم بالعلوم الدينية التي لا لغة لها غير العربية •

ولم تفكر الحكومة الفارسية في نشر اللغة الفارسية او اتخاذها لغة رسمية اذ لا داعي لذلك لا من حيث الدين ولا من حيث السياسة • فالدين لغته عربية • وكون بني رستم في غير وطنهم بين قوم اشداء في عصبيتهم مما يدعوهم الى اعفاء العصبية الجنسية واحياء الرابطة الدينية التي لا يجمعهم بالبربر غيرها •

واقتدت الامة البربرية بحكومتها ــ والناس على دين ملوكهم ــ في العناية بالعربية وعلومها وآدابها . ولم يصدهم عنها ثورتهم على الحكومة العربية لان الثورة اسبابا يغلط جدا من يجعل من بينها عداء البربر للعرب جنسيا أو دينيا أو علميا اذ ليست فكرة عداء العرب والعربية موجودة لدى الامم الاسلامية يومئذ • وانما هي وليدة عصرنا الحاضر • تستتر بها الملحدون توصلا لهدم التعاليم الاسلامية ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الملحدون •

وعاشت البربرية مع العربية عيشة العامية اليوم مع الفصحى • وكان من البربر شعراء بالبربرية مجيدون نظير ما نسمع اليوم من قصائد عامية بليغة • والفت بها التآليف الدينية حرصا من رجال الدين على ايصال عقائده وعباداته الى العامة اذ لم يكن البربر يحسنون ــ طبعا ــ جميعهم العربية •

وكان بالمملكة التيهرتية مذاهب غير الاباضية • منها الصفرية • كان لهم حصن تالغمت (يدعى اليوم تيلغمت • وهو وسط بين الاغواط وغرداية) • والواصلية • مجمعهم قريب من تيهرت • يسكنون بيوت

الشعر • ويعتدون في نحو ثلاثين الفا • والعراقيون الشهيرون بالرأي والقياس والحجازيون الشهيرون بالسنة والاثر •

ولهذه الطوائف مساجدها وعلماؤها وحلق دروسها • وكانوا بتيهرت يجتمعون للمناظرة والمباحثة في دائرة الادب وقانون العلم بغاية الحرية • قال ابن الصغير : « ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة • وكذلك من اتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سبيله ذلك » • وقال متحدثا عن الاباضيين :

« ولا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم ولا يكشفونه عن حاله • ولو رأوه رافعا يديه ، ما خلا المسجد الجامع فانهم اذا رأوا فيه من رفع يديه منعوه وزجروه فان عاد ضربوه » • قال الباروني : والمسجد الجامع هو مسجد الامام • ولعلهم يفعلون ذلك بغير اذنه وعلمه • يريد ان ذلك من متعصبة العامة التي كثيرا ما تنصر دينها بما تأباه مبادي ذلك الدين نفسه •

أصبحت تيهرت معدن العلم والادب ومحط رحال الطلبة حتى قال فيها أبو عبد الله البنا : « يفضلونها على دمشق وأخطأوا وعلى قرطبة وما أظنهم اصابوا » • ولست أشك في انها دونهما ولكن حضورها في الذهن بحضورهما يكفي دليلا على تقدمها ورقيها •

وقد نسب اليها علماء كثيرون في مختلف الفنون • ذكر الباروني طائفة منهم • والفتن التي استمرت بتيهرت أواخر الحكومة الرستمية وبعدها ترشد الى أن الذين عفت آثارهم أكثر من الذين عرفوا • فمنهم أبو الفضل أحمد بن القاسم التميمي البزاز • روى عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره • ومنهم الشيخ أبو سهل • كان أفصح أهل زمانه في اللسان البربري • ألف به تآليف احترقت في بعض الفتن • وتولى خطة الترجمة للامامين أفلح ويوسف • ومنهم أبو عبيدة

الاعرج • أثنى عليه ابن الصغير • وقال قرأت عليه كتاب اصلاح الغلط لابن قتيبة • ومنهم ابن الصغير صاحب اخبار الايمة الرستميين • وهو كتاب لغته قريبة من العامية لكنه المادة الوحيدة لهذه الدولة •

ونقل الكعاك عن المجلة الأسيوية الفرنسية الصادرة سنة 1843 م أن يهود بن قريش التاهرتي من أهل القرن الرابع كان يحسن العربية والعبرانية والبربرية والارمية والفارسية عالما بها جميعا متضلعا فيها • وقد اهتم بالبحث في اللغات وحاول المقاربة بين العبرانية والعربية والبربرية • وهو واضع اساس النحو التنظيري • وله كتاب في ذلك باللغة العربية وجد بمكتبة أوكسفورد بانكلترة وهو من أنفس ماسطر في الموضوع •

11 — ابو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي • نشأ بتيهرت • وارتحل الى المشرق في حداثة سنة 217 فسمع به الحديث من ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر • واجتمع بأدبائها مثل أبي تمام حبيب وعلي بن الجهم وصريع الغواني ودعبل • ثم عاد الى القيروان • وسمع بها من سحنون وغيره • وجلس بها للحديث • ثم ارتحل الى تيهرت ومعه ولده عبد الرحمن • فاعترضه لصوص جرحوه وقتلوا ولده ! قال الباروني عن المراكشي : وكانت وفاته بقلعة ابن حمة جو في مدينة تيهرت سنة 296 وهو ابن ست وتسعين سنة • وكان ثقة مأمونا حافظا الحديث • قال المقري في نفح الطيب : ان قاسم بن اصبغ القرطبي رحل الى المشرق سنة 274 ولقي بالقيروان بكر بن حماد الشاعر التاهرتي • وسمع منه حديث

مسدد • ولما قرأ قاسم حديثا فيه مجتابي الثمار قال له بكر الثمار • ولم يسلم أحدهما للآخر • فقال بكر لنذهب الى ذلك • يشير لشيخ بالمسجد • فحكم الشيخ لقاسم • فقال بكر — واخذ بأنفه — رغم أنفي للحق • وقال الباروني : ذكره يوسف بن ابراهيم الورجلاني في سلسلة حديث رواه بكتابه الدليل والبرهان • ومن هنا تعلم ان ثقته متفق عليها يروي عنه الخوارج وغيرهم •

وكان نابغة في الادب • واشتهر بالشاعر • وله القصائد الطويلة الجيدة في الاغراض المختلفة من غزل ووصف ومديح وهجاء ورثاء واعتذار وزهد ووعظ • مدح الملوك والامراء بالمشرق والمغرب وعارض دعبل من متعصبة الشيعة وعمران بن حطان من الخوارج •

وذكر الحافظ التنسي كلمته في معارضة مدح عمران بن حطان لابن ملجم على فعلته • وذكرها المسعودي ايضا في مروج الذهب ولكن لم ينسبها لاحد • ثم وقفت عليها منسوبة له في طبقات الشافعية الكبرى • وهي هذه :

قال لابن ملجم — والاقدار غالبة — هدمت — ويلك — للاسلام اركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم واول الناس اسلاما وايمانا
واعلم الناس بالقرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره اضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه — على رغم الحسود له — مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا ليثا اذا لقي الاقران اقرانا
ذكرت قاتله ، والدمع منحدر ، فقلت سبحان رب الناس سبحانا !!
اني لاحسبه ما كان من بشر يخشى المعاد ولكن كان شيطانا

اشـقى مراد اذا عـدت قبائلهـا وأخسـر الناس عنـد الله ميزانا
كعاقـر الناقـة الاولى التي جلبت على ثمود بارض الحجر خسـرانا
قد كان يخبرهم ان سوف يخضبها قبـل المنيـة أزمـانـا فأزمـانا
فلا عفـا الله عنـه مـا تحمـله ولا سـقى قبر عمران بن حطـانا
لقوله في شـقي ظـل مجترمـا ونال مـا نالـه ظلمـا وعـدوانا
« يا ضربة مـن تقي ما أراد بها الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا »
بل ضربة من ذوي أورثتـه لظـا مخـلدا قد اتى الرحمن غضبـانا
كانه لـم يرد قصـدا بضربتـه الا ليصلى عـذاب الخـلد نيرانا

ومما روى له التنسي في الدر والعقيـان قوله :

تبارك من ساس الامـور بعلمه وذل له أهـل السموات والارض
ومن قسم الارزاق بـين عبـاده وفضل بعض الناس فيها على بعض
فمن ظن ان الحرص فيها يزيـده فقولوا له يزداد في الطول والعرض

وشعره كثير تناقله الرواة شرقا وغربا • ومنه قطع مبعثرة في بطون الكتب يحتاج في جمعها الى عناية أدبية وغيرة قومية • وحسبنا اداء لحق هذا الشاعر المجيد والمحدث الثقة أن افردناه بالكلام ونبهنا على فضـله •

12 ــ الحـروب والفتـن

قامت الدولة الرستمية على جهود البربر الثائرين على حكومة القيروان ، فلم ترق دماء في سبيل تأسيسها • ولم تجاهـد كغيرها

لاعلاء كلمة الاسلام لعدم مجاورة الكفار لها • على ان الخوارج انما يعنون بالثورة على الحكومات الاسلامية ، ويرون ملوكها جائرين على الاطـلاق •

جاورها الادارسة ولم نعلم من حال هذا الجوار غير ما ذكره ابن خلدون في قوله : « حارب بني رستم جيرانهم من مغراوة وبني يفرن على الدخول في طاعة الادارسة لما ملكوا تلمسان ، واخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة فامتنعوا عليهم سائر أيامهم » •

وجاورها أمراء القيروان • فلم نعلم عن هذا الجوار غير زحف عبد الرحمن لحصار طبنة فانه نزل تهودا • فلما انجلى الحصار عن عمر بن حفص انفذ جيشا لعبد الرحمن هزمه الى تيهرت • ثم كانت المهادنة ايام روح • وجاءت الدولة الاغلبية • فلم نعلم حدوث شـيء بينهما في الجزائر غير تأسيس مدينة العباسية واخرابها • هذا كل ما نعلم عن الحالة الخارجية للدولة الرستمية •

اما الحالة الداخلية فالحرب فيها أغلب مـن السلم • ذلك ان الحكومة لم تتمكن من بسط نفوذها في المملكة على ضيق رقعتها • فالقبائل مستقلة تحت امراء منهم • وليس ثم مـن وحدة سياسية ولا دينية • والحكومة اجنبية لا ثقة لها بالامة • وتتساهل لذلك في اتهامهم بالافتراء عليها • فنشأت الفتن من ضعف الحكومة وسـوء ظنها بالامـة •

أول ما حدث فتنة يزيد بن فندين اليفرني ، وسببها ان عبد الرحمن بن رستم لما احتضر ترك الامر شورى بين سبعة منهم ابنه عبد الوهاب وابن فندين • فاسندت الامامة لعبد الوهاب • وابى ابن فندين من البيعة الا بشرط تأسيس مجلس من الاعيان يخضع لـه الامام • فرفض اقتراحه • وسخطته الحكومة • فلم يصبر لهذه الاهانة وهو ذو عصبية • فأعلن الثورة •

وبعد وقائع كاد ابن فندين ينتصر • فطلب عبد الوهاب هدنـة للنظر في شرطه وعرضه على اباضية المشرق ليفتوا فيه • فأجابه لذلك • وربح عبد الوهاب الوقت لجمع قوتـه ونشر دعايته بالمشرق واحسن الخروج من المأزق •

أدرك ابن فندين مكيدة خصمه • فأعاد الحرب قبل ورود فتوى المشارقة • فدارت عليه الدائرة • وقتله أفلح بن عبد الوهاب • وتفرق جمعه • وبعد مدة ثأروا لصاحبهم من ميمون بن عبد الوهاب • فقتلوه • وعادت الحرب ثالثة • وانجلت بانتصار عبد الوهاب •

فتح ابن فندين باب الحديث في الامامة وشروطها • فاتخذها أرباب المذاهب الاخر سلما للخروج عن طاعة الامام الاباضي • فأعلنت الواصلية ثورتها • وقصدت فيمن انضم اليها تيهرت • وكانت وقائع أشد من الاولى • والتجأ عبد الوهاب لطلب الهدنة • وبعد ان انعقدت استنجد نفوسة طرابلس • فبلغته نجدتهم وعادت الحرب وانجلت بانتصار عبد الوهاب كأول مرة •

وتقدم في الفصل السادس ما كان من انكار بعض الناس لعمال عبد الوهاب وثورتهم • وانتهت بانهزامهم •

وكان أمير هوارة خطب بنت شيخ لواتة • فأشير على عبد الوهاب بمصاهرة لواتة حتى تتحد مع هوارة • فخطب تلك البنت • وتزوجها • فوقعت بين الرستميين وهوارة حرب على نهر اسلان • وتعددت المعارك • ثم انهزمت هوارة •

وكان ابو بكر بن أفلح قد صاهر من أعيان المدينة رجلا يدعى محمد بن عرفة • وفوض اليه أمر الحكومة • فنفس عليه وجاهته بطانة الامام • وزينوا له اغتياله • فأرسل اليه ليخرج معه الى منتزه له يعرف بجنان الامير • ولما قاما الى صلاة المغرب طعن خادم ابي

بكر ابن عرفة • والقى شلوه في شق هنالك فافتقد الناس ابن عرفة • ثم وقفوا على جلية أمره • واستخرجوا شلوه • فثاروا بأبي بكر • وكان يوم من أشد الايام • فقد فيه ابو بكر امامته • وبقيت الحرب بين أنصار الحكومة واعدائها قائمة على ساق • وحكمت أخيرا بفشل نفوسة والعجم •

قال ابن الصغير : « لما نزل بالعجم ونفوسة ما نزل تفرقوا في أقاصي البلاد • فنزلت العجم بموضع يقال له تابغيلت وهي على مرحلتين من مدينة تاهرت[1] ونزلت الرستمية ومن لف لفها باسكيدال وبه ابو اليقظان • وهو مجمع الاباضية قبلة تاهرت على يوم أو أزيد قليلا • ونزلت نفوسة بقلعة مانعة يقال لها اليوم قلعة نفوسة » •

عقب هذه الفتنة استولى محمد بن مسالة على تاهرت • وحارب بقومه واهل المدينة لواتة • واجلاها الى حصنها على مقربة من تاسلونت منبع عيون نهو مينة • ودعت ابا اليقظان الى جوارها •

هنالك اجتمع الى ابي اليقظان شيعته • فذهب بهم الى تيهرت • فامتنعت عليه سبع سنين • ثم استنجد نفوسة طرابلس • فأنجدوه • وتقوى بهم في حين أن أهل تيهرت أجهدهم الحصار • فتقدمت رسله الى المدينة مبشرين ومنذرين • فرضي أهلها باسلامها الى ابي اليقظان على أن لا يؤاخذوا بما ذهب ايام الفتنة من أنفس واموال فرضي شرطهم ودخل المدينة • وأعلن العفو العام •

ونفى ابو حاتم بعض أعيان المدينة بتهمة التآمر على قتله ، الى موضع يدعى الثلة • وبعد مدة دخلوا تيهرت في حماية أنصارهم •

---

(1) تقدم في الفصل الرابع عن البكري تامغيلت بالميم . وانه على مرحلتين من تيهرت . فالظاهر انه موضع واحد يقال بالحرفين او محرف في احد الكتابين .

فخشي أبو حاتم علـى نفسه • فخرج الـى تالميت في أهله والعجم ونفوسة • واجتمعت اليه لواتة وقبائل الصحراء ما عدا أهل تيلغمت فانهم شايعوا التيهرتيين •

استعد أبو حاتم لفتح تاهرت • فقصدها من ثلاث جهات : جاء هو في الرستميين ولواتة وغيرهم من ناحية القبلة • وزحفت العجم وصنهاجة ومن لف لفها من ناحية المشـرق • وتقدمت نفوسة ومن انضاف اليها من ناحية المغرب • ودارت رحا الحرب مـن الجهات الثلاث • فرغب التهرتيون في السلم • فاشترط ابو حاتم تسـليم شيوخهم اليه يرى فيهم رأيه • فلم يقبلوا • وعادت الحرب • واستدعى التيهرتيون يعقوب بن أفلح من مكانة بزواغـة • وكان منابذا لابن أخيه • فبايعوه • وانحازت اليهم بذلك طائفة من لواتة • وعادت الحرب جذعة •

وبعد اربع سنين من اتقاد نار هذه الفتنة تقدم ابو يعقوب المزاتي في قومه ونزل حول تيهرت لايقاف الفتنة • وسئمت الناس الحرب • فرضوا وساطته • فعقد هدنة لمدة اربعة أشهر • تقوى فيها حزب ابي حاتم • فدخل المدينة • وغادرها عمه يعقوب •

ها قد وقفنا بالقارىء على ناحية من مناحي حياة هذه الدولة في ايجاز من غير اطالة بوصف المعارك واحصاء القتلى وذكر الابطال •

ولا يستبعد مع هذه الفتن ما قدمنا من حديث العمران والمعارف فان القوم كانوا أحرارا • والحرية تعمل مع الفتن ما لا يعمله الاستعباد مع الامن •

13 — سـقوط الدولـة الرسـتمية

تأسست الدولة الرستمية بتأسيس تيهرت سنة 144 (761م) وبويع

مؤسسها عبد الرحمن بن رستم بالخلافة سنة 160 وسقطت في أيدي الشيعة سنة 296 (909م) فتكون مدتها 152 سنة قمرية (148 شمسية) والبكري موافق في تاريخ تأسيس الدولة وسقوطها • ولكن يقول ان مدة الرستميين كانت ثلاثين ومائة سنة •

أما اسباب سقوطها فترجع الى افتراق كلمة الامة واختلاف الرستميين فيما بينهم وظهور عدو قوي الى جانبهم هم الشيعة • وقد رأيت في الفصل السابق كثرة الثورات لاسباب ضعيفة واستفحال أمرها حتى ان الثائرين قد يستولون على العاصمة ويطردون منها الرستميين وذلك يدل على ان القبائل كانت ذات حرية واسعة اكتسبتها بقوتها وضعف الحكومة ولم تحسن استعمالها •

وهؤلاء الرستميون الذين لم تكن لهم قوة حربية تجعل القبائل تحت سلطانهم فعلا أخذ داء التنافس يسري اليهم • وبدأ ذلك عصر ابي حاتم حيث ان عمه يعقوب خالف عليه أولا ثم خالف عليه أخوه اليقظان ثانيا وافضى الخلاف الى قتله وانتصاب اليقظان مكانه • وكان لابي حاتم بنت تدعى دوسرا قد أحرق كبدها ما نزل بابيها • وكثير من أهل تيهرت غير راضين عن اليقظان •

فالشعب كانت تعبث باتحاده العصبيات القومية والتعصبات المذهبية • والحكومة تعبث بهيبتها المنافسات السياسية والاختلافات الداخلية • تلك حالة الدولة الرستمية في الوقت الذي ظهرت فيه الدعوة الشيعية بكتامة وقضت على دولة الاغالبة •

لما قضى أبو عبد الله الشيعي على دولة الاغالبة قصد تيهرت ونزل عليها • ولم يلق في طريقه كيدا • فخرج اليه أهلها متبرئين من اليقظان وواعدين له بفتح المدينة • ثم خرج اليقظان في جمع من أهل بيته • ولقي أبا عبد الله الشيعي مسلما مسالما • وخشيت دوسرا ان

يبقى عليه . فأمته مع أخ لها ووعدته نفسها زواجا ان هو ثأر لها من قتلة أبيها فأتى القتل على اليقظان ومن معه . وفرت دوسرا فلم يوقف لها على أثر . وسقطت الحكومة والامة في يد الشيعة .

وهكذا استولى ابو عبد الله الشيعي على دولـة تيهرت بكل سهولة . لانه وجد أمة بلا حكومة وحكومة بلا أمة . وفي ذلك درس مفيد لكل حكومة أجنبية تعتمد على أجانب مثلها وتقصي أهل الوطن عن ساحة الحكم . وفي ذلك أيضا درس جليل الفائدة لكل شعب يكون قليل الانقياد لحكومته كثير الثورات عليها من غير ان يرسم لطريق جهاده خطة معينة ويلتف على زعيم قوي مرضي يحسن السير به الى غاية واضحة .

14 ـ تيهـرت

تيهرت بكسر التاء بعدها ياء فهاء مفتوحة فراء ساكنة . ويقال أيضا تاهرت . وهي اسم لمدينتين احداهما على ربوة يحيط بها سور أسست قبل الاسلام . وافتتحها القائد العظيم عقبة بن نافع . وكانت نبرقجانة . وضعف عمرانها منذ العصر الرومي . وانتعشت قليلا ايام الرستميين . وكانت تدعى تاهرت عبد الخالق وتدعى ايضا حصن ابن بخاتة . وبعد الرستميين خربت وأسس مكانها تيهرت الفرنسية المدعوة اليوم تيارت .

والثانية تيهرت الحديثة أسسها عبد الرحمن بن رستم سنة 144 (761م) غربي القديمة على خمسة أميال منها محاذية لتاقدمت . وقد غلط بعضهم فسمى تيهرت الحديثة . تاقدمت . وموضعها كان غيضة أشبة مملوكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة . فارادهم عبد الرحمن علـى البيع . فامتنعوا . فاكتراه منهم بخراج الاسواق .

وشرعوا في تأسيسها • فعمرت واتسعت خطتها وطار في الآفاق صيتها حتى دعيت عراق المغرب وبلغ المغـرب الحاقا لها بهما في المعارف والعمران والحضارة •

اختار الرستميون موقعها لكونه بين قبائل اباضية وارضها مملوكة لقوم مستضعفين ليكونوا في مأمن من هجمات المخالفين وراحة من قبيلة المالكين • فهم بضعفهم لا يطمعون في التغلب عـلى الدولة • ولموقعها مزية لديهم أيضا وهو اشرافه على الصحراء اذ كان أغلب القوم رحالا قائمين عـلى المواشي • ففي الصحراء يجدون حاجـة ماشيتهم • والرستميون مرتبطون مذهبا بنفوسة طرابلس • وبواسطة الصحراء يمكنهم ادامة الروابط معهم • اختطوا بهذه المدينة المنازل والقصور • وأجروا اليها المياه • قال الادريسي : « وبها مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم يتصرفون بها » •

أصبح عمران تيهرت وعـدل ايمتها حديث الرفـاق تنقله الى الآفاق • فأمها الناس من كل ناحية • قال ابن الصغير : « واتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار واقاصي الاقطار • فقلما ينزل بهم أحد من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بيتا بين أظهرهم لما يراه من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين • واستعملت السبل الى بلاد السودان وغيرها من البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وصنوف الامتعة • والعمارة زائدة ، والناس والتجار من كل الاقطار قابلون » •

وقال البكري : « مدينة تيهرت مسورة لها ثلاثة أبواب [1] باب

---

(1) هكذا بالاصل . وقد سمى اربعة ابواب ثم قال وغيرها . فذكر الثلاثة خطأ .

الصبا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وغيرها ، وهي في سفح جبل يقال له قزول (وهو بتخفيف الزاي وهكذا يدعى اليوم) ، ولها قصبة مشرفة على السوق ، تسمى المعصومة ، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة وهو في قبليها ، ونهر آخر يجري من عيون تجمع تسمى تاتش ، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها . وهو في شرقيها .. وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج ، قال بكر ابن حماد :

ما أخشن البرد وريعانه　　وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت　　كانها تنشر من تخت
فنحن في بحر بلا لجة　　تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت　　كفرحة الذمي بالسبت

ونظر رجل من أهل تاهرت الى توقد الشمس بالحجاز فقال : احرقي ما شئت فوالله انك بتاهرت لذليلة ! ، ومسجد تاهرت الجامع أسسه عبد الرحمن وهو من اربع بلاطات ، قال محمد بن يوسف : وبها أسواق عامرة وحمامات كثيرة ، يسمى منها اثني عشر حماما .

ومنذ سقطت الدولة الرستمية اصبحت تيهرت نقطة عراك بين الشيعة وزناتة يتغلب عليها هؤلاء تارة وأولئك أخرى . فأخذ عمرانها في التراجع . واحرقت النار اسواقها في شوال سنة 305 كما في القرطاس . ثم كانت فتنة ابن غانية . وتكرر دخوله لتيهرت ، فاحتمل أهلها وتفرقوا في البلاد ، وذلك سنة 620 وكان ذلك آخر العهد بعمارتها ، وارضها اليوم تحرث ، ولم يبق منها الا انقاض وبعض سورها ، والاماكن تشقى وتسعد .

الباب الثالث

في الدولـة الادريســية

ا — تمهيد

بينما كان بنو العباس يعملون لهدم دولة بني أمية شرقا كان البربر يعملون لذلك أيضا غربا ، ولكن العباسيون يهدمون ليبنوا ، والبربر يهدمون توصلا للفوضى • وما اتم بنو العباس بناء دولتهم بالمشرق حتى اتم البربر عمل فوضاهم بالمغرب • ولما أخذ العباسيون يسترجعون المغرب لسلطانهم استقل بنو رستم ببعض المغرب الاوسط وما بقي منه كان تابعا لامراء القيروان ظاهرا ومستقلا في داخليته تحت شيوخ قبائله • ومثل ذلك المغرب الاقصى •

ولم تكن الدولة العباسية شرقا سالمة من المنافس • فان الطالبيين نهضوا طالبين لانفسهم الخلافة وثاروا مرارا • ولكن كان نصيبهم الاخفاق • وفي أيام موسى الهادي ظهر الحسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط • وثار على عامل المدينة • وتغلب عليه • وبعد أيام خرج الى مكة • ولما بلغها انضم اليه طائفة من عبيدها • وكان الفصل فصل موسم الحج • وقد حج جماعة من وجوه بني العباس وشيعتهم • فنشبت الحرب بين العباسيين والطالبيين ثامن ذي الحجة • فانهزم الحسين ثم قتل بفخ قريبا من مكة من طائفة من ذوي قرابته • وذلك سنة 169 •

وحضر هذه الواقعة ادريس وسليمان ابنا عبد الله الكامل بن الحسن المثنى • فاما سليمان فقيل نجا وقيل قتل فيمن قتل مع الحسين • واما ادريس فنجا وايس ان يكون للطالبيين مع العباسيين

بالمشرق أمر • وقد علم ما عليه المغرب من ضعف سلطان بني العباس به • فقصده • ومر بمصر • وكان صاحب بريدها الى المغرب يتشيع • وهو واضح المعروف بالمسكين مولى لصالح بن المنصور • فحمله الى المغرب •

وقد ساق البكري حديث نزوح ادريس الى المغرب نقلا عن ابي الحسن النوفلي • قال : « قال النوفلي ان ادريس ابن عبد الله انهزم فيمن انهزم من وقعة حسين صاحب فخ •• فاستتر مدة • وألح السلطان في طلبه • فخرج به راشد ، وكان عاقلا شجاعا أبدا ذا حزم ولطف ، في جملة الحاج منحاشا عن الناس ، بعد أن غير زيه والبسه مدرعة وعمامة غليظة • وصيره كالغلام يخدمه • وان امره ونهاه أسرع في ذلك • فسلما حتى دخلا مصر ليلا • فبينما هما متحيران يمشيان في بعض طرقها لا هداية لهما بالبلد ، اذ مرا بدار مشيدة يدل ظاهرها على باطنها ونعمة أهلها • فجلسا في دكان على باب الدار فرآهما صاحب الدار • فعرف فيهما الحجازية • وتوسم في خلقتهما الغربة فقال أحسبكما غريبين • قالا نعم • قال وأراكما مدنيين • قالا نعم • نحن كما ظننت • فاذا الرجل من موالي بني العباس • فقام اليه راشد • وقد توسم فيه الخير ، فقال له يا هذا قد أردت أن ألقي اليك شيئا • ولست أفعل حتى تعطيني موثقا أن تفعل احدى خلتين اما اويتنا وتتقرب الى الله بالاحسان الينا وحفظت فينا نبيك محمدا (ص) ، وان كرهت ما القيته اليك سترته علينا • فأعطاه على ذلك موثقا • فقال له هذا ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب خرج من موضعه مع حسين بن علي • فسلم من القتل • وقد جئت به أريد بلاد البربر • فانه بلد ناء لعله يأمن فيه ويعجز من يطلبه • فأدخلهما منزله • وسترهما حتى تهيأ خروج رفقة الى افريقية فاكترى لهما جملا وزودهما وكساهما • فلما عزم القوم على الشخوص

قال لهما ان لامير مصر مسالح لا يجوز احد الا فتشوه وههنا طريق أعرفها لا يسلكها الناس . فأنا أحمل هذا الفتى معي ، يعني أدريس . في هذه الطريق الغامضة البعيدة . فالقاك به ، يقول راشد ، في موضع كذا . وهنالك تنقطع مسالح مصر . فركب راشد في أحد شقي المحمل . ووضع متاعه في الشق الآخر . ومضى مع الناس في القافلة . وخرج الرجل على فرس له . وحمل ادريس على فرس أخرى . فمضى به في الطريق الغامضة . وهي مسيرة أيام ، حتى تقدما الرفقة . وأقاما ينتظارانها حتى وردت . فركب ادريس مع راشد حتى اذا قربا من افريقية تركا دخولها . وسارا في بلاد البربر حتى انتهيا الى بلاد فاس وطنجة » .

هذا حديث البكري . ومراده بافريقية القيروان . وصاحبها يومئذ من قبل العباسيين روح بن حاتم . وفي الاستقصاء : ان ادريس دخل القيروان واقام بها مدة . ثم خرج هو وراشد حتى أتيا تلمسان . فأراحا بها أياما . ثم ارتحلا نحو طنجة . فعبرا وادي ملوية . ودخلا بلاد السوس الادنى . وتقدما الى مدينة طنجة. ونحوه في القرطاس لابن أبي زرع .

ومن طنجة خرج ادريس ومولاه راشد الى مدينة وليلي . فنزلا على صاحبها اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربي . فاكرم مثواهما . وعرفه ادريس بنفسه فبالغ في اكرامه وخدمته . وكان نزولهما بوليلى غرة ربيع الاول سنة 172 .

قال ابن ابي زرع : « ومدينة وليلي قاعدة جبل زرهون . وكانت مدينة متوسطة خصبة كثيرة المياه والغروس والزيتون . وكان لها سور عظيم من بنيان الاوائل » . قال السلوى : « يقال انها المسماة اليوم بقصر فرعون » .

2 ـ تاسيس الدولة الادريسية

كان اسحق الاوربي أمير قومه . ولما نزل عليه آدريس عرفه بنفسه وكاشفه بسره وانه يريد أن يؤسس للطالبيين بالمغرب ما عجزوا عليه بالمشرق . فاجابه اسحق الى ما أراد . ولما كان شهر رمضان جمع عشيرته وعرفهم بادريس . وقرر لهم علمه وفضله ودينه . وعرض عليهم مبايعته، فاجابوه وبايعوه على السمع والطاعة والقيام بأمره والاقتداء به في صلواتهم وغزواتهم . وبعد البيعة قام ادريس خطيبا . فقال : « ايها الناس لا تمدن الاعناق الى غيرنا فان الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا » .

بايعت أوربة وتلتها مغيلة وصدينة من بني فاتن . ثم وفدت عليه للبيعة قبائل زواغة وغياثة ومكناسة وغمارة في قبائل أخر من زناتة وغيرهم ، فلم يلبث ان جهز الجيوش من أوربة وزناتة وهوارة وصنهاجة وغيرها . وقصد بها تامسنا وتادلا من البلاد الواقعة جنوب وليلي الى ناحية المحيط الغربي . وكان أكثر أهلها على اليهودية والمسيحية والوثنية . والاسلام فيهم قليل . فغزاهم ادريس وفتح حصونهم فاسلموا جميعا . وعاد مؤيدا منصورا فدخل وليلي اواخر ذي الحجة من سنة 172 .

بينما كان ادريس يخشى أقل الناس ان يعرف مكانه فينم به الى أي وال عباسي فيريق دمه اذا به يؤسس دولة في غير وطنه ويغزو في غير قومه . كل ذلك كان في ظرف أشهر !

لقد فر قبله من بني العباس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الاموي . ونزل الاندلس . ولم يقف عند حد الامن على حياته بل كون تلك الدولة الراقية التي أضاءت على أوروبا ثم غربت في حمئة حضارتها . ودعاه ابو جعفر المنصور «صقر قريش» وامره ـ وان كان

عجيبا — يقر به ان له سلفا في الملك ولقومه بني أميه عصبية من العرب قوية وقد فتحت الاندلس بقواد جدوده وجيوشهم • وفر كذلك من بني العباس عبد الرحمن بن رستم الى المغرب الاوسط • وأسس به دولة من قوم لا يتصلون من نسبه بسبب • ولكن يسهل أمره أيضا اتحاده مع أولئك القوم مذهبا وقد عرفوه قبل أيام امامهم أبي الخطاب وعرفوا منزلته لديه • أما ادريس فشأنه اعجب اذ ليس له مع البربر أي سبب • وليس أمره مما تنتجه المصادفات أو يرتفع عن مدارك العقول •

ادريس انما قصد المغرب لعلمه بانحراف أهله عن بني العباس وبعده عن مركز خلافتهم • ولكن هل قصده لمجرد النجاة بنفسه ؟ اذن فلم اوغل في المغرب ؟ اما كان يكفيه ان يدس نفسه في قبيلة غير خاضعة لولاة القيروان ؟

ادريس أكبر نفسا من ان يفر هذا الفرار الى مكان سحيق طلبا للحياة الشخصية • وهو أنبه قدرا من ان يرضى بالخمول وهو أشرف نسبا من أن يدمج نفسه في البربر • وأرى انه انما قصد المغرب اظهارا للدعوة الطالبية ورجاء في تأسيس دولة علوية اذ ايس من ذلك بالمشرق وانقطعت ثقته بالعرب • وقد رأى العباسيين انتصروا بالفرس فبحث عن شيعة له من البربر •

وقد كان البربر يرتحلون الى المشرق طلبا للعلم واداء لفريضة الحج ثم يعودون وقد حملوا معهم صورا من نزاعات المشرق السياسية ونزعاته الدينية • وكان من المذاهب الدينية مذهب الزيدية من الشيعة • وهو مذهب ادريس • ومن النزاعات السياسية نزاع العباسيين والطالبيين وكان البربر يتأثرون بكل ما يجري بالمشرق فيجري بوطنهم من الانقسام السياسي والاختلاف الديني مثل مايجري بالمشرق • فلا بد أن يكون البربر قد عرفوا المذهب الزيدي ولا بد ان

يكون منهم من بلغته احاديث اضطهادات العباسيين للعلويين الفاطميين فود لو يتقرب الى الله بنصرة آل بيت رسوله ويحميهم من اعدائهم .

ولعل ادريس قد بحث في المغرب عمن يجدهم متشيعين لآل البيت . ومن أجل ذلك تنقل في الحواضر والبوادي حتى خبر حال صاحب وليلي ورأى فيه ضالته المنشودة . فنزل عليه وباح له بسره . فلباه وصدق ظنه وجد في نشر دعوته .

هكذا تأسست دولة ادريس بسهولة وبساطة هيأتهما القرابة من رسول الله (ص) ونفرة البربر من بني العباس المعتمدين في سلطانهم على الفرس . فنصر البربر العلويين عن طواعية . وحاربوا معهم في بقية البربر غير المسلمين وادخلوهم في الاسلام فتقووا بهم ثم لووا عنان قوتهم لحرب الخوارج بالمغربين الاقصى والاوسط فاخرجوا منهم دولة علوية .

وما زالت مدينة وليلي قاعدة دولة ادريس حتى توفي . وخلفه ابنه ادريس فعظمت دولته وكثرت غاشيته حتى ضاقت عنهم وليلي . فخرج يرتاد مكانا يتسع لدولته ما اتسعت . فأسس مدينة فاس . واصبحت احدى العواصم الاسلامية الكبرى ولم تزل فاس قاعدة الادارسة حتى انقرضت دولتهم .

3 ــ الحكومة الادريسية

الدولة الادريسية مستقلة استقلالا تاما . وحكومتها كسائر الحكومات الاسلامية يومئذ قضاء وادارة . انما تخالفها في كونها حكومة غير مركزية . فكل عامل من الادارسة واخوانهم العلويين مستقل بادارة عمله وجباية الخراج واشهار الحرب . وانما يمتاز الامام بذكر اسمه في السكة والخطبة .

اقتضى هذا النظام طبيعة الوطن الذي يكره أهله الحكومة

المركزية • فلهذا عهد ادريس لابن عمه محمد ابن سليمان على المغرب الاوسط • واشارت أمه كنزة البربرية على حافدها محمد بن ادريس لما ولي بعد ابيه بتقسيم المملكة بين أخوته •

ومبني سياسة الحكومة الخارجية عدم الاعتراف ببقية الدول الاسلامية • ولكن صدها عن العمل لاخضاعهن ذلك النظام الداخلي الذي اضطرت اليه وتركها فقيرة من المال والرجال • فاكتفت بما تحت نفوذها • واصطلحت مع الاغالبة ولم تهج بني أمية •

وكانت تضرب السكة باسم الامام • وانتشرت سكتها بالمغرب • حتى ان زيادة الله الاول بعث منها الى المأمون لما ارسل له بالدعاء على منابر افريقية لعبد الله بن طاهر ، تعريضا بتحويل الدعوة الى الادارسة • وهذا يرشد الى ما كان لهذه الحكومة من النفوذ الادبي • فان حكومة الاغالبة أغنى منها رجالا وأموالا ولم تطمع في الاستقلال ولم يأنف أميرها لما غضب من الدخول في دعوتها •

وكان ايمة الادارسة أهل عدل ورفق بالرعية وسهر على أمنها • قال ابن ابي زرع : « فكثرت الخيرات بفاس وظهرت البركات • ورخصت الاسعار ، فبلغ وسق القمح درهمين ووسق الشعير درهما والكبش درهما ونصفا والبقرة اربعة دراهم والعسل خمسة وعشرون رطلا بدرهم والقطاني والفاكهة لا قيمة لها • دام ذلك خمسين سنة منذ أيام ادريس بن ادريس • » وظاهر ان العاصمة تكون بها أمثال هذه المواد أغلى غالبا منها في الاعمال التابعة لها •

وقد حدثت اواخر الدولة فتن غيرت مجرى هذا الرخاء • فقد قام عبد الرزاق رئيس الصفرية بمديونة وجمع جموعا عظيمة استولى بها على فاس حتى اخرجه الامام يحي بن القاسم وشغل مدة امامته بحروب الصفرية وولي بعده يحي بن ادريس بن عمر وكان شجاعا حازما فقيها محدثا فصيحا ورعا صالحا أكثر الادارسة عدلا واغزرهم

فضلا واعلاهم قدرا وابعدهم ذكرا ولكن مني بالدولة العبيدية التي نصرتها مكناسة وكبيرها موسى بن ابي العافية • فدخلوا عليها فاسا سنة 305 ولم يسعه الا مبايعتهم • ثم نكبه ابن أبي العافية سنة 309 واخرجه عن فاس • وسجنه سنين ثم سرحه • فقصد المشرق • ومات بافريقية سنة 332 جائعا غريبا !

واستولى من بعدة الحسن بن محمد بن القاسم على فاس سنة310 وحارب موسى • فغلبه عليها بعد سنة • ونكبه ومات منكوبا سنة 313 •

وقد كان عدد الادارسة كثيرا • ولكن لم يكن بينهم نزاع على الامامة • ولشهرة ايمتهم في كتب التاريخ وكون مركزهم وأهم آثارهم خارج الجزائر موضوع كتابنا نكتفي عن التعريف بهم برسم جدول لبيان مدتهم •

الامام	الولاية للهجرة	الولاية للميلاد	النهاية للهجرة	النهاية للميلاد	ملاحظات
ادريس بن عبد الله	172	788	177	793	قتل مسموما
ابنه ادريس	188	804	213	828	تركه ابوه حملا
ابنه محمد	213	828	221	835	
ابنه علي	221	835	234	848	
اخوه يحي بن محمد	234	848			ايامه أسس جامع القرويين 245
ابنه يحي بن يحي					مات من مكيدة يهودية
ابن عمه علي بن عمر بن ادريس					طرده عبد الرزاق الصفري
ابن عمه يحي بن القاسم ابن ادريس			292	904	
يحي بن ادريس بن عمر ابن ادريس	292	904	309	921	
الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس	310	922	311	923	

4 ـ العلويـون بالمغـرب الاوسـط

كان المغرب الاوسط لزناتة • وسيادتها لقبيلتين منها هما مغراوة ويفرن • وموطنهما نواحي تلمسان الى وهران الـى شلف شمالا وغريس من ناحية المعسكر جنوبا • ورئاسة مغراوة كانت صـدر الاسلام لصولات بن وزمار ثم ابنه حفص . وكان من أعظم ملوك زناتة ، وخلفه ابنه خزر ، ولعهده كان المغرب ثائرا على بني أمية ، فاعتز بقومه ، وعظم شأنه ، وهلك في بداية الدولة العباسية ، فخلفه ابنه محمد ، وعلى عهده ظهر ادريس •

لما أسس ادريس دولته بالمغـرب الاقصى توجه نحـو المغرب الاوسط كي يفتح لدولته طريقا الى المشرق وما زال المشرق حتى اليوم قبلة آمال الدول وميدان تطاحن الاقوياء منها • فزحف منتصف رجب سنة 173 في جموع مطغرة وغيرهم • ونزل علـى تلمسان • وصاحبها يومئذ محمد بن خزر • فأطاعه وسلم له المدينة • فدخلها من غير حرب • واقام بها أشهرا • بنى بها المسجد الاعظم • وكتب على منبره : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم • وذلك في صفر سنة 174 » • قال ابن خلدون : « ولم يزل اسمه محفوظا في صفح المنبر لهذا العهد » •

أخذت زناتة بدعـوة ادريس وتبعتها مغيلة • وحاربوا لهـا الرستميين وغيرهم • وقامت قيامة هرون الرشيد لما بلغه خبره • وقال : « تلمسان باب افريقية • ومن ملك الباب يوشك ان يلج الدار » • فأوعز الى أمراء القيروان بحربه • فحاربه روح بن حاتم من غـير طائل وهم بعده الفضل ابن روح بحرب المغرب الادريسي • فلم يطعه الجند • وكثر تمرد الجند على الامراء • واستشار الرشيد وزيره

يحي البرمكي • فأشار عليه بارسال داهية يتحيل في اغتيال ادريس • فاختار الشماخ الذي تحيل حتى توصل الى سم ادريس • « ورب حيلة أنفع من قبيلة » •

ولحق بادريس اخوه سليمان • وكان • ممن حضر وقعة فخ ونجا على الصحيح • قال البكري : « قال علي النوفلي أخبرني عيسى بـن جنون قاضي ارشقول لادريس بن عيسى (مـن بني سليمان) ، ودخل الاندلس غازيا ، ان سليمان بن عبـد الله دخل المغرب أيضا • ونزل تلمسان » • وقال ابن خلدون : « لحق سليمان بجهات تاهرت بعد مهلك ادريس • فطلب الامر هنالك واستنكره البرابرة • وطلبه ولاة الاغالبة • فكان في طلبهم تصحيح نسبه (لدى البربر) ولحق بتلمسان • فملكها واذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك » •

ولما هلك سليمان خلفه ابنـه محمد • وكبر ابن عمه ادريس الاصغر • فانصلت ايديهما • ونهض ادريس الى تلمسان سنة 199 وحارب المخالفين عليه من نفزة وبقية الصفرية • وبلغ شلفا وما وراءه الى بلاد صنهاجة • وألفى جامع والده قد انصدع فرممه • وأصلح منبره • نقل ابن ابي زرع عن عبد الملك الوراق انه قال : « دخلت تلمسان سنة 555 فرايت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك مكتوبا فيه : هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر المحرم سنة 199 » •

أقام ادريس بتلمسان ثلاث سنوات • ثم اصطلح مع ابن الاغلب وعينت الحدود بينهما بوادي شلف • وعقد على المغرب الاوسط لابن عمه محمد بن سليمان • وكر راجعا الى عاصمته • واستقر محمد بعين

الحوت من ناحية تلمسان • وتوفي بجبل وهران • وترك ابناء اقتسموا مملكته • وسنفرد لممالكهم فصلا •

وافلت من وقعة فخ ايضا داوود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب • ولحق ببني عمه بالمغرب • وحضر مع ادريس الاصغر بعض وقائعه مع الخوارج • قال البكري : « وانصرف داوود الى المشرق • وبقيت ذريته بفاس • وبنو ادريس يناكحونهم » •

ومن بني جعفر هذا اخي عبـــد الله الكامل رجال نزلوا متيجة وملكوها •

ولحق بالمغرب ايضا من العلويين الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب • ونزل مدينة هاز القريبة من المسيلة • وكانت له من تلك الجهات مملكة • قال البكري : « وكان له من البنين حمزة وعبد الله وابراهيم واحمد ومحمد والقاسم • وكلهم أعقب وعقبهم هنالك » •

واذا نظرنا الى الممالك العلوية من بني محمد بن سليمان وبني جعفر وبني الحسن الفروع الثلاثة التي نزلت المغرب الاوسط وجدناها تمتد على السواحل من أرض الريف غربا الى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقا • وغرضنا الآن معرفة مملكتي هاز ومتيجة •

1 — مملكـــة هـــاز :

تمتد من ناحية البويرة على مقربة من جبال جرجرة الى نواحي زاغز الشرقي الى نواحي قصر البخاري فتشتمل على ســهل حمزة الفسيح • وبهذه الجهة من القرى اليوم عين بسام وسور الغزلان وسيدي عيسى وغيرها •

وسمي سهل حمزة بحمزة بن الحسن صاحب هاز • والبويرة

كانت تسمى سوق حمزة لانه الباني لها • قال البكري : « وسوق حمزة مدينة عليها سور وخندق • وبها آبار عذبة • وهي لصنهاجة • نزلها حمزة بن الحسن وبناها » •

واستمرت مملكة هاز لبني الحسن حتى ظهرت دعوة الشيعة وأخذ بها زيري بن مناد الصنهاجي • فاجلب على مدينة هاز وخربها • وفي أيام المعز بن المنصور اجلب قائده جوهر على هذه المملكة وقضى عليها قال ابن خلدون : « وحمل بني حمزة منهم الى القيروان • وبقيت منهم بقايا في الجبال والاطراف معروفون هنالك عند البربر » •

ومدينة هاز ذكرها البكري فيما بين المسيلة وتاهرت • قال : « مدينة هاز على نهر شتوي • وهي خالية أجلى أهلها زيري بن مناد الصنهاجي ، ومنها الى بورة على نهر جار يسكن حوله بنو يرناتن • وهم كانوا أصحاب هاز • وبورة كثيرة العقارب • وبها سويقة • ومنها الى حصن موزية • وبقرب هذا الحصن قصر من بنيان الاول بالصخر يعرف بقصر العطش حوله ماء ملح ومدينة عظيمة للاول ايضا خالية مبنية بالصخر يعرف بالجليل تسمى مدينة الرمانة تنفجر تحتها عيون ثرة طيبة تسيل الى المسيلة ومدينة للاول ايضا خالية تسمى بالبربرية تاورست تفسيره الحمراء وهي مبنية بالصخر على نهر عذب • ومن حصن موزية الى مدينة المسيلة » •

وقال اليعقوبي ان سكان مدينة هاز هم بنو يرنيان من زناتة خلاف قول البكري انهم بنو يرناتن •

وذكر الادريسي مدينة هاز بين المسيلة واشير فقال : « ومن أشير زيري الى قرية سعيد مرحلة • وبها عين ماء جارية • ومنها الى قرية هاز في فحص رمل مرحلة وبها عيون مياه • وقد خربت • ومنها الى المسيلة مرحلة » وبورة بكسر الواو • تدعى اليوم بورة الصحاري

قريبة من شط زاغر الشرقي • وهاز بينها وبين اشير • فتكون نواحي عين بوسيف •

2 — مملكــة متيجــة :

متيجة سهل فسيح قرب مدينة الجزائر • يفصل بينه وبين سهل حمزة جبال تيطري • قال اليعقوبي : « وهو بلد زرع وعمارة واسع فيه عدة مدن وحصون • تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي ابن ابي طالب • يقال لهم بنو محمد بن جعفر » •ولم نعلم أكثر من هذا عن اصحاب هذه المملكة • ولكن من الضروري انهم سـلكوا سبيل أخوانهم بعد ظهور الشيعة •

وسهل متيجة سمي بمدينته التي كانت فيه • ويقال لها أيضا قزرونة • وتدعى اليوم البليدة • قال البكري : « ومن المدية الى قزرونة وهي مدينة على نهر كبير عليه الارحاء والبساتين • ويقال لها متيجة • ولها مزارع ومسارح • وهي اكثر تلك النواحي كتانا • ومنها يحمل • وفيها عيون سائحة وطواحين ماء • ومنها الى مدينة آغزر ومنها الى مدينة جزائر بني مزغني » •

5 — ممالك بني محمد بن سليمان

نقل ابن خلدون عن ابن حـزم : « ان بني محمد بن سليمان بالمغرب كثير جدا • وكان لهم به ممالك • وقد بطل جميعها • ولم يبق منهم بها رئيس » •

وقد بين اليعقوبي هذه الممالك فقال : « متيجة مدينة مذكرة فيها ولد محمد بن سليمان • ومدينة الخضراء • ويتصل بهذه مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع • يتغلب على هذا البلد ولد محمد بن سليمان كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية • وعددهم كثير

حتى ان البلد يعرف بهم وينسب اليهم • وآخر المدن التي في أيديهم سوق ابراهيم • وهي المدينة المشهورة • فيها رجل يقال له عيسى ابن ابراهيم بن محمد بن سليمان • ثم من هذه الى تاهرت ••

« ثم من مملكة ابن مسالة الهواري الى مملكة لبني محمد بن سليمان ايضا • ومسكنهم في المدينة العظمى تمطلاس • وأهل هذه المملكة من قبائل البربر المتعددة أكثرهم مطماطة • وهم بطون كثيرة ، ولهم في مملكتهم مدينة عظيمة يقال لها ابروح [1] بها بعضهم (يعني بني محمد) وأهلها مطماطة ، ومدينة أيضا يملكها رجل منهم (بني محمد) يقال له عبد الله ، تسمي المدينة الحسنة اذا فسرت من لسان البربر الى العربية » •

« ثم الى المدينة العظمى المشهورة تلمسان ، ينزلها منهم محمد ابن القاسم بن محمد بن سليمان ، ثم مدينة العلويين ، كانت لولد محمد بن سليمان ، ثم تركوها ، فسكنها رجل من ابناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد الزناتي ، ثم منها الى مدينة يقال لها نمالتة [2] فيها محمد بن علي بن محمد بن سليمان ، وآخر مملكة بني محمد مدينة فالوسن وتليهم مملكة صالح بن سعيد الحميري » •

مملكة صالح بن سعيد هي بلد نكور من وطن الريف على البحر في غربيها مرسى بادس ، فتكون ممالك بني محمد بن سليمان تمتد من هناك غربي مدينة مليلة وتذهب مساحلة مشرقة الى ان تنقطع نواحي مستغانم بامارة هوارة ، ثم تعود بناحية تنس وتذهب جنوب شلف الى مليانة وتنتهي بمتيجة •

---

(1) كذا غير معجمة . ولم نهتد الى لفظها .

(2) ذكرها الادريسي بلفظ ثمالة . فقال : من فاس الى نهر سبو . ويمر الطريق منه الى تمالة مرحلة . وهي قبل وادي ملوية غربا . وذكر ابن خلدون في بطون زناتة نمالة . ولم يعين موطنهم .

وذكر التنسي وغيره ان محمد بن سليمان ترك من الابناء آحمد وعيسى وادريس وعليا وابراهيم وحسنا وعبيد الله وعبد الله العالم المحدث ؛ وظاهر اليعقوبي ان منهم القاسم الذي خلفه ابنـــه محمد بتلمسان . وابن خلدون والتنسي وغيرهما يقولون ان الذي كـــان بتلمسان من ابناء محمد هو احمد وهو ولي عهده ، فخلفه بها بعد وفاته ، ثم توفى احمد فخلفه ابنـــه محمد ، ثم خلف محمدا ابنه القاسم ، وعليه انقرض ملك هذا الفرع .

وعلي ظاهر اليعقوبي انه كان بمدينة نمالتة ، وخلفه بها ابنـــه محمد ، ولم نعلم عن هذا الفرع أكثر من هذا .

وعيسى كان بأرشقول ، وطالت مدتــه الى ان توفي سنة 295 فخلفه ابنه ابراهيم ، ويعرف بالارشقولي ، ثم يحي بن ابراهيم ، ثم اخوه ادريس بن ابراهيم ، وظهرت عليه دولة العبيديين .

وادريس كان بجراوة جنوب مليلة شرقي نكور ، وتزوج ابنه احمدام السعد بنت صالح بن سعيد ، وسكن معها مدينة نكور الى ان مات ، وله ابن آخر يدعى عبد الله الترناني كان بترنانا ، والذي خلفه على جراوة من ابنائه وهو ابو العيش عيسى فلما هلك خلفه ابنه الحسن ، ولعهده كانت دولة العبيديين .

قال البكري : « وكان لابي العيش ومن خلفه مدينة تلمســـان ايضا وما والاها » . فيظهر انه استولى على عمل ابناء عمه احمد قبل ظهور العبيديين ، ومدح ابا العيش بكر بن حماد التاهرتي ، قال من كلمة طويلة :

سائل زواغـــة عن فعال سيوفه ورماحـــه في العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها والخيل تمرغ بالوشيج الذبل
عمت مغيلة بالسيوف مذلـــة وسقى جراوة من نقيع الحنظل

وهذه القبائل كانت مساكنها هنالك .

وابراهيم ظاهر اليعقوبي انه كان بسوق ابراهيم ، وخلفه بها ابنه عيسى ، فتكون المدينة منسوبة اليه ، وقال غيره : « كان ابراهيم بتنس وخلفه ابنه محمد ثم يحيى بن محمد ثم علي بن يحيى ، ولابراهيم ولد آخر يدعى عيسى كان مع أخيه محمد بتنس ، ومن ولده ابراهيم المنسوب اليه سوق ابراهيم » ، وما لليعقوبي هو الظاهر لان سوق ابراهيم كانت اعمر من تنس .

وحسن . قال التنسي كان بتاهرت ، وظاهر انه أراد ناحيتها ، ولا نعلم أي مدينة كان فيها ، وخلفه ابنه حناش ثم بطاش بن حناش ، ولا نعلم عن هذا الفرع أكثر من هذا كما انا لم نعلم شيئا عن الاخوين الباقيين وهما عبيد الله وعبد الله .

وقد رأينا ان نشرح من حال المدن السابقة مما عثرنا عليه ما يبين الموقع والاهمية تاركين الحديث عن المراسي الممتدة شمال هذه الممالك مثل وهران وعين فروج وقصر الفلوس لكثرتها وطول الحديث عنها ، فاما مدكرة فلم نجد لها ذكرا ولا ما يقارب لفظها غير كلمة زكار اسم جبل مليانة فان لم تكن مدكرة هي مليانة فقريبة منها ، قال البكري :

« تسير من سوق كرام الى مليانة ، وهي مدينة رومية فيها آثار وهي ذات أشجار وانهار تطحن عليها الارحاء ، جددها زيري بن مناد واسكنها ابنه بلقين (خليفة العبيديين بالقيروان) وهي عامرة ، ومنها الى مدينة الخضراء ، وهي مدينة كبيرة على نهر خرار عليه الارحاء ، واذا حمل دخل المدينة ، وحولها بساتين كثيرة ، ويكتنفها من قبائل البربر مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو واريفن ، ومنها الى مدينة بني واريفن ، وهي قديمة ، لمطغرة ، على نهر شلف ، بها حوانيت ، وحولها مسارح واسعة كثيرة الكلأ ، ومنها الى مدينة قارية ، وهي مدينة لطيفة ذات أعين كثيرة وهي في سفح جبل . ومنها الى مدينة تنس » .

هذه طريق اشـــير الى تنس • وهناك طريـــق أخرى قال فيها البكري : « وان آردت طريق الساحل من تنس الى اشير زيري فمن تنس الـــى بني جليداسن مدينة لطيفة لمطغرة يســـكنها الاندلسيون والقرويون ولا يدخلها برقجاني من وقت غدرهم بها وهي بلدة طيبة بها عيون عذبة • وهي مطلة على فحص شلف • وهناك مدينة شلف على نهر بها سوق عامرة • تعرف بشلف بني واطيل لزواغة • ومنها الى بني واريفن » •

وذكر طريقا اخرى بين القيروان وتنس • فقال : « من القيروان الى مدينة الغزة على ما تقدم • ثم منها الى مدينة تاجنة ، وهي مدينة سهلية آهلة عليها سور ، وبها جامع ، سكانها برقجانة • وحولها كزناية ، ومنها الى تنس » •

ومدينة الغزة هي المعروفة اليوم بغليزان • وتاجنة هي التـــي سماها الادريسي بلدة التين لكثرة شجره بها • وذكرها على مرحلة من تنس • وذكر سوق ابراهيم متوسطة بين الغزة وبلدة التين • وسوق ابراهيم حيث مصب نهر اسلي في شلف •

وتنس هي قرطنة الفينيقية ، وقد خربت قديما • وانتقلت العمارة الى تنس الحديثة • قال البكري : « بينها وبين البحر ميلان • وهي مسورةحصينة• داخلها قلعةصغيرة صعبةالمرتقى• ينفرد بسكناها العمال لحصانتها • وبها مسجد جامع واسواق كثيرة • وهي على نهر يسمى تناتين ياتيها من جبال على مسيرة يوم • ياتيها من القبلة • ويستدير بها من جهة الجوف والشرق • ويريق في البحر • وبها حمامات •

وهذه تنس الحديثة اسسها البحريون من أهل الاندلس منهـــم الكركرني وابو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم • وذلك سنة 262 ويسكنها من أهل الاندلس أهل البيرة وأهل تدمير • واصحاب تنس

من ولد ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن علي (ض) •

« وكان هؤلاء البحريون من أهل الاندلس يشتون هنالك ، اذا سافروا من الاندلس ، في مرسى على ساحل البحر ، فتجمع اليهم بربر ذلك القطر ورغبوا في الانتقال الى قلعة تنس ، وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى ، ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة ، فأجابوهم وانتقلوا الى القلعة ، وخيموا بها ، وانتقل اليهم من جاورهم من أهل الاندلس وغيرهم ، فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبئوا الموضع ، فركب البحريون الاندلسيون مراكبهم واظهروا لمن بقي منهم انهم يمتارون ، فنزلوا مرية بجاية وتغلبوا عليها » •

« ثم ان الباقين في تنس لم يزالوا في تزايد ثروة وعدد ، ورحل اليهم أهل سوق ابراهيم ، وكانوا في اربعماية بيت ، فتوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم ، وتعاونوا على البنيان • واتخذوا الحصن الذي فيها اليوم » •

« ولها بابان الى القبلة وباب البحر • وباب ابن ناصح وباب الخوخة شرقي يخرج منه الى عين تعرف بعين عبد السلام ثرة عذبة » •

ومدينة العلويين ذكرها الادريسي في طريق فاس على مرحلة من تلمسان • قال : « وهي قرية كبيرة على نهر ياتيها من القبلة وفواكهها فاضلة وخيراتها شاملة » •

ومدينة ترنانا وسط بين مدينتي جراوة وتلمسان ، قال البكري : « وهي مدينة مسورة ، ولها سوق ومسجد جامع ، وبساتين كثيرة • وبينها وبين ندرومة ثمانية أميال » •

وارشقول مؤسسة مكان صيغة القديمة ، قال البكري : « وهي على نهر تافنا يقبل من قبليها ويستدير بشرقيها تدخل منه الى المدينة السفن اللطاف من البحر • وبينهما ميلان ، وهي مسورة وبها جامع حسن فيه سبعة بلاطات ، وفي صحنه جب كبير ، وصومعة متقنة البناء ، وفيها حمامان احدهما قديم ، ولها من الابواب باب الفتوح غربي وباب الامير قبلي وباب مرنيسة شرقي ، محنية كلها عليهـا منافس ، وسعة سورها ثمانية أشبار ، وامنع جهاتها جوفيها ، وبها آبار عذبة لا تغور • تقوم باهلها ومواشيهم ، ولها ربض من جهة القبلة ، ويقابلها جزيرة في البحر تسمى جزيرة أرشقول ، بينها وبين البر قدر صوت رجل جهير في سكون البحر ، وهي مستطيلة من القبلة الى الجوف عالية منيفة » •

وجراوة سميت باسم قبيلة بربرية من زناتة كانت هناك ، وهي على ستة أميال من البحر وعلى مرحلة من وادي ملوية الى ناحية تلمسان قال البكري . « وهي في سهل من الارض كان عليها سور مبني بالطوب ، وداخلها قصبة ، وحولها ارباض من جميع جهاتها وعيون ملحة ، وداخلها آبار عذبة وخمس حمامات احدها ينسب الى عمرو بن العاص ، وجامع من خمسة بلاطات على عمدة حجارة • أسسها ابو العيش عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان سنة 259 وكان لها بابان شرقيان وثالث غربي ورابع جوفي ، وحواليها بسائط عريضة للزرع والضرع وعدة قرى لقبائل من البربر : مطغرة وبني يفرن وودانة ويغمر الجبل وبني راسين وبني باداسن وبني ورميش وغيرهم • ولجراوة مرسى تافرجينت • وجبل مما لوا قبلي المدينة به حصن بناه الحسن ابن ابي العيش • حواليه بساتين ومياه تطرد • وبينه وبين جراوة اربعة اميال ويتصل بالحصن اسفل الجبل شعاري اشبة لا تسلك » • اهـ بيعض تصرف •

6 ـ سقوط الدولة الادريسية

تأسست الدولة الادريسية سنة 172 (788م) وانتهت بالقبض على الحسن الحجام سنة 311 (923م) فكانت مدتها 139 سنة قمرية ومملكة الادارسة واسعة النطاق تشتمل على المغرب الاقصى أجمع وبعض المغرب الاوسط . وبها حصون طبيعية ومعاقل ممتنعة . ولكن سهل سقوطها في يد العبيديين اشتمالها على ضعفين سياسي واداري .

ذلك ان الادارسة بقوا تلك المدة في الملك من غير مزاحم ولم يعتنوا بتهذيب البربر تهذيبا يحبب اليهم النظام ويكره اليهم الفوضى . بل ان البربر لم يزالوا على حالهم يتشوقون لمن يقودهم الى الثورة عسى ان يقضوا بعض الزمان في الفوضى فما كادت تظهر دعوة العبيديين حتى هرعوا اليها . ولقبيلة مكناسة وأميرها موسى بن ابي العافية اليد الطولى في اعانة العبيديين على الادريسيين .

وكان النظام الاداري على ما علمت قد فكك وحدة الدولة الحربية وذهب بقوتها المالية . فلم تجد ما تدافع به ذلك الخطب الداهم . ولانفصال أعمال المملكة بعضها عن بعض اداريا لم تسقط كل الاعمال بسقوط فاس . فان الجزائر العلوية بقيت بعدها مدة .

لما ظهرت دعوة العبيديين بالمغرب وقضت على الدعوة الادريسية زاحمتها الدعوة الاموية فافتتح عبد الرحمن الناصر مليلة سنة 314 وبث دعاته بالمغرب . فلباه ادريس بن ابراهيم صاحب أرشقول . وكاتبه واهدى اليه . واقتفي أثره في ذلك الحسن بن ابي العيش صاحب جراوة وموسى بن ابي العافية ومحمد بن خزر المغراوي فنازلتهم جيوش العبيديين . فخضع لهم صاحبا جراوة وأرشقول خضوع من عجز عن المقاومة . وكلف الناصر بحربهما موسى بن ابي العافية . فوقعا بين قوتين اوجبتا تلونهما في السياسة .

في سنة 315 بعث عبيد الله المهدي ابنه ابا القاسم لاخضاع المغرب • فافتتح بلد نكور • ونازل الحسن صاحب جراوة وضيق عليه وفي سنة ٣١٩ زحف موسى بن أبي العافية بدعوة العبيديين الى تلمسان وغلب عليها الحسن • قال ابن خلدون : « ففر عنها الى مليلة • وبني حصنا لامتناعه بناحية نكور • فحاصره (موسى) مدة ثم عقد له سلما على حصنه » قال السلوي : « وكان عقد السلم في شعبان سنة عشرين وثلاثمائة » • وفي هذه السنة أخذ موسى بدعوة الناصر الاموي •

وفي سنة 33 جهز ابو القاسم بن المهدي عسكرين احدهما الى فاس بقيادة ميسور الخصي • والآخر ارسله مددا لميسور بقيادة صندل الفتى الاسود • قال البكري : « فخرج صندل من المهدية في جمادى الاخيرة سنة 323 فوصل جراوة الحسن بن ابي العيش فاستراح بها أياما » • وقال ابن خلدون : ان صندلا حاصر جراوة • فعلى روايته يكون الحسن غير خاضع للعبيديين يومئذ • وعلى رواية البكري يكون خاضعا لهم • وهي أصوب •

ولما افتتح ميسور فاسا حارب ابن ابي العافية وهزمه • وقفل الى القيروان • فعرج على ارشقول • وخرج اليه صاحبها ادريس ابن ابراهيم ملاطفا له بالتحف فاستراب به • وتقبض عليه واصطلم نعمته • كذا في ابن خلدون • وفي البكري ان المتقبض عليه أخوه يحيى • قال ابن خلدون : وولي مكانه ابا العيش بن عيسى منهم • والظاهر ان في العبارة حذفا وتحريفا • وصوابها : وولي مكانه الحسن ابن ابي العيش عيسى • وهذا الحسن هو صاحب جراوة • وقد كان يومئذ آخذا بدعوة العبيديين • فلعلهم اضافوا اليه ارشقول أيضا •

ولما عاد ميسور الى افريقية رجع موسى بن ابي العافية للاغارة

على اعمال العبيديين • قال ابن خلدون : « وزحف الى تلمسان • ففر عنها ابو العيش • واعتصم بارشقول • فنازله وغلبه عليها سنة 25 ولحق ابو العيش بنكور • واعتصم بالقلعة التي بناها هنالك لنفسه •• ثم سرح (موسى) ابنه مدين في العساكر • فحاصر ابا العباس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها » • ولفظ ابي العباس وابي العيش محرفان • وصوابهما الحسن بن ابي العيش • وتلك القلعة هي الحصن الذي تقدم ان الحسن بناه بناحية نكور • وهو الحصن الذي ذكره البكري بجبل ممالوا • قال البكري : « وفي الحصن المذكور اسر البوري بن موسى بن ابي العافية الحسن بن ابي العيش سنة 338 وكان قد انتقل اليه من جراوة باهله وماله وولده » • ويؤيد اتحاد الحصن وصاحبه قول ابن خلدون في اخبار الادارسة : « لما أخذ ابن ابي العافية بدعوة الاموية نابذ اولياء الشيعة فحاصر صاحب جراوة الحسن بن ابي العيش وغلبه على جراوة • فلحق بابن عمه ادريس بن ابراهيم صاحب ارشقول ثم حاصرها البوري بن موسى بن ابي العافية • وغلب عليهما • وبعث بهما الى الناصر • فأسكنهما قرطبة » •

ولما ذكر البكري جزيرة أرشقول قال : « واليها لجأ الحسن بن عيسى ابي العيش صاحب جراوة وتخلى مما كان بيده لما غلبه على ذلك موسى بن ابي العافية •• فكتب موسى الى صاحب الاندلس عبد الرحمن الناصر يسأله نصرته عليه ويقرب له المأخذ •• فأمر عبد الرحمن أهل بجانة وغيرهم من أهل السواحل باقامة خمسة عشر مركبا حربية • ثم جهزها بالرجال والسلاح والازودة والاموال • فاحاطت بهذه الجزيرة • وقتلوا كثيرا ممن كان فيها وحاصروهم حتى كادوا يهلكون عطشا لما نفذت مياه جبابهم حتى تداركهم الله بغيث وابل فلم يطمع فيهم أهل الاسطول حين سقوا وانصرفوا قافلين فوصلوا الى المرية في شهر رمضان سنة عشرين وثلاثمائة • ثم ظفر البوري بن

موسى بن ابي العافية بالحسن بن عيسى الذي لجأ الى أرشقول وبعث به الى عبد الرحمن الناصر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة » •

وفي تاريخه وصول الاسطول الى المرية نظر فقد تقدم ان موسى حارب الحسن باسم العبيديين وعقد له السلم سنة عشرين ثم حاربه سنة خمس وعشرين باسم الامويين •

وبعد فقد بذلنا الوسع لجمع الروايات وتمحيصها فيما يتعلق بأخبار صاحبي أرشقول وجراوة مع العبيديين والامويين[1] فلم نستطع ان نفيد القارىء باكثر مما وضعناه بين يديه •

اما صاحب تنس علي بن يحي فقد تأخر سقوط امارته الى سنة 342 ففيها تغلب زيري بن مناد على تنس ولحق علي بن يحي بالخير بن محمد بن خزر المغراوي صاحب وهران يومئذ • واجاز ابنا علي يحي وحمزة الى الناصر • فلقاهما رحبا وتكرمة • ثم عاد يحي منهما الى طلب تنس فلم يظفر بها • وجواز ابني علي الى الاندلس يدل على ان اباهما كان آخذا بالدعوة الاموية مثل ابن عمه صاحب ارشقول •

هكذا انتهى أمر بني سليمان من الجزائر وسقطت معهم الجزائر العلوية بعد نحو نصف قرن من سقوط فاس •

---

(1) التقطنا تلك الاخبار من المغرب للبكري صفحات 78 ' 98 ' 142 — 143 ومن ابن خلدون (4:17—18 ' 39 ' 141) 6:135—6 ' 213 (7:76)

الباب الرابع

في الدولـة الاغلبيـة

١ ــ كلمة عن الدولة العباسية

الدولة الاغلبية مرتبطة بالدولة العباسية وجزء من أجزائها . تستمد من أنظمتها ومعارفها وحضارتها . فلا بد من كلمة عن الدولة العباسية تعيننا بعض الاعانة على تصور الدولة الاغلبية .

بعد عراك شديد بين الامويين والعباسيين ظهر العباسيون . وبويع بالكوفة ابو العباس السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . وذلك سنة 132 (750م) وجاء بعده أخوه المنصور . فاسس بغداد سنة 145 (762م) وانتقل مركز الخلافة اليها فلم تزل دار الخلافة العباسية وقبلة آمال رواد المعارف ومصدر الحضارة الاسلامية حتى استولى عليها التتر وقتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين بها سنة 656 (1258) .

اجتازت الخلافة ببغداد ثلاثة أدوار : دور الصعود والعظمة (132 — 247) انتهى بقتل جعفر المتوكل سنة 247 ، دور الهبوط الى دخول معز الدولة بن بويه بغداد على عهد المستكفي سنة 334 حيث قضى على ما بقي للخلفاء من نفوذ سياسي ، ويومئذ دخلت الخلافة دورا ثالثا أصبحت فيه عبارة عن ذكر الخليفة في السكة والخطبة . وقالوا أنها صارت رئاسة دينية . ولكنها ــ عندي ــ رئاسة وهمية اخترعها السلاطين المتغلبون على الخلافة تعزيزا لمركزهم لا تقوية للخلافة اذ حياة الخليفة في هذا الدور تحت رحمة السلاطين . فكيف يعقل له نفوذ ديني ؟

وقد تأسست الدولة الاغلبية في شباب الدور الاول حيث عني

الخلفاء بتنظيم شؤن الدولة واحداث المناصب وضبطها في الحكومة • فنقلوا الدولة من بساطة الخلافة وسذاجتها الى ضخامة الملك ودقة نظمه ، وعنوا كذلك بالعلوم والآداب وترقية المدارك عناية لم يسبقوا بها ولا حاكاهم من بعدهم فيها • ترجموا علوم اليونان وآداب الفرس وحكمة الهند ، وبذلوا في ذلك الاموال وقربوا أهل العلم ايا كان جنسهم ودينهم ، وأسسوا المكـاتب والمدارس ، فانطلقت الافكار متسابقة في مبدان الابتكار • فانتشرت العلوم والمعارف وترقت الآداب ولطفت الاذواق ، وعم التهذيب الافكار والاعمال من انشاء وتحرير وبناء وتزويق وغناء وتوقيع وهلم جرا •

قال سديو في كتابه « خلاصة تاريخ العرب » : « وأظهر ذوو الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه الرشيد الى شرلمانية ملك الفرنسيس من الساعة الكبيرة الدقاقة التي تعجب منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيب عدتها » •

وأظهر خلفاء الدور الاول عناية بالعلوم والحضارة ابـو جعفر المنصور وهارون الرشيد وعبد الله المأمون ، وجاراهم في عنايتهم من بعدهم من الخلفاء وقلدهم فيها ولاتهم بالجهات مثل الاغالبة ، ولعل تلك الساعة الدقاقة انما اجتازت الى فرنسا على طريق القيروان •

ولما اخذت الدولة في السقوط السياسي كانت العلوم والآداب والصنائع والفنون الجميلة قد نضجت وأصبحت الامة قادرة عـلى القيام بها متعشقة لها ، فلم يضرها ما أصاب الدولة من خلل بل بقيت في سيرها الى الامام تخدمها الايام •

2 ــ تاسيس الدولـة الاغلبيـة

كان المغرب لعهد تاسيس الدولة العباسية يضطرب فتنة ، فلما

كانت خلافة ابي جعفر المنصور اهتم به ، فولى عليه محمد بن الاشعث الخزاعي ، وكان الاغلب بن سالم التميمي بخراسان من اضراب ابي مسلم الخراساني وكبار أولياء الدولة . فقدم المغرب مع ابن الاشعث . وكان الزاب هو طريق ثوار المغرب الاوسط الى افريقية فلما خلصت افريقية لابن الاشعث ولى الاغلب على الزاب كي يكون سدا في وجوه الثوار ، فنزل قاعدته طبنة .

وفي سنة 148 عاد ابن الاشعث الى المشرق فقلد المنصور الاغلب امارة المغرب ، فانتقل الى القيروان ، وقتل في بعض مواقفه مع الثوار سنة 150 وصارت الامارة الى آل ابي صفرة الازديين ، وكان من ولاة طبنة أيامهم المخارق بن غفار الطائي ثم المهلب بن يزيد من آل المهلب ابن صفرة ثم ابراهيم بن الاغلب ، وانقضت امارة آل ابي صفرة وولي الامر هرثمة بن أعين .

قدم هرثمة القيروان سنة 177 فهاداه ابراهيم بن الاغلب ولاطفه فاقره على عمله بطبنة ، فبقي عاملا له ولمحمد ابن مقاتل العكي من بعده ، وثار الناس بابن مقاتل واخرجوه من القيروان ، فبلغ الخبر ابراهيم بن الاغلب فسار في جنوده ودخل القيروان واعاد اليها أميره العكي ، ولكن الناس سئموا سيرته ، وداخلوا ابراهيم في مخاطبة الخليفة بولايته على المغرب .

هناك أتيحت لابراهيم فرصة الاستقلال فانتهزها ، وكتب الى الرشيد طالبا منه امارة القيروان على ان يؤدي اليه كل عام اربعين الفا ويسقط مائة الف دينار كانت مصر تعين بها المغرب ، فاستشار الرشيد اصحابه ، فاشار عليه هرثمة بولايته . فكتب العهد له بذلك منتصف سنة 184 (800م) .

ولقد كان الرشيد حريصا على بقاء المغرب متصلا بدولته ، وقد

علم ضعف الامراء السابقين عن مقاومة ثواره ، فكان يوالي شرلمانية ملك الافرنج كي يتخذ منه سدا أروبيا في وجوه بني أمية ، ثم أقام ابن الاغلب سدا افريقيا في وجوه تلك الدول المستحدثة بالمغرب ، فكان رشيدا في سياسته كما كان ابن الاغلب كفؤا لامارة القيروان •

3 ــ الحكومــة الاغلبيــة

الحكومة الاغلبية تابعة لبني العباس اسما ومستقلة فعــلا ، واستفاد العباسيون من هذا الارتباط فائدة ادبية هي رسوخ سيادتهم في قلوب البربر رسوخا عجز العبيديون عن محاربته وظهرت آثاره ايام المعز الصنهاجي •

واستفاد الاغالبة مــن ذلك فوائــد علمية وادارية وسياسية ، فاستمدوا من العباسيين معارف ونظما ادارية وقبل البربر والعرب سيادتهم ، فلم يلقوا اضطرابات داخلية ولا وقعوا بين هجمات شرقية وغربيــة •

ورئيس الحكومة يلقب الامير ، والقضاء مستقل عنه وغير مقيد بمذهب من مذاهب السلف ، وللامير وزيران مفوضان قد يصل بهما النفوذ الى الاستبداد عليــه ، وتحتهما وزراء منهم صاحب الخراج بمعنى وزير المالية اليوم ، وصاحب البريد ، وقائد الجيش بمعنى وزير الحرب ؛ ومقدم الاسطول بمعنى وزير البحر •

ونفوذ الامير يمتد بواسطة عماله على جميع المملكة من طرابلس الى الحضنة والزاب ، وهنالك أماكن لا تصل اليها ايدي العمال • ومن الجهات ما تتوارث ولايته اسرة خاصة •

والحكومة الاغلبية أقوى حكومات المغــرب يومئذ على حفظ الامن واحسنها سياسة للرعية • وامراؤها ابقى الامراء آثارا • ومملكتهم

أعلى الممالك حضارة • والتعريف بهؤلاء الامراء خارج عن موضوع كتابنا فنكتفي برسم جدول لتاريخ ولايتهم •

الامير	الولاية هـ	الولاية م	الامير	الولاية هـ	الولاية م
ابراهيم بن الاغلب	184	800	ابنه زيادة الله الثاني	249	863
ابنه ابوالعباس عبدالله	196	812	اخوه ابو الغرانيق محمد	250	864
اخوه زيادة الله الاول	201	817	اخوهما ابراهيم	261	875
اخوهما ابو عقال الاغلب	223	838	ابنه ابو العباس عبدالله	289	902
ابنه ابو العباس محمد	226	841	ابنه زيادة الله الثالث	290	903
ابنه ابو ابراهيم احمد	242	856	وبه انتهت الدولة	296	909

4 — الجزائر الاغلبية

ذكر اليعقوبي الزاب • ونسب اليه مدنا منها باغاية وتيجس وميلة وسطيف، وبلزمة ونقاوس وطبنة ومقرة وأدنة • قال : « ومدينة ادنة هي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الاغلب • ولم يتجاوزها المسودة » • والمسودة هم العباسيون لان راياتهم سود وشعارهم السواد • وادنة كانت بالحضنة •

هذه الرواية الوحيدة التي عينت حدود الجزائر الاغلبية غربا • ويظهر أنها تنتهي جنوبا الى وادي ريغ الى شط الجريد ، وشمالا الى نواحي سطيف وميلة • ويخرج عنها شمالا وطن فرجيوة وجبال بني خطاب وبني تليلان الى السكيكدة ، وغربا وطن زواوة وصنهاجة • وكان مناد بن منقوش الصنهاجي يقيم الدعوة العباسية ويرجع الى الاغالبة من غير ان يكون لهم عليه نفوذ فعلي • ويظهر ان نفوذ الاغالبة بأوراس ضعيف • وكانوا يشرفون عليه من مدينة باغاية •

وقد رأيت ان الزاب كان يطلق على غالب عمالة قسنطينة اليوم • واختص لعهد ابن خلدون بما هو جنوب أوراس • قال : والجانب الغربي منه قاعدته طولقة ، والوسط قاعدته بسكرة ، والشرقي قاعدته بادس ، ومن مدن الجزائر الاغلبية مجانة وتيفاش وبشرة والغدير •

ومجانة تعرف ايضا بمجانة المطاحن وهي على مرحلة شرقي مسكيانة • مدينة قديمة كبيرة عليها سور طوب • وبها جامع وحمامات• وبها مقطع حجارة الارحي ليس على الارض مثله وحولها معادن الفضة والحديد والكحل والرصاص والمرتك بين جبال وشعاب • ومن سكانها السناجرة أصلهم من ديار ربيعة • وهم جند السلطان • هذا ما وصفها به اليعقوبي والبكري • ويطلق اليوم اسم مجانة على سهل غربي برج بوعريريج •

وبشرة على ثلاث مراحل من الجريد • قال اليعقوبي : « وهي اعظم مدائن نفزاوة • وبها ينزل العمال » •

وتيفاش قال البكري : « مدينة اولية شامخة البناء • فيها عيون ومزارع كثيرة • وهي في سفح جبل • وفيها آثار للاول كثيرة » •

وباغاية مدينة جليلة اولية ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح • ويتصل بناحيتها الغربية بساتين ونهر • وحولها من بقية النواحي ربض كبير • به فنادقها وحماماتها واسواقها • وجامعها داخل الحصن • وبفحصها قبائل مزاتة وضريسة رحالة • وقد خلي الربض زمن الادريسي » وهي بين خنشلة والعين البيضاء •

وتيجس من عمل باغاية شمالها • مدينة اولية شامخة البناء كثيرة الكلأ والربيع • عليها سور صخر رومي • ولها ربض • وبها أسواق وجامع وحمام • وحولها من قبائل البربر نفزة وورغروسة وبنو ونمو وكزناية وحمزة من زناتة •

وبلزمة قال اليعقوبي : « أهلها من بني تميم ومواليهم • وقد خالفوا على ابن الاغلب في هذا الوقت » • وسبب خلافهم ان الامير ابراهيم بن ابي ابراهيم اتخذ نحو الالف منهم جندا• ثم أمر بقتلهم • فقتلوا عن آخرهم بعد دفاع • وقال البكري المتأخر عن اليعقوبي : « هو لمزانة حصن قديم في بساط من الارض كثير المزارع والقرى كثير الانهار والثمـــار » •

ونقاوس قال اليعقوبي : « كثيرة العمارة والشجر والثمر ، بها قوم من الجند وحولها البربر من أوربة وغيرهم » •

ومقرة بسكون القاف قال : « لها حصون كثيرة • وأهلها من بني ضبة وغيرهم • وحولها بنو زنداق وغيرهم » • قال البكري : « مقرة بلد كبير ذو ثمار وانهار ومزارع » • والى مقرة هذه ينسب المقريون الشهيرون بالعلم والادب الذين منهم صاحب نفح الطيب •

وادنة اخربها علي بن حمدون صاحب المسيلة سنة 324 وكل من مقرة وادنــة في وطــن الحضنة • وجاءت في اليعقوبي وياقــوت بلفظ اربة (1)•

وطولقة قال البكري : « هي ثلاث مدن كلها عليها أسوار طوب وخنادق • وحولها أنهار • وهي كثيرة البساتين بالزيتون والاعناب والنخيل والشجر وجميع الثمار • احداها يسكنها المولدون والثانية يسكنها اليمن والثالثة يسكنها قيس » •

وبسكرة بكسر الباء والكاف قال : « كورة فيها مدن كثــيرة قاعدتها بسكرة • وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون واصناف الثمار • عليها سور وخندق • وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات •

---

(1) وقد غرنا ذلك فكتبنا ما كتبنا بهامش ص 334 من الجزء الاول •

وحولها بساتين مساحة ستة اميال • ولها ارباض خارج الخندق ، وابواب منها باب المقبرة وباب الحمام • وسكانها المولدون • وهم على مذهب أهل المدينة • وبها علم كثير » •

وبادس قال : « على مرحلة شرقي تهوذة • وهي حصنان لهما جامع واسواق وبسائط ومزارع جليلة يزرعون بها الشعير مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة » •

والغدير قريبة من برج بوعريريج • مدينة كبيرة أولية بين جبال • فيها عين ثرة عذبة عليها الارحاء وعين أخرى • وتحتهما عين خرارة تدعى عين مخلد • ومن هنالك منبعث نهر سهر • وبها جامع واسواق عامرة وفواكه كثيرة • واسعارها رخيصة • وسكانها هوارة يعتدون في ستين ألفا » •

وسطيف « مدينة كبيرة جليلة اولية كان عليها سور خربته كتامة مع ابي عبد الله الشيعي • وهي عامرة جامعة كثيرة الاسواق رخيصة الاسعار » قال اليعقوبي : » وبها قوم من بني أسد بن خزيمة عمال من قبل ابن الاغلب « آخرهم علي بن جعفر •

وميلة قال اليعقوبي : « مدينة عظيمة جليلة عامرة محصنة لم يلها وال قط ، وبها حصن دون حصن • فيه رجل من بني سليم يقال له موسى بن العباس بن عبد الصمد من قبل ابن الاغلب ، وسواحل البحر تقرب من هذه المدينة ، ولها من المراسي جيجل وقلعة خطاب والسكيكدة وغيرها • وهذا البلد كله عامر كثير الاشجار والثمار ، وهم في جبال وعيون » •

وقال البكري : « خربها المنصور بن بلقين الصنهاجي سنة 378 وأجلى أهلها • وبقيت خرابا ثم عمرت • وعليها اليوم سور صخر • وحولها ربض • وبها جامع واسواق وحمامات • والمياه تطرد حولها •

يسكنها العرب والجند والمولدون ، وهي من غرر مدن الزاب ، ولها باب شرقي ؛ يعرف بباب الروس وعلى مقربة منه جامعها ، وهو ملاصق لدار الامارة ؛ وباب جوفي يعرف بباب السفلي ، ويليه داخل المدينة عين تعرف بعين أبي السباع مجلوبة تحت الارض من جبل بني ياروت ، يشق منها سوقها ساقية ، ولها حمامات في ربضها ، وبها عين تعرف بعين الحمى يرش منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشدة بردها » .

وينسب اليها علماء كثيرون . واشتهر في عالم الادب ابو عبد الله ابن قاضي ميلة . أورد له قطعا الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم . ومن روائع شعره قوله :

جاءت بعود تناغيه فيتبعها   فانظر عجائب ما يأتي به الشجر
غنت على عوده الاطيار مفصحة   رطبا . فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزال عليه او به طرب   يهيجه الاعجمان الطير والوتر

5 ـ سقوط الدولة الاغلبية

تأسست الدولة الاغلبية سنة 184 وسقطت سنة 269 فمدتها 112 سنة قمرية . وكان سقوطها على يد ابي عبد الله الشيعي . ذلك انه نزل بفرجيوة من أرض كتامة سنة 280 واخذ في تمهيد الامر لعبيد الله المهدي . فارسل الامير ابراهيم الاغلبي الى موسى بن العباس عامله بميلة يستخبره عنه . فهون أمره عليه . ولما اشتد ساعده بكثرة الاتباع ارسل اليه الامير ابراهيم قائلا :

« ما حملك على التعرض لسخطي والوثوب على ملكي ، فان كنت تبتغي عرض الدنيا منحناك اياه . وان أردت غير ذلك فقد علمت عواقب

من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك • وهذا أول كلامي وآخره • فانظر في يومك لغدك » •

فقال ابو عبد الله للرسول : « قد قلت فاسمع وبلغت فأبلغ • اني لست ممن يروع بالايعاد وفي انصار الدين الذين لا يخشون كثـرة انصار الظالمين • وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة • ولا طمع لي فيما عنده • وانما جئت لامر حم » •

ولم يكن بعد من الامير ابراهيم الا ان خرج غازيا لصقلية سنة 84 وترك مكانه ابنه ابا العباس واوصاه بمسالمة الشيعي وان غلب عـلى افريقية فليلحق بصقلية • وبلغ ابا العباس عن ابنه زيادة الله وما حمله على سجنه ، فصانع زيادة الله بعض الخدم على قتل والده وقتله سنة 90 والحرب قائمة بين الاغلبيين والشيعيين بنواحي سطيف • ثم جلس مكان ابيه وقتل كل من يظن فيه منازعته من اخوته وعمومته • وعكف على الملاهي وأهمل أمر الدولة •

تلك حال الاسرة الاغلبية في هذا الوقت • أما الجند فكان مؤلفا من عرب وبربر من أهل الشام وخراسان وغير ذلك • وكلهم مأجورون ليست لهم غاية دينية أو غيرة وطنية • وربما ثاروا على الحكومة وخرقوا حجاب هيبتها • فلم يكن لهم مـن الحماسة والاخلاص ما لاصحاب الشيعي •

ولم تعمل الحكومة لبسط نفوذها على جميع المملكة • وكانت هذه السياسة نافعة في قلة الثورات الداخلية حتى لا تشتغل باطفائها عن الجهاد الذي كانت معنية به • لكنها ضارة من حيث ترك السبيل لمن يبث دعاية ضد الحكومة ويفسد عليها الرعية •

فلولا سوء هذه السياسة ما وجد الشيعي مكانا لبث أفكاره • ولولا سوء النظام العسكري لتغلبت الدولة على الثورة • ولولا قتل

زيادة الله لابيه واقاربه لامكن للدولة ان تعيش اكثر مما عاشت بافريقية او بصقلية •

والجزائر غير الخاضعة للدولة هي الثائرة • والجزائر الخاضعة لها هي المدافعة • وبتغلب الشيعي عليها تم سقوط الدولة الاغلبية • ففر زيادة الله الى المشرق • واعانه المقتدر العباسي على استرجاع مكانه • ولكن صدق عليه المثل : « الصيف ضيعت اللبن » فلحق ببيت المقدس • وتوفي هنالك ولسان حاله ينشد :

رزقت ملكا فلم أحسن سياسته   كذاك من لا يسوس الملك بخلعه

الباب الخامس

في الدولة العبيدية

ا ــ تمهيــد

كانت الجزائر في القرن الثالث مقسمة بين أمارات حفظت التوازن بين ذوي السلطان ؛ وارضت القبائل المتعادية باستقلال بعضها عــن بعض ، فكان ذلك الانقسام مسكنا للثورات منشطا للحياتين العلمية والاقتصادية .

وفي النصف الاخير من هــذا القرن ساءت الحياة الاقتصادية وارتفعت الاسعار . قال ابن ابي زرع :

« وتوالى القحط سنة 253 الى سنة 65 حتى انه عم سنة 60 بلاد الاندلس والمغرب ومصر والحجاز . وفي سنة 276 طبقت الفتنة جميع بلاد الاندلس والمغرب وافريقية . وفي سنة 285 كانت المجاعة الشديدة التي عمت بلاد الاندلس والعدوة حتى اكل الناس بعضهم بعضا . ثم أعقب ذلك وباء ومرض وموت كثير . هلك فيه من الناس ما لا يحصى » .

لم يخف على ايمة الشيعة بالمشرق ما عليــه المغرب من ضعف سياسي بسبب انقسامه الى امارات . ومن ضعف مادي لما حل به من المجاعات والموتان فأرسلوا دعاتهم اليه لينشؤا به دولة . ففازوا . وتأسست الدولة العبيدية التي ابتلعت تلك الامارات ووحدت الادارة . ولكنها اعادت للمغرب حياة الثورات .

وهي تنسب الى عبيد الله المهدي اول أيمتها . وكانت قاعدتها

المهدية نسبة اليه ايضا • ثم انتقلت الى مصر وعرفت هناك باسم الدولة الفاطمية •

وكان العبيديون يزاحمون بني العباس في الملك والسياسة وينافسونهم في العلم والحضارة • وبلغت دولتهم بالمغرب ومصر رقيا لا يقل عن رقي الدولة العباسية ، وتركوا آثارا تشهد بفضل حضارتهم ، ولكن لم يكن منها بالجزائر غير ما لعمالهم بني حمدون والصنهاجيين ، وتصح نسبتها لهم لكونهم اساتذة اولئك العمال والآخذين بيدهم الى تلك المنزلة •

2 — الشيعة الاسماعيلية بالجزائر

شيعة الرجل من يتابعه ويناصره ، وهم لدى المؤرخين من تولى علي بن ابي طالب وفضله على جميع الصحابة ، ووجدت شيعة علي بعد قبض رسول الله (ص) فكانوا يرونه أحق بالخلافة ، فلما صرفت عنه دخلوا فيما دخل فيه الجمهور •

وقد عرف بعض المفسدين ان لعلي (ض) شيعة ، فاتخذوا التشيع مساغا لتفريق الكلمة وكيدا للاسلام ، وكان من أشهرهم عبد الله بن سبا رجل يهودي ، بث فكرته بالبصرة والكوفة ومصر وانتشرت عنه مقالات في الجهات •

أصبح التشيع ضربا من ضروب التدجيل السياسي • فتعددت المقالات وكثرت الفرق • فكان منها الزيدية اتباع زيد بن علي زين العابدين ، ومنهم شيعة ادريس • ومنها الامامية الروافض ، ومن شعب الامامية الاسماعيلية وهم القائلون بامامة اسماعيل ابن جعفر الصادق ، وقد توفي حياة والده ومع ذلك يرونه اماما توصلا الى امامة عقبه • وليس من غرضنا شرح مذاهب الشيعة ومباديها •

والاسماعيلية يسمون ايضا الباطنية لقولهم بالامام الباطن يريدون المستور ولقولهم ان نصوص الشريعة رموز مراد بها بواطن لا يفهمها الا الامام • وكان العبيديون من هؤلاء الاسماعيلية •

كان الاسماعيلية ينتخبون الدعاة الاكفاء يبثونهم في الاوطان لنشر مذهبهم • فارسلوا الى المغرب داعيتين هما : السفياني والحلواني وقالوا لهما ان بالمغرب أرض بور فاذهبا اليها واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر • فنزل احدهما مرماجنة والآخر سوق حمار من ناحية قسنطينة • وبثا الاسماعيلية في الناس الى ان توفيا •

وخلفهما ابو عبد الله الحسين بن احمد • قدم مع حاج كتامة : موسى بن حريث كبير بني سكان ومسعود بن عيسى بن ملال المساكتي وغيرهما • فدخلوا به بلدهم سنة 279 وتنازعوا عليه • كل يريد ان يكون معه • فقال لهم ان النص عندي من المهدي • بان منزلي بفج الاخيار ، فاين يكون منكم ؟ قالوا هو عند بني سليمان • وسلموا حكمه وظنوه اطلاعا على الغيب اذ لم يجر ذكر الموضع في طريقهم • وهو عند البصير دليل على تدجيل الشيعة وخبرة أيمتهم باحوال البلدان وما نأى عنها عن قبضة السلطان •

أخذ أبو عبد الله في بث الرفاضية الاسماعيلية وذكر المهدي وقرب ظهوره وأن أولياءه مشتق اسمهم من الكتمان وانه يهاجر اليهم • وعرف بينهم بالمعلم وبالشيعي وبالمشرقي •

ولما تمكنت دعوته انتقل من الجدال الى الجلاد • وأسس في ايكجان قرب سطيف الى ناحية قسنطينة مدينة سماها دار الهجرة • وسمى اتباعه المؤمنين • وقاد الاجناد وفتح البلاد ، ولحق به عبيد الله المهدي فظهر بسلجماسة وحبس بها ، فلما تغلب أبو عبد الله على افريقية ذهب اليه وأتى به وسلم له الامر •

ثم أظلم الجو بين المهدي وداعيته ابي عبد الله وتمشت بينهما

السعايات ، فتخير المهدي من وجهاء كتامة عروبة بن يوسف واخاه حباسة ، وامرهما بقتل ابي عبد الله وأخيه ابي العباس ، ولما حمل عروبة على ابي عبد الله قال له لا تفعل ! فأجابه : « الذي امرتنا بطاعته أمرنا بقتلك ! » فقتلا معا يوم الثلاثاء منتصف جمادى الاخيرة سنة 298 وتلك عاقبة كل ساع في تأسيس دولة لغيره .

ابو عبد الله هو مؤسس الدولة العبيدية على الحقيقة ، كان عالما يقظا سياسيا داهية حربيا ماهرا زاهدا متقشفا ، وهو الذي يقول لما أطل بجيوشه على طبنة من فج زيدان :

من كان مغتبطا بلبن حشية [1] فحشيتي واريكتي سرجي
من كان يعجبه ويبهجه نقر الدفوف ورنة الصنج
فانا الذي لا شيء يعجبني الا اقتحامي لجة الوهج
سل عن جيوشي اذا طلعت بها يوم الخميس ضحى من الفج

ومع ما قاساه في تأسيس هذه الدولة لم يتمتع فيها بما كان يرجوه من علو الكعب فخسر الدنيا والآخرة ، وصدق عليه المثل « لا هنك أنقيت ولا ماءك أبقيت » .

قال القاضي ابو عبد الله بن حماد في كتابه اخبار ملوك بني عبيد : « وكان مما احدث عبيد الله المهدي ان قطع صلاة التراويح وامر بصيام يومين قبل رمضان . وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع ، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة ، واسقط من اذان الصبح « الصلاة خير من النوم » وزاد حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر ، وكذلك كان الاذان مدة بني عبيد » .

---

(1) هكذا جاءت هذه العروض بخلاف ما بعدها في البكري . والوهج لعله الرهج .

وبعد الاذان يدعو المؤذن للامام ويصلي عليه وعلى آبائه وابنائه بصيغة نسجتها يد السياسة دعاية لهذه الحكومة التي اعتنت ببث الدعاة في سائر الاوطان حتى بلغوا السوس الاقصى ، وكان منهم هنالك علي بن عبيد الله البجلي ، وكان اتباعه يدعون البجلية • بقوا بعد الدولة العبيدية الى ايام المرابطين • ولم تمت بالمغرب الشيعة الاسماعيلية بذهاب الدولة العبيدية بل عاشت بعدها زمنا •

3 ــ تاسيس الدولــة العبيديــة

تأسست الدولة العبيدية بالدعايــة الدينية والحنكة السياســية اللتين كانتا لابي عبد الله الشيعي وبالقيمة الحربية التي كانت لكتامة ووطنها وبسوء سياسة زيادة الله الثالث الذي قتــل أباه وكثيرا من أهله وذويه •

ابتدأ ابو عبــد الله بتعليم المذهب الاسماعيلي ثم أعلن امامــة الفاطميين وأخذ يذكر المهدي وقرب ظهوره • فبلغ أمره ابراهيم الاغلبي فارسل اليه يتهدده • فاجابه جواب من ايقن بنجاح سياسته • وبلغ جوابه عمال وطن كتامة ورؤساء عشائرها فاجتمع منهم للمفاوضة في شأنه عمال ميلة وسطيف وبلزمة ويحي المساكتي المدعو بالامير ومهدي ابن ابي كمارة اللهيصي وفــرج بن خيران الاجاني وثمل بن فحل اللطاني ، فاتفقوا على مراسلة بيان بن صقلاب رئيس بني سكان في ان يسلم اليهم ابا عبد الله او يخرجه من بلدهم ، فاجابهم باستشارة أهل العــلم • فتآمروا باغتياله • وشــعر انصاره بذلك • ففرقوا المتآمرين • واطبقت جيملة على مظاهراته •

عاد أولئك العمال والرؤساء الى مخاطبة بيان بن صقلاب حتى استمالوه اليهم • فاستجار ابو عبــد الله بالحسن بن هرون رئيس

غسمان • ونزل عليه ببلدة تازروت فنشبت الحرب بين غسمان أولياء ابي عبد الله ولهيصة اعدائه • فقتل ابو مديني اخاه مهدي بن ابي كمارة • ورأس مكانه لهيصة ، وكان من حزب ابي عبد الله فاتحدت غسمان ولهيصة على ولائه وحاربوا من يحاربه •

كان ابو عبد الله ينتصر دائما على أعدائه فكثر انصاره • وزحف الى ميلة • ففتحها • وولى عليها ماكنون بن ضبارة • وقتل صاحبها موسى بن العباس • ففر ابنه ابراهيم الى تونس ونزل على الامير ابي العباس نائب ابيه ابراهيم الذي كان يومئذ بصقلية • وحرضه على محاربة الشيعي ، فجهز ما ينيف على عشرين الفا عقد عليها لاخيه الاحول ، ولم يكن احول ، وانما كان يكسر جفنه اذا ادام النظر •

فصل الاحول بالجنود من تونس سنة 89 ففتح سطيف ثم بالزمة ، وقصد تازروت ، وكان الشيعي قد كثرت جموعه وتكررت انتصاراته وانتشر صيته . فخرج للقاء الاحول ، فانهزم ببلد ملوسة ، وبلغ الاحول تازروت ، فهدمها ، وتحصن الشيعي بجبل ايكجان ، وقصد ابراهيم بن موسى ميلة ، فاعترضته طائفة من المتشيعة هزمته الى معسكر الاحول •

ثم عاد الاحول الى تونس ، فخلا الجو للشيعي ، وتلاحق الناس الى دعوته • فعاد الاحول الى حربه ونزل سطيف • واتخذها معسكره ، وبينما هو يغير وينهزم اذ اتاه الامر بالعودة الى تونس على لسان أخيه الذي قتله ابيه زيادة الله ، فلما بلغها قتله ابن أخيه •

ولما استيقن الشيعي بنجاح أمره أرسل الى سيده عبيد الله يستقدمه ويخبره بما فتح من الاوطان • فخرج عبيد الله وابنه ابو القاسم وابو العباس اخو ابي عبد الله في زي التجار • وبلغوا مصر سنة 89 وأذكى بنو العباس عليهم العيون • فقبض على ابي العباس بطرابلس وسجن بها • وظهر عبيد الله وابنه بسلجماسة يوم الاحد

سابع ذي الحجة سنة 96 فاعتقلا بها • كـذا قيل • وظاهر الاخبار الآتية انه ظهر بها قبل هذا التاريخ • ووجه صاحبها اليسع بن مدرار كتابا الى زيادة الله يعلمه ذلك ، فلما دخل رسوله ارض كتامة وقع بين قوم ظنهم في ولاية الاغالبة • فاخبرهم خبره فرفعوه الى ابي عبد الله • فالفى معه كتاب اليسع فتعرف منه خبر عبيد الله •

وبعد خروج الاحول من سطيف بقي أهلها محاربين لابي عبد الله • فحاصرها مدة • ثم فتحها وهدم سورها • وأمن أهلها وعقد زيادة الله لابراهيم بن حبيش على اربعين الفا • نزل بها قسنطينة • واقام بها هنالك ستة اشهر • اجتمع له فيها من الجنود مائة الف • والتقى بها مع الشيعي على بلزمة • فانهزم الى باغاية ثم عاد الى القيروان •

وتوجه ابو عبد الله الى طبنة • ففتحها بعد الحصار صلحا ، ثم فتح بلزمة عنوة • وقصد عروبة بن يوسف من اصحابه عامل باغاية هرون بن الطبني ، وقد عقد له زيادة الله على اثني عشر الفا ، فقتله عروبة • وزحف من اصحابه ايضا يوسف الغسماني الى تيجس • فدخلها بعد الحصار صلحا • ولحقت حاميتها بالقيروان • ووجه سرية فتحت مرماجنة عنوة • وقتلت عاملها ، وهي فيما بين مجانة وسبيبة • واستأمن له أهل تيفاش • فاستعمل عليهم صواب بن ابي القاسم السكاني • وفتح بنفسه صلحا باغاية ومسكيانة وتبسة • وعاد الى ايكجان بعد ما سرح العساكر تردد الغارات على نقزة وغيرهم •

واتخذ زيادة الله معسكره بالاربس وهي مدينـة في الجنـوب الشرقي من مدينة الكاف بعمل تونس قريبة من سبيبة • واصبح يغير من هذا المعسكر على النواحي المتشيعة • فاسترجع تيفاش • وخرج ابو عبد الله من ايكجان لتعميم فتحه • فاخذ قسنطينة بعد الحصار صلحا • وشرق حتى بلغ قفصة وملكها • ثم عاد الى ايكجان • وترك حامية بباغاية لموافقة جنود الاغالبة ورد غاراتها •

ثم قصد أبو عبد الله الاربس في جمادي الاخيرة سنة 96 في مائة الف بين فارس وراجل وكانت بين الفريقين حروب صعبة ولكنها من المعارك الفاصلة • ودخل أبو عبد الله الاربس عنوة وانهزم جيش الاغالبة هزيمة نكراء وفر زيادة الله الى المشرق •

واقبل الشيعي الى رقادة دار ملك الاغالبة في سبعة عساكر فيها ثلاثمائة الف بين فارس وراجل • فدخلها • وبين يديه رجل يقرأ « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر » الآية و « كم تركوا من جنات وعيون » الآية • وكان دخوله رقادة في رجب سنة 96 •

نزل ابو عبد الله قصر الامارة • وضبط ما فيها • واستقدم اخاه من سجن طرابلس • واستخلفه على رقاده • وخرج الى سجلماسة ففرت أمامه زناتة • وملك تاهرت • وولى عليها دواس بن صولات اللهيصي ، وأخذ السير الى سجلماسة فاخرج من سجنها عبيد الله وابنه • واركبهما • وبايعته عساكر كتامة وأهل سجلماسة •

وبعد ان مهدوا تلك النواحي عادوا بعبيد الله فمروا به على ايكجان • واخذ ما فيها من غنائم • ثم ارتحلوا الى رقادة • وبها بويع عبيد الله البيعة العامة وتلقب بالمهدي • وذلك في ربيع الثاني سنة 297 •

4 ــ الحكومة العبيدية

الدولة العبيدية مستقلة استقلالا تاما ، وحكومتها يصح ان تسمى مطلقة لان المذهب الاسماعيلي يرى الامام معصوما • فيجمع له كل السلط تشريعية وتنفيذية وقضائية •

والامام هو رئيس الحكومة الاعلى • ويلقب أمير المؤمنين ويتعين بالعهد اليه من سلفه • ولا بد ان يكون من آل البيت • ولهذا

كثر النزاع في نسب عبيد الله المهدي . قال ابو عبد الله بن حماد : « اختلف الناس في نسبه الى الحسين بن علي عليهما السلام . فمن مسلمين ما ادعاه ومقرين بما حكاه ومن مانعين ما انتحله والذي ادعاه هو انه عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين . والذي ادعاه الناس لا برهان عليه . فلا حاجة لي اليه . » اهـ

ويساعد الامام وزراء وعمال وقضاة . ويختص الامام وولي عهده بالمظلة . قال ابو عبد الله بن حماد : « وهي شبه درقة في رأس رمح محكمة الصنعة رائقة المنظر ظرف من الصناعة في الصياغة ونظم الاحجار الغالية ما يروق مرآه ويدهش من رآه . يمسكها فارس من الفرسان يعرف بها . فيقال صاحب المظلة . وكانت عندهم خطة يتداولها من يؤهل لها ، فيحاذي بها الملك من حيث كانت الشمس ، يقيه حرها بظلها ، وفيها يقول محمد بن هانيء الاندلسي من قصيدة يمدح فيها معدا المعز :

وعلى أمير المؤمنين غمامة نشأت تظلل تاجه تظليلا
نهضت بمثل الدرع ضوعف نسجه وجرت عليه عسجدا محلولا

ولم يعلم أحد غير بني عبيد اتخذ هذه المظلة الا ملك الروم بصقلية ، واحسب انهم أهدوها اليه في بعض هداياهم ، وكأني سمعت هذا » اهـ

والحكومة العبيدية لا تعترف بأية حكومة اخرى ، فكانت ترسل الدعاة الى جميع الاوطان الاسلامية دون بلاد الكفر ! ولهم رئيس يقب داعي الدعاة ، وهو الذي يأخذ البيعة للامام ، وبهؤلاء الدعاة ملكت اليمن والبحرين ثم الحجاز وخطب لها بمدينة بغداد على عهد مستنصر من أيمتها ، وكانت لها جيوش جرارة واساطيل عديدة ،

حافظت بها على ممالكها ، وملكت بها مصر والشام • وغزت بها سواحل أروبا ، وفتحت جنوة مـــن بلاد ايطاليا ، ولكن عنايتها بفتح العالم الاسلامي أشد !

وكانت تجبر الناس على العمل بمذهبها ، فتشيع كثير من أهل العالم رغبة أو رهبة ، وامتحن كثيرون مــن أجــل ترك البسملة في الفريضة وترك « حي على خير العمل » في الاذان ، وكانت لا تسمع في ولاتها من يشكو جورهم تأليفا لهم اذ لا غنى لها عنهم واضعافا للرعية حتى تأمن ثورتها ، ورفع الناس مرة الى عبيد الله أن القاضي المروزي يرتشي ويقتني الاموال • فلم يرفع لها رأسا • فرفعوا اليه انه يقدح في الدولة فعزله وعذبه ثم قتله •

وأحدث بنو عبيد الخراج على الأرضين قال محمد ابن الحارث وهو ممن أدرك أوائل هذه الدولة : « امتحن مالك بن عيسى القفصي بصحبة عبيد الله • وبتعديل الارض له لتوظيف الخراج الذي يسميه المقسط • » اهـ

ولم يكن للعبيديين ثقة بأهل المغرب • فشرع المهدي من فوره في تأسيس المهدية ، واختار لها موقعا حربيا مهما • وبالغ في تحصينها • وانتقل اليها سنة 308 وقال انما بنيتها لتعتصم بها الفواطم ولو ساعة من نهار • ولما فتح المعز مصر بادر بالانتقال اليها • وأوصى خليفته بلقين بن زيري بوصايا • وقال له : « ان نسيت شيئا فلا تنس هـــذه الوصايا : ان لا ترفع السيف عن البربر وان لا ترفع الجباية عن أهل البادية وان لا تولي أحدا من قرابتك لئلا يطمعوا في أمرك ، وان تحسن الى أهل الحاضرة » اهـ

هذه الوصايا تصور لك حرص الحكومة على استعباد الامة وتلك سياسة كل حكومة أجنبية انتفاعية • وانما أوصاه خيرا بأهل الحاضرة

لأن فيهم كثيرا من الاسماعيلية • وقد وقذت الحضارة غيرهم فلا تخشى منهم ثورة •

وأيمة العبيديين بالمغرب أجل قدرا وانفذ أمرا من أيمتهم بمصر تولى منهم بالمغرب أربعة وبمصر عشرة • واستقل المغرب عنهم أيام المستنصر بن الظاهر • وانتهت دولتهم بموت العاضد في المحرم سنة 567 (1171م) فحول وزيره صلاح الدين الايوبي الدعوة الى العباسيين فكانت مدتهم 269 سنة •

وهاك ايمة هذه الدولة

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م	الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
عبيد الله المهدي	297	909	ابنه معد المستنصر	427	1035
ابنه محمد القائم	322	933	ابنه أحمد المستعلي	487	1094
ابنه اسماعيل المنصور	334	945	ابنه منصور الآمر	495	1101
ابنه معد المعز	341	952	عبد المجيد الحافظ بن محمد بن المستنصر	524	1130
ابنه نزار العزيز	365	975	ابنه يوسف الظافر	544	1149
ابنه منصور الحاكم	386	996	ابنه عيسى الفائز	549	1154
ابنه على الظاهر	411	1020	أخوه عبد الله العاضد	555	1160

5 ـ تيهرت العبيدية وزناتـة

دخلت تيهرت في حكم العبيديين سنة 296 فجعلوها قاعدة المغرب الأوسط واتخبوا لها الولاة من أوليائهم • ففتحوا لها سائر المغرب أوسطه وأقصاه • ودخلت وهران في عمل تيهرت سنة 298 •

ووهران حديثة التأسيس يومئذ • قال البكري : « وهي حصينة ذات مياه سائحة وأرحاء ماء وبساتين • ولها مسجد جامع • بناها محمد بن ابي عون وجماعة من الاندلسيين البحريين سنة 290 باتفاق مع نفزة وبني مسقن • وأقاموا بها دعوة الامويين ، وفي سنة 97 زحفت اليها قبائل كثيرة يطالبون الاندلسيين باسلام بني مسقن اليهم لدماء كانت بينهم • فأبوا من اسلامهم فحاصروهم ومنعوهم الماء ، فخرج بنو مسقن ليـلا واستجاروا بازداجة ، ثم نجـا الاندلسيون بأنفسهم ، فتغلب أولئك القبائل على وهران في ذي الحجة واضرموها نارا ، ثم عاد أهل وهران اليها سنة 98 بأمر أبي حميد عامل تيهرت ، وولى عليهم محمد بن ابي عون ، وابتدأوا بنيانها في شعبان ، فعادت أحسن مما كانت ، ولم تزل في عمارة وكمال وزيادة وحسن حال الى أن دخلها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني سنة 343 فخربها وحرقها ثانية ، وبقيت كذلك سنين ، ثم تراجع الناس اليها وبنيت » اهـ •

وقال فيها الادريسي ما ملخصه : « عليها سور من تراب متقن ، وبها أسواق مقدرة • وصنائع كثيرة • وتجارات نافقة • ومنها أكثر ميرة أهل ساحل الاندلس • وشرب أهلها من واد يجري اليها مـن البر • وعليه بساتين وجنات • وأهلها في خصب • يوجـد لديهم العسل والسمن والزيت والغنم • والبقر بهـا رخيصة • وفي أهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة » اهـ •

وقد وقعت تيهرت بين مواطن زناتة • وكان سنيهم وخارجهم مخالفين للعبيديين • فاجلبوا عليهم مرارا • واشتهر من رؤسائهم يومئذ محمد بن صالح اليفرني ثم ابنه يعلي • ومحمد بن خزر المغراوي من عقب محمد بن خزر صاحب ادريس • واخوته عبد الله وفلفول ومعبد وابناه الخير وحمزة •

لما توجه ابو عبد الله الشيعي الى سجلماسة لم تدر زناتة وجهته ففرت من طريقه • فلما بلغها أرادت أن تقطع عنه خط الرجعة • فزحفت سنة 97 الى تاهرت وواطأها من أهل المدينة بنو دبوس • فسجنهم عاملها ابو حميد دواس بن صولات اللهيصي الكتامي • بحصن بن بخاتة • ثم قتلوا به •

وتغلب محمد بن خزر على بعض ارباض المدينة • ففر منها دواس الى قلعة ابن حمة • ثم أجلى التيهرتيون زناتة عن مدينتهم واعادوا اليهم عاملهم • ثم ثاروا به سنة 98 فنجا الى حصن ابن بخاتة • وادخلوا محمد بن خزر المدينة ثم خذلوه فانصرف عنهم • وجاءت جيوش العبيديين • فحاربوا أهل تاهرت ثلاثة أيام ثم دخلوها في صفر سنة 99 وفعلوا بأهلها الافاعيل • وعاد اليها دواس • الى ان صرفه عنها المهدي ثم قتله برقادة •

ولي تاهرت بعد دواس مصالة بن حبوس المكناسي • وهو الذي فتح فاسا • وكانت بينه وبين زناتة حروب • ففي بعض أيامه فصل من جيشه خيلا لبعض النواحي • وبقي في قل • فقصده محمد ابن خزر وقتله في شعبان سنة 312 فولى المهدي مكانه أخاه يصل بن حبوس • فغمرته الثورات • وقصد محمد بن خزر تيهرت سنة 14 فانهزم عنها • واخرج المهدي في أثره موسى بن محمد الكتامي في طائفة من القواد • فدخل محمد ابن خزر الصحراء • وترك أخاه عبد الله مع وجوه رجاله بوادي مطماطة • فحارب موسى بن محمد وانتصر

عليه • ثم أخرج المهدي اسحق بن خليفة وابا عروس في عسكر كتامة • فهزمهم ايضا • ودخلت في ولاية عبد الله بن خزر وطاعة أخيه محمد لماية وما جاورها من القبائل فعظم الخطب على الشيعة •

وفي تاسع صفر سنة 315 بعث المهدي ابنه أبا القاسم في عساكر كتامة ومن انضاف اليهم ، ففر ابن خزر في الصحاري على المهاري • وفتح ابو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة وسائر الاباضية والصفرية • من نواحي تاهرت الى ما وراءها •

وبقي يصل واليا بتيهرت الى أن توفي سنة 319 فخلفه ابنه حميد • وفي هذه السنة تقدم موسى بن ابي العافية المكناسي عامل العبيديين بالمغرب الاقصى • فاخضع لهم تلمسان ووهران والبطحاء وتنس وشرشال • ثم رفضهم • وخطب لبني أمية • فجهز له المهدي حميد بن يصل سنة 321 في عشرين الفا ، فانتصر عليه • ثم انقلب هو ايضا أمويا سنة 28 ولم يكن يومئذ واليا بتيهرت •

وتوفي المهدي فخلفه ابنه ابو القاسم محمد القائم • فولى على تيهرت ابا مالك يغمراسن بن ابي شحمة اللهيصي • فثار به أهل المدينة واخرجوه سنة 23 وقدموا على انفسهم ابا القاسم الاحدب بن مصالة ابن حبوس • فنزل عليهم ميسور الخصي سنة 24 وظفر بهم • وقتل واليهم وولى عليهم داود بن ابراهيم العجيسي • فانقرضت به ولاية المكناسيين بتيهرت • واصبحت مكناسة التي كانت محاربة لزناتة متحدة معها على ولاية الامويين وحرب العبيديين •

وفي سنة 333 اجلب حميد بن يصل على تيهرت ، وظاهرته لواتة ، فاخرج منها داود ، واقام بها الدعوة الاموية ، وشغل عنه العبيديون بامر صاحب الحمار •

ولما قبض اسماعيل المنصور على صاحب الحمار توجه الى تيهرت في صفر سنة 36 ففر منها حميد • ولحقت لواتة بالرمال ، وملك

المدينة • واحرق منبرها لكونه خطب عليه للامويين ، وولي عليها ميسورا الفتى وهو غير ميسور الخصي المتقدم •

وثار التيهرتيون بميسور ، وكاتبوا محمد بن خزر ، فوجه لهم جيشا به ابناه الخير وحمزة واخوه عبد الله ويعلى بن محمد بن صالح اليفرني • وخرج اليهم ميسور في رجال لماية ، فدارت الحرب بين الجمعين • وقتل حمزة بن محمد بن خزر ، ثم اسر ميسور ، وفتحت زناتة المدينة ، ولم يجد العبيديون سبيلا لغلبة زناتة غير تفريق كلمتهم ، فاستمالوا يعلى بن محمد اليفرني ، وعقدوا له على تاهرت والمغرب الاوسط اغاظة لمغراوة وكبيرها ابن خزر ، لكن يعلى لم يلبث ان راجع طاعة الامويين •

وفي سنة 47 جهز المعز قائده جوهرا الصقلي لاخضاع المغربين ، وامر ولاة الجهات بامداده فخرج معه جعفر صاحب المسيلة وزيري صاحب اشير ، وانضم اليهم محمد ابن خزر بداعي المنافسة ليعلى ، فالتقى الجمعان ، على مقربة من تاهرت • قال ابن ابي زرع : « فالتحم الحرب بين الفريقين ، وبذل جوهر الاموال لقواد كتامة على قتل يعلى ، فصممت منهم عصابة ، وصمدت الى يعلى • فقتلته واتت برأسه الى جوهر ، فبعث به الى المعز • وطيف به في القيروان » ، ا هـ

واضيف عمل تيهرت الى صاحب اشير زيري بن مناد الصنهاجي ، فرمى العبيديون زناتة بصنهاجة ، وغلبوهم بذلك على تاهرت •

6 ــ العبيديــون وجبــل اوراس

كان جبل اوراس معدن الثورات لحصانة موقعه واختلاف سكانه اصلا ومشربا • وكانت عاصمته باغاية • تنتخب الدولــة لولايتها الاكفاء المخلصين من أوليائها •

وليها عروبة بن يوسف الكتامي سنة 298 بعد قتله للشيعي • واتصل بعمل تاهرت • وكان اخوه حباسة من أعظم القواد • وولي عمل برقة • ثم قتله المهدي سنة 302 فغضب عروبة لقتله • وثار في أوليائه من كتامة وغيرهم • فجهز له المهدي مولاه غالبا • فقتله وقضى على ثورته من سنتها •

وفي سنة 231 انعقد بجبل اوراس مؤتمر للثورة • فبايعوا أبا يزيد مخلد بن كيداد • وتلقب شيخ المؤمنين • وحارب العبيديين • وحصرهم بالمهدية • واستولى على سائر افريقية والمغرب الاوسط • ثم أساء السيرة • فضجت منه الامة • وخذلته • فتغلب عليه العبيديون • وقوام هذه الثورة عداوة الامة لمذهب الحكومة • ونفار القبائل من تحكم كتامة ، وظهور دعوة الامويين بالمغرب الاوسط •

وهذا ابو يزيد أصله من الجريد • ونسبه في بني واركو من يفرن • كان ابوه يختلف بالتجارة الى السودان • فاشترى بتادمكت امة تدعى سبيكة • فحملت منه بابي يزيد • وكان أعرج وعمره يوم ثار ستون سنة • وبه علل كثيرة • ونشأ فقيرا مشتغلا بالعلم والادب • واخذ برأي النكار من الاباضية • وعني بتعليم الصبيان • ورزقه من صدقات الناس • ثم أخذ في الطعن على الحكومة • فضيقت عليه وخشي الناس مجالسته • فهجروه • فخرج من توزر الى أوراس• ونزل على بني كملان من هوارة • فايدوه على الثورة • وصحبه ابو عمار الاعمى بن عبد الله الحميدي من مقدمي الاباضية •

قام ابو يزيد بدعوة عبد الرحمن الناصر الاموي • وسمى الملازمين له من اتباعه العزابة ، ومن بايعه وانصرف عنه عدة المسلمين ، وتظاهر أول أمره بالزهد • فكان يلبس من خشين الصوف جبة قصيرة ضيقة الكمين وقلنوسة • ويركب حمارا اشهب اهدي له بمرماجنة • فدعي لذلك صاحب الحمار • وبهذه المظاهر السياسية

والدينية جذب عامة الناس اليه • فانضاف اليه محمد بن خزر واخوه معبد ، واجتمعت اليه هوارة وزناتة ونفوسة وغيرها •

ولما اعجب بكثرة جموعه وثمل بانتصاراته انتقل الى ركوب جياد الخيل ولبس الحرير والديباج واستباحة الفروج والدماء وكانت عساكره تأتي انواع المناكر من سلب ونهب واغتصاب حريم حتى انهم ليبقرون الحوامل ويشقون بطون الرجل عسى ان يكون بها مال ابتلعوه • ولا تسأل عما تحدث هذه الافاعيل من ذعر وخراب • ولما عوتب عن تنعمه بعد تقشفه تلا قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » الآية • ولما شكي الناس اليه ما اصابهم من عساكره انشد :

اذا أبقت الدنيا على المرء دينه　　فما فاته منها فليس بضائر

فكان ذلك مما زوى قلوب الناس عنه واضاع عليه ثمرة انتصاراته •

وكان ابتداء هجوم ابي يزيد في سنة 32 فنزل من اوراس الى باغاية ، فحاصرها ، ولم يقدر على فتحها ، فرأى ان يوسع نطاق الثورة ليفرق عنه قوة الحكومة ، فأثار بني واسين فحاصروا توزر سنة 333 ودخل حميد بن يصل تاهرت ، وفتح هو صلحا تبسة ومجانة ومرماجنة • ثم استولى على الاربس وسبيبة وباجة وتونس ورقادة والقيروان وسوسة ، كل ذلك أثناء عام 333 وتقدم فحاصر المهدية • وأفرج عنها في صفرسنة34 وكان ابنه ايوب بباجة لحشد الناس• وخرج عامل المسيلة علي بن حمدون لانجاد المهدية في جموع زواوة وكتامة فمر بقسنطينة والاربس • والتقى بايوب على باجة ، فهزمه ايوب • وتردى به فرسه ، فهلك ، ثم هلك محمد القائم بعده باشهر •

وخرج اسمعيل المنصور لحرب ابي يزيد ، فاخرجه عن افريقية • ورام باغاية • فاغلقت في وجهه ، ولفظته البلاد ، وتوجه المنصور مغربا

أثره في ربيع الاول سنة 35 فمر بسبيبة فمرماجنة فملاق فباغاية فبلزمة فنقاوس فطبنة ، وأقام بها اياما فرق فيها الاموال وتفقد احوال الجند • ثم سار الى بسكرة ، وبها ابو يزيد ، ففر منه ، ثم انقلب الى مقره ، وأفاض بها من احسانه على الناس استمالة لهم • وكاتب زيري بن مناد وماكسن بن سعد ، واهدى اليهما من التحف والطرف والاموال الجمة والكسي الفاخرة ما جد بهما به اليه فحشدا له من صنهاجة وعجيسة كل ما قدرا عليه • ووصلا بتلك الحشود اليه •

وانتقل المنصور من مقره الى المسيلة • فوفد عليه رسول محمد بن خزر بطاعته • فاكرمه وأركبه فرسا من افراسه بسرجه ولجامه • ووصله بعشرة آلاف دينار • ثم خرج في طلب ابن يزيد الى جبل سالات (بشد لام ألف) وانقلب الى مواطن صنهاجة • فنزل سوق حمزة • وجاءه زيري بن مناد في رجال صنهاجة • فأجزل صلتهم • وخرج الى وادي لعلع • فمرض به نحو شهرين • وخالفه ابو يزيد الى المسيلة فأخذ المنصور اليه السير • فاجفل امامه الى جبل كيانة • واقام المنصور بالمسيلة • ووجه مواليه الى سطيف وميلة لاستنفار الناس • وجاءه رسول الخير بن محمد بن خزر في نحو مائة فارس بانه أقام دعوته بمدينة الاغواط وسائر عمله • وطلب منه ان يبعث بالخطبة والسكة ليضربها على اسمه • فاكرم الرسل وردهم بمطلوبهم • وحملهم رسالة ليأمر الخير بن محمد زناتة بالاختلاف الى المسيلة والقيروان بالاطعمة وغيرها وانه لا يمنعهم شراء السلاح ولا يكلفهم قبالة ولا مغرما •

انحصر ابو يزيد بجبل كيانة وهو قلعة بني حماد ، وكان الطعام يأتي اليه من بنطيوس وغيرها • فكتب المنصور الى زناتة بالاغارة عليهم فانقطعت عنه الميرة ، وتقابل الجمعان في شعبان بفحص باتنة ، وهي قرية كانت تدعى أدنة بينها وبين المسيلة اثنا عشر ميلا ، وليست

هي باتنة المعروفة اليوم بجبل أوراس ، وانهزم ابو يزيد في هـذه المعركة هزيمة نكراء •

وفي غرة رمضان رحل المنصور لحصار أبي يزيد بكيانة ، فاحاط بالجبل ، وكانت حروب شديدة دامت الى المحرم سنة 36 ففيه قتل ابو عمار الاعمى • وقبض أبو يزيد مثخنا بالجراح • فأمر المنصور بمداواته والاحسان اليه لكن الدم نزفه فمات في آخر المحرم ، فأمر المنصور بسلخه وحشو جلده ، قطنا وطيف به في البلاد ثم صلب •

وقد كلفت هذه الثورة الحكومة انفاق أموال طائلة وشغلتها مدة مديدة ، فكان السرور بانتهائها عظيما ، وانشدت الشعراء في ذلك القصائد والمقطعات • فمن ذلك قول احدهم وقد اوقن بقبض أبي يزيد :

يا مخلد بن سبيكة	يا شر بيت في العشائر
ذق ما جنته يداك قبـ	ـل من الصغائر والكبائر
ذق هول شقك المبطو	ن وما ارتكبت من الجرائر
يا شر من بكيانة	وكيانة شر البرابر

وقبل القبض على ابي يزيد ظهر باوراس ثائر آخر • شاب أمرد من أهل القيروان ، كان يشتغل بكتب الصوفية ، واجتمع عليه في ثورته قبائل كثيرة من زواوة وصنهاجة وعجيسة ، فقبض عليه وعلى بعض اتباعه جعفر بن علي صاحب المسيلة •

وكتب الى المنصور وهو بطبنة يخبره خبرة ، ثم جاءه به مقيدا على جمل وعلى رأسه طرطور مشهر ، فأمر بسلخه حيا وحشو جلده قطنا ووضعه في تابوت ، وكان يصلبه اينما حل ارهابا للناس •

وبعد القبض على ابي يزيد بقي ابناؤه وبعض اتباعه على ثورتهم ، فلما كان المنصور عائدا الى المهدية هجم على ساقة جيشه

الفضل بن ابي يزيد ومعبد بن خزر في جمع عظيم • فهزمهم زيري بن مناد • ثم نزل الفضل من اوراس • وحاصر باغاية • فقتله غدرا باطيط بن يعلى الزناتي في ذي القعدة سنة 36 ثم زحف يزيد بن ابي يزيد الى باغاية ايضا • فهزم عنها • وكان اخوه ايوب وفد على عبد الرحمن الناصر مستنجدا • وعاد الى أوراس • فاغتاله عبد الله بن بكار اليفرني • ثم قبض على معبد بن خزر • فقتل سنة 41 •

وبقيت هوارة اوراس على ثورتها • فجهز لها المعز بن المنصور بلقين بن زيري • وجمعوا له بسفح غزالة قريبا من باغاية • فهزمهم وتشتتوا في بلاد الزاب • وبلغ فلهم بلاد السودان • وولى المعز على باغاية مولاه قيصر الصقلي فكان له غناء في تمهيد تلك الجهات • سبب له دالة على المعز • فقتله سنة 349 •

وفي سنة 358 ثار بالجريد ابو خزر الزناتي من الاباضية الوهبية • ودعا للناصر الاموي • وحاصر باغاية وامتدت ثورته بالزاب ووادي ريغ وورقلة • فخرج اليه المعز نفسه • وشتت جموعه • فلحق بجبل نفوسة • وهكذا شقي العبيديون بجبل أوراس كما شقوا بتيهرت • واصبح تاريخهم بالمغرب حربيا خرابيا أكثر منه مدنيا عمرانيا •

7 ــ الجزائـر بين العبيديين والامويين

كانت الامارات المستبدة على دار الخلافة تكبر أمـر الخلافة فلا تدعيها • ولم يجرؤ عليها غير الخوارج وفي بداية القرن الرابع ادعاها عبيد الله المهدي بالمغرب ثم عبد الرحمن الناصر بالاندلس • وكان سلفه مكتفين باندلسهم • ولهـم علاقات تجاريـة بسواحل المغرب • وفي سنة 290 أسست طائفة من تجارهم وهران واقامـوا بها الدعوة الاموية •

وقد أيد العبيديين كتامة ثم صنهاجة وحاربتهم زناتة فهزموها سنة 315 حتى بلغ عظيمها محمد بن خزر سجلماسة • فكانت للامويين فرصة انتهزوها • فارسل الناصر رسله الى محمد بن خزر • وقدموا عليه بسجلماسة سنة 316 فاجابهم الى القيام بدعوته • ونهض الى التل • فاستولى على تنس ووهران وشلف • وكان موسى بن أبي العافية عظيم مكناسة بالمغرب الاقصى من أولياء العبيديين • فنبذهم • واقتفى اثر محمد بن خزر •

نهض العبيديون لمحاربة القبائل الاموية • فكانت وقائع شديدة لكنها غير فاصلة • وكادت تتغلب الاموية ايام صاحب الحمار الذي بلغ أن حاصر المهدية • وفتح حميد بن يصل المكناسي تاهرت • واستولى محمد بن خزر على الزاب • وقتل زيدان الخصي عامل بسكرة للعبيديين •

وفي سنة 35 ضعف أمر صاحب الحمار • فاخذ محمد بن خزر وابنه الخير بدعوة العبيديين في قومهما مغراوة • فحاربتهم يفرن وعظيمها محمد بن صالح • وغدر به عبد الله بن بكار اليفريني • فقتله تملقا لمغراوة ثم اتفقت القبيلتان على موالاة الاموية وملكوا تاهرت • وقتلوا عبد الله بن بكار •

ثم استمال المنصور العبيدي يعلي بن محمد بن صالح • وعقد له على تاهرت وعملها لكنه عاد الى دعوة الناصر وعقد له على ما بين تاهرت وطنجة • فعظم شأنه • وزحف سنة 43 الى وهران بدعوى تمريض أهلها في الطاعة • فغلب عليها محمد بن ابي عون وشتت شمل ازداجة • ونقل منهم الى مدينة فكان •

وغضب محمد بن خزر لتقديم قريعه يعلي بن محمد • فوفد سنة 42 على المعز بن المنصور آخذا بدعوته ، وخرج في جيشه لغزو يعلي سنة 47 ثم وفد على المعز سنة 350 وهلك بالقيروان • وقد اناف على مائة سنة •

وخلفه ابنه الخير • وخلا له وجه زناتة بقتل يعلي • فعاد الى طاعة بني امية حتى توفي • وخلفه ابنه محمد • وكان جبارا طاغيا • وخرج بلقين بن زيري الصنهاجي لحربه سنة 60 فدارت عليه الدائرة • وكاد يؤسر • فانتحر • والعرب تقول المنية ولا الدنية • وقتل من زناتة سبعة عشر أميرا • ونهض الخير بن محمد • فجمع أشتات قومه وأعاد الكرة على صنهاجة • فقتل زيري بن مناد • وثأر منه بأبيه المنتحر •

وفي سنة 61 نهض بلقين بن زيري لحرب زناتة • فأجلاها عن الزاب • ثم أجلاها سنة 63 عن المغرب الاوسط • وعاد من تلمسان • وتفرقت زناتة في المغرب الاقصى • تلوله وصحرائه • وتبعهم بلقين سنة 69 فقتل بسجلماسة الخير بن محمد • ونجا ابنه محمد في أعيان من قومه الى الاندلس مستصرخين المنصور بن ابي عامر حاجب هشام المؤيد ابن المستنصر بن الناصر • فأجاب صريخهم • واجتمعت زناتة وأولياء الاموية بظاهر سبتة • وأطل عليهم بلقين فرأى ما هاله كثرة • فعاد عنهم • وصدق القائل : « اذا أردت السلم فاستعد للحرب » •

وفي سنة 77 خالف سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر قومه • فنزع الى صنهاجة العبيدية • فأكرمه منصور بن بلقين • وعقد له سنة 81 على عمل طبنة • وتوفي من سنته • فجدد المنصور العهد لابنه فلفول •

وفي سنة 77 ملك فاسا زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر مقيما للدعوة الاموية • وكان ابو البهار بن زيري الصنهاجي عاملا بتاهرت • فنبذ عهد الشيعة • واتحد مع زيري بن عطية • وكان صهره خلوف بن ابي بكر بمدينة تاهرت ، فتابعه ، ثم عاد الى العبيدية ، وضبط تاهرت ، فغفل عنه ابو البهار ، ونهض اليه زيري سنة 81

فانتصر عليه ، ثم حارب ابا البهار لقعوده عن قتال صهره ، ففر أمامه الى ابن أخيه منصور فرضي عنه ، واعاده الى تاهرت ، فزحف اليه زيري وانتصر عليه ايضا ، واستولى على عمله ، فأصبح المغرب الاوسط الى الزاب أمويا •

وكان ابن ابي عامر يذكر في الخطب بعد المؤيد ، وساء ما بينه وبين زيري ، فاقتصر في دولته الممتدة من المحيط الى الزاب على ذكر المؤيد في الخطب ، فجهز ابن ابي عامر لحربه الجيوش ، وكان اللقاء بنواحي طنجة وتكافأت القوتان ، ثم طعن زيري احد غلمانه غدرا واشيع موته فانهزمت جموعه •

خرج زيري من هذه المعركة جريحا وقصد تيهرت فحاصرها وبها يطوفت ابن بلقين وبلغ الخبر باديس بن منصور بالقيروان فخرج الى زيري في جموعه ومر بطبنة فقدم بين يديه حماد بن بلقين فلقي زيري على وادي مينة فهزمه زيري وفتح تاهرت واستولى على عملها شلف وتنس وتلمسان ثم فتح المسيلة وحاصر اشير وهنالك انتقضت عليه جراحاته فافرج عنها ومات سنة 91 وخلفه ابنه المعز فاقصر عن مزاحمة صنهاجة العبيدية وتلطف لبني أمية حتى أعادوه الى فاس فاقتصر هو وعقبه على ملك المغرب الاقصى •

وكان باديس لما بلغ طبنة استدعى عاملها فلفول ، فخشي منه واعتذر عن عدم مقابلته ، فلما فارقها باديس عاد اليها فلفول ، فترك حمادا لمقابلة زيري ، وعاد هو الى فلفول ، وقد امتدت ثورته من طبنة الى تيجس ، وحاصر باغاية ، فسرح له باديس أعظم قواده ، فقتل وانهزمت جنوده ، فقاد باديس نفسه الجيوش ، واخرج فلفول عن باغاية ثم مرماجنة ، فلحق بالجبال سنة 89 •

انضم الى فلفول بعد هزيمته بنو زيري بن مناد المخالفون على باديس ، فنزلوا الى تبسة ، وحاصروها ، فاجلاهم باديس عنها ،

وطارد فلفول من مكان الى مكان حتى ألحقه بالرمال سنة 91
فتوجه الى طرابلس وملكها • واورث بها بني خزر دويلة زناتية •
وهكذا كانت سنة 391 هي خاتمة تطاحن العبيدية والاموية على الجزائر • ولولا طعنة ذلك الغلام لزيري بن عطية ما انتهت الحوادث في هذه السنة وعلى هذا الوجه • فربما نشأ عن الحقير انقلاب كبير •

ان الامور دقيقها   مما يهيج له العظيم

8 ـ امارة بني حمدون بالمسيلة

كان علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الاندلسية ، قد اتصل بالمهدي وابنه القائم بالمشرق وصحبهما الى المغرب • ولما بلغوا طرابلس ارسله المهدي الى ابي عبد الله الشيعي • فادى الرسالة • وانصرف الى المهدي بسجلماسة • وبقي في خدمته وخدمة ابنه ابي القاسم •

قال القاضي ابن حماد : « وفي سنة 315 خرج ابو القاسم محمد ابن المهدي الى المغرب • فهدنه ومر منصرفه بوادي سهر ، فاختط مدينة المسيلة ، رسمها برمحه وهو على فرسه • وأمر علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية ببنائها وتحصينها وتحسينها وسماها المحمدية باسمه • فبناها • وجعل لها بابين سمى احدهما باب الامور والآخر باب القاسمية نسبة الى ابي القاسم » •

« وبلغت المسيلة ايام علي بن حمدون وابنيه جعفر ويحي من العمارة والحضارة الى الغاية القصوى • وجمعت اليها الاقوات وانواع المأكولات • فادخرت فكان علي بن حمدون اذا ارتفعت الاسعار يكتب الى ابي القاسم يستأذنه في البيع • فينهاه عنه ، ويأمره

بالاستكثار والادخار فلم تزل الاطعمة مصونة الى أن خرج المنصور في اتبـاع ابي يزيـد ، فكانت عونـا له ولاجناده » ، هذا ملخص كلامـه .

وقال البكري : « هي مدينة جليلة في بساط من الارض عليها سوران ، بينهما جدول ماء يستدير بالمدينة وله منافذ تسقى منها عند الحاجة . ولها أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة ، ويجود عندهم القطن ، وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر ، وبقبليها موضع يعرف بالقباب ، فيه قباب من بنيان الاول . وعلى مقربة منها مدينة للاول خربة يقال لها بشليقة (بكسر اللام المشددة) ، فيها جدولان من ماء عذب » اهـ .

وفي كتب الافرنج ان بناحيتها مدينة قديمة تدعى زابي ومدينة يستنيانة التي أسسها سليمان الخصي قائد يستنيان البيزنطي ، ولعلهما المذكورتان في كلام البكري .

اصبحت المسيلة عاصمة الزاب بدلا من طبنة . وامتد عملها على الحضنة الى حدود عمل باغاية شرقا . ويجاور وطن صنهاجة شمالا وغربا . وبه من سكان زناتة كثير . ومنهم في جنوب المسيلة بنو برزال أهل جبل سالات .

رأس على عمل المسيلة علي بن حمدون . وكان له ابنان جعفر ويحي . نشأ بدار ابي القاسم بالمهدية . وربيا مع أولاده . وجمع جيشا لفك حصار صاحب الحمار للمهدية . فالتقى ناحية باجة بايوب ابن ابي يزيد . واشتد القتال بينهما . فانهزم علي ابن حمدون . واوى لجهله بالطريق الى موضع وعر . فغرس بغله فيه . فلما هجموا تواثب فرسان لهم وصهلا . فظنوا ان ايوب غشيهم ، فركبوا الخيل ، وتفرقوا في الاوعار ، فسقط علي بن حمدون من جرف عال ، فانكسرت عظامه ومات سنة 34 .

وخلفه ابنه جعفر ، وكان له غناء في ضائقة الدولة بثورة صاحب الحمار ، واهدى للمنصور لما نزل بطبنة هدايا جليلة منها خمسة وعشرون فرسا ومثاها نجباء ، فعقد له على عمل ابيه ، ووازره أخوه : فنبه قدره وعظم شأنه •

ولما عقد المنصور لزيري بن مناد على عمل اشير باري جعفرا في خدمة الدولة ونافسه اسباب الرفعة ، وكان للدولة صاغية اليه والى ابنه بلقين ، فأخذا يرميان جعفرا بالميل الى زناتة حتى اوغرا عليه صدر المعز بن المنصور ، فلما عزم على الرحيل الى مصر اشيع انه مستخلف لبلقين ، فعظم على جعفر أن يبقى تحت ولاية منافسه ، ثم بلغه أن المعز أرسل اليه أحد مواليه يستقدمه ويطمعه في خلافته ، فقويت استرابته وغادر المسيلة في أوليائه بني برزال ، ولحق بزناتة سنة 60 فجهز المعز زيري أثره ، فكانت حرب صرع فيها زيري • واحتزت رأسه • وذهب بها الى المستنصر الاموي وفد من وجوه زناتة يرأسهم يحي بن علي • فمهد الامر لاخيه جعفر ولحق به •

بقي جعفر واخوه بالاندلس مرموقين بعين التجلة والاكبار تكتفي الدولة بهما وبمن معهما من زناتة في مهماتها ، واستعان المنصور ابن ابي عامر بجعفر وشيعته بني برزال على نكب رجال الدولة المزاحمين له فلما قضى عليهم خشي جعفرا فقتله وفر يحي الى مصر فنزل على العزيز بن المعز الى أن مات •

وهكذا انتهت حياة جعفر كما تنتهي حياة كل عظيم خطير • فر من المسيلة خشية من المعز فبطش بـه المنصور بن ابي عامر الذي اضطره الدهر لصحبته :

واذا خشيت من الامور مقدرا وفررت منـه فنحـوه تتوجه

وقد ام جعفرا بالمسيلة ابو القاسم محمد بن هانىء اديب الاندلس

الذائع الصيت • قال الفتح في المطمح : « فناهيك من سعد ورد عليه فكرع ومن باب ولج فيه وما قرع فاسترجع عنده شبابه وانتجع وبله وربابه وتلقاه بتأهيل ورحب وسقاه صوب تلك السحب » اهـ •

وقد خلد ابن هانىء جعفرا بمدائحه الكثيرة البليغة • منها قصيدته الفائية • وهي من المطولات المستجادات ومن ابياتها :

كأن عمود الصبح خاقان معشر ... من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى
كأن لواء الشمس غرة جعفر ... رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وله من أخرى

خليلي اين الزاب مني وجعفر ... وجنات عدن بنت عنها وكوثر
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم ... فما راقه من جانب الارض منظر
لقد سرني اني أمر بباله ... فيخبره عني بذلك مخبر
وقد ساءني ان لا أراه ببلدة ... بها منسك منه عظيم ومشعر
وقد كان لي منه شفيع مشفع ... به يمحص الله الذنوب ويغفر
اتى الناس افواجا اليك كأنما ... من الزاب بيت او من الزاب محشر
فانت لمن قد مزق الله شمله ... ومعشره والاهل أهل ومعشر (1)

ومن أخرى

لم تدنني ارض اليك وانما ... جئت السماء ففتحت ابوابا
ورأيت حولي وفد كل قبيلة ... حتى توهمت العراق الزابا
ارض وطئت الدر من رضراضها ... والمسك تربا والرياض جنابا
ورأيت اجبل ارضها منقادة ... فحسبتها مدت اليك رقابا
سد الامام بك الثغور وقبلها ... هزم النبي بقومك الاحزابا

---

(1) ليته قال مزق الدهر . وكم هنات مثلها لابن هانىء سامحه الله .

وله أيضا من أخرى :

أبنـي العوالي السمهرية والموا ضي المشـرفية والعـديد الاكثر
من منكـم الملك المطاع كانـه تحت السوابغ تبـع في حمير ؟

وقد أورد القصيدة بطولها ابن معصوم في كتابه سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر • وقال عقبها : « يحكى انه أنشد هذه القصيدة وممدوحه راكب في جيشه • فلما بلغ ذينك البيتين ترجل العسكر كله • ولم يبق أحد راكبا سوى الممدوح • فلا يعلم سؤال كان جوابه نزول عسكر جرار غيره » اهـ •

9 ـ الجزائـر الصنهاجيـة

كان الصنهاجيون بعضهم خاضـع لامارات علويـة • وبعضهم مستقلون في جبالهم تحت رؤساء منهم ومن اشهر رؤسائهم مناد بن منقوش كان يقيم الدعـوة العباسية ويعترف بأمرة الاغالبة • ومات فخلفه ابنه زيري •

وفي سنة 335 نزل المنصور العبيدي مقرة وكاتب منها زيري بن مناد واهدى له أموالا وكسى فاخرة وتحفا وطرفا ملوكية طالبا منه اعانته على صاحب الحمار ، فاجاب طلبه • وكان له أثر محمود في القضاء على تلك الثورة • فبالغ المنصور في تكرمته ، وعقد له على قومـه •

وكانت الجزائر يومئذ تتركب من اربع ولايات : ولاية باغاية تشمل وطن كتامة من نواحي قالمة وعنابة الى نواحي سطيف وجيجل • وولاية المسيلة تشمل مواطن عجيسة وكثيرا من مواطن زناتة بالزاب والحضنة • وولاية اشير تشـمل مواطن صنهاجة وما يجاورها من

زواوة وزناتة • وولاية تاهرت تشمل مواطن مغراوة ويفرن وغالب زناتــة •

وفي سنة 47 قتل العبيديون يعلى بــن محمد صاحب تاهرت • وتقدموا الى فاس • فكان فتحها على يد زيري • فأضيف لــه عمل تاهرت • وفي سنة 60 خرج جعفر بن علي عن المسيلة • وقتل زيري • فولى المعز ابنه بلقين على الاعمال الثلاثة اشير والمسيلة وتاهرت •

وفي سنة 358 فتحت مصر للمعز واسست له القاهرة • فتأهب للرحيل اليها • وفكر فيمن ينيبه على المغــرب ويكفيه هم زناتة • وكانت كتامة صادقة التشيع لكنها غير مجاورة لزناتة • وكثيرا من أبطالها انفقتهم في تأسيس الدولة وتسكين الثورات ثم في فتح مصر والشام • فوقع اختياره على صنهاجة • ولم يغضب كتامة فلم يجعل لعمال صنهاجة عليها سبيلا •

وفي سنة 61 خيم المعــز خارج المنصورية • وكانــت عاصمته أسسها ابوه المنصور قرب القيروان سنة 334 ثم توجه نحو مصر في صفر سنة 62 • وعقد لبلقين على المغرب • وسماه يوسف وكناه ابا الفتوح • ولقبه سيف الدولة • ولم يجعل له ولاية على بني ابي الحسن الكلبيين بصقلية ولا عــلى عبــد الله بــن يخلف الكتامي بطرابلس • ثم اضيف اليه طرابلس سنة 67 وقسمت الجزائر الصنهاجية يومئذ الى ولايتين كبيرتين هما اشير وتاهرت• وقسمت ولاية المسيلة : جنوبها اضيف الى تاهرت وشمالها اضيف الى اشير ، ثم تغلب منصور ابن بلقين على كتامة ، فأضاف باغاية الى اشير •

جدت صنهاجة في اخضاع زناتة ، فخرج لهــا بلقين ســنة 63 وخرب من عمران تاهرت ونقل اهل تلمسان الى اشير ، وعاد لها سنة 69 فملك سجلماسة وفاسا ، ثم تغلب خزرون بن فلفول على سجلماسة ، فخرج له سنة 73 فمات في طريقه في ذي الحجة ، واقتفى خلفه أثره في

قتال زناتة حتى أخضعوهم .

بلغت صنهاجة من سعة السلطان وقوة النفوذ ما يخولها الاستقلال ، ولكنها آثرت الارتباط بالعبيديين لئلا تشوش على نفسها داخليا وخارجيا ، واشفق العبيديون من عظمة صنهاجة ، فاخذوا يغرون بها كتامة التي تتمتع بوطنها لا يلي عليها صنهاجي ولا تنفر معهم في الحروب ، وكانهم تركوا لها هذه الميزة لمثل هذه الدسائس .

ففي سنة 377 ظهر بكتامة ابو فهم حسن بن نصر داعيا للثورة على صنهاجة ، فكتب منصور بن بلقين الى العزيز بن المعز يستأذنه في قتال كتامة ، فوجه له رسولين بالنهي عن ذلك ، وأمرهما بالمسير الى كتامة بعد أداء الرسالة ، فلما بلغ الرسولان المنصور نهي العزيز شعر بالمكيدة ، فسجنهما وتأهب للحرب ، فلما نزل على ميلة نشر البنود وقرع الطبول مزمعا على استئصال أهلها ، فخرج اليه النساء والعجائز والاطفال بالتضرع ، فرثى لمنظرهم حتى بكى ، وابقى عليهم ونقلهم الى باغاية ، وخرب سور ميلة ، وسار نحو سطيف لا يمر بقصر او منزل الا هدمه ، ووقع قتال شديد على سطيف ، ثم انهزمت كتامة ، وفر ابو فهم الى جبل وعر ، فنزل على أهله بني ابراهيم من كتامة فلم يحموه ، وقبض عليه منصور ، فقتله ، واقام نائبا بميلة وسطيف ، ثم سرح الرسولين الى العزيز ، فارسل له العزيز يطيب قلبه ، واهدى له هدية جليلة ، وسكت عن قضية ابي فهم .

وفي سنة 79 ظهر بكتامة ايضا ابو الفرج منتسبا الى القائم بن المهدي فعظم امره أكثر من ابي فهم حتى انه ضرب السكة باسمه ، وجرت بينه وبين نائب منصور بميلة وسطيف وقائع كثيرة ، ثم خرج له منصور نفسه ، فأسره ثم قتله . وشحن بلاد كتامة بالعساكر ، وبث عماله فيها لتمهيدها وجباية خراجها ، ودخلت ضمن الجزائر الصنهاجية ولم يجد العبيديون سبيلا لاضعاف صنهاجة غير انهم

أعانوا زناتة وأميرهم فلفول بن سعيد على تملك طرابلس واخراجها من يد صنهاجة •

شعر ملوك صنهاجة بدسائس العبيديين ، فجاملوهم ظاهرا حتى ولي المعز بن باديس ، فايد السنيين على الشيعيين ، وكاتب وزير المستنصر ابا القاسم الجرجرائي (نسبة الى جرجرايا من العراق) معرضا ببني عبيد ، وساعيا في تغييره عليهم ، بقول الشاعر •

وفيك صاحبت قوما لا خلاق لهم
لولاك ما كنت أدري أنهم خلقوا

فقال الجرجرائي : « الا تعجبون من صبي بربري مغربي يحاول أن يخدع شيخا عربيا عراقيا ؟ » •

وبعد وفاة الجرجرائي أعلن المعز سنة 440 قطع دعوة بني عبيد ومحا اسمهم من السكة واحرق بنودهم وهدم دار الاسماعيلية • ودعا للعباسيين ونشر راياتهم السود فعجز بنو عبيد على الانتقام من صنهاجة • فارسلوا لهم بني هلال وسليم ، ثم عاود يحي بن تميم بن المعز دعوتهم • وقام بها ايضا خلفه •

وكان يخالف على ملوك صنهاجة أقرباؤهم ويؤيدون الثوار عليهم ولكن لم يفت ذلك في عضدهم ولا حط من عظمتهم حتى استقل حماد بن بلقين بالوطن الجزائري سنة 405 فانقسمت صنهاجة على نفسها الى دولتين شرقية عاصمتها المنصورية ثم المهدية وغربية عاصمتها القلعة فبجاية •

ضعفت الدولة الشرقية بما انسلخ منها • ثم جاء الهلاليون فملكوا عليها الضواحي وبعض المدن • وتوالت عليها غارات النرمان بحرا حتى ملكوا عليها المهدية آخر معاقلها سنة 543 وبذلك انقرضت دولة صنهاجة الشرقية •

1 — أول ملوك صنهاجة العبيدية زيري بن مناد • كان حازما

شجاعا شديد البأس حسن السياسة مولعا بالعمران • أسس اشير • وضرب بها سكة بني عبيد • وكلف ابنه بلقين بتمصير مدن الجزائر ومليانة ولمدية •

2 — ثم ابنه بلقين وهو انجب اخوته • ربي بدار المنصور مع ابنائه • وولي لابيه على مليانة لخضد شوكة زناتة • وكان من أفحل الملوك واعظمهم نعي اليه ابوه وهو باشير • فنهض لاخذ ثأره من زناتة • وشفى صدره منهم • وانتقل الى المنصورية لما استخلف على المغرب •

3 — ثم ابنه منصور كان ولي عهده • ونعي اليه وهو باشير • فوفدت عليه الوفود معزين ومبايعين • فاحسن مقابلتهم • واجزل صلاتهم • وخطب فيهم قائلا : « ان ابي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر • وانا لا آخذ أحدا الا بالاحسان • ولا اشكر على هـذا الملك الا الله تعالى • ولست ممن يولي بكتاب ويعزل • » اهـ يعرض ببني عبيد وان لا يد لهم عليه في توليته • ولا قدرة لهم على عزله وكان يتردد بين اشير والمنصورية ، جوادا عاقلا عادلا حازما صارما عفيفا عن الدماء رفيقا بالرعية •

ونزع اليه سعيد بن خزرون فوصله بمال كثير • ثم قال له يوما : « هل تعرف أحدا أكرم مني ؟ قال نعم ! أنا أكرم منك • قال منصور : وكيف ؟ قال له لانك جدت علي بالمال وانا جدت عليك بنفسي • فاستعمله على طبنة • وعقد لاحد ابنائه على بنت سعيد • فليم على ذلك • فقال : كان ابي وجدي يستتبعان زناتة بالسيف • أما أنا فمن رماني بسيف رميته بكيس حتى تكون مودته طبعا واختيارا » اهـ •

وكان اخواه حماد ويطوفت يتداولان عمل اشـير ، وعمه ابو البهار بتاهرت •

4 — ثم ابنه باديس ، جاءه سجل العزيز بولاية عهد ابيه سنة 81

ولما توفي ابوه جاءه سجل الحاكم بالولاية ، ولقبه نصير الدولة ، وكان شجاعا مقداما جوادا محسنا حليما ، كان عمه يطوفت عامله على تاهرت ، وعمه حماد على اشير ، ثم ثار عليه وتحصن بمدينته القلعة فحاصره بها ، وتوفي أثناء ذلك بالمسيلة •

5 — ثم ابنه المعز ، بويع صبيا ، ولقبه الحاكم شرف الدولة ، وقامت جدته بتدبير الدولة حتى توفيت سنة 411 ، وتركته قادرا على الادارة ، واصيب بفتنة الهلاليين ، فانتقل من المنصورية الى المهدية ، وكان أجود أهل بيته ذا دين صحيح رقيق القلب عفيفا عن الدماء حديد الذهن عالما بالادب يقول الشعر عارفا بالالحان والتوقيعات وعلم الاحجار •

6 — ثم ابنه تميم ، كان أديبا شاعرا من نظراء ابن المعتز •

7 — ثم ابنه يحي كان أديبا ايضا ، ولكن لا يقرض الشعر الا في اوقات فراغه ، وصرف همته لسياسة رعيته وتدبير دولته ، وغزا ساحل أروبا غزوات حتى لقبه النصارى « الجريء » وسالموه •

8 — ثم ابنه علي بويع بعده ، وانشدته الشعراء معزين ومهنئين ، ومن ذلك قول ابن حمديس من ابيات :

ما اغمد السيف حتى جرد الذكر ولا اختفى قمر حتى بـــدا قمر

9 — ثم ابنه الحسن هو خاتمة ملوكهم ، نازله النرمان بالمهدية • فلما رأى ما يعجزه غادرها بما خف من نفائسه • وقال : « ســـلامة المسلمين من القتل والاسر خير لي من الملك والقصر » • ونزل الجزائر تحت رعاية ابن عمه يحي صاحب بجاية الى أن ملكها عبد المؤمن بن علي • فصحبه واغراه بالمهدية • فلما نزل عليها ورأى حصانتها • قال للحسن : « ما الذي أخرج هذا المعقل من يدك ؟ فقال له : أخرجه انقضاء الامد وعدم الثقة باحد » •

وكان الحسن أديبا فصيحا عالي الهمة حدبا على الرعية • ولكن

عجز عن علاج الدولة • فسقطت سنة 543 بعد ما مر عليها 208 منذ عقد المنصور لزيري على عمل اشير سنة 335 وتوفي الحسن سنة 566 تحت رعاية الموحدين •

الامير	الولاية هـ	الولاية م	الامير	الولاية هـ	الولاية م
زيري بن مناد	335	946	ابنه تميم	454	1062
ابنه بلقين	360	970	ابنه يحي	501	1107
ابنه منصور	373	983	ابنه علي	509	1115
ابنه باديس	386	996	ابنه الحسن	515	1121
ابنه المعز	406	1016	اخذت منه المهدية	543	1148

10 ـ الحالة السياسية والمالية بالجزائر العربية

الاسلام دين العرب يسوي بين الناس في الحقوق • وقد طبق العرب هذا المبدأ بالجزائر • فلم تكن لهم ميزة قضائية على بقية السكان • وأخذوا بيد البربر • فرقوهم في المناصب الدولية حتى تمرنوا بالادارة • وأصبحوا ايام بني عبيد قادرين على الاستقلال •

ولم يكن البربر يحملون للعرب بغضا سياسيا أو جنسيا بل كانوا يعظمونهم تعظيم التلميذ لاستاذه والمريد لشيخه • وما كان من خلافهم على الادارة العربية فسببه نفارهم بعضهم من بعض لان الادارة جمعت بين قبائل بينها احن قديمة متوارثة • فلذلك لم تعطل

الثورات عبر الحضارة العربية ماديها وادبيها .

عني العرب بنشر الامن ونظام البريد وتنشيط الفلاحة وتربية المواشي . فكانوا يقطعون الفلاحين الارضين . ويخففون عن البادية الخراج . ويكلفون شيوخ القبائل حماية القوافل ويتخذون الفرسان لنقل البريد بين البلدان .

حكى التنسي أن رجلا من سجلماسة بلغه خروج قافلة الى مصر . فخرج يطوي المراحل خلفها . ومعه ثلاثة آلاف دينار . فلما جاوز قابس اذا بفرسان أخذوا دابته ودنانيره . فرجع الى الامير ابراهيم بن الاغلب بالقيروان . فدخل عليه وهو بمقصورة الجامع لسماع الشكاوي وفصل الدعاوي . فقص عليه خبره . وتنحى جانبا فدعا الامير حاجبه . وسأله هل وجهت خيلا الى طرابلس ؟ فقال نعم وقد عادوا . فأمره بعرض جميع الفرسان عليه بعد القيلولة . وبعد انتهاء مجلسه أمر بالشاكي الى دار الضيافة . وجاء موعد العرض . فاستدعاه وأجلسه الى جنبه ليعرفه ان بصر باحد أصحابه . فكلما عرفه بواحد اوقفه ناحية .

ولما تم العرض ادخل الموقوفون على الامير . فاستنطقهم حتى اعترف أحدهم . واتي بالدابة والدنانير . وخرج الشاكي وقد ارسل الامير الى عامل طرابلس بحبس الرفقة عليه ووجه معه من ابلغه اياها .

تلك السياسة وهذا العدل أعانا على توسيع نطاق العمران وتنمية موارد الحياة . فكانت الطرق تخترق الوطن جنوبا وشمالا ، والسفن تشق عباب البحر مشرقه ومغربه . والمراسى في حركة مستمرة والاسواق في نفاق متصل . وللتجار في بعض النواحي علامات على أبوابهم تدل على مبلغ ثروتهم .

وترقت مع التجارة الصنائع من حدادة ونجارة وحياكة وصياغة

وغيرها حتى أصبحت علما تدون فيه الكتب • وكذلك الفلاحة • فعظمت النتائج • وساعدت الملوك على تضخيم الملك وانشاء المدن والقصور • وبعثت الناس الى مثل ذلك فاستبحر العمران • وضاقت المدن • فاتخذ حولها الفحوص وحضارة الجزائر في هذا الدور شرقية صرفة • ولم تعرف حضارة الاندلس على قربها منها واتصالها بها الا في العصر البربري •

وعظمة ثروة الجزائر العربية تدرك من كتب الجغرافية مثـــل المسالك والممالك ونزهة المشتاق • وكتب تاريخية حيث تجد مقدار خراج الاعمال وتفصيل هدايا العمال للامراء والملوك للرؤساء وما ينفق في الولائم والمآتم • وهذا الموضوع وحده يستحق ان يفرد بالتأليف لو وجد من ابناء الجزائر ذا عناية بماضيه • ونحن نثبت ههنا أمثلة قليلة منه ولا يسعنا استقصاؤه •

من ذلك هدايا المنصور العبيدي لزيري بن مناد استثارة لنصرته على صاحب الحمار • قال القاضي بن حماد : « وكاتب المنصور زيري ابن مناد وماكسن بن سعيد وبعث اليهما أموالا جمة وثيابا جملة • ومن الذهب والعين واللجين ومن التحف والطرف ما استمال به النفوس واستلان به القلوب » ا هـ •

وقال أيضا : « وصل زيري بن مناد في قومه الى المنصور وهو بسوق حمزة • فوصله وفضله • وخلع عليه ثيابا كثيرة من لباسه • واعطاه من الطيب والطرائف الملوكية ما لا يحيط به الوصف ولا يعمه الحصر • وحمله وحمل أولاده واخوته وبني عمه ووجوه أصحابه على الخيل العتاق ، بالسرج واللجم المحلاة بالذهب والفضة • وافاض عليهم وعلى كافة صنهاجة الواصلين معه الاموال إفاضة » اهـ •

وانما يظهر عظم هذه الهدايا بالنظر الى ضيقة الحكومة يومئذ • وذكروا ان باديس الصنهاجي منح فلفول بن سعيد الزناتي صاحب

طبنة ثلاثين حملا من المال وثمانين تختا مـن الثياب وعشرة بنود مذهبة ومراكب بالسروج المحـلاة ، وان صندل عامل باغاية ارسل سنة 408 الى مولاه المعز بن باديس هدية فيها 335 برذونا بالسروج المحلاة وعبيد وشيء مستكثر • وهذا غيض من فيض اخذناه مـن اواخر الدور العربي نيعلم كيف ترك العرب هذا الوطن •

11 ــ الحالة العلمية والدينية

الحكومات في حاجـة الى كتاب لتسـجيل الاوامر والاحكام وضبط المالية • قال ابن السيد في الاقتضاب : « واصناف الكتاب على ما ذكره ابن مقلة خمسة : كاتب خط وكاتب لفظ وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير • فكاتب الخط هو الوراق والمحرر • وكاتب اللفظ هو المترسل • وكاتب العقد هو كاتب الحساب الذي يكتب للعامل • وكاتب الحكم هو الذي يكتب للقاضي ونحوه ممن يتولى النظر في الاحكام وكاتب التدبير هو كاتب السلطان او كاتب وزير دولته » ا هـ •

وقد أفاض في بيان آلاتهم وآدابهم • وذكر اصطلاح الخـط يومئذ فقال ما ملخصه : « يحتاج كاتب الخط الى جودة التقدير والعلم بمواقع الفصول فيكون ما يعزله من البياض عن يمين الكتاب وشماله وأعلاه وأسفله على نسب معتدلة ، وتباعد ما بين السطور على نسبة واحدة الى أن يأتي فصل فيزاد في ذلك وسعة الفصول على مقدار تناسب الكلام فان كان القول المستأنف مشاكلا للقول الاول أو متعلقا بمعنى منه جعل الفصل صغيرا ، وان كان مباينا له بالكلية جعل الفصل اكبر من ذلك » ا هـ •

كان كتاب الحكومات علماء ادباء ، وكثـير مـن أمراء الاغالبة

والادارسة وبني عبيد وعمالهم علماء ادباء • وعواصمهم كانت قبلة آمال أهل العلم وكعبة طلابه • قربوا اليهم العلماء والشعراء • وانشأوا بيوت الحكمة وهي دور الكتب • وأقاموا بها الوراقين يؤدون وظيفة الطباعة اليوم • واقبل الناس رجالا ونساء على العلوم والآداب لتنشيط الحكومات على ذلك • وظهر فحول الفقهاء ونوابغ الادباء وحكماء الاطباء والمؤرخون والاخباريون والجغرافيون • وظهرت المؤلفات في العلوم الدينية واللسانية والطبيعية والصناعية والفلاحية •

ذكر المقري أن ابراهيم بن احمد الشيباني البغدادي المتوفي بالقيروان سنة 298 كتب للاغالبة • وكان أيام زيادة الله على بيت الحكمة • وادخل في افريقية رسائل المحدثين واشعارهم وطرائف أخبارهم • وله تآليف •

ومحمد بن يوسف من أهل القرن الرابع ينقل عنه البكري كثيرا • ذكر المقري ايضا انه ألف ديوانا ضخما في مسالك افريقية وممالكها وكتبا جمة في أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم • وألف تآليف حسانا في أخبار تيهرت ووهران وغيرهما •

وذكر ابن ابي اصيبعة ان اسحق بن عمران البغدادي كان طبيب زيادة الله بن الاغلب • وبه ظهر الطب والفلسفة بالمغرب ، وله تآليف كثيرة • وعنه أخذ اسحق بن سليمان المصري الاسرائيلي • وكان طبيب عبيد الله المهدي وله تآليف جمة • وأخذ عنه ابن الجزار صاحب التآليف العديدة الذي ترك خمسة وعشرين قنطارا من كتب الطب وغيره •

وحياة الجزائر العلمية المتأثرة بما فيها وما حولها من العواصم يومئذ في حاجة الى تاليف مستقل • ولم توف حتى اليوم حقها •

وكان الناس لانتشار العلم سلفيين اعتقادا وعملا لا يتقيدون بمذهب من المذاهب ، قال محمد بن الحارث في طبقات علماء افريقية :

« كان يحي بن عمر الاندلسي يسأل عن الشيء فيجيب عنه ، ثم يسأل عن ذلك عينه بعد زمن فلا يختلف جوابه ، وكان غيره يختلف قوله ، وهذا من يحي يدل على ركــود النظر وقلة الاجالة للفكر والاقتصار على المقال المحفوظ » اهـ •

وقال ان سعيد بن محمد الحداد من أصحاب سحنون « كان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد لا يتحلى بتقليد أحد من العلماء ، ويقول انما أدخل كثيرا من الناس الى التقليد نقص العقول ودنا الهمم ، وكان يقول القول بلا علة تعبد ، والتعبد لا يكون الا من المعبود » •

واصل هذا القول عندي آية « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله » •

وقد عرف أهل المغرب أولا مذهب ابي حنيفة ، ثم ظهر مذهب مالك في القيروان والاندلس ، ودخل الجزائر من هاتين الجهتين ، وحمل عليه الناس المعز بن باديس ، وقطع ما سواه من مذاهب السنية وغيرهم ، هذا في الفروع اما في الاعتقادات فلم يزالوا سلفيين يرضون عن جميع الصحابة كما قال سعيد بن المسيب • وقد قيل له ما تقول في عثمان وطلحة والزبير : « أقول ما قولنيه الله عز وجل : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا » •

وكان الناس يقرأون بقراءة حمــزة لا يعرف قراءة نافــع الا الخواص الى ان جاءهم برواية ورش عن نافع محمد بن محمد بن خيرون الاندلسي نزيل القيروان المتوفي سنة 356 •

هذا خبر أهــل السنة وهم أكثرية المغربيين ، ويوجــد بينهم الواصلية والخوارج والشــيعة ، أتى بمذهب الواصلية طائفة منهم زيد بن سنان الزناتي من أهل القرن الثاني • وكــان منهم طوائف بنواحي تيهرت ومزاب والزاب •

والخوارج منهم الصفرية بنواحي وهـران وتلمسان وتيلغمت فيما بين الاغواط ومزاب ، ومنهم الاباضية بمملكة تيهرت ، وبقوا بعد سقوط بني رستم بمزاب وورقلة ووادي ريغ والحضنة وجبل آوراس والزاب والجريد •

والشيعة منهم الزيدية بالمملكة الادريسية والاسماعيلية بالمملكة العبيدية •

وقضى على هذه المذاهب المعز بن باديس فغلب المذهب المالكي • وانحصر المذهب الاباضي بالصحراء في أرض مزاب وورقلة •

وكان انقسام البربر على تلك المذاهب لما بين قبائلهم من منافسات وعداء ، فتلك المذاهب فيهم نتيجة السياسة لا ربيبة العلم ، ومع ذلك فلا بد ان يبقي المذهب أثرا في اتباعه وان استبدلوا به غيره ، لان العامي ليس معه من العلم ما يفرق به بين المذهبين ، فتجتمع لديـه المتناقضات من حيث لا يشعر ، ولو تجرد عالم مفكر لدرس وسطنا مثلا من حيث المعتقدات لالفى بين جنبي الواحد عقائد مختلفة كان أهلها يتقاتلون من أجلها ثم هو لا تحارب أجزاؤه بعضها بعضا !

وقد استغل جهل العامة بحقيقة ما تدين بها كثير من الناس في أوقات مختلفة يتظاهرون لها بمذهبها قولا ويصرفونها عنه فعلا • وكان منهم من ادعى النبوءة فلم يعدم انصارا • ففـي سـنة 237 قام رجل مؤذن بناحية تلمسان • وادعى النبوءة • وتأول القرآن على غير وجهه • ونهى عن قص الشعر وتقليم الاظفار • ويقول لا تبديل لخلق الله • كأن ازالة تلك تبديل للخلقة ! فاتبعته العامة • وطلبه أمير تلمسان • ففر الى الاندلس • وشاع خبره هنالك ايضا • فقتله الامير بعد الاستتابة •

وليست غاية هؤلاء المتنبئين الا نيل سيادة دينية • ولم يحمل الناس على اتباعهم الا الجهل بدينهم لا كما ظن بعض كتاب عصرنا

ان البربر أرادوا مقاومة الدين العربي وقرآنه ولسانه بدين وقرآن ونسان بربري نفورا من السلطة العربية • ومن أجاد فهم حوادث المغرب العربي وصدق التاريخ لم يجد ظلا لهذه الفكرة • ويغلط جدا من يعلل حوادث جيل بما يتجدد من احوال وافكار جيل بعيد عنه •

12 — سيادة العرب بالبحـر الرومي

تغلب الروم على البحر الابيض المتوسط بعد الفينيقيين اخوان العرب فسموه بحرنا MAR NOSTRUM ثم تغلب عليـه العرب فلم يضيفوه اليهم ، وقالوا بحر الروم •

استعد العرب لغزو البحر لاول نزولهم بالمغرب • فأنشأ حسان ابن النعمان بتونس دار صناعة • وامده عبد الملك بن مروان بصناع من القبط • وانشأ اثره موسى بن نصير دار صناعة ايضا بطنجة فتح بمراكبها الاندلس •

استولى العرب على هذا البحر وجزره من طنجة الى بيروت • وركبوه للغزو والتجارة • ومن اشهر مراسي الجزائر الحربية بونـة (عنابة) ومرسى الخرز (القالة) قال البكري : « ومن مرسى بونـة تخرج الشواني غازية الى بلاد الروم وجزيرة سردانية وكرسقة وما والاها • وبشرقي بونة مدينة مرسى الخرز • فيه المرجان • وهي مدينة قد أحاط بها البحر الا مسلكا لطيفا ربما قطعـه البحـر في الشتاء • عليها سور وبها سوق عامرة • وقد صنع بها مرفأ للسفن منذ مدة قريبة • وفيها تنشأ السفن والمراكب الحربية لغزو بلاد الروم • واليها يقصد الغزاة من كل أفق لان مقطعها يقرب من جزيرة سردانية • بينهما نحو مجريين[1] » اهـ •

---

(1) المجرى مائة ميل بحرية .

قال الادريسي : « وعمارة أهلها على صيد المرجان لكثرته بها • يقصد اليه التجار من سائر الاقطار • يعمل بمعدنه في كل الاوقات نحو الخمسين قاربا في كل قارب نحو العشرين رجلا » اهـ •

وقال صاحب الاستبصار : « مرجان مرسى الخزر انفس مرجان الدنيا وانفق شيء بالهند والصين » •

قال ابن خلدون في الفصل الثالث من الكتاب الاول : « وكان لكل بلد تتخذ فيها السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النواتيه يدبر امر حربه وسلاحه ومقاتلته • ورئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاذيف وأمر ارسائه في مرفئه • فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه • وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته • يرجعون كلهم اليه • ثم يسرحهم لوجههم • وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة » •

« وكان المسلمون قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن لامم النصرانية قبل باساطيلهم بشيء من جوانبه • وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم • فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم • وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه • مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش (كريد) وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج ، وكان ابو القاسم الشيعي وابناؤه يغزون اساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة » •

« تغلب المسلمون على كثير من لجة هذا البحر • وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة • والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية • فتوقع بملوك الافرنج ، وتثخن في ممالكهم • كما وقع في أيام بني

الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين » •

« وانحازت أمم النصرانية باساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائـر الرومانية لا يعدونها • واساطيل المسلمين قد ضرت عليهم ضراء الاسد على فريسته • وقـد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا • فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح » •

« حتى اذا أدركت الدولتين العبيدية والاموية الفشـل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى ايديهم الى جزائر البحر الشرقية مثـل صقلية واقريطش ومالطة • فملكوها » اهـ •

هذا كلامه في العصر العربي نقلناه بطوله لاهميته • فان من يرى اليوم اختصاص النصارى بهذا البحر يظن ان المسلمين لم تكن لهم عليه يد ويغفل عن آية « وتلك الايام نداولها بين الناس » •

وللادباء قصائد ومقطعات في وصف الاساطيل • منها قول ابن هانىء الاندلسي :

معطفة الاعناق نحـو متونها ... كما نبهت ايدي الحواة الافاعيا
اذا ما وردن الماء سوقا لبرده ... صدرن ولم يشربن غرقي صواديا
اذا اعملوا فيها المجاذيف سرعة ... ترى عقربا منها على الماء ماشيا

ولغـيره :

وياللجواري المنشآت وحسنها ... طوائر بين الماء والجو عوما
اذا نشرت في الجو اجنحة لها ... رائت بها روضا ونورا مكمما
وان لم تهجه الريح جاء مصافحا ... فمدت له كفا خضيبا ومعصما
مجاذف كالحيات مدت رؤوسها ... على وجل في الماء كي تروي الظما
كما أسرعت عدا أنامل حاسب ... بقبض وبسط يسبق العين والفما
هي الهدب في اجفان أكحل أو طف ... فهل صنعت من عندم او بكت دما؟

نقود الدولة الادريسية

1 — نقود ادريس الثاني

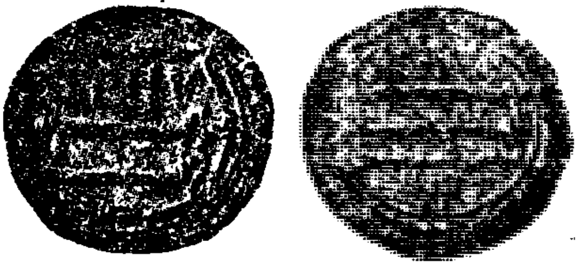

ضرب بفاس سنة 189

2 — نقود محمد بن ادريس المنتصر بالله

ضرب هذا الدرهم بالعلية سنة 216

3 — نقود علي بن محمد المنتصر بالله

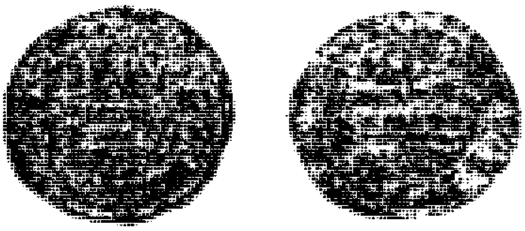

ضرب بالعلية سنة 224

4 — نقود احمد بن عيسى من بني سليمان

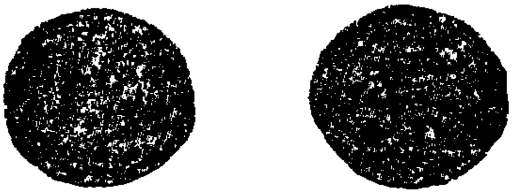

ضرب بسوق ابراهيم سنة 287

نقود الدولة الاغابيــة

5 — نقود عبدالله بن ابراهيم الاول

ضرب هــذا الدينار عام 199

6 — نقود ابي العباس محمد

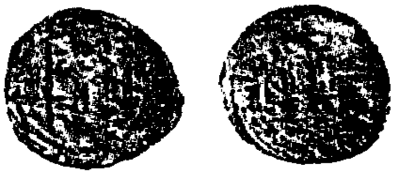

ضرب هــذا الدينار سنة 241

7 — نقود ابي الغرانيق محمد بن احمد

ضرب هــذا الدينار سنة 250

8 — نقود عبد الله بن ابراهيم الثاني

ضرب هــذا الدينار سنة 290

9 — نقود زيادة الله الثالث

ضرب هــذا الدينار سنة 291

نقود الدولة العبيدية

10 — نقود الخير بن محمد بن خزر المنتصر بالله

ضرب أيام المعز بن المنصور

11 — نقود المعز بن باديس

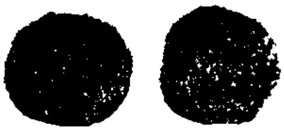

وعلى م تبكي المجاذيف الدم ؟ انما يبكيه خلف هؤلاء العرب الذين فرطوا في تراثهم وافرطوا في سباتهم ٠

ولله شاعر العصر احمد شوقي في قوله من قصيدة :

اليس البحر كان لنا غديرا — وكانت فلكنا البجع الرتاعا
غمرنا بالحضارة ساحليه — فما عيا بحائطها اضطلاعا
ثوارثناه ابلج عبقريا — ذلول المتن منبسطا وساعا
ترى حافاته انفجرت عيونا — ورفت من جوانبه ضياعا
فما زدنا الكتاب الفخم حرفا — ولا زدنا العصور الزهر ساعا
فعدنا مقعد الآباء منه — فكنا البهم قد خلف السباعا

الباب السادس

في نزوح الهلاليين الى المغــرب

ا ــ تمهيـد

جاء العرب أولا الى المغرب فاتحـين منظمين معمرين (بالمعنى اللغوي لا السياسي المستعمل اليوم) مقتصرين على سكنى المدن غير مزاحمين للبربر في أراضيهم ، وتمرن البربر على عهدهم في الشؤون الدولية حتى تبؤوا المناصب العاليـة ايام العبيديين فلحق كثير مـن العرب بالمشرق • ومن بقي منهم بقي خاملا •

فالعبيديون هم الذين اخرجوا العرب من المغرب ، ثم كانوا هم الذين اعادوهم اليه لما نبذ الصنهاجيون طاعتهم • لكن هؤلاء العرب جاءوا منتقمين من البربر مزاحمين لهم في أوطانهم لا في سلطانهم •

وهؤلاء العرب هم بنو سليم وبنو هلال واحلافهم مـن جشم والخلط والمعقل ، وتجتمع هـذه القبائل غير المعقل في منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان (بالعين المهملة) بن مضر ، فسليم هو ابن منصور ، يقال انه كان في أوائل القرن الثالث للميلاد ، وجشم هو ابن معاوية بن بكر بن هوازن بن سعد بن منصور • وهلال هو ابن عامر بن صعصعة بن معاوية ، ويقال انه كان اوائل القرن الخامس للميلاد • والخلط من بني المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة •

واما المعقل فينسبون انفسهم الى جعفر بن ابي طالب • ونسابة بني هلال يعدونهم في بطونهم • قال ابن خلدون : « والانسب ان يكونوا يمنيين من المعقل واسمه ربيعة احدى بطون مذحج » اهـ •

وموطن سليم فيما بين المدينة وخيبر وتيماء • ومجال هلال في بسائط الطائف الى جبل غزوان شرقي مكة • وجشم حيث هلال وبقية هوازن • وبنو المنتفق بارض تيماء من نجد • والمعقل بالبحرين • هذه مواطنهم في الجاهلية • وبعد الاسلام حافظوا عليها مع توسعهم في غيرها •

وفي ولاية عبد الله بن الحبحاب انتقلت طائفة من سليم الى مصر • ثم لحق بهم أحياء من هلال واحلافهم • واشتغلوا بالفلاحة والكسب • فراشوا وكثروا • ودخل اخوانهم بالجزيرة في دعوة القرامطة سنة 316 وحارب الفاطميون القرامطة بالشام • وانتصر عليهم العزيز بن المعز • فنقل كثيرا من سليم وهلال الى صعيد مصر • وامعن في نقل هلال حيث لم يبق منهم بنجد الا العاجز عن الحرب ونزل بنو قرة من هلال ببرقة •

كانت هذه القبائل بادية ظواعن • اشرف اعمالهم الغارة واطيب مكاسبهم النهب • لم يتهذبوا بآداب الاسلام• ولم يقدر على اخضاعهم لا الامويون ولا العباسيون ولا الفاطميون • فأكثروا من الفساد • وتضرر بهم العباد والبلاد •

هذه صورة موجزة من خبر هذه القبائل قبل دخولها المغرب • وكان حظ الجزائر منهم بعد نزوحهم اليه قبيلة هلال واحلافها • ولم يدخلها من سليم الا القليل • ولهذا اقتصرنا في عنوان الباب على بني هلال •

2 ــ نزوح الهلاليين الى افريقية

كان بنو عبيد بمصر يدبرون الثورات بالمغرب كي لا يفقدوا نفوذهم منه • فساء ذلك ملوك صنهاجة • وخشوا ان قطعوا دعوتهم

ان يوجدوا السبيل على سلطانهم لمنافسيهم من اقربائهم ومشاقيهم من كتامة وغيرها • ولما ولي المعز بن باديس نصر اهل السنة وهم أكثر السكان واضعف الشيعة حتى لا يستطيعوا مقاومته متى قطع دعوة بني عبيد •

وكان وزير بني عبيد المتحكم في دولتهم ابا القاسم الجرجرائي فطمع المعز في استفساده عليهم • ولكن لم ينل معه مراده • وتوفي سنة 438 فخلفه اليازوري • وكان دونه شأنا • فاستخف به المعز وخاطبه بما احفظه • فاظلم الجو بينهما • وأعلن المعز الدعاء لبني العباس سنة 440 وعجز كل من بني عبيد بمصر وشيعتهم بالمغرب عن اعادة الدعوة العبيدية بافريقية • فرأى اليازوري ان يرسل على المعز عرب الصعيد • فان ظفروا به والا فلها ما بعدها •

وفي سنة 41 أذن اليازوري لعرب الصعيد باجازة النيل • ورغبهم في أرض المغرب • وأعان من اجابه منهم ببعير ودينار • واقطع زغبة طرابلس وقابس ، ورياحا القيروان وباجة ، ودريدا قسنطينة • وكتب الى المعز : « قد انفذنا اليكم خيولا فحولا وارسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا » •

نزل رعيل العرب برقة • وأعجبتهم ارضها • فكتبوا الى اخوانهم بالصعيد يرغبونهم في اللحاق بهم • ولكن حكومة بني عبيد لم تأذن لهم هذه المرة اجازة النيل الا باداء دينارين لكل شخص ، فأخذ القادرون على الاداء في الرحيل حتى ضاقت بهم برقة • فبقي بنو سليم ، وتقدم بنو هلال الى افريقية •

كان كل من بني عبيد وصنهاجة يجهلون نتيجة هذه الحملة • فاستكثر المعز من شراء العبيد حتى اجتمع لـه منهم ثلاثون الفا • وتقدمت رياح سنة 43 لامتلاك اقطاعها • فاحسن المعز الى أميرهم

مؤنس بن يحي واصهر اليــه واسكنه ببعض قصوره بالقيروان • فحسنت معه نية مؤنس وعاد تشاؤم المعز بمقدمهم تفاؤلا • ففكر في اتخاذ جند منهم يتقوى بهم على بني عمه الحماديين • وعرفه مؤنس عواقب دخــول العــرب مملكتهم • وحــذره فسادهم • فابى الا استقدامهم • فذهب اليهم مؤنس بدعوى المعز • فقدموا ولكن بدعوى المستنصر الفاطمي واخذوا يعيثون في الارض فسادا •

ساءت نية المعز مع مؤنس واتهمه باغراء العرب على الفساد • فقبض على أخيه واهله بالقيروان • فورم أنف مؤنس لفعلته ، وجمع العرب ووضع بين أيديهم زربيه قائلا : هــل يستطيع أحد ان يبلغ وسطها دون أن يطأ حواشيها ؟ قالوا لا • قال كذلك القيروان لا نملكها الا اذا ملكنا ضواحيها •

استعد المعز لحرب العــرب فجمع عبيده وقومــه وبقايا عرب الفتح • واستمد ابن عمه الحمادي فأمده بالف فارس • واستنفر زناتة • فأتاه منهم ألف فارس ، ولحق برياح زغبة وعدي • وكانت جموع المعز اضعافهم • ولكن قــد قيل قديما : « للكثرة الرعب وللقلة النصر » •

تزاحف الجمعان ، فانخزل عرب الفتح الى اخوانهم الهلاليين ، وخانت زناتة وصنهاجة الحمادية ، فترك المعز معسكره للعرب ، وفر الى القيروان ، واستولى العرب على افريقية ومدنها مثل ابة والاربس وباجة • وخشي المعز على نفسه بالقيروان • فلحق في خفارة بعض أمراء العرب بالمهدية سنة 49 وذاق وبال سوء ظنه بمؤنس واغتراره بقوته • وتلاحق الى الهلاليين اخوانهم بالصعيد ونجد • ودامــت حركة الهجرة نحو نصف قرن • وموجتها في اتجاه نحو الغرب •

3 ـ الهلاليـون بالجزائـر

تقدم الهلاليون واحلافهم نحـو الجزائر • فدخلوها من ثلاث جهات • الاولى جهة السواحل حيث تقطن كتامة ويضعف نفـوذ صنهاجة او ينعدم • تقدموا اليها من نواحي باجة • فانتشروا على ضواحي القالة وعنابة وقسنطينة الى القل الى جبال بابور •

وتقدم الهلاليين في هذه الناحية اسبق منه في سواها • ولم نجد خبرا عن دفاع كتامة لهم • فاما ان يكون بنو عبيد كتبوا اليها بتأييدهم واما ان تكون هي التي تقربت منهم نكاية في صنهاجة •

وكلام الادريسي عن مدن هـذه الجهة يدل على حسن علائق أهلها مع العرب فالقالة كانت حالتها التجارية حسنة والعرب يمونونها بحبوبهم • وقسنطينة قال ان أهلهـا مياسير ، بينهم وبـين العرب معاملات ومشاركة في الحرث والادخار •

الجهة الثانية جهة الهضاب ما بين الاطلسين التلي والصحراوي حيث الحكومة الحمادية ثابتة القدم • تقدموا اليها من نواحي الاربس وانتهوا ايام الادريسي الى وادي الساحل وجبال البيبان •

دافعتهم صنهاجة عن هـذه الجهة • فغلبوها على الضواحي ، وحصروها بالمدن الحصينة والقلاع المنيعة ، فان الادريسي لما ذكر المدن الواقعة شمال اوراس ذكر انها في حال سيئة من حصار العرب لهـا ، قال في حصن ماوس : « حصن عامـر بأهله ، وكانت العرب تملك ارضه • وتمنع أهله الخروج منـه الا بخفارة رجل منهم » • ودار ملول شرقي طبنة على مرحلة منها ، قال : « انها مدينة عامرة بها حصن • فيه مرصد مشـرف على محال العرب يستطلع منـه حركاتهم » • ودار ملول ذكرها ياقوت بلفظ ارملول •

وذكر الطريق من بجاية الى قلعة بني حماد ، وعدد منازلهم ، فلما بلغ الباب قال : « وهي جبال يمر بينها الوادي المالح ، وهناك مضيق وموضع مخيف ، ومنه الى حصن السقائف الى حصن الناظور الى سوق الخميس ، وبه المنزل ، وهذه الارض كلها تجولها العرب وتضر باهلها وسوق الخميس حصن باعلى جبل ، وبه مياه جارية ، ولاتقدر العرب عليه لمنعته ، وبه من المزارع والمنافع قليل ، ومنه الى حصن مطماطة في أعلى جبل الى سوق الاثنين ، وبه المنزل ، وهو قصر حصين ، والعـرب محدقة بارضه ، وبـه رجـال يحرسونه مـع سائر أهلـه ، ومنـه الى حصـن تافكلات (في غـيره تافلكـات) الى تازكـي ، حصن صغـير ، الى قصـر عطيـة عـلى أعلى جبل ثم الى حصن القلعة مرحلة وجميع هذه الحصون أهلها مـع العرب في هدنة ، وربما اضـر بعضهم ببعض ، غـير أن أيدي الاجناد بها مقبوضة ، وايدي العرب مطلقة في الاضرار وموجب ذلك ان العرب لها دية مقتولها ، وليس عليها دية فيمن يقتل » اهـ .

الجهة الثالثة جهة الصحراء حيث تكثر خيـام زناتة الخاضعة لبني حماد ، تقدموا اليها مـن ناحية سبيبة الي تبسة ، وانتشروا جنوب اوراس على قرى الزاب وانتهوا ايـام الموحدين الى مزاب وجبل راشد .

دافعتهم زناتة عن هذه الجهة ، وكانت أملك للبأس من صنهاجة لبدواتها وتقارب ما بين حياتها وحياة العرب ، فكانت بين الفريقين مواقف صعبة اكثر الهلاليون من ذكرها في أشعارهم ، وقتل في بعضها أبو سعدى خليفة اليفرني بالزاب ، وهو قائد صاحب تلمسان من بني يعلي ، قال ابن خلدون : « وتغلب العرب على الضواحي في كـل وجه وعجزت زناتة عن مدافعتهم بافريقية والزاب ، وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ومصاب » ا هـ .

ولما استتب الامر للموحدين نزعت اليهم زغبة ونزلت مع بني بادين من زناتة قبلة المغرب الاوسط من مزاب الى جبل راشـد • واتحدوا على دفاع ابن غانية الميورقي • قال ابن خلدون : « وانعقد بينهم حلف على الجوار والذب عن الاوطان وحمايتها من معرة العدو في اهتبال غرتها وانتهاز الفرصة فيها • واقامت زغبة في القفار • وبنو بادين بالتلول والضواحي » اهـ •

ولما ضعفت الدولة الموحدية المؤمنية ونشأت دولتا بني زيان وبني مرين احتاجت الدولتان الى العرب لتعزيز سيادتهما • فدخل الهلاليون واحلافهم شمال المغرب الاوسط من عمالة وهران •

وهكذا تم للعرب استيطان الجزائر بالرهبة من سيوفهم أولا وبالرغبة فيها أخيرا • فاقطع لهم ملوك البربـر الاقطاعات وأجزلوا لامرائهم الصلات • واضيفت افريقية الشـمالية الى جزيرة العرب جنسيا بعد ما تبعتها دينيا وسياسيا •

4 ـ نتائج النزوح الهلالي

ارسل الفاطميون الهلاليين على المغرب انتقاما من المعز ودولة صنهاجة الشرقية فنزحوا اليه لا حبا في نصرة الفاطميين ولا بغضا في صنهاجة • ولكن طلبا للرزق بالتقلب في بواديه بين الصحراء والتل •

ولما دخلت رياح افريقية لم تبدأ بالشر حتى كان ما كان من قبض المعز على أسرة أميرها مؤنس • فحمل بسوء سياسته العرب على تنفيذ ما رسم لهم الفاطميون من تملك المناطق المعينة لهم •

كان عدد من أجاز النيل من رياح وزعبة وعدي يربو على ألف ألف نفس • المقاتلة منهم نحو خمسين ألفـا وسلاحهم سيف ورمح

وقوس ودرع . وكـان البربـر يفوقونهم عَددا وعُددا ولكـن تخاذلوا امامهم فاكتسب العـرب صيتا مـلأ قلوب السكان رعبا . والرعب أهم أسباب الفوز في الحرب .

حصرت الحرب العرب في افريقية ، ولم يزل اخوانهم يتواردون عليهم من المشرق ، فضاق بهم ما احتلوه من الاوطان ، ونتج عن ذلك خراب العمران وسوء حيـاة السكان . واحصى عليهم الجغرافيون والمؤرخون حتى اقتلاع عود للوقود أو رفع حجر للاثافي .

بقيت الجزائر في نجوة من فساد الهلاليين حتى حالف الناصر بن علناس قبيلة الاثبج وخرج لامتلاك تونس ، فاغرى به ابن عمه تميم ابن المعز بقية العرب وكانت وقعة سبيبة سنة 457 فهزم الناصـر . وتبعه العرب الى القلعة .

قال ابن خلدون : « فنازلوها وخربوا جناتها واحتطبوا عروشها وعاجوا على ما هنالك من الامصار مثل طبنة والمسيلة . فخربوها وازعجوا ساكنيها . وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن . فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير ! وغوروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الارض الفساد » اهـ .

وفي قوله أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير مبالغة أجنبية عن أسلوب التاريخ . فان الادريسي تتبع الحمـلة الهلالية أحسن تتبع ووصف طبنة ومقرة والمسيلة وغيرها بالعمران .

عجزت صنهاجة الغربية أمام الهلاليين كاختها الشرقية . وغلبوا أيضا زناتة بالصحراء . ونشأ عن ذلك فوضى في الوطن . فانقطعت الصلة بين المدن باخافة السبل . وفر الفلاحون من الضواحي . فوقفت التجارة والفلاحة . وانحصرت العمارة والامن في السواحل شمال قسنطينة حيث لا شر بين العرب والبربر .

وكان ضرر الحرب بالجزائر أقل منه بتونس وطرابلس لان الجزائر لم تكن هي المقصودة بهذه الحملة ، ولم تطل بها مدة الحرب ، وسواحلها حيث كتامة كانت منطقة سلم ، ووسطها به معاقل منيعة وجبال حصينة ، وجنوبها حيث اشتدت الحرب صحراء ليس فيها كبير عمارة •

والمسؤل عما لحق المغرب من أضرار الحرب هي صنهاجة التي لم تحسن سياسة هؤلاء العرب وجرأتهم عليها بما كان بين دولتيها من تنافس • وقد بالغ كتاب العربية في تقدير تلك الاضرار ثم حملوا الهلاليين مسؤليتها • ذلك لانهم كتبوا لدول بربرية ولم يكن للهلاليين حكومة تطمعهم في انعامها • ولبداوتهم لم يهتموا بدعاية سياسية تنشر لهم أو عليهم • واتخذ كتاب الفرنسوية مبالغات كتاب العربية سلما لثلب العرب • وصاروا يطرون البربر بعد ما كانوا يقذفونهم باشنع القذائف في الدورين الروماني والبزنطي • واقتصر في هذا الغرض على كلمة واحدة للكاتب العسكري كاريت • قال :

« كان هجوم العرب الفاتحين كالاعصار يقتلع الاشجار ويهدم المنازل وهجوم الهلاليين كالحريق الهائل الذي يذر الاشجار والمساكن رمادا تذروه الرياح فما أبقاه الاعصار قضى عليه الحريق • وما بقي عن السياسة العربية قائما بالمغرب ذهب به الطبع العربي الهدام • فتمم الهلاليون اعمال التخريب التي ابتدأها الخلفاء الاولون » اهـ •

اما تجد في هذه الجملة التي هي غيض من فيض ريح مسيحية القرون الوسطى وروح الاستعمار العصري ؟ لعل كاريت تصور حربا أروبية بآلاتها المدمرة واستعار نتائجها لنتائج حرب سلاحها السيف والقوس ! ولعل عاطفته على هذا الوطن امام الهجوم العربي استعارها من انسان كامل رأى الحملات الاروبية على الامم المستضعفة ! اسمح لي أيها الكاتب أن أقول لك لست بمؤرخ يحترمه القارىء ولا بسياسي

يغر البربر فانهم لا يرضون عــن تحاملك على العرب ولا ســيما الفاتحين •

البربر يعلمون ان ما نتج عن هجوم الهلاليين ليس ناشئا عن عداوة جنسية او قســوة حربية ولذلك اختلطوا بهم وأخذوا عنهم عوائد اجتماعية واخلاقا فاضلة اضافوها الى عوائدهم وأخلاقهم • واستعرب كثير منهم لما وجدوا في العربية ثروة لفظية وادبا راقيا واعانة على فهم الدين • واستبدلوا بحياتهم حياة عربية •

فكان نفوذ الهلاليين في البربر اجتماعيا لغويا جنسيا • كما كان نفوذ الفاتحين دينيا سياسيا ويمتاز نفوذ العرب في غيرهم من الامم بانه غير ناشيء عن دعاية سياسية وانه خالد خلود الراسيات لا يذهب بذهاب سلطانهم ولا توهن من قوته الدسائس الاجنبية • بل لا يكترث بها الا اكتراث القائل :

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه   اشفق على الرأس لاتشفق على الجبل

5 ــ الحيـــاة الهلاليـــة

الهلاليون بداة ظواعــن • يسكنون بيوتــا يستخفونها يوم ظعنهم • ويكسبون الخيل لركوبهم والانعام لحمل أثقالهم والتغذي بالبانها واتخاذ الملابس والاثاث من أوبارها واصوافها واشعارها • ينتجعون بها الصحراء شتاء والتل صيفا • ويبتغون الرزق في غالب أحوالهم من القنص وتخطف الناس من السبل • ويجمعون أيام كونهم بالتل الحبوب لقوت سنتهم • قال ابن خلدون : « وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرات من اضرارهم بافساد السابلة ورعي الزرع مخضرا وانتهابه قائما وحصيدا • الا ما أحاطته الدولة وذادت عنه الحامية في الممالك التي للسلطان عليهم فيها سبيل » اهـ •

وتغلب الهلاليون على طرق القوافل ، فلا يجتازها غيرهم الا بخفارة احدهم . فوقفت حركة البربر التجارية من هذه الناحية ولكن الهلاليين قاموا بها أحسن قيام ووسعوا نطاق التجارة بين التل والصحراء .

ولم يحافظ على حياة الظعن من الهلاليين الا القبائل القوية واحلافها . اما من ضعف منهم فكانوا ينزلون المدن والقرى البربرية . أو يحدثون لانفسهم قرى بالزاب والصحراء . ويشتغلون بالفلاحة ويستبدلون بالشاة البقر .

وكانت زناتة وبعض البربر على مثل هذه الحياة البدوية من قبل مجيء الهلاليين . لانها حياة ناشئة عن طبيعة الوطن لا دخل للنسب فيها . ولتشابه الحياتين تأثر الهلاليون بزناتة في بعض عوائدهم . قال ابن خلدون متحدثا عن العرب :

« شعارهم لبس المخيط في الغالب . ولبس العمائم تيجانا على رؤسهم . يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها . وهم عرب المشرق . وقوم يلفون منها الليت والاخدع قبل لبسها . ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضلها . وهم عرب المغرب . حاكوا بها عمائم زناتة من أمم البربر قبلهم . وكذلك لقنوا منهم في حمل السلاح اعتقال الرماح الخطية . وهجروا تنكب القسي . وكان المعروف لاولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الامرين .. »

« فهذه كلها شعائرهم وسماتهم . وأغلبها عليهم اتخاذ الابل والقيام على نتاجها وطلب الانتجاع بها لارتياد مراعيها ومفاحص توليدها ، بما كان معاشهم منها . فالعرب أهل هذا الشعار من أجيال الآدميين ، كما ان الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر ، لما كان معاشهم فيها . فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه الا بالعرض .

ولذلك كان النسب في بعضهم مجهولا عند الاكثر ، وفي بعضهم خفيا على الجمهور • وربما تكون هذه السمات والشعائر في أهل نسب آخر فيدعون باسم العرب » اهـ •

ولسان الهلاليين مضري • حافظوا عليه ببداوتهم في المفردات والتراكيب ووجوه البلاغة وأساليب الخطاب • قال ابن خلدون :

« وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم ، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم • والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ، ولم يفقدوا من أحوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في أواخر الكلم فقط » اهـ •

وقد ذكر العبدري في رحلته ــ وهو من أهل القرن السابع ــ ان عرب برقة لم يزالوا يعربون أكثر أقوالهم • ويتحدثون بما يعد عند العلماء غريبا • وذكر ما سمعه من أقوالهم المعربة والفاظهم الغريبة ، وعلل ذلك بعدم اختلاطهم بالناس وقال هم أفصح من عرب الحجاز وغيرهم •

فلعل الهلاليين انما فسد لسانهم بالجزائر لاختلاطهم بالبربر ، ويشهد لذلك أننا نرى اليوم عرب الصحراء القليلي الاختلاط بغيرهم أصح عربية وأقوم مخارج حروف ، وعرب السواحل المغمورين بالبربر أفسد نطقا بالحروف وأردى لغة • ومع هذا فالهلاليون أثروا من حيث اللغة في البربر أكثر مما تأثروا بهم •

وذكر ابن خلدون ان بداة العرب شرقا وغربا يمتازون عن أهل الحضر بان مخرج القاف لديهم بين مخرجي الكاف والقاف الحضرية ، ولم تزل هذه القاف البدوية لعهدنا ، وهي مثل القاف الاعجمية التي نجدها في الاعلام البربرية والافرنجية وغيرها ، مثل بلقين وتاقرا وقال وقوتية ، وكان الاقدمون كالبكري يرسمونها جيما ، فيقولون

بلجين وتاجرا ، ومن بعدهم كابن خلدون يرسمونها كافا ، فيقولون بلكين ، وكتاب عصرنا يرسمونها غينا • فيقولون غسال وغوتية • وانا اختار رسمها قافا اذ هي مثل القاف البدوية مخرجا •

وكانت أخلاق الهلاليين هي أخلاق الجاهلية بما فيها من حسنات وسيئات كالجود والشجاعة وعزة النفس واباية الضيم وحفظ العهد وحسن الجوار والاعتراف بالجميل والتمدح بالغارة وبغض الصنائع والحرف •

ومعارفهم هي معارف الجاهلية من عناية بالانساب وكل ما يتصل بحياتهم البدوية ، وليس لهم من الاسلام بعد الشهادتين كبير علم أو عمل • وقد تأثروا من هذه الناحية بالبربر ، فنبذ القاطنون بالنواحي الخصبة حياة الغارة والفتن • وحيي فيهم الشعور الديني • وظهر منهم من دعا الى السنة • ورابطوا في الثغور لحمايتها من النرمان ، ولم يعرف عنهم اعانة الكافر أو الاستعانة به حتى كان بنو زيان أواخر أيامهم يستعينون بعضهم على بعض لنيل الملك بالاسبان النازلين بوهران • فجروا معهم أحلافهم من عامر وزغبة القاطنين بنواحي وهران ، فاصبحوا من بعد جندا لنصارى الاسبان •

وللقبائل الهلالية مناطق تتقلب فيها ظعنا واقامة • ولكل رئيس منها يلقب أميرا أو شيخا أو سيدا • والغالب أن يكون معه من قبيلته رئيس تابع له يلقب رديفا • وقلما تخرج رئاسة القبيلة من بيت الى آخر • وللرئيس صفات يمتاز بها من كبر سن ورجاجة عقل وفصاحة لسان وفضل جود • وليس للحكومة عزله الا ان تكون قبيلته ضعيفة •

وكثيرا ما تكون الحروب بين الهلاليين اما بين قبيلتين متجاورتين لاسباب أهمها التنازع على وسائل الحياة ولا سيما بالصحراء : واما

بين أفراد القبيلة الواحدة لاسباب أهمها التنازع على الرئاسة • ولا يفض الخصام كالحسام • وينتج عن هـذه الحروب ضعف قبيلة واستعلاء أخرى • فتضطر الضعيفة اما للجلاء الى ناحية اخرى واما للاحتماء بقبيلة أقوى • فتضع القبيلة الحامية على المحمية عربية أو بربرية ضريبة معلومة يسمونها خفارة • وهي آية الشرف الحربي • واليوم لم يزل لبعض القبائل علـى غيرها خفارة يقبضونها باسـم الشرف الديني • ويحرفون لفظها الى غفارة كمـا حرفوا اصـل وضعها •

وقد احتاجت الحكومات البربرية الى القبائل العربية • فقربت رؤساءهم بالمصاهرة والمجالسة • واقطعتهم الاراضي • واعتمدت عليهم في جباية الخراج وتجنيد الجنود • وعرف العرب ان نعمتهم تلك لا تدوم الا بضعف الحكومة • فكانوا يحدثون اها المشاكل ويدبرون عليها الثورات • ويتحدون ضدها متى خشوا قوتها نابذين مابينهم من تراث • وينقسمون على الحكومات متى تعددت • وقد أصبحت الحكومات الحفصية والزيانية والمرينية كـل منها تعتمد على قبائل عربية سلما وحربا •

ولم تكن مشاغبة الهلاليين للحكومات البربرية لطمع في الملك أو طلب للفوضى • وانما كانت لحفظ حياتهم البدوية • وكانت القبائل البربرية تتواثب على الملك ارضاء لشهوات زعمائهم لا لاختلاف مباد او تباين غايات • ونتج عن سياسة هذين الجنسين المشتركين في الدين والوطن نتائج سيئة عادت عليهم جميعهم بالوبال • وتفصيل الحياة العربية السياسية في الكتاب الثالث ان شاء الله •

قال ابن خلدون : « وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم افريقية رجالات مذكورون • وكان من أشهرهم حسن بن سرحان وأخوه بدر

وفضل بن ناهض • وهم من دريد بن الاثبج • وماضي بن مقرب من قرة • وسلامة بن رزق من كرفة • وشبانة بن الاحيمر واخوه صليصل من بني عطية من كرفة • وذياب بن غانم من بني ثور • ومؤنس بن يحي من مرداس رياح لامر داس سليم وزيد بن زيدان من الضحاك • ومليحان بن عباس (وفي نسخة ثليجان بن عابس) من حمير • وزيد العجاج بن فاضل • ويزعمون انه مات بالحجاز قبيل دخول افريقية • وفارس بن ابي الغيث واخوه عامر (وفي نسخة عابد) والفضل ابن ابي علي • ينسبونهم في مرداس والمعنى مرداس رياح كل هؤلاء يذكرون في أشعارهم • وكان ذياب بن غانم رائدهم في دخول افريقية • ويسمونه لذلك ابا مخيبر ، وشعوبهم لذلك العهد — كما نقلنا — هم زغبة ورياح والاثبج وقرة وكلهم من هلال بن عامر وربما ذكر فيهم بنو عدي ، ولم نقف على اخبارهم • وليس لهم لهذا العهد حي معروف فلعلهم دثروا وتلاشوا وافترقوا في القبائل » اهـ •

الهلاليون ومواطنهم بالجزائر

العرب المستوطنون بالجزائر انما هم الهلاليون واحلافهم • اما سليم فانما تقدمت منهم قبيلة عوف حوالي القرن الثامن من تونس الى ناحية عنابة •

واحلاف الهلاليين هم عرب المعقل واحياء من فزارة واشجع من بطون غطفان • وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن • وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية • وعمرة بن اسد بن ربيعة بن نزار وفي بعض نسخ ابن خلدون عترة بالتاء بدل الميم • وثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة • وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر • وطرود بطن من فهم بن قيس عيلان •

هذا ما ذكر ابن خلدون • ولم يعتن باخبار غير المعقل منهم • وعد باقيهم مندرجين في هلال • وفي الاثبج منهم خصوصا • نعم طرود لم يزالوا معروفين باسمهم • ودخلوا ارض سوف بعد ابن خلدون • ونقل كاريت عن ابن الرقيق ان السكاكين فيمن دخل مع الهلاليين • وسكون بطن من كندة احدى القبائل اليمنية •

ولما أخذ ابن خلدون في شرح أحوال هؤلاء العرب قال : « ونخص منهم بالذكر من كان لهذا العهد بحيه وناجعته • ونطوي ذكر من انقرض منهم » اهـ •

ونحن نقدم الكلام في المعقل ثم نقفي ببني هلال • تحيز المعقل منذ أمد قديم الى الهلاليين • ودخلوا معهم المغرب في عدد دون المائتين ونزلوا غربيهم • وانتشروا في الصحارى • فاعتزوا وعفوا وكثروا بمن اندمج فيهم من غير نسبهم من اشجع وفزارة وبني سليم • ومن بني هلال احياء مع المعقل ايضا من مسلم وسعيد والعمور وكرفة والمهاية وحصين •

ومواطنهم تمتد من قبلة تلمسان الى المحيط الغربي الى سجلماسة ودرعة حيث يجاورون الملثمين • وملكوا على زناتة قصور توات وتامنطيت وتيقورارين وورقلة واقتضوا منهم الضرائب •

ومن بطونهم ذوو حسان بالسوس الاقصى ، وذوو منصور بين ملوية ودرعة منهم العمارنة والمنبات بطنان يعرفون بالاحلاف • ومن بطون المعقل ذوو عبيد الله بن صقيل واخوانهم الثعالبة من ثعلب بن علي بن بكر بن صقيل •

أما ذوو عبيد الله فمواطنهم بين تلمسان ووجدة الى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صا من القبلة • ويبلغون في رحلتهم الى تيقورارين وتوات ويجاورهم شرقا بنو عامر من هلال • وبين القبيلتين حروب •

وهم بطنان الهداج والخراج • يجاورون ذوي منصور غربا والخراج شرقا • والخراج منهم الجعاونة أبناء جعوان • والغسل ابناء غاسول • والمطارفة ابناء مطرف • والعثامنة ابناء عثمان ، ومن العثامنة أولاد عبد الملك ، وفيهم رئاسة الخراج ومعهم ناجعة من المهايا • ينتسبون تارة الى المهايا من عياض ، وتارة الى مهايا بن مطرف •

واما الثعالبة فموطنهم بمتيجة • قال ابن خلدون : « ويظهر أن نزولهم لها حين كان ذوو عبيد الله في مواطن عامر ، لهذا العهد ، وكان بنو عامر في مواطن سويد • فكانت مواطنهم لذلك العهد متصلة بالتلول الشرقية • فدخلوا من ناحية قزول وتدرجوا الى ضواحي لمدية • ونزلوا جبل تيطري الى أن ملك بنو توجين لمدية وغلبوهم على تيطري • فنزلوا الى متيجة » اهـ •

وذكر ابن خلدون انتساب المعقل الى جعفر بن ابي طالب وفنده • ويظهر لي أن نسب جعفر في الثعالبة صحيح وانه جعفر أخو عبد الله الكامل الذي ملك ابناؤه متيجة في القرن الثالث • فلا يبعد انهم بقوا هنالك بعد ذهاب ملكهم حتى نزل عليهم الثعالبة •

وأما الهلاليون فقبائل عديدة وبطون كثيرة • ولضبط الحديث عنهم نعد هلالا شعبا • ونسلك في تفصيل فروعه الترتيب اللغوي الذي نظمه من قال :

الشعب ثم قبيلة وعمارة بطن وفخذ والفصيلة تابعه

فقبائل هلال هي الاثبج ورياح وزغبة وقرة بن عبد مناف وكلهم ابناء ابي ربيعة بن نهيك بن هلال • وعمائر الاثبج هي دريد وكرفة وعياض والضحاك ولطيف والعمور والعاصم ومقدم • والعمارتان الاخيرتان نقلهم بنو عبد المؤمن الى المغرب الاقصى كما نقلوا قبيلة قرة • وعمائر رياح هي مرداس وسعيد وعامر وعلي وعمائر زغبة هي : يزيد وحصين ومالك وعامر وعروة •

1 — دريد • كانت اليهم رئاسة هلال • ومدحهم شعراؤهم • وكان منهم الحسن بن سـرحان رئيس الاثبج اجمعين عنـد دخولهم افريقية • واخته الجازية التي كانت تحت الشريف بن هاشم صاحب الحجاز • وولايته عليه من سنة 430 الى 453 ولهذا الشريف منها ابن اسمه محمد ولي الحجاز بعد أبيه • ولما اجمعوا الرحلة الى افريقية تحيلوا في نقل الجازية معهم • وتزوجها بعده ماضي بن مقرب من قرة • واجتمع على حربهم من اخوانهم كرفة وقرة وعياض • وكان الظهور غالبا لدريد •

ومن بطونهم أولاد سرور وأولاد عطية وأولاد عبد الله • وأولاد عطية رئاستهم في فخذ أولاد مبارك بن حباس • ومن أفخاذ أولاد عبد الله أولاد جار الله وتوبة • ورئاسة أولاد جار الله في فصيلة أولاد عنان بن سلام • ورئاسة توبة بين فصيلتي أولاد وشاح وأولاد مبارك ابن عابر وفي بعض نسخ ابن خلدون عابد بالدال بدل الراء • وهؤلاء أولاد مبارك هم فصيلتنا القاطنون بين بني تليلان وبني خطاب •

ومواطن دريد ما بين بونـة وقسنطينة الى طارف مصقلة وما يحاذيها من القفر • وطارف قرية ذكرها ياقوت • وكان أولاد مبارك ابن حباس بتلة بن حلوف من ناحية قسنطينة • ثم غلبتهم عليها توبة زحفت اليهم من طارف مصقلة فدثروا وتلاشوا • ثم قعدت توبـة عن الظعن واستبدلت الشـاء والبقر بالابل • وعليها قعدت توبـة وعسكرة • وأولاد سرور وأولاد جار الله مجاورون لتوبة وعلى سننهم في الحياة • هذه حالتهم لعهد ابن خلدون •

2 — كرفة • كان لهم جمع وقوة • وبطونهم كثيرة • منها بنو محمد ابن كرفة والمراونة بنو كثير بن مروان بن قطن بن كرفة • وأولاد نابت بن فاضل بن محمد بن كليب • والحدلجات اربع بطون

هم بنو كليب بن عطية ابن قطن يعرفون بالكلبة بالباء أو الياء نسختان لابن خلدون ، وبنو شبيب بن محمد بن كليب يعرفون بالشببة ، وأولاد صبيح بن فاضل يعرفون بالصبحة ، والسراحنة أولاد سرحان بن فاضل ، ومن افخاذ أولاد نابت أولاد مساعد وأولاد ظافر وأولاد قطيفة . ومن فصائل أولاد مساعد أولاد علي بن جابر بن مفتاح ابن مساعد . وفيهم رئاسة كرفة .

وموطن الحدلجات بأوراس مما يلي زاب تهودا . وأولاد نابت اقطعهم الحفصيون جانب أوراس الشرقي والزيبان الشرقية . وبنو محمد والمراونة تلقاء أولاد نابت ضواعن في القفار . وكرفة كانوا محالفين لصنهاجة ثم الحفصيين . ولما ضعف نفوذ الحفصيين بالزاب انقبضوا الى جبل أوراس . وقلما يظعنون الى تخوم الزاب .

3 — عياض . كان لهم عدد وقوة . ومن بطونهم الزبر بنو زبير وأولاد صخر وأولاد رحمة والمهاية والخراج والمرتفع . ومن أفخاذ المرتفع أولاد حناش رئاستهم في فصيلة أولاد عبد السلام ، وأولاد تبان رئاستهم في فصيلة أولاد محمد ابن موسى . وأولاد عبدوس أو غندوس نسختان لابن خلدون رئاستهم في فصيلة بني صالح . ورئاسة الخراج في فخذ أولاد زائدة بن عباس . ورئاسة المهاية في فخذ أولاد ديفل .

قال ابن خلدون : « وعياض نزلوا بجبل القلعة قلعة بني حماد . وغلبوا قبائله على أمرهم وصاروا يتولون جبايتهم .. وطول الجبل من المشرق الى المغرب مابين ثنية غنية والقصاب الى وطن بني يزيد ابن زغبة . فاوله مما يلي غنية للمهاية والزبر . وبعدهم المرتفع والخراج . ويلي الخراج غربا أولاد صخر وأولاد رحمة وهذا آخر وطن الاثابج » اهـ .

4 — الضحاك • كانوا بطونا كثيرة • وهم مفترقون على أميرين منهم هما ابو عطية وكلب بن منيع • ولاول دولة الموحدين غلب كلب ابا عطية واستقل بالرئاسة •

وكان نجعهم بالزاب • ثم تغلب عليهم الذواودة • واصاروهم في جملتهم • فعجزوا عن الظعن ونزلوا المدن •

5 — لطيف • بطونهم كثيرة منها اليتامى أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف . واللقامنة أولاد لقمان بن خليفة • ومن أفخاذ اليتامى ذوو مطرف وذوو ابي الخليل وذوو جلال بن معافى • ومن افخاذ اللقامنة أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان ، وبراز بن معن بن محيى •

وغلبتهم رياح والذواودة • فانتقل بعضهم الى المغرب الاقصى ونزل فريق من براز على العطاف من زغبة • وعجز الباقون عن الظعن فاتخذوا بالزاب الآطام والقرى • ونزلوا مدنه مثل الدوسن وتهودة وبادس وغريبو وتنومة •

قال ابن خلدون : « وا‌هم عنجهية لم يفارقوها منذ ايامهم القديمة لهذا العهد • وبين المتجاورين منهم بقصور الزاب فتنن متصلة ، وعامل الزاب يدرأ بعضا ببعض ، ويستوفي جبايته منهم جميعا » اهـ •

6 — العمور • ليسوا من الاثبج وانما هم ملحقون بهم ، ويحتمل انهم من عمرو بن عبد مناف بن ابي ربيعة بن نهيك بن هلال أو من عمر بن روبية بن عبد الله بن هلال ، قال ابن خلدون : « وليسوا من ولد عمرو بن ابي ربيعة بن نهيك بن هلال » اهـ •

وهم بطنان مرة وعبد الله • فمرة على كثرتهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا ، وعبد الله فخذان ماضي ومحمد ، ومحمد فصيلتان عنان وعزيز ، ومن عنان شكر وفارس ، ومن شكر زكرير ومحيا •

وفي العمور فرسان وأكثرهم رجالة وليسوا في ولاء دولة ولا لهم رئاسة ولا ناجعة لافتراق كلمتهم . وبين أولاد شكر فتن متصلة . فحالف أولاد محيا سويد بن زغبة . وحالف أولاد زكرير بني عامر .

وموطن العمور يمتد من أوراس على الحضنة والصحراء الى جبل راشد المضاف اليوم اليهم . وليس لهم سبيل الى التل ، ونزل أولاد شكر جبل راشد ، ثم استقل به أولاد محيا ، وطردوا منه أولاد زكرير الى جبل كسال غربيه . وهو جبل يطل على البيض . وباقي العمور بسفح أوراس الى مواطن غمرة غربا . وهم تحت طاعة رياح .

7 — مرداس . بطونهم كثيرة منها الذواودة أولاد ذواد ، وصنبر بن عقيل بن مرداس ، ومسلم بن عقيل . وعامر بن يزيد بن مرداس ، ومن الذواودة بنو عساكر بن سلطان وأولاد محمد بن مسعود بن سلطان وأولاد سباع بن يحي ، ومن عامر بنو موسى وجابر وبنو محمد ، ومن بني محمد مشهور ومعاو وعلي الملقب سودان ومن مسلم رحمان وأولاد جماعة وفيهم رئاسة مسلم بين أولاد شكر بن حامد بن كسلان بن غيث بن رحال بن جماعة ، وبين أولاد زرارة بن موسى ابن قطران بن جماعة .

وكانت رئاسة رياح لمرداس في صنبر قوم مؤنس بن يحيى ، ثم صارت للذواودة وكان منهم مسعود بن سلطان واخوه عساكر . واستمرت الرئاسة في عقبهما .

8 — سعيد ، من بطونهم أولاد يوسف بن زيد ومن أولاد يوسف أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف ، وأولاد ميمون بن يعقوب بن عريف ابن يعقوب بن يوسف ، ورئاسة سعيد في أولاد ميمون ويرادفهم أولاد عيسى ، وسعيد احلاف لاولاد محمد من الذواودة .

ومع سعيد لفائف من المخادمة والغيوث وهم من ولد مشــرق ابن الاثبج ومن نفاث احدى بطون جذام ومن زنارة احدى بطون لواتة من البربر •

9 — عامر • منهم الاخضر ، رئاستهم في أولاد ثامر بن علي من تمام بن عمار بن خضر ، والاخضر ومسلم من مرداس احلاف لاولاد سباع بن يحي من الذواودة ولم يتحدث ابن خلدون عن عمارة علي •

وبطون رياح كانت تنقلب من الجريد الى القيروان الى الزاب الى المسيلة الى ورقلة • ولهم اقطــاع بالحضنة ونواحي قسنطينة وبجايــة •

10 — يزيد • بطونهم كثيرة ، منها جواب وبنو كرز وبنــو موسى والمرابعة بنو مربع والخشنة بنو خشين وحميان وأولاد لاحق وأولاد معافي وبنو سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد ابن محمد بن عبد الله بن مهدي بن يزيد • ومنهم من يزعم ان مهديا هو ابن عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق • وليس بصحيح ولبني سعد ثلاث أفخاذ هم بنو منصور بن سعد وبنو ماضي بن رزق بن سعد وبنو زغلي بن رزق •

ولبني يزيد محل من زغبة بالكثرة والشرف والدول بهم لذلك عناية وهم أول من اقطعتهم الدول بالتلول والضواحي • وكانــت رئاستهم لاولاد لاحق ثم لاولاد معافي ثم صارت لبني سعد واختص بها منهم بنو زغلي •

ويزيد مجاورون غربــا للاثبج ورياح • يقطنون ســهل حمزة والدهوس وارض بني حسن من صنهاجة الى متيجة ، وما يتصل بذلك ريفا وصحراء • وهم مقيمون لا يظعن الا قليل منهم • وينزل معهم اخوانهم عكرمة فانه ويزيد ابناء عيسى بن زغبة وفي بعض نسخ ابن

خلدون عبس بدل عيسى • وفي ايام يغمراسن بن زيان انتقل منهم حميان الى صحراء تلمسان • وانتقل فريق من عكرمة الى جبل كريكرة قبلة السرسو •

11 — حصين • لهم بطنان عظيمان جندل وخراش • ومن جندل خشعة وأولاد سعد بن خنفر بن مبارك بن فيصل وفي بعض النسخ فضيل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن جندل • ومن أولاد سعد فصيلة بني خليفة ومن خراش أفخاذ أولاد مسعود ابن مظفر بن محمد الكامل بن خراش ، وأولاد فرج بن مظفر ، وأولاد طريف بن معبد بن خراش يعرفون بالمعابدة • ومن أولاد مسعود فصيلة رحاب بن عيسى بن ابي بكر بن زمام بن مسعود • ومن أولاد فرج فصيلة بني خليفة بن عثمان بن موسى بن فرج ومن أولاد طريف فصيلة أولاد عريف •

ورئاسة حصين مفترقة على الفصائل المذكورة • وموطنهم غربي بني يزيد الى جبل تيطري ونواحي لمدية •

12 — مالك : بطونهم ثلاثة : بخيس، والحرث وسويد • ومن الحرث افخاذ غريب والعطاف والديالم بني ديلم • ومن غريب فصيلة بني منبع • ومن منيع بنو مزروع وأولاد يوسف • ومن فخذ العطاف فصيلة أولاد يعقوب • ومن الديالم فصيلتان : العكارمة ابناء عكرمة ابن مزروع بن صالح بن ديلم ، وأولاد ابراهيم بن رزق بن رعاية بن مزروع • ومع الديالم اخوانهم بنو زياد من ابراهيم وأولاد هلال بن حسن وبنو نوال بن حسن والدهاقنة أولاد دهقان بن حسن فان ديلما هو ابن حسن •

ولسويد أفخاذ منها فليتة وجوثة وصبيح وأولاد ميمون وشبابة ومجاهر • ومن شبابة الحساسنة بنو حسان • ومن مجاهر غفير وشافع ومالف وبورحمة وبوكامل وحمدان وهبرة • ومن حمدان

أولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان • وهبرة تزعم انها من قوم المقداد بن الاسود الصحابي البدري • فهم من قضاعة • وقد ينتسب بعضهم الى تجيب من بطون كندة •

وكانت مواطن مالك جنوب بني توجين المستولين على ما بين سعيدة ولمدية • ثم استولت سويد على بلاد توجين ما عدا جبل وانشريس • وكان لسويد المنزلة العليا في دولتي بني زيان وبني مرين • ونزلت هبرة نواحي البطحاء بالضفة اليمنى من نهر مينة • والعطاف بسهول غربي مليانة ، والديالم قبلة وانشريس • ونزلت بطن بخيس نواحي وهران •

13 — عامر • بطونهم ثلاثة أولاد يعقوب وبنو شافع وبنو حميد • ومن شافع فخذا بني مطرف والشقارة • ولحميد افخاذ وفصائل منها بنو عبيد بن حميد ، منهم المحارزة بنو محرز بن حمزة ابن عبيد ، والعقلة بنو عقيل بن عبيد ، والحجز بنو حجاز بن عبيد ، ومن الحجز حجوش وحجيش • ومن حجوش حامد ورباب ومحمد ، ومن محمد الولالدة بنو ولاد بن محمد •

ورئاسة عامر في بني يعقوب • وكانت عامر احلافا لبني يزيد يظعنون بظعنهم ثم انتقلوا في عهد بني عبد الواد الى قبلة تلمسان ولهم جبل تامالة ، ويتقلبون هنالك بين وهران والصحراء •

14 — عروة • هم بطنان حميس والنضر ومن حميس عبيد الله ويقظان وفرغ ومن فرغ أولاد نائل ومن يقظان أولاد عايد ومن بطن النضر أولاد خليفة والجماقنة وشريفة والصحارى وذوو زيان وأولاد سليمان •

وأولاد نائل احلاف لاولاد محيا من العمور وبنو يقظان وعبيد الله احلاف لسويد يظعنون معهم • والنضر رئاستهم في أولاد خليفة • وهم منتبذون بالقفر ويصعدون الى أطراف مواطن حصين والديالم

والعطاف • والصحارى أكثرهم بجبل مشنتل المضاف اليوم اليهم •

هذه فروع هلال ومواطنهم في القرنين الثامن والتاسع • اعتمدنا في جلها على ابن خلدون مع تصحيح ما فيه من تحريف في الاعلام • ومن تلك الفروع ما تغيرت اوطانه او اتسعت فصائله أو اندثر اسمه • وموعدنا ببيان الهلاليين ومواطنهم لهـذا العهـد الكتاب الرابـع ان شاء الله •

وذكر كاريت ان مرمول احصى مقاتلة عرب الجزائر في القـرن العاشر بنحو (199500) واعتذر عن قلة هذا العدد بان مرمول تارة يستند في احصائه الى اليقين واخرى يعتمد على أقل تقدير • قـال ويمكن احصاء المقاتلة وغيرهم من شيوخ ونساء وصبيان بنحـو تسعمائة الف • ونحن لا نقفو ما ليس لنا به علم • وانما نرى من الجدول الذي نقله عن مرمول انه أهمل كثيرا من القبائل العربية • فيكون ذلك الاحصاء دون الحقيقة بمراتب • وهذا جدول مرمول :

1 — السكاكين

القبيلة	البطن	الموطن	المقاتلة
أولاد صبير		بين تلمسان ووهران	23000

2 — بنو هلال

بنو عامر		بين تلمسان ووهران	60000
أولاد هوروا		جهة مسغانم	18000
أولاد عقبة		جهة مليانة	11500
أولاد هبرة		بين مستغانم ووهران	03000
أولاد مسلم		جهة المسيلة	؟ ؟ ؟
رياح	الحنانشة	بين قسنطينة وبونة	20000
أولاد سعيد		بين تنس ونوميديا	18000

3 — المعقل

أولاد حسان	الثعالبة	في متيجة ونوميديا	44000
أولاد حسان	أولاد سعيد	بين مستغانم وشلف	02000

الكتاب الثالث

في العصر البربرى

عرف البربر العرب اساتذة ماهرين مخلصين لا فاتحين غالبين يسوسونهم بالعسف ويسومونهم سوء العذاب ثم يمنون عليهم بانهم تعبوا في تمدينهم أو يملكون عليهم أراضيهم ثم يسبونهم بانهم لا يحسنون تعميرها .

ترقى البربر في ظل الحكومة العربية . ولكنهم أسرعوا بتطلب الاستقلال قبل قدرتهم عليه . وانما بعثهم على ذلك ما بقي فيهم من عروق الفوضى ومنافسة قبائلهم بعضها لبعض . حتى اذا جاء الدور العبيدي اتموا دروسهم العملية في الحياة النظامية فاصبحوا قادرين على الاستقلال .

وفي القرن الخامس استقل البربر بوطنهم من غير كفران لفضل العرب فكانت حكومات صنهاجة معترفة بالسيادة العباسية أو الفاطمية . ثم ظهرت دولة الموحدين في القرن السادس فلم تعترف بالسيادة للفاطميين أو العباسيين اذ كانت دولتاهم يومئذ على فراش الاحتضار .

وكان عصر الموحدين هو شباب العصر البربري . اتحد فيه سكان المغرب اجمع تحت راية واحدة وبلغوا من حسن الادارة وانتشار المعارف ورقي الحضارة مبلغا عظيما ثم اخذ هذا العصر في الهرم . حتى غلب الاسبان على كثير من السواحل وجاء الاتراك فقضوا على ما بقي للبربر من استقلال . والحق أن البربر يومئذ ليسوا بأهل للحكم كما ان الاتراك ليسوا باهل للسياسة .

كان مبتدأ العصر البربري في القرن الخامس ومنتهاه في القرن العاشر وحكم أثناء هذه المدة ست دول كبرى هي : دول بني حماد والمرابطين والموحدين والحفصيين وبني مرين وبني زيان •

ومعرفة انساب القبائل البربرية ومواطنها مما يعين على ما كان بينها في هذا العصر من ولاء وحلف أو عداء وسيف • فرأينا ان نعيد القول في ذلك بما يناسب هذا العصر •

وقد شاء الله ان يكون للعرب وجود جنسي في عصر البربر السياسي كما كان للبربر وجود جنسي في عصر العرب السياسي • غير ان بين الوجودين فرقا • فان العرب مؤثرون في البربر في العصر العربي سياسيا ودينيا ، وفي العصر البربري اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ايضا • فلا جرم وجب ذكر العرب في هذا العصر وقد عقدنا للحديث عنهم بكل دولة فصلا • ولما رأينا كثرة أخبارهم في دول الحفصيين والمرينيين والزيانيين جمعناها في باب مستقل •

فاشتمل هذا الكتاب على ثمانية أبواب :

الباب الاول في القبائل البربرية الجزائرية •

الباب الثاني في الدولة الحمادية •

الباب الثالث في دولة المرابطين •

الباب الرابع في الدولة الموحدية المؤمنية

الباب الخامس في اخبار العرب لعهد الحفصيين والمرينيين والزيانيين

الباب السادس في الدولة الحفصية •

الباب السابع في دولة بني مرين •

الباب الثامن في دولة بني زيان •

الباب الأول

في القبائل البربرية الجزائرية

1 ـــ تمهيـــد

يقطن الوطن الجزائري من البربر زناتة وصنهاجة وكتامة وزواوة وعجيسة وازداجة ومسطاسة وبنو فاتن وبطون من لواتة ونفزاوة وهوارة وزواغة ومكناسة ومصمودة ولمطة وأوربة ، ومن هذه القبائل والبطون ما لها فروع في بقية المغرب • ومنها ما ينتسب في العرب القحطانيين أو العدنانيين انتسابا دعا اليه حب العرب لا ثقة الرواية بالنسب •

ولقد ذكرنا هذه القبائل والبطون في الكتاب الاول ثم ظهرت بطون وأفخاذ كان لها شأن في هذا العصر البربري • وتغيرت مواطن كثيرين منهم اما بهجوماتهم بعضهم على بعض كما فعلت صنهاجة بزناتة واما بهجومات الهلاليين • فنبين في هذا الباب ما حدث من بطون وما تجدد من أوطان بما يناسب العصر البربري تاركين ما بعده الى الكتاب الرابع ان أعان الله على بلوغه واتمامه •

وقد رأينا أن تتبع ابن خلدون في أسلوب الحديث عن البربر • فنذكر كل قبيلة على حدة • فان ذلك ادخل في البيان وانسب بالحياة البربرية المستقلة قبائلها بعضهم عن بعض • واذا كانت البطون صغيرة جمعناها في فصل لقلة الكلام عليها •

2 ـــ زناتـــة

زناتة أشبه البربر حياة بالعرب لان أكثرهم مواطنهم الصحراء •

يتخذون بيوت الشعر للظعن . قال ابن خلدون : « وكانت مكاسبهم الانعام والماشية وابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة وفي ظل الرماح المشرعة . وكانت لهم في محاربة الاحياء والقبائل ومنافسة الامم والدول ومغالبة الملوك ايام ووقائع ، نلم بها ولم تعظم العناية باستيعابها فنأتي به . والسبب في ذلك أن اللسان العربي كان غالبا لغلبة دولة العرب وظهور الملة العربية . فالكتاب والخط بلغة الدولة ولسان الملك . واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماده . ولم يكن لهذا الجيل من زناتة في الاحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد ايامهم وتدوين أخبارهم . ولم تكن مخالطة بينهم وبين أهل الارياف والحضر حتى يشهدوا آثارهم لابعادهم في القفر وتوحشهم عن الانقياد . فبقوا غفلا الى أن درس منهم الكثير ولم يصل الينا بعد ملكهم الا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه ويتقراه في شعابه ويثيره من مكامنه » اهـ .

وقد أخذت زناتة بالخارجية ثم فارقتها تدريجا حتى لم يبق منهم عليها الا القليل . وكانوا منقسمين سياسيا الى ادريسيين ورستميين واغلبيين . ولهم حروب مع جيرانهم صنهاجة ، فلما ظهرت دولة بني عبيد والتهم صنهاجة ، وعادتهم زناتة فاتسعت واجهة الخلاف بين القبيلتين .

وكانت رئاسة زناتة لمغراوة ، ووفد أميرهم صولات بن وزمار على عثمان بن عفان (رض) فعقد له على قومه ، قال ابن خلدون : « فاختص صولات وسائر الاحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية ، وكانوا خالصة لهم دون سائر قريش ، وظاهروا دعوة المروانية بالاندلس رعيا لهذا الولاء » اهـ .

ومظاهرة مغراوة وسائر زناتة لمروانية الاندلس انما حدثت ايام

بني عبيد ، فالظاهر ان سببها منافسة صنهاجة ، وقد تقوت صنهاجة بني عبيد على اعدائها الاقدمين ، فنالت منهم قتلا وجلاء ، وكانت نكبتهم على يد بلقين بن زيري سنة 369 ، قال ابن خلدون : « دوخ بلقين في هذه السنة المغرب ، وانكفأ راجعا ، ومر بالمغرب الاوسط ، فالتحم بوادي زناتة ومن اليهم من الخصاصين ، ورفع الامان على كل من ركب فرسا أو أنتج خيلا من سائر البربر ، ونذر دماءهم ، فاقفر المغرب الاوسط من زناتة ، وصاروا الى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الاقصى الا ما كان من رجوع بني يعلي بن محمد الى تلمسان وملكهم اياها » اهـ •

وقد لحق كثير من زناتة بالاندلس في العصرين العربي والبربري، وضربوا هنالك مع ملوك الطوائف بسهم ، وكان منهم جيش عظيم للغزو أيام بني الاحمر بغرناطة •

وكان منهم جراوة قوم الكاهنة ذوي سلطان ، ثم انقضى أمرهم لاول الفتح ، ومنهم مغراوة قوم صولات بن وزمار جد بني خزر ، واستمر سلطانهم الى أن غلبتهم صنهاجة ، فنزحوا الى المغرب الاقصى ، وأسسوا امارات بتلمسان وفاس وسجلماسة واغمات قضى عليها المرابطون ، وأسسوا ايضا امارة بطرابلس • قضى عليها النرمان وتجدد لهم ملك بشلف في العصر البربري ومنهم يفرن قوم صاحب الحمار ويعلي بن محمد بن صالح مؤسس مدينة افكان • ولبنيه دولة بالمغرب الاقصى قبل ظهور المرابطين • ومنهم بنو يلومي وبنو ومانو • كان لهم شأن في العصر البربري • وهذه طبقة أولى عند ابن خلدون • والطبقة الثانية هم بنو مرين ملوك فاس وبنو عبد الواد ملوك تلمسان • وبنو توجين أصحاب وانشريس •

واشهر قبائل زناتة جراوة ويرنيان ووجديجن وواغمرت وورقلة

يدمر وبنو ومانو وبنو يلومي ويفرن ومغراوة وواسين وحديث نسب زناتة الى البربر أو قحطان أو عدنان وما للناس في أنساب قبائلها وأفخاذها حديث يطول جلبه وتضعف جدواه وقد أطال في ذلك ابن ابي زرع وابن خلدون •

جراوة كان موطنهم باوراس ثم انتشر عقدهم فاكلتهم القبائل • وكانت طائفة منهم بنواحي ملوية سميت بهم مدينة هناك كانت للعلويين • ولم يكن لهم ذكر في العصر البربري •

يرنيان • متفرقون في مواطن زناتة • وجمهورهم على وادي ملوية مجاورين لمكناسة • ثم اختلطوا ببني مرين لما ظهرت دولتهم •

وجديجن • كان جمهورهم بمنداس شرقي يفرن وشمال لواتة وغربي مطماطة ، ونكحت منهم امرأة في لواتة ، فعيرها نساؤهم بالفقر ، فتذمرت الى عنان أمير وجديجن ، فغضب لها ، واستجاش أحلافه ، فنصره يعلي بن محمد اليفرني وكلمام في مغيلة وعزانة في مطماطة وفي بعض نسخ ابن خلدون غرابة ، وكانت حرب مات فيها عنان ، وغلب وجديجن لواتة • فملكوا عليهم السرسو • وذلك أيام العبيديين ، ثم غلبهم على مواطنهم بنو يلومي وبنو ومانو ، فلم يكن لهم ذكر في العصر البربري •

واغمرت وتدعى ايضا غمرت ، جمهورهم جنوب صنهاجة فيما بين الدوسن ومشنتل • ثم غلبهم العرب على السهول فاعتصموا بالجبال قبلة المسيلة وصنهاجة وقعدوا عن الظعن • ثم صاروا في اقطاع الذواودة •

ورقلة وتدعى أيضا ورقلان • موطنهم بالصحراء جنوب الزاب • ولهم المصر المعرف بهم الى اليوم • ومعهم جمع من بني زنداق ونزل عليهم كثير من زناتة الزاب لما أجلاهم عنه الهلاليون •

دمر • من أوسع بطونهم بنو ورنيد • ومن ورنيد بنو ورتاتين وبنو تفورت وبنو برزال • وكان بنو برزال بجبل سالات من ناحية بوسعادة • وبقية ورنيد بصحراء تلمسان الى سعيدة • وتغلب عليهم بنو راشد • فانقبضوا الى الجبل المضاف اليهم المطل على تلمسان • ولم يكن لدمر كبير شان في العصر البربري •

بنو ومانو • كانوا بالعدوة الشرقية من مينة الى اسافل شلف • وظهر أمرهم بعد اجلاء صنهاجة لمغـراوة • فكان لهم ذكر ايـام الحماديين • وبعدهم تغلب عليهم بنو عبد الواد • وبنو توجين • فازدردتهم القبائل •

بنو يلومي • كانوا مجاورين لومانو غربا منافسين لهم الى أن غلبهم بنو توجين على مواطنهم • فتنفرقوا أوزاعا في القبائل •

يفرن • كان منهم بالجريد بنو واركو ومرنجيصة • وغلب عليهم بنو هلال وسليم • فاستكانوا للحفصيين • ومنهم فريق بالزاب • اجلاهم الهلاليون الى ورقلة وغيرها • وجمهورهم بالمغرب الاوسط من نواحي تلمسان الى تيهرت الى جبل راشد وغلبتهم صنهاجة • فلم يكن لهم شان بالجزائر البربرية •

مغراوة • مساكنون لبني يفـرن • وبينهم منافسـات فمنهم بالزاب • وجمهورهم بالمغرب الاوسط من شلف الى تلمسان الى جبل مديونة • وبطونهم كثيرة • منها بنو زنداق بالحضنة حول مقرة • ومنها بنو ورا بشلف • ومنها الاغواط فيما بين الزاب وجبل راشد • ولهم مدينة لم تزل الى اليوم تسمى بهم • ذكرت في عهد بني عبيد وهي التي الفنا بها هذا الكتاب • قال ابن خلدون : « وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب » اهـ • والمحقق عند أهلها واعرابها أن الهلاليين تغلبوا على أطراف مدينتهم • وبها بستان يعرف اليوم

باسم هلال • وبجبل كسال طائفة معروفة اليوم باسم غواط كسال لم يذكرهم ابن خلدون • ومنها ريغة بعضهم بجبل عياض الى نقاوس • تغلب عليهم العرب ، وبعضهم بوادي ريغ لهم على عدوتيه قصور كثيرة وفلاحات متنوعة ، خرب جلها ابن غانية ، ومن تلك القصور تقرت ، ومنها سنجاس بالجريد والزاب وارض مشنتل وجبل كريكرة وجبل راشد وشلف ، وقد تغلب عليهم الهلاليون ، فاستكانوا للدول ، ومنها بنو ورسيفان وبنو ورتزمان وبنو يلنت وبنو بوسعيد ، وكلهم بشلف •

واسين ، كانوا ينتقلون فيما بين الزاب وسجلماسة صحراء وتلا ، ومن بطونهم بنو راشد بالجبل المضاف اليهم وغلبوا مديونة وبني ورنيد على بسائطهما ، ثم تغلب عليهم العمور ، فبقي بعضهم مساكنا لهم بالجبل ، ومنها بنو مرين وافخاذهم كثيرة ، ولي الملك منها بنو وزرير فخذ بني عبد الحق وبنو واطاس • واختصوا بعد الملك بالمغرب الاقصى • ومنها بنو بادين • وافخاذهم كثيرة منها بنو عبد الواد بعضهم باوراس • وجمهورهم أقطعهم الموحدون بلاد بني ومانو • ثم ملكوا تلمسان • ومن فصائلهم بنو ياتكبن وبنو ولو وبنو ورسطيف ومصوجة وبنو تومرت وبنو القاسم ومن بني القاسم بنو مطهر وبنو يكزيمن وبنو دلول وبنو كمي وبنو طاع الله قوام يغمراسن بن زيان مؤسس دولة تلمسان • ومؤرخو دولتهم ينسبون بني القاسم في الادارسة • قال ابن خلدون : « وهو زعم لا مستند له الا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه مع ان البادية بعداء عن معرفة هذه الانساب • والله أعلم بصحة ذلك وقد قال يغمراسن بن زيان لما نسبوه الى ادريس ، برطانتهم ما معناه : فان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله واما الدنيا فانما نلناها بسيوفنا » اهـ •

ومن أفخاذ بادين بنو توجين كانوا منافسين لبني عبد الواد وتقدموا الى التل فانبثوا في السرسو ووانشريس الى لمدية شرقا وسعيدة وجبل راشد غربا • ثم غلبهم الهلاليون على ما عدا جبل وانشريس • ويجمع فصائلهم جذمان احدهما سرغين وفي بعض نسخ ابن خلدون بدل سرغين رسوغين منهم بنو يرناتن بجبل يغودو نواحي نهر واصل وبنو منكوش وبنو تيغرين بوانشريس • ومن تيغرين أولاد عزيز بن يعقوب • وثانيهما مدن منهم بمنداس بنو مادون وبنو قاضي بالقاف في ابن خلدون ولعله ماضي ومنهم بنواحي فرندة بنو يد للتن •

قال ابو راس : « وبلغني عمن رأى تاليفا في ذكر بني بادين ان توجين اثنان احدهما بالواو بعد التاء شريف والآخر زناتي والذي أعرفه من بطونهم بنو ازندار وبنو وكبمار • ومنهم فرقة كبيرة بارضهم • الاولى ازاء جبل راشد » اهـ •

ومن افخاذ بادين مصاب بالوطن المعروف بهم المدعو اليوم مزاب والزاي والصاد متقاربان • وفي اللسان البربري حرف يقرب مخرجه من مخارج الزاي والصاد والسين • فيختلف النطق به عند التعريب • وصاحب الترجمان المعرب من قبيلة صيان بالمغرب الاقصى يدعونه الصياني والزياني •

قال ابن خلدون : « وقصور مصاب سكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن انضاف اليهم من شعوب زناتة ، وان كانت شهرتها مختصة بمصاب » اهـ •

وبنو عبد الواد الذين بمزاب من بني مطهر بن يمل بن يزقن بن القاسم • وقال ابو راس بمزاب لماية واخلاط من صنهاجة وغيرهم •

3 ـ صنهاجـة

صنهاجة بكسر الصاد وقد تضم • قال ابن خلدون :

« هم أكثر أهل المغرب لهذا العهد • لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط ، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر » اهـ •

وكانوا فيما بين زناتة وزواوة ، وانحدرت منهم أمة الى الجنوب في أزمنة قديمة ، فكثروا بالصحراء جنوب المغرب حتى عمروا ما بين غدامس شرقا ونول غربا والسودان جنوبا ، وتشعبت بذلك صنهاجة الى شعبين عظيمين بقي احدهما بالجزائر واستوطن الآخر الصحراء ، وهم الملثمون ، واختلفت حياتهما باختلاف الموطن •

فاما صنهاجة الجزائر فهم أهل مدر من مدنهم اشير ولمدية ومليانة ومتيجة والجزائر ، أسلموا لاول الفتح ، ودان بالخارجية بعضهم من مجاوري زناتة ، ثم فارقوها قال ابن خلدون :

« ولصنهاجة ولاية لعلي بن ابي طالب كما ان لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله عنهما ، الا انا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها » اهـ •

وقدمنا البحث معه في ولاية مغراوة • ونرى ان ولاية صنهاجة لعلي سببها نزول ابنائه بينهم وكونهم آل البيت ، وأما أخذهم بدعوة بني عبيد فانما كان منافسة لزناتة الثائرة عليهم • على ان الامارات العلوية كان سقوطها على ايديهم •

ومن بطونهم تلكاتة قوم زيري بن مناد • ومنهم فريق بجهات بجاية ولمدية بفتحتين فكسرة فياء مشددة أهل المدية المعروفة الى اليوم بهم ، وبنو مزغنة أهل مدينة الجزائر ، وبنو خليل ومتنان وبنو جعد وبطوية وبنو ايفاون •

وظهرت منهم دولتا بني باديس وبني حماد ، ولحق بعض ابناء زيري المخالفون على اخوانهم بالاندلس • واستولوا على غرناطة حتى غلبهم عليها المرابطون ، ثم غلب الموحدون صنهاجة على أمر المغرب وغلبتهم بطون من هلال على مواطنهم فانحصروا بالجبال •

واما صنهاجة اللثامية فمن اشهر قبائلهم لمتونة ومسوفة وقدالة ، وهم أهل شعر ظواعن ، قال البكري : « وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب لا تبدو منه الا محاجر العينين ولا يفارقونه في حال من الاحوال حتى ان الرجل لا يعرف وليه وحميمه الا اذا تنقب ، ولو زال قناع قتيل لم يعرف حتى يعاد عليه القناع ، وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا ويصب عليه السمن أو الشحم المذاب ، وشرابهم اللبن اغناهم عن الماء فلا يشربه احدهم الاشهر • وقوتهم مع ذلك مكينة وابدانهم صحيحة » اهـ •

وكانوا وثنيين ، واسلم بعضهم على يد عقبة بن نافع ، ولم يعمهم الاسلام الى القرن الثالث ، ولكنه اسلام اسمي ، ولم يأخذوا به حقيقة وعملا الا في القرن الخامس على يد عبد الله بن ياسين الجزولي •

وكان منهم أمراء ، ولهم في جهاد السودان مواقف ثم ظهرت منهم دولة المرابطين دولة الدين والعدل • وذهبت على يد الموحدين • وبقايا الملثمين يعرفون اليوم بالتوارق • ومر علينا بالاغواط سنة 1348 بعض رؤسائهم • فرأينا لثامهم على ما وصف به أسلافهم •

4 ـــ كتامة وزواوه

يميل ابن خلدون الى أن زواوة بطن من كتامة ، فرأينا جمعهما في فصل فاما كتامة فشعب عظيم • كانوا من لدن الفتح معتزين

بكثرتهم لا يسومهم الامراء بهضيمة الى أن ظهرت الرافضية بالمغرب • فدانوا بها • وملكوا المغرب باسم بني عبيد ثم مصر والشام • واختطوا القاهرة • ولهم بها حارة مضافة اليهم • ذكرها السخاوي في تحفة الاحباب • وظهر منهم امراء عظام مثل حباسة بن يوسف أمير برقة وقائد الاساطيل العبيدية ، والحسن بن ابي خنزير أمير صقلية ، وماكنون بن ضبارة امير طرابلس ، وجعفر بن فلاح أمير الشام وفاتحه ، وبني لقمان أمراء قابس وفي أحدهم يقول الشاعر :

لولا ابن لقمان حليف الندى   سل على قابس سيف الردى

ثم انتقل الامر من ايديهم الى صنهاجة • وجاء الهلاليون فساكنوهم في كثير من النواحي مثل عنابة وقالمة وجنوب قسنطينة • ففارقهم الملك واكلتهم الاوطان وبقيت منهم بقايا ذات سيادة بوطنها في العصر البربري حتى استولت عليهم مصمودة والحفصيون • وانتقل بعضهم الى المغرب الاقصى ونزل فريق منهم نواحي دلس من وطن زواوة •

قال ابن خلدون : « وبقي في مواطنهم الاولى بجبل أوراس وجوانبه بقايا من قبائلهم على اسمائها والقابها • وآخرون تغير لقبهم • وكلهم رعايا معبدون للمغارم الا من اعتصم بقنة الجبل مثل بني زلدوي بجبلهم وأهل جبال جيجل » اهـ •

ومن بطون كتامة سدويكش وبنو تليلان وبنو يستيتن وهشتيوة ومسالته وبنو قنسيلة في بطون كثيرة يجمعها جذمان هما غرسن ويسودة • وعد ابن خلدون من بطون يسودة فلاسة ودنهاجة ومتوسة ووريسن وعد من بطون غرسن مصالة وقلدن وما وطن ومعاذ ويناوة وينطاسن وايان •

ومن يناوة لهيصة وجيملة ومسالتة • ومن ينطاسن لطاية واجانة

وغسمان وأوفاس • ومن ايان ملوسة • ومن ملوسة بنو زلدوي • ومن سدويكش كايازة وسقدال وبنو عياد وبنو سقين وسيلين وطرسون وطرغيان ومويليت وبنو لماي وبنو زعلان والبويرة وبنو مروان ووار مكسن وأولاد سواق • ومن سواق أولاد علاوة وأولاد يوسف • ومن يوسف بنو محمد وبنو المهدي وبنو ابراهيم والعزيزيون نسبوا الى أمهم تاعزيزت •

وسدويكش يكسبون الابل والخيل والبقر • وينتقلون ببيوتهم في البسائط ما بين قسنطينة وبجاية • وينتسبون في سليم من بطون مضر ، ونقل ابن خلدون انهم من كتامة • وايده بكون موطنهم من مواطن كتامة • ويقويه عندي كون بعض بطونهم لم تزل لغتها حتى اليوم بربرية •

ولم يذكر ابن خلدون في بطون كتامة كثيرا من البطون المعروفة اليوم بفرجيوة ولا ذكر من سكان الجبال بين السكيكدة وجيجل غير بني تليلان • وهناك من هم أكثر منهم مثل بني والبان وبني تفوت وبني خطاب وبني يدر • فاما ان تكون تلك البطون لا شان لها لعهده واما ان يكون أهملها لقلة خبرته بتلك الجبال فانه لم يحدثنا عنها لا بقليل ولا بكثير • واسم خطاب معروف منذ القرن الثالث • فقد ذكر اليعقوبي في مراسي ميلة قلعة خطاب • ويقول الشيخ عبد القادر الراشدي في رسالة له ان تفوت اصله تفورت حذفت راؤه ، وهو محض غلط فان تفورت فخذ من دمر احدى بطون زناتة • ولم يدخل على كتامة في تلك الجبال غير العرب •

واما زواوة فكانوا ممتنعين بجبالهم الى أن أسس بنو حماد بجاية • فانقادوا لهم قال ابن خلدون : « واتصل اذعانهم الى هذا العهد » • وكان لهم مرسى الدجاج قبل بجاية كعاصمة تجارية تاتيها

القوافل برا وسفن الاندلسيين بحرا • وسيادتها في فراوسن وايراتن بطنان فيما بين بجاية ودلس • ورئاسة ايراتن في بني عبد الصمد لم تزل فيهم لعهد ابـن خلدون • وعلى حصانة موطنهم نفـذ اليهم الهلاليون وغيروا من مراكز بطونهم بعض التغيير • وفيهم بيوتات من آل البيت • ومن بطون زواوة بنو مجسطة ومليكش وبنو كوفي ومشدالة وبنو زريقف وبنو قزيت وكرسفينة ووزلجة وموجة وزقلاوة وبنو مرانة وبنـو جناد وبنـو واقنون وفراوسن وايراتن وافليسن واعزوزن • وقيل ان مليكش من صنهاجه •

قال ابن خلدون : « ومن قبائلهم المشهورة لهذا العهد بنو يجر وبنو منقلات وبنو يترون وبنو يني (وفي بعض النسخ بنو ماني) وبنو بوغردان وبنو يتورغ وبنو بويوسف وبنو عيسى وبنو بوشعيب وبنو صدقة وبنو غبرين وبنو كشطولة » اهـ •

وبنو غبرين كانوا بجبل الزان • وانتقلوا بعد ابن خلدون الى جنوب تمقوت قاله بوليفة في كتابه « جرجرة » المؤلف بالفرنسية • وعليه اعتمدنا في تصحيح اعلام البطون المذكورة •

5 ــ لواتــة ونفــزاوة

لوا الاكبر بن زحيك بن مادغيس الابتر له ولدان هما نفزاو ولوا الاصغر ، فمن ولد نفزاو نفزاوة واخوانهم بنو لوا الاصغر اختصوا باسم لواتة •

فاما لواتة فكانوا ظواعن • ولهم في الخارجية مواقف وفي حرب بني عبيد مقامات • فاكلتهم الحروب • واغرقهم سـيل الهلاليين فلم يكن لهم في العصر البربري كبير ذكر •

ومن بطونهم صدراتة بنواحي بسكرة ومزاتة بنواحي باغايــة

وبلزمة وغيرهما • ومن مزاتة محيحة بحائين أو جيمين ودكمة في أفخاذ استوعبها ابن خلدون • ومنعني من نقلها ضعف الثقة برسمها • ويعرف باسم لواتة ثلاث فرق :

الاولى باوراس • وهم بنو سعادة وبنــو ريحان وبنو باديس ويدهم هي العالية على من هنالك من هوارة وكتامة • قال ابن خلدون : « تبلغ خيالتهم الفــا وتجاوز رجالاتهم العــدة » • ثم غلب عليهم الهلاليون • فصار بنو سعادة في اقطاع أولاد محمد من الذواودة ومن جملة رعاياهم • ودخل بنو ريحان وبنو باديس في طاعة ابن مزني صاحب بسكرة • ولبني باديس اتاوة على بنو نقاوس يقتضونها اذا انحدر الاعراب الى مشاتيهم • فاذا رجــع الاعراب الــى مصايفهم انقبضوا الى جبلهم •

الثانية قبلة تاهرت ظواعن على وادي مينة يبلغون شرقا الى جبل يعود • يقال ان بعض امراء القيروان نقلهم معــه في غزوة وانزلهم هنالك • وكانت لهم حروب مع وجديجن وزناتة ازاحتهم عن مواطنهم الى جبل يعود وجبل درق (بشد الراء) وانتشروا من هنالك الى الجبال المطلة على متيجة • قال ابن خلدون : « وهم لهذا العهد في عداد القبائل الغارمة • وجبل دراق في اقطاع ولد يعقوب بن موسى مشيخة العطاف من زغبة » اهـ •

الثالثة بنواحي بجاية • قال ابن خلدون : « ينزلون بســيط تاكرارت من اعمالها ويعتمرونها فدنا لمزارعهم ومسارح لانعامهم • ومشيختهم لهذا العهد في ولــد راجح بن صــواب منهم • وعليهم للسلطان جباية مفروضة وبعث مضروب » اهـ •

واما نفزاوة فكانوا ايضا خوارج • وخضدت الدول شركتهم • وزاحمهم الاعراب في مواطنهم فافترقوا في القبائل • ولم يكن لهم في العصر البربري كبير شأن •

واشهر مواطن نفزاوة جنوب قسنطينة غربي الجريد يتصلون بالرمال . قال اليعقوبي : « ولهم عدة مدن عظماها التي ينزلها العمال يقال لها بشرة » اهـ . ولهم بطون في جميع اقسام المغرب منها غساسة بنواحي مرسى مليلة وزاتيمة بساحل برشك وزهيلة بنواحي بادس منهم في عهد مشيخة ابن خلدون ابو يعقوب البادسي المشتهر بالولاية وسوماتة بنواحي القيروان منهم منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر بقرطبة ومرنيسة لا يعرف لهم موطن ومنهم أوزاع بين أحياء العرب بافريقية . ومنها مجرة وورسيف ومكلاتة لا يعرف لهم موطن . ومنها ولهاصة وهي ذات أفخاذ منها ورفجومة وورتدين ومن ورفجومة زكولة وزجالة .

وتعرف بولهاصة امتان احداهما بساحل تلمسان مجاورة لكومية اندرجت فيها ، والاخرى ببسيط بونة استعربت في زيها ولغتها وسائر شعائر العرب ، قال ابن خلدون « وهي في عداد القبائل الغارمة ، ورئاستهم في بني عريف منهم (وفي بعض نسخه عريض) وهي لهذا العهد في ولد حازم بن شداد بن حزام بن نصر بن مالك بن عريف (وفي بعض النسخ عريض ايضا) ، وكانت قبلهم لعسكر بن بطان منهم » اهـ .

وورفجومة افترقوا بعد ركود ريح الخوارج اوزاعا في القبائل ، وبقي من زجالة منهم فرق بمرماجنة وهنالك قرية ببسيطها تنسب اليهم ، وكان منهم محمد بن سعيد الزجالي من كتاب بني أمية . وداعبه بعض الوزراء فاجابه بما احفظه . فشكاه الوزير الى الحاجب عيسى بن شهيد . فقال له الحاجب في ذلك . فانشده :

وما الحر الا من يدين بمثل ما
يدان ، ومن يخفي القبيح وينصف

همو شرعوا التعريض قذفا فعندما
تبعناهمو لامـوا عليـه وعنفـوا

9 ــ بنـو فاتـن

كان بنو فاتـن منهم الظاعن الراحل والقاطن المقيم • ودانـوا بالخارجية • ثم فارقوها بعد ظهور الادارسة لا سيما بعد سقوط الدولة الرستمية • ونزح كثير منهم الى الاندلس ، ولم يكن لهم كبير ذكر في العصر البربري ما عدا كومية مـن بطونهم • فقد ظهر منها عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية المؤمنية دولة العلم والنظـام •

وبطونهم هي مطغرة وكومية ومديونة ومغيلة وملزوزة وكشانة ودونة وصدينـة ومطماطـة ولمايـة •

فاما مطغرة ويعرفون بالمداغـر فجمهورهم بالمغـرب الاقصى ويتصلون شرقا بكومية واندمجوا فيها منذ ظهور الدولة الموحدية ومنهم جنوب تلمسان بفقيق امة في قصور متقاربة ائتلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران ضاح من ظل الملك • ورئاستهم في بني سيد الملك منهم • وفي شرقيها على مراحل منها قرى أخرى متتابعة متصاعدة قليلا الى الشمال آخرها جنوب جبل راشد على مرحلة منه • وهي في مجالات بني عامر من زغبة • وشرقي هذه القصور على خمسة مراحل القليعة يعتمرها رهط منهم ومنهم أوزاع في أعمال المغـرب الاوسط وافريقية •

واما كومية فثلاث بطون هي : ندرومة وصغارة وبنو يلول • وافخاذهم كثيرة منهم بنو عابد قوم عبد المؤمن بن علي ، قال ابن خلدون : « فمن ندرومة نفوطة وحرسة وفردة وهفانة وفرانة ، ومن

بني يلول مسيفة ووتيوة وهبيشة وهيوارة ووالغة ، ومن صغارة ماتيلة وبنو حباسة » اهـ • ومواطنهم سيف البحر من ناحية ارشقول وتلمسان •

قال صاحب المعجب « وكومية كثيرة العدد جمة الشعوب لم يكن لها في قديم الدهر ولا حديثه ذكر في رياسة ولا حظ من نباهة ، وانما كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم واصحاب اسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع فاصبحوا اليوم بكون عبد المؤمن منهم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب » اهـ •

وكان الخليفة عبد المؤمن غريبا بين قبائل المصامدة • فنقل من كومية الى مراكش في دفعة واحدة اربعين الف فارس • قال ابن خلدون : « واكلت كومية الاقطار في تجهيز الكتائب وتوزع الممالك فانقرضوا ، وبقي بمواطنهم الاولى بقايا منهم بنو عابد • وهم في عداد القبائل الغارمة » اهـ •

واما مديونة فجمهورهم بنواحي تلمسان الى جبل مديونة جنوب وجدة غربا وجبل راشد شرقا • يظعنون في تلك الجهات ، ويجاورهم شرقا بنو يلومي الوارثون لموطن يفرن وغربا مكناسة وشمالا كومية وولهاصة • وانتقل جمع منهم الى الاندلس • ومن بقي تغلبت عليهم زناتة من بني راشد وتوجين • فانحصروا بجبل تسالة وغيره من المعاقل •

واما مغيلة فامتان احداهما بالمغرب الاقصى • ومعهم صدينة • والاخرى على وادي شلف عند مصبه في البحر • ومعهم ملزوزة ودونة وكشانة • قال ابن خلدون : « ولم يبق من مغيلة بذلك الوطن جمع ولا حي » •

واما مطماطة فمنهم بافريقية وبالمغرب الاقصى ، وجمهورهم

بناول منداس من نواحي تيهرت • ومن مشاهيرهم سابق بن سليمان المطماطي • قال ابن خلدون : « وهو كبير نسابة البربر ممن علمناه » وذكر لهم بطونا كثيرة منهم غرذاي •

ونقل ان منداس سمي بمن نزل به من بطون هوارة وتغلبت عليه مطماطة قال : « وبقية هؤلاء القوم لهذا العهد بجبل وازشنيس لحقوا به لما غلبهم بنو توجين من زناتة على منداس وصاروا في عداد القبائل الغارمة » اهـ • ووارشنيس هو وانشريس •

واما لماية فظواعن بافريقية والمغرب • وجمهورهم بأرض السرسو شرقيهم وشماليهم مطماطة ومكناسة ولواتة وغربيهم زواغة • وانتشر عقدهم بسقوط الدولة الرستمية • قال ابن خلدون : « وبقيت فرقا منهم أوزاعا في القبائل • ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس » اهـ •

وقال ابو راس : « من لماية من فارق الخارجية كاهل فرنـــدة والحوارث • وهم منتشرون بالمغرب الاوسط » اهـ •

7 ــ هـــوارة

كانوا منهم الظاعن والآهل • ولهم في الردة آثار ثم في الخارجية مواقف • وأجاز جمع عظيم منهم الى الاندلس • ومن بقــي عــلى كثرتهم اخضعتهم الدول لسلطانها فتفرقوا في الجهات ، ولم يكن لهم شان في العصر البربري •

وبطونهم كثيرة منها ونيفن بنواحي تبسة وبنوكملان كانوا حيث المسيلة ونقلهم القائم العبيدي الى فج القيروان • فلما كانت ثورة صاحب الحمار آزروه • فسطا بهم المنصور بن القائم حتى قطــع ذكرهم • ومنها مليلة ولعل عين مليلة القرية الموجودة اليوم جنوب قسنطينة سميت بهم • ومنها هقار بالصحراء جوار لمطة من الملثمين •

وكان جمهورهم بطرابلس وبرقة • قال ابن خلدون : « ومن قبائلهم أمم كثيرة في مواطن من أعماله تعرف بهم وظواعن شاوية تنتجع لمسرحها في نواحيها ، وقد صاروا عبيدا للمغارم في كل ناحية ، ودهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة ايام الفتوحات بسبب الكثرة • وصاروا الى الافتراق في الاودية بسبب القلة » اهـ •

واشهر مواطنهم بالجزائر ثلاثة : الاول القلعة المطلة على البطحاء من نواحي سيق غربي نهر مينة ملكوها بعد انقراض امر بني يلومي ، ومن بطونهم هناك مسراتة وكانت رئاستهم في بني عبد العزيز ثم انتقلت الى بني عمهم بني اسحق •

الثاني أوراس • وهم تحت سيادة لواتة • الثالث نواحي تبسة الى باجة • وقد بسط ابن خلدون الكلام عن أهل هذه النواحي فهاك عبارته :

« ومن هوارة بارض التلول من افريقية ما بين تبسة الى مرماجنة الى باجة ظواعن صاروا في عداد الناجعة من عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الابل وممارسة الحروب وايلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم ، قد نسوا رطانة البربر • واستبدلوا منها فصاحة العرب ، فلا يكاد يفرق بينهم ، فاولهم مما يلي تبسة قبيلة ونيفن • ورئاستهم لهذا العهد في ولد بعرة بن حناش بن ونيفن لاولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد ابن بعرة • ثم لاولاد زيتون بن محمد بن بعرة ولاولاد حمان بن فلان ابن بعرة ، وكانت الرئاسة قبلهم لسارية من بطون ونيفن • ومواطنهم بسائط مرماجنة وتبسة وما اليهما • وتليهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم ، يعرفون بقيصر • ورئاستهم في بيت بني مؤمن ما بين ولد زعزاع وولد حركات • ومواطنهم بفحص ابة وما اليها من نواحي الاربس • وتليهم الى جانب الشرق قبيلة أخرى منهم يعرفون ببصوة •

ورئاستهم في بيت الرمامنة لولد سليمان بن جامع منهم • ويرادفهم في رئاسة بصوة قبيلة ورمانة ومواطنهم ما بين تبرسق الى حامة الى جبل الزنجار الاطار علـى ساحل تونس وبسائطها • ويجاورهم متساحلين الى ضواحي باجة قبيلة اخرى مـن هوارة يعرفون ببني سليم • ومعهم بطن من عرب مضر من هذيل بن مدركة بن اليـاس جاءوا من مواطنهم بالحجاز مع الهلاليين عنـد دخولهم المغـرب • واختلطوا في هذه الناحية بهوارة • ومعهم ايضا بطن من رياح ينتمون الى عتبة بن مالك بن رياح • ومعهم أيضا بنو حبيب من مرداس سليم ، والجميع مثل هوارة في الظعن والمغرم » •

« هؤلاء الظواعن من هوارة وغيرهم أهل بقر وشاة وخيـل ولسلطان افريقية عليهم وظائف من المغرم مقررة وبعث من العسكر مفروض يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك ولرؤسائهم ازاء ذلك اقطاعات ومكان في الدول بين رجالات البدو » اهـ بتصرف قليـل •

8 ـــ مصمودة وبقيــة القبائل

1 ـــ أوربة ، كانوا ذوي كثرة وأولي قوة • ومنهم لاول الفتح كسيلة اميرهم وبعد الفتح استقروا بالمغرب الاقصى • وكانت منهم في القرن الثالث طائفة حول نقاوس ذكرها اليعقوبي •

2 ـــ لمطة ، هم اخوة صنهاجة ، وجمهورهم بالصحراء ، ومنهم قبيلة بين تلمسان وافريقية •

3 ـــ عجبسة ، من بطونهم بنـو عوسجة ، وكانوا مجاورين لصنهاجة ، ومن سهولهم فحص عجبسة قرب مدينة الغدير ، ومـن حصونهم جبل كيانة ، وكانت لهم يد في نصرة صاحب الحمار ، ثم خضعوا لبني عبيد ، واسس حماد بن بلقين مدينة القلعة بجبل كيانة ،

فراموا كيدها مرارا ، فاستلحمتهم الدولة ، ثم ورثت مواطنهم عياض • فتفرقوا في القبائل شرقا وغربا • قال ابن خلدون :

« وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تدلس والجبال المطلة على المسيلة » اهـ •

4 — ازداجة • من النسابين من يعدهم في قبائل زناتة • ومن بطونهم بنو مسقن • وموطنهم نواحي وهران • وكان اهم اعتزاز على الدول حتى اختلفت عليهم جنود العبيديين والامويين • واوقع بهم يعلي بن محمد اليفرني سنة 343 ففرق جمعهم ولحق رؤساؤهم بالاندلس • ومن بقي منهم استكان للذل واداء المغرم •

5 — مسطاسة • قيل أنهم أخوة ازداجة وقيل بطن منهم • وكانوا مندرجين معهم في الموطن • ومن رؤسائهم من أجاز الى الاندلس • وحال من بقي كحال ازداجة •

6 — زواغة • من بطونهم بنو واطيل ودمر أهل جبل دمر الممتد جنوب قابس الى ان يتصل شرقا بجبل نفوسة • ومن دمر فخذ سمكان • وهم أوزاع في القبائل • منهم قرب ميلة فريق يعرفون بزواغة • وبنو واطيل كانوا بنواحي شلف • ومن زواغة من كانوا غربي السرسو • قال ابن خلدون : « ولم يتأد الينا من أخبار زواغة وتصاريف أحوالهم ما نعمل فيه الاقلام » اهـ •

7 — مكناسة • كان لهم في الخارجية قدم • وضربت في الرافضية الاسماعيلية بسهم • ثم قامت بدعوة بني أمية على عهد عبد الرحمن الناصر • وكان كبيرها موسى بن ابي العافية ، ولبنيه بتسول ونواحي فاس ملك ادركهم عليه المرابطون •

وبطونهم كثيرة ، ومواطن جمهورهم بتسول وتازا ووادي ملوية من مصبه في البحر الى سجلماسة • ومنهم امة حوالي تيهرت بينها

وبين غليزان ، قال ابن خلدون : « ومن مكناسة أوزاع في القبائل لهذا العهد مفرقون في نواحي افريقية والمغرب الاوسط » اهـ •

8 — مصمودة • ذكر البكري منهم امة حول بونة ، وموطنهم بالمغرب الاقصى في جبل درن تجاورهم صنهاجة اللثامية جنوبا الى بلاد السوس • وبطونهم هنالك كثيرة لا تحصى منها هرغة وهنتاتة تينملل وقنفيسة وقدميرة ودكالة وهسكورة •

قال ابن خلدون : « يسير الراكب في جبل درن معترضا من تامسنا وسواحل مراكش الى بلاد السوس ودرعة من القبلة ، ثماني مراحل وازيد ، تفجرت فيها الانهار وجلل الارض خمر الشعراء ، وتكاثفت بينها ظلال الادواح وزكت مواد الزرع والضرع • وانفسحت مسارح الحيوان ومراتع الصيد • وطابت منابت الشجر ، ودرت افاويق الجباية » اهـ •

وقال صاحب المعجب : « ومصمودة مطبوعون على سفك الدماء شاهدت من ذلك ايام كوني بسوس ما قضيت به العجب » اهـ•

وكان منهم قبل الاسلام امراء ، وأسلموا لاول الفتح ، ولهم مع جيرانهم الملثمين حروب وفتن ، ولم يزالوا في حدود وطنهم حتى ظهرت دولة الموحدين وفازت منهم هنتاتة بحظ عظيم من الملك على يد ابنائها الحفصيين ، فتفرقوا لذلك في ممالكهم • ومنهم أولاد نعمون الذين لم يزل عقبهم بقسنطينة •

ولم تكن مصمودة لتستغل ما وهبها الله من كثرة عدد وخصب موطن ومناعة موقع لولا ان قيض الله لها من ابنائها محمد بن تومرت • ذلك الرجل الذي كلما امعن المفكر النظر في حياته ازداد ايمانا بالطفرة واستيقن ان من يبني حياة امته على قاعدتها هو العظيم الخارق للعادة وان من يبني حياة الامم على قاعد التدرج وفاقا لمبدأ النشوء والارتقاء فانما هو من العظماء العاديين •

الباب الثاني

في الدولـة الحمادية

ا ـ تمهيـــد

استخلف آل زيري بن مناد الصنهاجي عن العبيديين والمغرب يضطرم نارا بالفتن الناشئة عن النزاع بين العبيدية والاموية • وما كادوا يتغلبون على الاموية حتى دب فيهم دبيب المنافسة • وتنازعوا أمرهم بينهم •

وعقد منصور بن بلقين لاخيه حمـاد على عمل أشير والمسيلة مستكفيا به أمر زناتة الاموية ومن ينازعه من آله • فلم يزل حمـاد مخلصا له ، وتداول هذا العمل مع أخيه يطوفت وعمه ابي البهار •

وتوفي المنصور ، فخلفه ابنه باديس • واقر عمـه حمادا على عمله ، وافرده به سنة 387 دون يطوفت وابي البهار • وخالف عليـه من عمومته زاوي وماكسن ابنا زيري فيمن استجاب لهما • فعقد على حربهم لعمه حماد سنة 390 فقتل حماد ماكسن وحصر زاوي بجبل شنوة من ناحية شرشال ، ثم أمنه ومن معـه على ان يجيزوا الى الاندلس • فلحقوا بالمنصور بن ابي عامر •

ولم يزل باديس مستعينا بحماد يستقدمه متى شاء الى صبرة ويحرجه لاطفاء الثورات • وفي سنة 95 كلفه بحرب زناتة ، فاشترط عليه ولاية المغرب الاوسط وكل ما يفتحه وان لا يستقدمه • فوفى له بما شرط •

وفي سنة 398 اختط حماد مدينة القلعة • وصار ينزل بها وباشير • وبقي واليا على الزاب والمغرب الاوسط موافقا لزناتـة • وتكررت

انتصاراته عليهم فطار صيته وعظمت هيبته حتى خشي باديس ان يخلع طاعته لا سيما وقد أسس مدينة القلعة .

وفي سنة 403 جاء التسجيل من الحاكم صاحب مصر الى باديس بولاية عهده لابنه المعز ، وكانت حاشية باديس قد سعوا له بحماد . فاتخذ ذلك التسجيل ذريعة لاختيار حماد . فارسل اليه بالتنازل للمعز عن عملي تيجس وقسنطينة . فابي ذلك حماد وافضى الامر الى حرب اسفرت عن تأسيس الدولة الحمادية .

2 ــ تاسيس الدولة الحمادية

اقوى أعداء صنهاجة هم زناتة واعظم آل زيري بطولة هــو حماد . فوكلوا اليه حروب زناتة . فاوقع بهم مرارا . وكان مظفرا عليهم . ورأى ان يجني ثمرة انتصاراته . فاستوثق من باديس سنة 95 بتلك الشروط ثم احتاط لنفسه . فأسس القلعة . وشحنها باولياته وذخائره اذ لم تكن له ثقة بأشير .

وكانت الامة تتبرم من سماع الدعاء العبيديين على المنابر . وكان آل زيري مع الامة باطنا . وليس لهم مع العبيديين الا ظواهر دعت اليها السياسة .

ولما طلب باديس من حماد التنازل عن ذينك العملين رأى هــذا الطلب كمقدمة لحرمانه من ثمرة جهاده وان رفضه مفض الى الحرب ولا نتيجة للحرب الا تمتعه بالاستقلال او تعجيل حرمانه مــن لذة النفوذ فرجا الاستقلال بما كان قد هيأه لمثل هذا من معقل القلعة وأعلن ما تصبو اليه الامة من قطع دعوة بني عبيد فقتل الروافض . ودعا لبني العباس . وذلك سنة 405 .

وجهز باديس لحرب حماد كبير قواده هاشم بن جعفر . وجمع

حماد ثلاثين الفا لقي بها هاشما بمدينة الكاف • فهزمه وغنم ماله وعدده • وتقدم الى باجة • فدخلها بالسيف • وأثار تونس على الرافضة • وذلك سنة 406 •

وهنالك قاد باديس الجيوش بنفسه • وخرج من القيروان لحرب حماد • فخذل حمادا بعض رجاله من بني حسن الصنهاجيين ، ومن زناتة كبني ابي واليل أهل مقرة وبني يطوفت وبني غمرة ، ففر حماد حتى اتى اشير في صفر ، وبها نائبه خلف الحميري ، فمنعه منها وأعلن طاعة باديس ، فتوجه حماد الى شلف بني واطيل •

واستولى باديس على المسيلة واشير ، وبلغ سهل السرسو • فأتاه رؤساء بني توجين وكثير من زناتة الناقمين على حماد • فاستظهر بهم ، واجاز وادي شلف ، فتقابل مع عمه مستهل جمادي الاولى وتقاتلا اشد قتال ، فانخزل عن حماد اصحابه الى باديس ، فانهزم وأخذ السير الى القلعة ، وبها أخوه ابراهيم • فدخلها تاسع جمادى الاولى ، وذهب الى دكمة ، فأخذ من أهلها ما وجده من طعام وملح وذخيرة ، وعاد الى القلعة مستعدا للحصار •

عاد باديس اثر عمه ، وحاصره بالقلعة ، وبينما حماد يقاسي ألم الحصار وينتظر اليوم الذي يؤخذ فيه اذ نعي اليه باديس آخر ذي القعدة ، فأتاه الفرج من حيث لم يحتسب • وهكذا تأيد بالقدر الذي عوده الظفر •

وكان كرامت اخو باديس ذا منزلة لدى صنهاجة ، فبايعه كبار القواد ارضاء لصنهاجة لبعدهم عن العاصمة فمضى كرامت الى أشير وفرق الاموال في صنهاجة • وجمع سبعة آلاف مقاتل وخرج اليه حماد في خمسمائة والف فارس فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انهزم كرامت الى اشير ، فحاصره بها حماد •

وعاد القواد بشلو باديس الى القيروان فبايعوا للمعز ونقضوا بيعة كرامت فلما بلغه ذلك صالح حمادا على مال يأخذه ويلتحق بالمعز ، فاسعفه حماد بذلك ولحق بالمعز في محرم سنة 407 وكان هذا ايضا من أسباب نجاح حماد •

انتقل الميدان بين حماد والمعز الى جهات باغاية وما يليها الى ناحية قفصة ولثمان بقين من صفر سنة 408 سار المعز بالاجناد لحرب حماد . فأجلاه عن باغاية ثم كانت بينهما وقعة شديدة آخر ربيع الاول جرح فيها حماد ، واسر فيها أخوه ابراهيم • وتفرقت عنه رجاله • فاسلم معسكره بما فيه من معدات وذخائر ، ونجا بنفسه • وانتهى المعز الى سطيف وقصر الطير • ثم قفل الى حضرته •

وهنالك مال حماد الى السلم • فارسل الى المعز يعرض عليه طاعته • فاشترط عليه ارتهان ابنه القائد • فوسط أخاه ابراهيم في التوثق من المعز • فارسل ابراهيم اليه يضمن له سلامة ابنه • ثم بلغ المعز قصره آخر جمادى الاولى ، وسرح ابراهيم بن بلقين ، وخلع عليه ، فلما بلغ ذلك حمادا زالت ريبته بالمعز ، وارسل ولده القائد بهدية جليلة ، فبلغ الى المعز منتصف شعبان • فاكرمه • واهدى له هدايا جليلة واقطعه المسيلة وطبنة وغيرهما • ولم يمسكه بل سرحه الى ابيه فعاد اليه في رمضان وبحسن هذه السياسة من المعز تم الصلح بينه وبين حماد ، وصلحت الاحوال •

ونرى حمادا لم يكن له غرض في هذه الحرب • وانما كان حذرا مستعدا للطوارىء • فادخل حذره ذلك الريبة في نفس باديس • وقواها له حاشيته من حسدة حماد • فاشتعلت الحرب مدة عامين • وانتهت ببقاء حماد على ما كان عليه وانما في صلح المعز اعتراف ضمني بالعجز عن مقاومة حماد •

وهكذا أحسن حماد الدفاع عن ممالكه حتى أورث عقبه ملكا نافسوا به بني عمهم أصحاب افريقية • وأصبحوا أقوى منهم واملك للباس • ولكن بني باديس كانوا ارقى حضارة واقعد بالسياسة • وانما تأسست الدولة الحمادية باقتحام الاخطار ومساعدة الاقدار •

3 ــ المملكــة الحماديــة

تمتد المملكة الحمادية غربا الى فاس ، وبهذه الناحية امارة بني يعلي بتلمسان ونواحي وهران وحكومة بني زيري بن عطية بفاس ، وأغلب سكانها زناتة فكان الحماديون يترددون بجيوشهم عليها تسكينا للثورات او اقتضاء للمغارم •

وفي سنة 430 زحف حمامة بن زيري بــن عطية امير فاس الى القائد بن حماد • فتقاتلا • وسرب القائد الاموال في زناتة • فوهــن حمامة • وبذل طاعته للقائد • ثم ظهرت دولة المرابطين • فخرج بلقين بن محمد بن حماد سنة 454 للقاء يوسف بن تاشفين الذي ظهر بوطن المصامدة • فاجلاه الى الصحراء • وردد غاراته بالمغرب • واحتمل من اكابر فاس واشرافها رهائن على الطاعة •
ثم عظمت شوكة المرابطين • فاستولوا على امارات زناتة وتقدموا الى الجزائر واشير • فدافعهم الحماديون • ثم اصطلحوا • واستقرت الحدود بين المملكتين • قال صاحب المعجب :

« وكان يحي آخر الملوك الحماديين يملك بجاية واعمالها الى موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتونة » • وأعاد ذكر هذا الموضع بهذا اللفظ ، وقال بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل • وذكره ابن خلدون في مواطن بني يلومي بلفظ سبدو سيرات • وهذا الموضع غربي نهر مينة الى سهل سيق •

على ان في نسخة من ابن خلدون سيك وسيرات بالعطف وسيك هو سيق •

وامتدت شرقا حتى اشتملت على تونس والقيروان وصفاقس والجريد وخضعت جزيرة جربة ايام العزيز ، وهذه الناحية يغلب عليها العرب وبمدنها عدة أمراء يتلونون في السياسة حسب اهوائهم • وقد فتح الناصر بن علناس مدينة الاربس سنة 460 بعد خضوع تلك البلدان له • وهي في طريقه الى تلك البلدان • فدل على ان تبعية هاتيك الجهات غير مبنية على خضوع عسكري • واستمر نزاع حماد وآل باديس على مدينة تونس • ثم تبتت للحماديين من سنة 514 الى سنة 543 وعادت بعد الى امرائها الاقدمين بني خراسان •

وامتدت المملكة جنوبا الى الزاب ووادي ريغ وورقلة • وبقيت داخل هذه الحدود جهات من وطن زواوة وكتامة غير تابعة للحماديين • قال ابن الاثير : « وفي سنة 417 وردت رسل زناتة وكتامة على المعز في طلب الصلح والدخول في حكمه على ان يحفظوا الطريق • فاستوثق منهم • وقدمت عليه مشيختهم • فبذل لهم أموالا جليلة » اهـ •

وقد اخضع الحماديون زناتة من بعد • ويظهر ان كتامة كذلك • ولكن لا نعلم لهم نفوذا بالجبال الممتدة فيما بين السكيكدة وجيجل من وطن كتامة ، فان بها قبائل قوية لا يعلم لها خضوع لاية دولة سواء في العصر العربي او البربري •

وبعد ان حارب المنصور المرابطين سنة 86 ثم اثخن في زناتة عاد الى فتح وطن زواوة • قال ابن خلدون : « ورجع المنصور الى بجاية واثخن في نواحيها ودوخت عساكره قبائلها • فساروا في جبالها المنيعة مثل بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور وحجر المرق (في نسخة حجر المعز) • وقد كان اسلافه كثيرا ما يرمونها

فتمتنع عليهم » اهـ • والمنصورية شـرقي بجاية علـى طريقها الى جيجـل •

4 ـ الحكومة الحماديـة

هذه الدولة أول دولة بربرية بالجزائر الاسلامية • وكانت مستقلة استقلالا تاما غير أن ملوكها لم يجرؤا على دعوى الخلافة التي كانت يومئذ للعباسيين ببغداد وللفاطميين بمصر ، فدعا حماد أولا للعباسيين ثم اصطلح مع المعز • فدعا للفاطميين • فلما خلع المعز العبيديين دعا لهم القائد خلافا لابن عمه وتوقيا من شر الحملة الهلالية ظنا ان ذلك يفيده • ثم عاد من بعده الى الدعوة العباسية • ولم يضربوا السكة على عظم دولتهم احتراما لدولتي الخلافة • واحدثها يحي آخرهم • قال ابن خلدون :

« وسكته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كـل وجه • فدائرة الوجه الواحد : واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون • والسطور : لا اله الا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحي بن العزيز بالله بن الامير المنصور • ودائرة الوجه الآخر : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وفي سطوره : الامام أبو عبد الله المقتفي لامر الله أمير المؤمنين العباسي » اهـ •

ورئيس الحكومة يلقب بالامير أو الملك • ويتولى اما بالعهد اليه من سلفه أو بالتغلب والقهر ، ولم تخرج الامارة عن آل حماد • وللامير وزراء في عاصمته • وعمال في المدن • وأهم ممالكهم الجهات الشمالية كان يليها عمال من آل حماد مثل الجزائر ومرسي الدجاج وجيجل وبونة وقسنطينة ونقاوس والقلعة واشير وحمزة •

واما النواحي الجنوبية فكانت بواديها للبربر واغلبهم زناتة • ثم تغلب عليهم العرب وكانت مدنها تابعة للحماديين ولكن لكل مدينة ادارة خاصة يديرها جماعة من الشيوخ الذين حنكتهم التجارب • وكانت بسكرة قاعدة الزاب يومئذ • ومن أسـرها بنو رمان وبنو سندي ، فتولى رئاسة الزاب بنو رمان من البربر ، ويقول مرسيي انهم من أصل لطيني ، ونبذوا الطاعة لعهد الناصر • ففتك بهم ، وادال منهم ببني سندي ، فلم يزالوا على رئاستهم مخلصين للدولة الى ان غلب الموحدون على هذه المملكة •

وكان القضاء مستقلا عن الادارة ، ويظهر انه كان على المذهب المالكي لانه الغالب يومئذ على أهل المغرب والاندلس •

كان للدولة جيش نظامي علاوة على ما كانت عليـه الامة من الاستعداد الطبيعي لاجابة دعوة الحكومة للقتال ، لبساطة الحـرب يومئذ ، قال لسان الدين في الاعلام : « كان يسكن بالقلعة ايام الناصر من فرسان صنهاجة أثنا عشر الفا » اهـ • هذا بالقلعة دون بقية المدن ومن صنهاجة دون بقية القبائل ومن الفرسان دون المشاة • وقـال أيضا : « ان المنصور خرج لقتال المرابطين لما استولوا على تلمسان في اثنتي عشرة محلة » اهـ • وان المادة لتعجزنا ان نأتي بتفاصيل عـن الجيش الحمادي ، والذي نعلمه من حياة هذه الدولة انها حربية أكثر منها سلمية •

ومؤسسات الدولة تدل على انها كانت غنية جدا ، وانا لنجهل تفاصيل تكوين ماليتها، وانما نعلم انها كانت تقبض الخراج، وتعتمد في جمعه من الجهات التي يتغلب عليها العرب على العرب أنفسهم ، ولكثرة حروبها وانتصاراتها نعتقد ان الغنائم أهم ما تتكون منه ماليتها • فان الامراء كانوا يغنمون اموال البغاة •

ويجاور هذه الدولة غربا ممالك زناتة الخاضعة لها ، فلما غلب عليها المرابطون طمعوا في بقية المملكة الحمادية • وبعد حروب اعترفت الدولتان بعضهما ببعض • وتم بينهما تقرير الحدود في جو ودادي ، ولم تزالا على ودادهما الى أن ظهر الموحدون فقضت المصلحة باتحادهما حربيا •

ويجاورها شرقا دولة آل باديس وقد اعترف حماد بخضوعه للمعز لما تغلب عليه ، ولم تزل هذه الدولة تحاول الاستقلال والمعز يخضعها حتى جاء الهلاليون واضعفوا دولة المعز وبنيه ، فاعلن القائد ابن حماد الاستقلال ، ثم اختلفت ايام الدولتين الشقيقتين سلما وحربا ، وكان الظفر غالبا لآل حماد ، واذا اصطلحوا فربما يؤكدون الصلح بالمصاهرة • ولكن لم يدم بينهم سلم حتى انقضت ايامهم •

وكان لبني حماد عمائم هي تيجان ملوكهم • قال صاحب الاستبصار ما لفظه : « وكان لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة ، يغلون في أثمانها• تساوي العمامة خمسمائةدينار وستمائةدينار وازيد • وكانوا يعممونها باتقن صنعة • فتأتي كانها تاج وكان ببلادهم صناع لذلك • يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وازيد وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤس • يعممون عليها تلك العمائم » اهـ •

ذكر هذا بعد ذكر وقعة سبيبة التي انهزم فيها الناصر وسلم عمامته ورايته لاخيه •

5 ـــ ملوك الدولـة الحماديـة

كان ملوك هذه الدولة الى البداوة اقرب لانهم انشأوا الملك انشاء • ولم تدع لهم ثورات زناتة وغيرهم سبيلا الى الترف بل

حفظت عليهم الحياة الحربية • ولم ترتق الدولة في سلم الحضارة الا في عهد الناصر وابنه المنصور • وما مالوا الى الراحة والدعة الا بعد خروج أهم مواطن زناتة عنهم الى المرابطين •

وأولهم حماد بن بلقين • أعلن استقلاله سنة 405 ثم اصطلح مع المعز سنة 408 وتزوج ابنه عبد الله أخت المعز ، ولم ينقض الصلح حتى توفي بالقلعة في رجب •

قال لسان الدين في الاعلام : « كان حماد نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه • ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا • قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدال » اهـ •

قال البكري : « وحدثوا أن حمادا قال ما تداهى احد علي قط ولا خدعني الا امرأة وكعاء من البربر ، ذلك ان صاحبا كان لي بالقيروان نشأنا نشأة واحدة ولم يفرق بيننا مكتب ولا مشهد • ولم نزل على ذلك حتى صرت على ما أنا فيه ، ففقدته : وجعلت افتقده ، فلا أجد سببا للوصول اليه » •

« فلما نزلت على باغاية وشننت عليها الغارات لم انشب صبيحة ذات يوم ان سمعت النداء يالله ! ياللامير ! فقلت ما بالك ومن انت ؟ فاذا هو صاحبي قد حبسه عني نسكه وغلب على هواه ورع يملكه فاظهرت البشر بمكانه والجذل بشأنه وقلت له والله لو خرجت الي بالامس لحقنت دماء أهل بلدك لحرمتك عندي ، فقال القدر غالب ، ثم ذكر حاجته وهي ان ابنته فقدت •

« فأمرت القواد فاحضروا جميع ما كان في جيوشهم من النساء • فعرف ابنته فأمرت بسترها وحملها مع أبيها • فرفعت صوتها قائلة لا ارجع مع احد ! اني لا اصلح الا للملوك لان عندي علما لا اشارك فيه • فقلت الا ترينا شيئا من ذلك ؟ قالت تأمر بقتل انسان وتحضر

امضى سيف أقرأ عليه فيعود أكل من قائمه • فقلت الذي يجرب هذا فيه لمغرور • قالت أويتهم أحد بقتل نفسه ؟ قلت لا • قالت فليجرب في فاحضرت سيفا فلما ضربها السياف بان رأسها •

فاستيقظت من غفلتي وعلمت انها تداهت علي وكرهت العيش بعد الذي جرى لها ، واستبان ذلك لابيها ايضا » • بحذف يسير •

وقال أيضا : « ذكروا ان لشيخ امرأة شـابة • فخرج بها الى قلعة حماد ، فصحبه في طريقه شاب علقته المرأة • فتواطآ على دعوى الزوجية ، فلما وصلوا الى القلعة رفـع الشيخ القضية الى حماد ، فاوقف الشاب والمرأة فانكرا ما يدعيه الشيخ من الزوجية ولم يجد حماد بينة غير كلب للشيخ فأمر بربط ذلك الكلب • ثم أمر المرأة بحله وربطه ثانيا ، ففعلت ولم ينكرها الكلب ، ثم أمر الشاب بمثل ذلك فنبحه الكلب فحكم حمـاد للشـيخ بزوجته • وضرب عنـق الشاب » اهـ •

وثانيهم القائد ، خلف اباه • وكان سديد الرأي عظيم القـدر وسلم لاخوته أهم أعمال المملكة ، فولى يوسف على المغرب وويغلان على حمزة • واستمر مع المعز على ما كان عليه والده • ثم خالف عليه سنة 32 فخطب للعباسيين ، وزحف اليه المعز فحاصره بالقلعة نحو سنتين وحاصر ايضا اشير • ثم اصطلحا ، قال ابن خلدون : « وراجع القائـد طاعـة العبيديين لما نقض عليهم المعـز ، ولقبوه شـرف الدولة » اهـ •

وقال لسان الدين : « وخلع القائد بني عبيد كما فعل ابن عمه ، ودعا لبنـي العباس الى أن هلك في ذي القعدة » •

وثالثهم محسن ، ولي بعد أبيه بعهده ، وكان جبارا فظا ، مكث في الملك ثمانية أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، وتوفي في ربيع الاول ،

وكان أبوه اوصاه ان لا يخرج من القلعة لمدة ثلاث سنوات وان يحسن الى عمومته ، فخالف وصيته وعزم على عزلهم ، فخرج عليه عمه يوسف وأسس قلعة في جبل منيع سماها الطيارة فانتقم منه محسن بقتل اربعة من عمومته ، فازداد يوسف نفورا •

وكلف محسن عامله على بلد اكريون ابن عمه بلقين بن محمد ابن حماد بحرب عمه يوسف ، واصحبه من العرب خليفة بن مكن وعطية الشريف في جمع من قومهما ، وأسر اليهما قتله ، فقال خليفة لقومه : ان بلقين لم يزل محسنا الينا فكيف نقتله ؟ فاتفقوا على اعلامه بنية محسن وهونوا عليه قتله •

استعد بلقين لحرب ابن عمه وبلغ خبره محسنا وهو خارج القلعة فأخذ السير اليها • ولكن بلقين أدركه ، فقتله ، ودخل القلعة ليلا وملكها •

ورابعهم بلقين بن محمد • تغلب على الملك بقتل ابن عمه ، وكان شهما قرما حازما شجاعا جريئا على العظائم سفاكا للدماء ، ابتدأ بسفك دم وزير محسن ، واستوزر خلف بن حيدرة ، ونكب آل رمان أصحاب بسكرة سنة 50 لمخالفتهم عليه ومحالفتهم للاثبج •

وكان كثير الغارة على المغرب حتى سئمته الرعية لايغاله بها في أرض العدو ، وكان له أخ اسمه مقاتل فمات ، واتهم به زوجه تانميرت ابنة عمه علناس • فقتلها • فتربص به أخوها الناصر ، حتى أمكنته فيه الفرصة بتسالة وهو آيب من غزو فاس ، فقتله •

ونقل لسان الدين عن ابن بسام ما ملخصه : « كان بلقين أحد جبابرة الاسلام المفتاتين على الايام لا يملأ يده الا من لبدة اسد ولا يسرح لحظه الا في نهاب بلد ، قد تجاوز في شذوذ أمنيته وقهره

نزعته والاخافة لاقرانه والاستبداد على زمانه غايـة من سلف من جبابرة الارض وسمع به من فراعنة الابرام والنقض » •

« حدث انه آب مرة من بعض غزواته ومال الى الراحة ، فأمر باحضار آلات الانس وأدواته ، وأمر قيمة جواريه باحضار زوجه ابنة عمه لم ير بعدها زعموا ولا قبلها ابدع ظرفا ولا افتل طرفا فحضر كل ما أمر به ، وخطر بباله الغزو ، قالت قيمته : وكأني انظر الى الكاس في يده والى ابنة عمه قائمة على رأسه ، فاعتذر اليها وقام من حينه ، فوضع الكاس مليء في طاق وطبع عليها ، وأمر بالركوب من حينه الى غزو المغرب ، فوطيء ارض فاس • ثم رجع ، فجلس ذلك المجلس بعينه • واستدعى كاسه تلك وابنة عمه ، وقضى وطره مـن لـذة نفسـه » •

« وكان قلما يركب الا دارعا مولعا بالادلاج مؤثرا للانفراد • وفي الليلة التي يقتل من صبيحتها اقسم لا يدلج الا حاسرا وليلقين الناصر اذا نزل ولو كان أسدا خادرا ، فما بدا الصبح حتى لقيه الناصر كالمسلم عليـه ، وما راجعه الكلام حتى جلله الحسام واراح منه البلاد والانام » •

« ثم قام مقامه واستظل اعلامه • وأمر برفع راسه امامه ، فظن الناس بلقين قد قتل بعض اتباعه • فلما طلعت الشمس حشر الناصـر أقاربه وزعماء الدولة فاطلعهم على جلية الخبر وانه انما قتله لقتله اخته لا طلبا للملك ، ففكروا قليلا ، ورأوا انه لم يجسر على قتله الا وله اشياع • وارتاب كل بمن يليه ، وانهب الناصر خزائن بلقين ذؤبان العرب وصقورة زناتة ، فاستمال قلوبهم ، وطوى المراحل الى القلعة فسبق الاخبار » اهـ •

وخامسهم الناصر بن علناس • واصله علا الناس او علاء الناس •

فخفف لفظا ورسما • وكان الناصر جريئا على سفك الدماء شـديد الغيرة على النساء جوادا عالي الهمة تغلب على الثوار • وحافظ على الممالك الغربية وتوسع في الجهات الشرقية ، واختط بجاية ونسـبها اليه ، وعني بالعمارة • وقصده الشعراء • وطالت مدته • فثبت اركان الدولة لعقبة • وتوفي يوم الجمعة سابع جمادى الاولى بقصره ظاهر بجاية • وحمل الى بجاية ودفن بها •

ثار عليه بنو رمان ببسكرة • فخرج اليهم وزيره خلف بـن حيدرة • فغلبهم • وحملهم ومن مالأهم من أعيان بسكرة الى القلعة • فصلبوا بها وولي مكانهم عروس بن سندي • ثم خرج الناصر ليتفقد المغرب • فوثب علي بن ركان على تاقربوست دار المملكة فيمن معه من عجيسة • فرجع اليهم من المسيلة • فسقط في ايديهم وانتحر علي بن ركان •

وكان الناصر يقع في تميم بن المعز ويذمه في مجالسه ووقعت بينهما حروب ثم اصطلحا سنة 61 وزوج تميم ابنته بلارة من الناصر • وسيرها اليه من المهدية في عسكر • واصحبها من الحلي والجهاز ما لا يحد وحمل اليه الناصر ثلاثين الف دينار • فردها عليه • واخذ منها دينارا واحدا • وابتنى الناصر لها قصرا باسمها •

وكانت وزارته لابي بكر بن ابي الفتوح وخلف بن حيدرة • ثم سعت صنهاجة للناصر بخلف • فقتله • واستوزر مكانه أحمد بن جعفر ابن افلح • ومن عماله اخوته كباب بمليانة وورمان بحمزة وخـزر بنقاوس • وبلباز بقسنطينة وابنه عبد الله بالجزائر ومرسي الدجاج وابنه يوسف باشير ومما قيل فيه :

قالت سعاد وقد زمـت ركائبنا   مهلا عليـك فانت الرائح الغادي
فقلـت تالله لا انفـك ذا سـفر   تجري بي الفلك اويحدو بي الحادي
حتى أقبـل ترب العـز منتصرا   بالناصـر بن علناس بـن حمـاد

وسادسهم المنصور ، أتته الكتب والرسل من يوسف بن تاشفين وتميم بن المعز وغيرهما بالتهنية والتعزية • واكمل عمل ابيه في تحضير الدولة والمحافظة على سلامتها • وانتقل الى بجاية سنة 83 وتوفي في ربيع الاخير •

قال لسان الدين : « وكان قائما على أمره حميد الخلل ضابط الامور يكتب ويشعر • ويذهب في أموره مذهب ابي جعفر المنصور من رقع الثياب والتحفظ على القليل من الاشياء • وعليه قدم معز الدولة بن صمادح لما فر من المرية امام المرابطين فاقطعه تدلس ونظرها » اهـ • وكان وزيره عبد الكريم بن سليمان •

واستبد عليه عمه بلباز بقسنطينة فسرح اليه أبا يكنى بن محسن ابن القائد بن حماد ، وعقد له على قسنطينة وبونة ، فقبض على بلباز واشخصه الى القلعة ، وأقام واليا بقسنطينة ، وولي اخاه ويغلان على بونــة •

ثم خالف ابو يكنى على المنصور سنة 87 واوفد أخاه من بونة على تميم بن المعز بالمهدية واستدعاه لولاية بونة ، فبعث معه تميم ابنه ابا الفتوح ، فنزل بونة مع ويغلان ، وكاتبوا المرابطين وجمعوا العرب على أمرهم •

فسرح المنصور عساكره لحربهم ، فحاصروا بونة سبعة أشهر ثم اقتحموها عنوة ، وقبضوا على ابي الفتوح بن تميم ، وبعثوا بــه الى المنصور • فاعتقله بالقلعة • ثم نازلوا قسنطينة واضطربت احوال ابي يكنى • فخرج الى قلعة بجبل اوراس وترك بقسنطينة صليصل ابن الاحمر من رجالات الاثبج فنزل صليصل عنها للمنصور على مال بذله له •

أقام أبو يكنى باوراس يردد الغارة علــى قسنطينة • فنازلته العساكر • وحاصرته بقلعته • ثم اقتحموها عليه وقتلوه •

وسابعهم باديس • ولي بعد ابيه • وكان عظيم السطوة شديد الباس سريع البطش • قتل عبد الكريم وزير ابيه لاول ولايته • ونكب عامل بجاية • وعزل اخاه العزيز عن ولاية الجزائر • وغربه الى جيجل • وتوفي ثالث عشر ذي الحجة قبل ان يستكمل سنة •

وثامنهم العزيز • بايعه بعد وفاة اخيه علي بن حمدون قائد الاسطول بعدما احضره من جيجل • وكان حسن الخلق معتدل الطريقة • صالح زناتة • وتزوج بنت ماخوخ • وملكت اساطيله جربة • ونازلت جيوشه تونس • فخضع له صاحبها احمد بن عبد العزيز الخرساني • وبنو خراسان قيل انهم صنهاجيون • وطالت مدته فنالت الدولة على عهده امنا ورقيا وعلما • واستوطن بجاية الى ان مات • واخذت القلعة في الانحطاط •

وتاسعهم يحي بن العزيز • جهز الى الشرق عسكرا بقيادة مطرف ابن علي بن حمدون • قيل سنة 522 وقيل سنة 529 • حاصر المهدية من غير طائل • وفتح تونس • وحمل صاحبها احمد بن عبد العزيز الى بجاية • فولى يحي على تونس عمه كرامة بن المنصور الى ان مات • فخلفه اخوه ابو الفتوح بن المنصور الى ان مات • فخلفه ابنه محمد • ولم تحمد سيرته • فعزل بعمه معد بن المنصور الى أن عاد أمرها لبني خراسان ، فاخرج الى بجاية سنة 543 •

وفي هذه السنة خرج يحي الى القلعة لافتقادها ونقل ما بقي منها ؛ وفيها استولى النرمان على المهدية • وأراد صاحبها اللحاق بعبد المؤمن فكتب الى يحي يستأذنه في زيارته والتوجه من عنده الى عبد المؤمن • فاجابه بالتوجه لما جرى عليه والحث على الوصول اليه والعدول عن قصد غيره • فتوجه الحسن الى بجاية ولاقاه القائد بن العزيز • فعدل به بأمر أخيه الى الجزائر • فانزله وأولاده بها • وامر يحي بمراقبته حتى لا يلحق بعبد المؤمن او يراسله •

وكان وزير يحي ميمون بن حمدون • ومن عماله اخوته القائد بالجزائر والحارث ببونة والحسن بقسنطينة وجوشن بالقلعة •

وفي سنة 547 استولى الموحدون على بجاية • ونقلوا يحي الى مراكش وتوفي بسلا سنة 558 •

قال لسان الدين : « وكان يحي بن العزيز فاضلا حليما فصيح اللسان والقلم مليح العبارة بديع الاشارة • وكان مولعا بالصيد مغرما به ، كلفا بالمارين يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة من شيوخ وعجائز وحمقى • فكان يستاقي في بيته على الفرش الوثيرة الحشايا ويستدعي المضحكين وجوارح الصيد • فيختبر هذا البازي ويتفقد هذا الكلب ويستنهض هذا المضحك في النوع الذي سلكه فيلهيه ويضحكه • ويجلس ابدا بين يديه اخواته تقسوط وأم ملال وشبلة في زي العرائس من الحلي واللباس • فلا يزال كذلك الى أن ينام • ثم يغتدي الى الصيد هكذا انقضت أيامه •

« وكان قد ولي ابنه المنصور عهده • فتوفي في حياته • وعظم وجده عليه • ولما اضطرب حاله بظهور الموحدين لحق بقسنطينة ثم نزل لهم عنها مستأمنا لنفسه وسكن بقصر ابن عشرة بسلا وكانت وفاته به سنة 544 » اهـ •

وما قدمناه من تاريخ وفاته عن ابن خلدون • وقال صاحب المعجب ان غزو عبد المؤمن لبجاية كان سنة 540 وان عبد المؤمن نقل معه الى مراكش يحي واعيان دولته • قال :
« فحين وصلوا أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والاموال الوافرة • وخص يحي من ذلك باجزله واسناه واحفله • ونال يحي هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما • واظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها بلغني من طرق عدة ان يحي بن العزيز

كان في مجلس عبد المؤمن يوما • فذكروا تعذر الصرف • فقال يحي اما أنا فعلي من هذا كلفة شديدة • وعبيدي في كل يوم يشكون الي ما يلقون من ذلك • ويذكرون ان أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف • فلما قام يحي اتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها • وقال لرسوله قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا ان شاء الله عز وجل » اهـ •

ملوك الدولة الحمادية

الملك	الولاية هـ	الولاية م	الملك	الولاية هـ	الولاية م
حماد بن بلقين بن زيري	405	1014	المنصور بن الناصر	481	1089
ابنه القائد	419	1028	ابنه باديس	498	1104
محسن بن القائد	446	1054	اخوه العزيز	498	1105
بلقين بن محمد بن حماد	447	1055	ابنه يحيى	515	1121
الناصر بن علناس بن حماد	454	1062	سقوط الدولة	547	1152

6 — العرب ايام الحماديين

كان الهلاليون يذهبون لبداوتهم في مذاهب الحرية الى أقصى مدى • فيرون الانتصاف من جانبهم ذلا واحترام القوانين الدولية استعبادا • فكثرت بينهم الفتن • وعجزت عن قيادهم الدول •

وزادهم هذا الخلق قوة ما وجدوا عليه بني زيري الصنهاجيين من الافتراق فكان العرب يخشون اتحاد الزيريين • فيغرونهم بعضهم ببعض • وكان الزيريون كذلك يسعون لاذكاء نار العداوة بين قبائلهم •

قتلت عدي أحد بني رياح واصطلح القبيلتان • فرأى تميم بن المعز أن عداوتهم أولى بسياسته • فقال يخاطب رياحا :

متى كانت دماؤكمو تطل ... أما فيكم بثار مستقل
أغانم ثم سالم ان فشلتم ... فما كانت أوائلكم تذل
ونمتم عن طلاب الثار حتي ... كأن العز فيكم مضمحل

فعمد أخوة المقتول • فقتلوا أميرا من عدي • وهاجت الفتنة حتى انجلت عدي الى طرابلس •

وكانت حروب ايضا بين الاثبج ورياح • فوفد رجال من الاثبج على الناصر بن علناس وعقدوا معه حلفا على رياح وزغبة• فخشيء تميم ابن المعز ان يتقوى عليه الناصر ويسلبه ملكه فامد عليه رياحا بالمال والسلاح والجنة •

ثم ارسلت رياح وزغبة الى الاثبج ومن معهم من عدي يحذرونهم مساعدتهم للناصر وانه ان انتصر علينا مال عليكم بصنهاجة وزناتة • فأهلككم وانه لا مقام للعرب الا مع خلف ملوك صنهاجة وضعفهم • فاستصوب الاثبج رأي اخوانهم • وواعدوهم الغدر به متى نشبت الحرب على ان يكون لهم ثلث الغنيمة •

فخرج الناصر سنة 457 لحرب رياح وزغبة في جموع الاثبج وعدي وصنهاجة وزناتة • وكانت زناتة قد اتفقت مع الاثبج على الخديعة • وكان للناصر أخ أسن منه اسمه القاسم • فنهاه عن الخروج • وقال له : أقم ببلادك وابعث الى هؤلاء العرب وصانعهم ياتوك طائعين وفي نوالك طامعين • فابى الا الخروج •

كان اللقاء بفحص سبيبة • ودارت رحا الحرب • فانخذل العرب وزناتة • وحقت الهزيمة • فاخذ القاسم من اخيه الناصر العمامة والراية وقال له انج بنفسك كي تحفظ الملك • وقاتل هو حتى قتل •

قال ابن الاثير : « ومات من جموع الناصر اربعة وعشرون الفا — وغنم العرب معسكره بسلاحه وماله ودوابه وكل ما اشتمل عليه — واقتسموا الغنيمة على ما شرطوا أولا ، وبعثوا بالالوية والطبول وخيم الناصر بدوابها الى تميم • فردها عليهم مستقبحا أخذ سلب ابن عمه » اهـ •

واتبعت رياح الناصر الى قسنطينة ثم القلعة • فاحاطوا بها • وساروا فيما حولها الى المسيلة وطبنة من أرض الحضنة ينهبون ويخربون • وظاهرتهم زناتة • فحالفت مغراوة وغمرت الاثبج • وحالف بو توجين بني عدي • وبعث اليهم الناصر ابنه المنصور • فظهر عليهم وتقبض على امراء بني عدي ساكن بن عبد الله وحميد بن حرعل ولاحق بن جهان ثم ظهر العرب على الحماديين فملكوا الضواحي • وحجروا العمال في المدن • واختط الناصر بجاية فرارا منهم • وتقدم في دخول الهلاليين الجزائر ما وصف به الادريسي حال الدولة والامة معهم •

ولما ثار على المنصور ابو يكني عامله بقسنطينة وفر الى أوراس نزل بقسنطينة صليصل بن الاحمر من رؤساء الاثبج • فصالحه المنصور عليها بمال يبذله له • وقال صاحب المعجب :

« صالح المنصور العرب على ان يجعل لهم نصف غلة البلاد من ثمرها وبرها وغير ذلك ، فلم يزالوا يقبضون ذلك حتى ملك البلاد عبد المؤمن » اهـ •

ولما خرج المنصور الى تلمسان لحرب المرابطين كان معه الاثبج وزغبة ورياح والمعقل •

وفي أيام العزيز كبس العرب القلعة واهلها غارون ، فاكتسحوا جميع ما كان بظواهرها ، ودافعتهم الحامية ، فغلبوهم واخرجوهم من

البلد ، ثم ارتحل العرب وبلغ الخبر العزيز ببجاية ، فارسل ابنه يحي وقائده علي بن حمدون في عسكر وتعبية ، فوصلوا الى القلعة وسكنوا الاحوال ، واستأمن العرب واستعتبوا فاعتبوا ، وانكفأ يحي في عسكره الى بجاية ، وعلى أثر ذلك بلغ ابن تومرت بجاية قافلا من المشرق سنة 512 •

وفي سنة 529 أو سنة 522 نزع بعض عرب افريقية الى يحي مغاضبين للحسن بن علي ، فاغروه بالمهدية ، ووعدوه الاعانة ، واعطوه ابناءهم رهائن على ذلك ، فارسل معهم الفرسان والمشاة لنظر كبير قواده مطرف ابن علي بن حمدون ولم يأمره بالقتال تعففا عن الدماء ، فلما نزلوا على المهدية واشتدت الحال ، ووقعت الحرب فتح الحسن الباب وخرج في أول الناس ، وحمل على المحاصرين له وهو ينادي انا الحسن ، فاجلوا مقامه وانهزموا عنه •

وكان الحماديون يختصون الاثبج دون سائر العرب بالرئاسة ، واقطعوهم الكثير من اعمال الزاب والحضنة وضواحي القلعة ، واستألفوا معهم زغبة ، واستظهروا بهاتين القبيلتين على زناتة • ورئاسة زناتة يومئذ لامراء تلمسان من بني يعلي المغراويين • فكان الامير يحي من بني يعلى يستجيش مغراوة ويفرن وبني يلومي وبني عبد الواد وبني راشد وبني توجين وبني مرين وغيرهم من زناتة ، ويوجه عليهم وزيره وقائد حروبه ابا سعدي اليفرني • وكان موطن زغبة اقرب الى مواطن زناتة ، فدارت بين الفريقين حروب شديدة • هلك في بعضها ابو سعدي حوالي سنة 450 •

وكانت بين بطون الاثبج حروب • فقتل الحسن بن سرحان أمير دريد شبانة بن الاحيمر شيخ كرفة • ثم لحقت به اخته الجازية مغاضبة لزوجها ماضي بن مقرب سيد قرة • فتحالفت على دريد كرفة

وقرة • وظاهرتهم عياض • وكانت بين الفريقين موقف • قتل في بعضها ابناء شبانة الحسن بن سرحان • ثم ظهرت عليهم دريـد • قال ابن خلدون : « واستمرت الفتنة بين هؤلاء الاثبج وافترق أمرهم • وجاءت دولة الموحدين وهم على ذلك الشتات والفتنة » اهـ •

وبعد سقوط الدولة الحمادية ضعفت الاثبج • بما كان بينها من الفتن وذهاب الدولة التي كانوا يستدرون خيراتها • فازال عبد المؤمن ما كان لهم من امتيازات • ونقل منهم الى الاندلس • ثم نقل ابناؤه بعض بطونهم الى المغرب الاقصى • فقل جمعهم بالجزائر • وتغلبت رياح على كثير من مواطنهم •

7 ـ زناتـة ايام الحماديين

كانت رئاسة زناتة مفترقة في قبائلها وبطونها • والفتن متصلة بين المتجاورين منهم : بين مغراوة ويفرن وبين يلومي وبني ومانو وبين بني بادين وبني مرين • وهكذا غيرهم •

وكانت مغراوة أعظم قبائلهم وامارة بني خزر منهم أعظم امارات سائر القبائل فلما أجلاهم بلقين بن زيري عن المغرب الاوسط اسسوا امارات بالمغرب الاقصى • وامدهم بنو أمية بالرجال والاموال ليكونوا حاجزا دون سيل الدولة العبيدية •

وفي سنة 377 نزع سعيد بن خزون بن فلفول بـن خزر الى صنهاجة • ورأس على زناتة الحضنة والزاب • وفيها ملك ابن عمه زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر مدينة فاس • واخذ يجلب علـى صنهاجة • وثار عليها ايضا فلفول بن سعيد • وظهرت قوة زناتة ايام باديس • فهزموا جيوشه مرارا حتى رماهم سنة 395 بحماد وسوغ له ما يفتحه من اوطانهم •

وفي سنة 93 استرجعت الدولة الامــوية عمالها مــن المغرب • واستقل به المعز بن زيري من عطية على شروط بينه وبين بني أمية • وقال ابن خلدون في أخبار تلمسان : « كان ذلك سنة 96 فاستعمل المعز على تلمسان ابنه يعلى • واستقرت ولايتها في عقبة الى ان انقرض أمرهم على يد لمتونة » اهـ •

قال ابن ابي زرع : « وقيل ان المعز بن زيري ليس له ولد الا معنصر خاصة » اهـ • ونسب ابن خلدون في اخبار مغراوة يعلى الى محمد أخي عبد الله ابني خزر فقال هو يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر •

وكانت امــارة بني يعلى بتلمسان تشتمل على وهران وتلــك النواحي • ومدوا ايديهم الى أخوانهم اصحاب فاس • واستعانوا على محاربة من ناوأهم من صنهاجة وغيرهم ببقية زناتة •

وظهر امر بني ومانو وكان شيخهم ماخوخ • وله خيمة شهيرة قال ابو راس : « وآثارها اليوم ببلاد اولاد علي » اهـ • ونازعهم بنو يلومي • فكانت بينهم حروب وكان من شيوخهم أمير الناس ثم ابنه سيد الناس • أدركه الموحدون • ونقلوه في وجوه قومه الى مراكش • وبها توفي ايام عبد المؤمن • وكان بنو ومانو وبنو يلومي قد غلبوا وجديجن على مواطنها كل من جهته • ثم غلبهم جميعا ايام الموحدين بنو عبد الواد وبنو توجين •

وكان شيخ اوغمرت ابن ابي حلي وشيخ توجين دافلتن بن ابي بكر المنكوشي • وينازعه ابن عمه لقمان بن المعتز حتى ظهر عليه • ثم انفرد بالرئاسة بنو دافلتن • ولم يكن يومئذ لمصاب كبير شان لافتراق جماعاتهم وتنازعهم على الرئاسة •

وكان بنو يعلى وبنو ومانو وبنو يلومي يستظهرون ببطون بني

واسبن • ويقرضونهم المال والسلاح والحبوب • فراشوا • واخذوا في الظهور •

وكان الحماديون كثيرا ما يجلبون على زناتة ويستعينون بهم بعضهم على بعض • وقتل حماد قبل استقلاله دافلتن بن ابي بكر في بعض حروبه ولما أعلن استقلاله نزع عنه ابن ابي حلي الى باديس • فوصله وحمل اصحابه • وعقد له على طبنة وعملها • واوفد لقمان بن المعتز ابنه بدرا على باديس وهو في طريقه اثر حماد ، وتحيز اليه ايضا عطية بن دافلتن ، وكانت لتوجين في حرب حماد آثار ، ومقاتلتهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف • فلما انهزم حماد سوغهم باديس ما غنموه • وعقد للقمان على قومه وما يفتحه من البلاد بدعوته •

وفي سنة 430 جمع صاحب فاس حمامة بن المعز بن عطية زناتة لحرب القائد فاشترى القائد ذممهم بالمال • ولم يسع حمامة الا الخضوع • وكان بلقين كثيرا ما يجدد الغارة على المغرب ، ويجمع زناتة لذلك ، ثم خرج في صفر سنة 54 فاجلي عنه يوسف بن تاشفين ، وعاد فقتله الناصر بتسالة في شعبان •

واستمال الناصر بني ومانو ، وتزوج منهم ، فكانوا أولياءه دون بني يلومي ، وجرت عليه زناتة الهزيمة في وقعة سبيبة وقائدها يومئذ صاحب فاس ، وزحف المنتصر بن خزرون بن سعيد بن خزرون من طرابلس في جمع من بني عدي ، فنازل المسيلة واشير • وطمع في استرجاع ما كان لجده بالحضنة ، فاجلاه الناصر الى الصحراء ، ورجع الى القلعة ، فعاد المنتصر عائثا في تلك الجهات ، فصالحه الناصر • واقطعه ضواحي الزاب وريغة مزمعا الغدر به ، وكلف بتدبير اغتياله عروس بن سندي ، فاستدعاه الى بسكرة ، واشار على حشمه بقتل المنتصر وذويه عند انكبابهم على الطعام ، ففعلوا ، وبعث برأسه الى

الناصر ، فنصبه ببجاية وصلب شلوه بالقلعة وكان ذلك حوالي سنة 460 .

وتتبع الناصر أمراء زناتة بالقتل . وكانت غمرت ومغراوة قد ظاهرت الاثبج وبنو توجين ظاهروا عديا ، فجهز ابنه المنصور اليهم ، فشتت جموعهم ، وبلغت سراياه ورقلة ، فدخلها وولي عليها ، وأسر من توجين أميرهم مناد بن عبد الله واخاه زيري وعميهما الاغلب وحمامة ، فلما حضروا بين يدي الناصر وبخهم ثم قتلهم .

وكان من بني سنجاسن رئيسان احدهما ابو الفتوح بن حموش (وفي بعض نسخ ابن خلدون حبوس) بالمدية ثار على الناصر فقتله ، والآخر معنصر بن حماد بناحية شلف ، اجلب على عامل مليانة ، وقتل شيوخ بني ورسيفان ، وكان الناصر مشتغلا بأمر العرب ، فكاتب في شانة بني ورسيفان ، فزحفوا الى معنصر وقتلوه ، وبعثوا الى الناصر برأسه ، فنصبه مع رأس المنتصر .

ثم غلب العرب على الحضنة ، والجأوا غمرة الى الجبال . فعجزت عن الظعن بعد . وتغلبوا ايضا على الزاب . واخروا بني واسين الى الغرب . فلاذوا باخوانهم بني يلومي وبني ومانو وانتدب لدفاع العرب بنو يعلي . فجهز بختي منهم وزيره وصاب حروبه ابا سعدي خليفة اليفرني . فكانت بينهما مواقف صعبة . هلك في بعضها بالزاب حوالي سنة 450 .

ولم يزل بنو يعلى بتلمسان . واياههم مع الحماديين تختلف سلما وحربا . وتوفي بختي فخلفه ابنه العباس . وظهر ايامه المرابطون . وتغلبوا على فاس . فنزع اليه كثير من أهلها من مغراوة . ثم اجلب عليهم المرابطون . فحاربهم . ودخلوا عليه تلمسان سنة 473 فقتلوه . وبذلك انتهت امارة بني يعلى بتلمسان بعدما عاشت نحوا من مائة سنة .

وكان الناصر يردد غزو المغرب • فوقف المرابطون بمكانهم من تلمسان الى أن هلك • وكانت أخت ماخوخ تحت المنصور • وكان لقومه بذلك مزيد ولاية في الدولة • لكنه والى المرابطين على صنهاجة لما كان المنصور مشتغلا بفتنة ابي يكنى • فدخل المرابطون ارض صنهاجة • وبعد قضاء المنصور على تلك الفتنة زحف اليهم واخرب ثغورهم وحصون ماخوخ • وضيق عليهم • فصالحه يوسف بن تاشفين• وقبض عنه ايدي المرابطين • ثم عاد المرابطون الى الاجلاب علـى صنهاجة فخرج اليهم الامير عبد الله بن المنصور • فرجعوا ادراجهم وشن هو الغارة على بني يلومي وبني ومانو وفتح الجعبات وسيرات • وعفا عن أهلهما ورجع الى ابيه ظافرا • والجعبات على ضفة وادي مينة اليسرى •

واعتد المنصور على ماخوخ ولاءه للمرابطين • فخرج اليه بنفسه في صنهاجة ومن والاهم • وجمع له ماخوخ زناتة • فهزمه الى بجاية • ولم يفعل المنصور اكبر من تعديه على زوجه أخت ماخوخ • فقتلها !

ان من اعجب العجائب عنـدي قتل بيضاء حـرة عطبـول

استحكمت النفرة بين المنصور وماخوخ بعدها • فجمع ماخوخ بني يلومي وبني ومانو على دعوة المرابطين • واوفد احد بنيه على محمد بن تينعمر أمير تلمسان يحرضه على بلاد صنهاجة • فخرج في جموع المرابطين وزناتة حتى نازل الجزائر وحاصرها يومـين • مات عقبهما فخلفه أخوه تاشفين • وما زال يجلب على صنهاجة حتى فتح أشـير •

هنالك جمع المنصور عامة صنهاجة ومن والاهم من العرب • وخرج الى تلمسان في شوال سنة 496 كما في الاعلام ، وبلغت مقاتلته نحو عشرين الفا • فافرج له تاشفين عن تلمسان ، وخرج الى تسالة ، فهزمته عساكر المنصور الى الصخرة وعاثت في تلمسان فنهضت امرأة

تاشفين الـى المنصور ، وانكبت علـى رجليـه تستعطفه وتذكره صلة الرحم الصنهاجية لرفع محنة الجند عن البلد ، فاكرم المنصور مقدمها وكف جنوده عن الفساد ، وخرج من الغد قافلا بهم الـى حضرته ، وانعقدت السلم بينه وبين المرابطين • وعـزل يوسف بن تاشفين امره بتلمسان تاشفين بن تينعمر ترضية للمنصور •

نزل المنصور بعد قفوله بالقلعة واثخن في زناتة بنواحي الزاب والمغرب الاوسط ، ثم عاد الى بجاية ، فمات بعـد اشهر ، ولما ولي العزيز صالح زناتة ، وتزوج ابنة ماخوخ •

لما كف الحماديون عن بني ومانو وبني يلومي تذكروا ضغائنهم ، وعادوا الى العداء • فكانت بينهم حروب • هلك في بعضها ماخوخ • فخلفه بنوه تاشفين وعلي وابو بكر • وكان بنو عبد الواد وتوجين وبنو راشد وبنو ورسيفان مددا لبني يلومي • وربما مادهم ايضا بنو مرين • ولم يزالوا في فتنتهم حتى جاء الموحدون •

8 ـ الحماديـون والمسيحيون

عرف المغرب في هذا العصر البربري من أمم أروبا المسيحية أمة النرمان واصل هذه اللفظة نرثمن • ومعناها رجال الشمال • وهم من النرويج والدانمارك • انتشروا في شرق أروبا • وانتقلوا أيام شرلمان الى الغرب وسكنوا حوالي الاودية الفرنسية • واستقروا سنة 299 (911م) بنرمنديا احدى كور فرنسا •

وكانت القرصنة بالبحر أهم أعمالهم • وهجموا على الاندلس من ناحية اشبونة سنة 229 وتكرر اجلابهم على الثغور وبلغوا سنة 245 بلد نكور من سواحل المغرب •

ولم يكن للنرمان قبل بالاساطيل العربية حتى جـاء الهلاليون

وضعفت دولة صنهاجة بانقسامها • واستيلاء العـرب على اراضيها واستنزاف ماليتها بالعطاءات تسكينا لثوراتهم واستبداد كثير مـن الولاة على المدن • وحدث بـين الصقليين شـقاق فاستعان بعضهم بالنرمان • فخفوا لنصرتهم • ولكن لما نزلوا المدن رفعوا عليها أعلامهم وذهبت صقلية شهيدة الخلاف والخديعة • فاستولى النرمان عليها سنة 485 واصبحت مركزا عظيما للنصارى في الحروب الصليبية •

وكان الحماديون أقوياء • فلم يقدر النرمان على التوسع الا في المملكة الشرقية الضعيفة ولم يطب آل باديس نفسا بتسليم المملكة للحماديين • فاخذوا يفاوضون المرابطين ويدعونهم لحماية ثغورهم • ولا طريق لهم الا بالمملكة الحمادية • فشمر الحماديون عن ساعد الجد لقطع كل حركة تمس باستقلالهم حتى عقد معهم المرابطون معاهـدة سلمية ودية •

كان الحماديون يرون في توهين الرومان لبني عمهم اعانة لهم على امتلاك مملكتهم يومـا ما • ورأى النرمان ان لا يهيجوا الحماديين بسوء • فظلت العلاقات بينهم حسنة • ولكن النرمان لما رأوهم ملكوا جربة وطمعوا في المهدية قلبوا لهم ظهر المجن •

ففي سنة537 طرق النرمان جيجل فاحتلوها عنوة• وانتهبوا الاموال وأحرقوا المنازل وخربوا قصر النزهة الذي بناه يحي بن العزيز وسفكوا الدماء وسبوا الحريم• ولم ينج من أهلها الا من تعلق بالجبل• ثم أقلعوا عنها • وتركوها خاوية على عروشها • وفي سنة 539 فتحوا برشـك وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين •

ولما ملك عبد المؤمن بجاية وخضع له يحي لحق أخوه الحارث صاحب بونة بصاحب صقلية • فاعانه على البقاء بها حتى اخذها منه عبد المؤمن •

هـذه علاقات الحماديين والمسيحيين السياسية وكانت بالمـدن

الحمادية طوائف مسيحية اما من بقايا الرومان او من البربر الذين فقدوا جنسيتهم ونسوا اصلهم او من سبي أروبا فكان الحماديون يحسنون معاملتهم ويحفظون حقوقهم على أقليتهم احسانا وحفظا لم يوجد ما يقرب منهما في عصر يزعم القابضون على مناحي حياته انهم أرقى دولة عرفها التاريخ وان عصرهم أزهر العصور ، زعما لا مؤيد له غير القوة المادية •

وهاك ملخص ما اطال به ذوماس لتري في وصف حياة المسيحيين تحت الحماديين • قال :

« كان لبابوات رومة علائق مع الحماديين وخصوصا اشهرهم الناصر بن علناس ويلقبونهم ملوك موريطانيا السطيفية » •

« ولما أسسوا القلعة تقبلوا بهـا المسيحيين بصدور رحبـة • وأحسنوا اليهم مدة دولتهم • وضمنوا لهم حرية دينهم تحت قسيس منهم من رتبة (افيك) » •

« وفي سنة 508 (1114م) أسسوا بالقلعة كنيسة مريم العذراء • وقسيسهم يومئذ عزون • وتسميه العامة الخليفة • وابتنى لنفسه دارا حذاء الكنيسة » •

« وانتخب أهل بونة اسقفا عليهم يدعى سرفاند • فسماه لهم ارشفيك قرطاجنة وصادق عليه الناصر ، ولما سافر سرفاند الى رومة حمله الناصر هدايا جليلة ورسالة ودية الى البابا قرقوار السـابع • واشترى جميع الاسرى الذين عثر عليهم بممالكه وارسلهم الى البابا واعدا اياه بعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد » •

« سرت الكنيسة الرومانية كثيرا بفعل الناصر • فلما عاد سرفاند الى بونة ارسل معه كبار رجال الكنيسة رسائل شكر وثناء للناصر •

وارسل له البابا ايضا رسالة خاصة تعد أكبر رسالة وأعظمها ارسلت من بابوات رومة الى ملوك المغرب وذلك سنة 469 (1076م) •

« ولم يحفظ التاريخ جواب الناصر عن هذه الرسالة ولا ما نشأ عنها • والرسالة تنص على ان البريك وكنشبوش من خدام قصر البابا الذين نشأوا به يرغبان رغبة شديدة في شرف خدمة الناصر برومة • وانهما ارسلا له بعض رجالهما لتأكيد ودادهما ، وتنص الرسالة ايضا على أن البابا مستعد لمعاملة كل من تعلق بالناصر معاملة ودية صادقة » اهـ • وقد أثبت ذوماس الرسالة بنصها اللطيني وترجمتها الفرنسية • ومنعنا من تعريبها طولها وما قصدنا اليه من الايجاز •

9 ــ العمــران والحضــارة

كانت المملكة الحمادية تشتمل على ارض طيبة وجبال جالبة للامطار واودية حافظة لها ، وعني الحماديون بحفظ الامن واستخراج خيرات المملكة ، فلم ينوا في اطفاء الثورات الداخلية وصد الهجومات الخارجية وتنظيم البريد وتأمين السبل •

نشطت الفلاحة فأحيي موات الارضين وازينت البوادي وضواحي المدن والقرى بالمزارع على اختلاف انواعها ونصبت الارحاء على ارجاء الاودية والجداول وغرست البساتين الجامعة لانواع الاشجار والازهار •

ونفقت الاسواق بمختلف البضائع • فكانت الطرق البرية غاصة بالقوافل ، والبحار والاودية الكبار تشقها اسراب السفن التجارية غادية رائحة •

وتعددت الصنائع وترقت الحرف من خشابة ونجارة وخراطة

وحدادة وحياكة صوف وقطن وكتان وحرير ، واستخرجت المعادن من مختلف الجهات .

وزاد الحركة العمرانية نموا فرار الناس من افريقية الى الحماديين امام الهجوم الهلالي ومن صقلية امام استيلاء النرمان ومن الاندلس امام استيلاء المرابطين . ووطد اركان هذه الحركة بسط المرابطين لنفوذهم الفعلي على عواصم القوة الزناتية غربا التي كانت أكبر شاغل للحماديين .

وساعد هذا العمران على انشاء حضارة من ارقى الحضارات من نقش وتزويق وغناء وبناء ، وقد عثر على أوان من الخزف المطلي فيها كتابات عربية بارزة ، وقارورات وبعض أدوات من الزجاج . وكلها تدل على صناعة خزفية وزجاجية راقية .

وذكر ياقوت القلعة . فقال : « يتخذ بها اللبابيد الجيدة والاكسية القلعية الصفيقة النسج المطرزة بالذهب . ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الابريسم » اهـ .

قال جورج مارصي : « وحوالي سنة 457 (1065م) صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وارفة الخيرات ، وقصدها ارباب الصنائع من المشرق وافريقية ، ويظهر ان صناعة الفخار يومئذ بلغت بها مبلغا عظيما ويظهر عليها تأثير الفرس ومصر فنا وعملا ، وجد بها من ذلك آثار كثيرة ، ثم ترقت الصناعة وتطورت حسب تطور الدولة في العظمة » اهـ .

وكانت موسيقى الجزائر الحمادية متأثرة بالموسيقى الافريقية والاندلسية . ينشطها الملوك والامراء . فيتخذون بمجالستهم المغنين والمغنيات . وعاش الى جنبها أغاني العرب في باديتهم والبربر في جبالهم . فكان للحاضرين اغانيهم الفنية القابلة للتهذيب والرقي ، وللبادين أغانيهم الموروثة عن اسلافهم المتعاصية عن التطور .

وقد أنشأ الحماديون القصور في مختلف المدن والمساجد والجوامع والمنائر والمنابر والاسواق والاسوار والقناطر ، واصلحوا ما تداعى من انشاء من قبلهم وأسسوا المدينتين العظيمتين القلعة وبجاية ، وبنوا حولهما القصور الشاهقة والمباني الجميلة .

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان

بنى الناصر حول القلعة قصورا شامخة مسماة بعدة اسماء ، قال ابن خلدون : « وبني ببجاية قصر اللؤلؤة ، وكان من أعجب قصور الدنيا » اهـ . قال ابو راس : « وكان بناؤه حوالي سنة 470 » اهـ .

والمنصور قال ابن خلدون : « هو الذي حضر ملك بني حماد وصير بجاية دار المملكة ، وجدد قصورها وشيد جامعها وتانق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور واجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام ، وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر اميميون » اهـ .

قال صاحب الاستبصار : « وفي بجاية موضع يسمى اللؤلؤة ، وهو أنف جبل داخل في البحر متصل بالمدينة ، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراءون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا . فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد ، ومجالسها مبنية حيطانها بالرخام الابيض من أعلاها الى أسفلها ، قد نقشت أحسن نقش ، وانزلت بالذهب ، وصورت فيها الصور الحسنة ، فجاءت من أحسن القصور » اهـ .

قال مارصي : « ان الحضارة الحمادية تظهر تحت تأثير المشرق . وآثارها لا نظير لها ببقية وطن البربر ، وهي شاهد قوي على رقي الحضارة الاسلامية المغروسة بالجزائر .

وكان النرمان مغرمين بالحضارة الحمادية ، فوضعوا قصور بلرم على شكل قصور بجاية ، وكان قصرا زيزة وكوبة ببلرم شديدي الشبه بقصور اللؤلؤة والكوكب وأميميون » .

وكان محمد بن حماد ببجاية ولوعا بندب آثار اسلافه الحماديين بالقلعة وما حولها من الامكنة ، فمن ذلك قوله :

أين العروسان لا رسم ولا طلل ... فانظر ترى ليس الا السهل والجبل
وقصر بلارة أودى الزمـان بـه ... فاين ما شاد منـه السادة الاول
قصر الخلافة ابن القصر من خرب ... غير اللجين وفي ارحابهـا زحـل
وليس يبهجني شيء أسـر بـه ... من بعد ان نهجت بالمنهج السبل
وما ورا الكوكب العلوي معتصم ... وقد عرا لكوكب التغيير والندل
وقد عفا قصر حماد فليس لـه ... رسـم ولا أثـر باق ولا طلـل
ومجلس القوم قد هب الزمان به ... بحادث قـل فيـه الحادث الجلل
وان في القصر قصر الملك معتبرا ... لمـن تغربـه الايـام والـدول
وما رسوم المنـار الآن ماثلـة ... لكنها نبـذ يجري بهـا المثـل
حتى المصلى محت آياتها وعفت ... الا جدارا وما طلـت به الطلل
كرجعك الطرف كانت كـل آبرة ... فما تراه كذاك العمر والاجـل

وله مـن أخرى

الا ليت شعري هل ابيتن ليلـة ... بوادي الجوى مابين تلك الجداول
وهل اسمعن تلك الطيور عشية ... تجاوب في تلك الغصون البلابل
وهل أردن عين السلام على الصدى ... فابرد من حـر الضلوع النواهل
وانظـر طيقـان المنـار مطـلة ... على الواجنات الزاهرات الخمائل
كأن القبـاب المشرقات بأفقـه ... نجـوم تبدت في سـعود المنازل
فان ثنـت الايـام عنهـا اعنتي ... وانزلنني في غيـر تلـك المنازل
فصبر جميـل غيـر ان صبابتي ... ستبقى بقـاء الطالعات الاوافـل

وله من أخرى

على عـين السـلام سلام صب غـذاة ماؤهـا العـذب النمير
تأود أيكهـا وجـرت صبـاها وشم لهـا كمـا فتـق العبيـر
وابـرد ما يكـون الجـو فيها واندى حـين يحتـدم الهجـير
وما ادري ايجـري فـوق در أم ابتسـمت بمنبعهـا الثغـور
وقد قـام المنـار على ذراهـا كمـا قـام العروس او الامـير
بنـاء يزدرى ايـران كسـرى لديـه والخورنـق والسـدير

وقد ذكر المقري في نفح الطيب قصيدة لعبد الجبار بن حمديس الشاعر الصقلي يصف بها دارا بناها الملك المنصور ببجاية ، ولدقة وصفها وحسن تصويرها للحضارة الحمادية نوردها على طولها ، قال :

أعمر بقعـر الملك ناديك الذي اضحى بجـدك بيتـه معمـورا
قصر لو أنك قد كحلت بنـوره أعمى لعاد الـى المقـام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه فيكاد يحـدث بالعظام نشـورا
نسي الصبيح مع الفصيح بذكره وسما ففاق خورنقـا وسـديرا
لـو ان بالايوان قوبـل حسنه ما كـان شيئا عنـده مذكـورا
اعيت مصانعـه على الفرس الالى رفعوا البنـاء واحكوا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور ومابنوا لملوكهم شـبها لـه ونظـيرا
أذكرتنا الفـردوس حـين اريتنا غرفا رفعـت بناءهـا وقصـورا
فالمحسـنون تزيدوا اعمالهم ورجوا بذلك جنـة وحريـرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت حسـناتهم لذنوبـهم تكفـيرا
فلـك مـن الافـلاك الا انـه حقر البـدور فاطلـع المنصورا
ابصرتـه فرأيـت ابـدع منظر ثم انثنيت بناظـري محسـورا
فظننت انـي حالـم في جنـة لمـا رأيـت الملك فيهـا كبيـرا
واذا الولائـد فتحـت ابوابـه جعلت ترحـب بالعفـاة صريـرا

غضت علـى حلقاتهن ضـراغم   فغرت بهـا أفواههـا تكبـيرا
فكانهـا لبـدت لتهصر عندهـا   من لم يكن بدخولهـا مأمـورا
تجري الخواطر مطلقـات اعنـة   فيه فتكبـو عـن مداه قصورا
بمرخـم الساحات تحسب انـه   فرش المهـا وترشح الكافـورا
ومحصب بالدر تحسـب تربـه   مسكا تضـوع نشـره وعبيرا
تستخلف الابصار منـه اذا اتى   صبحا على غسـق الظلام منيرا

قال المقري : ثم ذكر بركة فيه عليها اشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه وتفنن فذكر اسودا على حافاتها قاذفة بالميـاه ايضـا . فقـال :

وضراغـم سكنت عريـن رئاسة   تركت خرير المـاء فيـه زئيرا
فكانما غشي النضار جسومهـا   واذاب في أفواههـا البلـورا
أسـد كـان سكونهـا متحرك   في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكـرت فتكاتهـا فكانمـا   أقعت علـى ادبـارها لتثـورا
وتخالها ـ والشمس تجلو لونها ـ   نارا والسنها اللواحس نـورا
فكانما سـلت سـيوف جداول   ذابت بـلا نار فعـدن غديـرا
وكانمـا نسـج النسيم لمائـه   درعا فقـدر سـردها تقديرا
وبديعـة الثمرات تعبر نحوهـا   عيناي بحـر عجائب مسـجورا
شـجرية ذهبيـة نزعـت الـى   سـحر يؤثـر في النهى تأثـيرا
قـد صوفحت اغصانها فكانمـا   قبضـت بهن من الفضاء طيـورا
وكانما تابـى لوقـع طيرهـا   ان تسـتقل بنهضها وتطـيرا
من كل واقعة تـرى منقارهـا   مـاء كسلسـال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت   جعلت تغـرد بالميـاه صفـيرا
وكأنما في كـل غصـن فضـة   لانت . فأرسـل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج، موقع قطرها   فـوق الزبرجـد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسـنه اليك كانمـا   جعلت لها زهـر النجوم ثغـورا

ومصفح الابواب تبرا نظروا ... بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت ... تلك النهود من الجنان صدورا
خلعت عليه غلائلا موشية ... شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ... ابصرت روضا في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي ... حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعها اقلامها ... فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما الازورد فيه مخزم ... بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما • وشوا عليه ملاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا

قال المقري : ثم مدح المنصور بعد ذلك • وختم القصيدة بقوله :

يا مالك الارض الذي أضحى له ... ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور الملوك تقدمت ... واستوجبت بقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة ... منها ودمرت العدا تدميرا

قال المقري : « ولم أر لهذه القصيدة في لفظها ومعناها من نظير غير أن فيها عندي عيبا واحدا هو ختمها بلفظ التدمير » اهـ • واخترنا هذا البيت لختام هذا الفصل من أجل لفظ التدمير الذي تحقق في العمران والحضارة الحماديين كما هو الشأن في آثار كل الدول سنة الله قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا •

10 ـ العلوم والاداب

كان عصر الحماديين عصر انشاء وترقية في جميع مناحي الحياة المدنية • فضربوا في العلم والادب بسهم ، ونشطوا أهلهما بالجوائز والصلات فارتحل اليهم امثال ابن حمديس الصقلي من الادباء ، وابي

الفضل بن النحوي التوزري من العلماء وكان يشبه بابي حامد الغزالي • فغصت عواصمهم بطلاب المعارف وناشريها وكان العلماء يتناظرون في مجالس بني حماد ويؤلفون لهم الكتب • وذكر ابن الابار في التكملة ان حماد بن ابراهيم المخزومي الف كتابا في التاريخ للعزيز •

ظهر بالجزائر الحمادية العلماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والاطباء والرياضيون وغيرهم ، ظهورا لا عهد للجزائر به من قبل • وكانت لعلوم الدين المنزلة الاولى ويليها علوم العربية • وينسب الى القلعة وبجاية فما دونهما من ممالك الحماديين علماء كثيرون تجد نبذا من أخبارهم متفرقة في الدواوين • ولكي تتصور اجمالا مبلغ الحركة العلمية بهذا العصر ننقل كلمة لياقوت ذكرها لما ذكر ريغة وانها قرب القلعة • قال :

« قال ابو طاهر بن سكينة سمعت ابا محمد عبد الله بن محمد ابن يوسف الزناتي الضرير بالثغر يقول حضرت هرون بن النصر الريغي بالريغ في قراءة البخاري والموطأ وغيرهما عليه وهو يتكلم على معاني الحديث • وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ورأيته يقرأ كتاب التلقين لعبد الوهاب البغدادي في مذهب مالك من حفظه كما يقرأ الانسان فاتحة الكتاب • ويحضر عنده دوين مائة طالب لقراءة المدونة وغيرها من كتب المذهب عليه » اهـ •

ولتقدم العلوم العربية في هذا الدور ظهر من اليهود الذين دأبهم مسايرة الوسط نبغاء طار صيتهم في الآفاق وكانوا من بلغاء الكتاب العربيين •

وكانت العربية هي اللسان الرسمي للدولة • وجاء الهلاليون بلغتهم القريبة يومئذ جدا من الفصحى فنشروها بين سائر الطبقات وسهلوا على الخاصة تعلم العربية وعلى العامة تعلم دينها • ولم يبق

كبير حاجة الى التدريس او التأليف باللسان البربري في الجزائر كما كان الامر في أيام الرستميين ٠

تقهقرت البربرية من الميدان العلمي والادبي ٠ وزاحمتها العربية في المجالس العامة فاستعرب كثير من البربر ٠ ولم يبق للبربرية موطن الا جبال أوراس وتيطري وجرجرة ونحوها حيث لم يختلط البربر بالعرب ٠

والذي دعا البربر الى هذا الاستعراب والدولة دولتهم والحكومة حكومتهم ما يعتقدونه من شرف العربية وغناها وكونها لغة الدين ٠ فصاروا يتشرفون باجادة النطق بها ٠ وهكذا تأثير الاديان في رفع الفوارق الجنسية ٠

11 ـ سقوط الدولة الحمادية

في سنة 539 كانت الحرب على تلمسان بين تاشفين أمير المرابطين وعبد المؤمن بن علي أمير الموحدين ٠ واستنجد تاشفين يحي بن العزيز ٠ فامده بجيش يقوده ميمون بن حمدون ، ففتك بهذا الجيش عبد المؤمن ، وانهزم ميمون الى متيجة ٠ فبعث منها الى عبد المؤمن بالطاعة ووعده الاعانة على فتح المشرق وان يكون قائده ٠ واستمرت المكاتبة بينهما بعد ٠

تم للموحدين الاستيلاء على ممالك المرابطين فجاوروا يحي بن العزيز وهم في دورهم الاول ودور النمو وشباب القوة الحربية ، في حين ان الحماديين انغمسوا في حياة الترف ، فكان يحي مشتغلا باللهو تاركا أمور المملكة بيد وزيره ميمون ابن حمدون ٠

ولما كان هذا الوزير غادرا بدولته مواليا لعبد المؤمن آغفل

الممالك الغربية المجاورة للموحدين • وصرف عساكره الى الناحية الشرقية حيث ممالك بني باديس الذين اشتد ضعفهم • فانتصر هنالك عدة انتصارات زادت يحي بن العزيز غرورا بصدق خدمته ، وانما صدق ابن حمدون في خدمة عبد المؤمن ، فضرب دولتي صنهاجة احداهما بالاخرى توطئة لاستيلاء عبد المؤمن عليهما •

وفي سنة 46 عزم عبد المؤمن على فتح بجاية • فخرج من مراكش الى سبتة موهما انه يريد الاندلس • واوقف حركات القوافل • وجعل امناء على الطرق لئلا يسلكها احد • وغرضه كف الاخبار عن يحي ابن العزيز حتى لا يستعد له ، ثم اظهر العود الى مراكش • وسلك طرقا غير معتادة • ومنع من السؤال عن وجهته • فنادى مناديه : « ايها الناس من تكلم منكم بما معناه الى اين هذا السفر فجزاؤه السيف ! » •

وأخذ عبد المؤمن السير • فمكث بتلمسان يوماواحدا • وخرج • فملك لمدية • وبلغ الجزائر على حين غفلة • فاحتلها من غير مقاومة • وفر عاملها القائد بن العزيز الى اخيه يحي فاخبره خبر عبد المؤمن • ولم يكن له به علم • وكان بالجزائر الحسن بن علي آخر ملوك آل باديس • فسر بعبد المؤمن • فترك الجزائر تحت نظره • وسار من الغد بالجيوش الى بجاية •

جهز يحي الجيوش لنظر أخيه سبع وخائن دولته ميمون بن حمدون فلما التقوا بمقدمة الموحدين انهزموا من غير قتال • واستأمن بنو حمدون للموحدين وفتح لهم باب بجاية ابو عبد الله بن ميمون • فدخلوها في ذي القعدة سنة 47 •

تفرقت جيوش يحي برا وبحرا • وركب هو البحر يريد صقلية كي يتوجه منها الى بغداد حيث خلفاؤه العباسيون • ونزل ببونة على

أخيه الحارث فنكر عليه تسليمه العاصمة واساء مقابلته • فعدل الى قسنطينة • فنزل له عنها أخوه الحسن واحسن مقابلته •

ولحق عبد المؤمن ببجاية بعد يومين من فتحها فاجتمعت خلائق من صنهاجة لحربه • وقدموا عليهم ابا قصبة من بني زلدوي ، وانضاف اليهم خلق كثير من كتامة ولواتة وغيرهم • ولقيتهم جيوش الموحدين في عرض الجبل شرقي بجاية • فهزموا ابا قصبة وقتلوا كثيرا من أصحابه • ثم توجهوا الى القلعة • فدخلوها عنوة وقتلوا عاملها جوشن بن العزيز وثمانية عشر الفا من أهلها • وغنموا خيراتها • وتفرقت السرايا في الجهات • فحاصروا قسنطينة حتى نزل يحي على الامان وبايع لعبد المؤمن •

هنالك ركب الحرث صاحب بونة الى صقلية مستصرخا بالنرمان واجتمع العرب لدفاع عبد المؤمن • فاوقع بهم الموحدون نواحي سطيف، في صفر سنة 48 وقيعة شنعاء وجاء الحارث باسطول النرمان تحت قيادة فيليب المهدوي فحاصر بونة واعانه العرب على فتحها • فدخلها فيليب في رجب وسبى أهلها وملك ما فيها • واغضى عن طائفة من العلماء والصلحاء • فتركهم نجوا باهليهم واموالهم الى القرى • وبعد عشرة ايام سلم أمرها للحرث وركب هو الى المهدية فصقلية • فأفتى الاساقفة والقسوس والرهبان باحراقه لرفقه باولئك العلماء والصلحاء ، فاحرق في رمضان وهكذا تطبق رحمة المسيحيين !

بقي الحرث ببونة حتى استولى عليها الموحدون سنة 551 فقتلوه صبرا وانقرض ملك بني حماد • وبقيتهم بوادي بجاية ، قال ابن خلدون : « وهم في هذا العهد في عداد الجند • ولهم اقطاع على ذلك بنواحي البلد » •

تأسست الدولة الحمادية سنة 405 وسقطت سنة 547 فكانت مدتها 142 سقطت وهي أقوى ما يكون كما يموت المرء وهو في

شبابه ، وليس لهو يحي هو علة السقوط اذ لم ينشأ عنه اختلال في الدولة • ونرى لسقوطها عللا هي :

1 — خيانة ميمون ، وهي خيانة باردة لانه لا يرجو في دولة عبو المؤمن أكثر من ان يكون وزيره المفوض وقد نال ذلك مع يحي •

2 — ضعف العصبية القومية ، فقد أكلت صنهاجة الحروب ، ومالوا منذ ايام العزيز الى الترف •

3 — فقد الغيرة الوطنية من المسلمين لان كلا من الحكومتين القديمة والجديدة اسلامية ، فهم لا يتفانون في نصرة القديمة ولا يرون في الجديدة عدوا •

4 — قوة هذه الدولة الجديدة وعظمة رئيسها عبد المؤمن الذي لا يعرف التاريخ كثيرا من أمثاله في السياسة الحربية •

وبسقوط الدولة الحمادية انقرضت الدعوة العباسية من المغرب • فلم تظهر به الا ايام ابن عانية • ولم تنقطع قبل منه الا ايام بني عبيد ، ولهذا رأينا أن نرسم جدولا للخلفاء العباسيين من أول أمرهم الى انتهائه من بغداد ، وقد قسمهم ابن خلدون في هذه المدة الى اربع طبقات ، الاولى ذات النفوذ العام ، الثانية ذات النفوذ الخاص ببغداد وما قرب منها ، الثالثة ذات الخلافة الاسلامية فاقدة النفوذ ببغداد نفسها ، الرابعة المسترجعة للنفوذ ببغداد خاصة الى أن قتل التتر المستعصم سنة 656 •

الطبقة الاولى

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م	الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
عبد الله السفاح	132	750	محمد الامين ابن الرشيد	193	809
اخوه ابو جعفر المنصور	136	754	اخوه عبد الله المأمون	198	813
ابنه محمد المهدي	158	775	اخوهما محمد المعتصم	218	833
ابنه موسى الهادي	169	785	ابنه هرون الواثق	227	842
اخوه هرون الرشيد	170	786	اخوه جعفر المتوكل	232	846

الطبقـة الثانية

الخليفـة	الولاية هـ	الولاية م
محمد المنتصر ابن المتوكل	247	861
احمد المستعين ابن المعتصم	248	862
الزبير المعتز ابن المتوكل	252	866
محمد المهتدي ابن الواثق	255	869
احمد المعتمد ابن المتوكل	256	870
احمد المعتضد بن طلحة ابن المتوكل	279	892

الخليفـة	الولاية هـ	الولاية م
علي المكتفي ابن المعتضد	289	902
اخوه جعفر المقتدر	295	908
اخوهما محمد القاهر	320	932
احمد الراضي ابن المقتدر	322	934
اخوه ابراهيم المتقي	329	941

الطبقـة الثالثة

الخليفـة	الولاية هـ	الولاية م
عبد الله المستكفي بن المكتفي	333	945
الفضل المطيع ابن المقتدر	334	946
ابنه عبد الكريم الطائع	363	974
الحسن القادر بن اسحق ابن المقتدر	381	991
ابنه عبد الله القائم	422	1031

الخليفـة	الولاية هـ	الولاية م
عبد الله المقتدي بن محمد ابن القائم	467	1074
ابنه احمد المستظهر	487	1094
ابنه الفضل المسترشد	511	1118
ابنه منصور الراشد	529	1134
الحسين المقتفي ابن المستظهر	530	1135

الطبقـة الرابعة

الخليفـة	الولاية هـ	الولاية م
يوسف المستنجد ابن المقتفي	555	1160
ابنه الحسن المستضيء	566	1170
ابنه احمد الناصر	575	1179

الخليفـة	الولاية هـ	الولاية م
محمد الظاهر بن الناصر	622	1225
ابنه منصور المستنصر	623	1226
ابنه عبد الله المستعصم	640	1243
سقوط بغداد	656	1258

12 ـ العواصم الصنهاجية بالجزائر

عواصم صنهاجة بالجزائر ثلاث هن : اشير والقلعة وبجاية •

أشير بفتح فكسر •

كانت بين صنهاجة وزناتة حروب بسبب الجوار في الموطن • فلما قوي أمر زيري بن مناد في قومه ارتاد مكانا حربيا اقتصاديا يجمع بين المناعة والاشراف على مواطن زناتة وكثرة المياه وسعة الفضاء • فوقع اختياره على موضع اشير • فشرع في انشاء مدينته سنة 324 (936) وجلب البنائين من المسيلة وطبنة وغيرهما •

وهي في سفح جبل تيطري بالجنوب الشرقي من البرواقية وغربي جبل شعبة وشمال قصر البخاري قرب ثلاثاء الدوائر • وكانت الطرق تخرج منها الى سوق حمزة غربا على طريق شعبة والى متيجة شمالا على طريق لمدية والى تيهرت غربا والى مليانة على شلف شمالا غربيا والى المسيلة جنوبا شرقيا • ويوجد بين برج بوعريريج والمنصورة جبل يدعى ايضا اشير • وبه آثار مدينة عظيمة • وهنالك محطة للقطار تدعى بهذا الاسم • وقد غلط ابو راس • فظن اشير زيري هنالك اذ قال : « وهي الآن خراب غربي ارض بني مقران » اهـ • وارض بني مقران هي سهل مجانة في الشمال الغربي من برج بوعريريج •

ولما أخذ زيري بدعوة بني عبيد اذن له المنصور بن القائم في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات باشير • وطبع بها نقودهم ذهبا وفضة • وعني بها ابناؤه من بعده • فابتنوا خارجها فحوصا • واستبحر عمرانها واتسعت خطتها • فرحل اليها من البلاد القاصية التجار والعلماء •

قال ياقوت : « ومن اشير هذه الشيخ الفاضل ابو محمد عبد الله بن محمد الاشيري امام أهل الحديث والفقه والادب بحلب خاصة

وبالشام عامة • استدعاه الوزير عون الدين ابو المظفر يحي بن محمد ابن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد • وطلبه من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي • فسيره اليه • وقرأ كتاب ابن هبيرة الايضاح في شرح معاني الصحاح بحضوره • ثم سار من بغداد الى مكة ثم عاد الى الشام فمات في بقاع بعلبك سنة 561 » اهـ •

ولما أسست القلعة أخذت عمارة اشير تتراجع • وخربها يوسف ابن حماد ايام ثورته على ابن أخيه محسن • ثم عمرت حتى جاء الهلاليون • ونزل بنو حصين بسائطها • واعتزوا على الدول وصاروا موئلا لكل ثائر • فنازلتهم جيوش عبد الواد مرارا • ويظهر أن خرابها كان أثناء تلك الفتن • ولم يبق اليوم منها الا رسوم وآثار أسوار •

قال البكري : « واشير جليلة حصينة • يذكر انه ليس في تلك الاقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما • ولا يوصل الى شيء منها بقتال الا من موضع يحميه عشرة رجال • وهو في شرقيها الذي ينفذ الى عين مسعود • وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الاقدام • وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها • وداخل مدينتها عينان ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر احداهما تعرف بعين سليمان والاخرى بعين تلا تتيرغ • والذي بنى سورها بلقين بن زيري سنة 367 وخربها يوسف بن حماد واستباح أموالها وفضح حرمها وذلك بعد اربعين واربعماية ثم تراجع الناس اليها بعد خمس وخمسين » اهـ •

القلعة :

كان حماد بن بلقين بن زيري متوليا حروب زناتة لابن أخيه باديس • وكانت زناتة صعبة المراس وحول باديس منافسون لحماد • فخشي أن يتغير عنه يوما ما باديس او تحيط به زناتة • فارتاد مكانا

يفوق اشير حربيا واقتصاديا يكون له موئلا من زناتة أو باديس • فوقع اختياره على جبل كيانة • فشرع في انشـــاء القلعـــة به سنة 398 (1007م) وتم تمصيرها سنة 400 •

وجبل كيانة كان لعجيسة وهو جنوب برج بوعريريج تتصل به سهول وباعلاه حصن تاقربوست يطل منه على بحيرة الحضنة • ومكان القلعة كان يدعى قلعة ابي طويل • تقرب منه مدينة الغدير على نحو خمسة عشر ميلا في الجهة الشرقية • وكانت الطرق تخرج منها الى سائر الجهات •

وفي سنة 405 احاط حماد بجبل كيانة سورا من الحجارة يقرب ارتفاعه من ذراعين ويمتد حوله على استدارة سبعة أميال • ونقل حماد الى القلعة قبيلة جراوة من أسافل وادي ملوية وأهل المســيلة وحمزة • وشيد بها القصور والفنادق واستكثر من المساجد • فاستبحر عمرانها ورحل اليها أهل البلاد النائية من التجار وارباب الصنائع وأهل العلم • وعني بها ابناء حماد من بعده • فابتنوا حولها القصور وغرسوا الجنات واكثروا من المنتزهات • وجلبوا اليها الماء واجروه بها سواقي وجداول وفرقوا الميـــاه بالحارات والدور والمساجد في القنوات علاوة على ما بها من المآجل والصهاريج • وكان لها ابواب منها باب الجنان يخرج منه على جسر الى المسيلة ، وباب جراوة به جسر على وادي الفرج ، وباب الاقواس يفضي الى حارة جراوة •

قال البكري : « وقلعة ابي طويل قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة ، وتمصرت عند خراب القيروان انتقل اليها أكثر أهل افريقية ، وهي اليوم مقصـــد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصـــر والشام وسائر بلاد المغرب • وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة • وبها كان احتصن ابو يزيد مخلد بن كيداد » اهـ •

وقال الادريسي : « هي من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا واغزرها خيرا واوسعها اموالا واحسنها قصورا ومساكن واعمها فواكه وخصبا » اهـ .

ولما جاء الهلاليون استولوا على بسائطها ايام الناصر . فاسس فرارا منهم مدينة بجاية . ونقل هو وابناؤه كثيرا من موادها الى بجاية . فأخذت في الضعف وحرق الموحدون مساكنها ثم استولى على الجبل عياض . فخربت قلعة حماد كما خربت اشير جده زيري ولكن بلقين كان اسعد حظا من ابيه وابنه فلم تزل مدنه الثلاث عامرة وهي الجزائر ولمدية ومليانة .

بجاية : بكسر الباء وتخفيف الجيم .

بعد واقعة سبيبة سنة 457 استولى العرب على ما حول القلعة ووضعوا ايديهم على طرقها ، فرأى الناصر عاصمته مهددة بخطرهم ، ففكر في انشاء عاصمة بعيدة عنهم ، وندم على منازعته لابن عمه تميم ابن المعز ، فانفذ اليه رسولا يرغبه في الصلح ، فوافق ذلك هوى تميم ، وارسل من طرفه محمد بن البعبع لاحكام الصلح .

مر ابن البعبع في طريقه بابيات قليلة لقوم من صنهاجة يدعون بجاية . ولما بلغ الناصر اختلى به وطعن له في وزيره ابي بكر بن ابي الفتوح وفي ابن عمه تميم ورآه يفكر في أي مكان يؤسس عاصمته الجديدة فدله على مكان بجاية وزينها له بان منها يكون امتلاكه للمهدية ووعده الانتقال اليه والقيام بدولته . ثم عاد الى مرسله تميم فنم عليه ابن ابي الفتوح لتميم بما دار بينه وبين الناصر . فقتله وألحق به عاقبة الغدر .

شرع الناصر سنة 460 (1067م) في تأسيس بجاية على مقربة من مينى صلداي الفنيقية . ونقل الناس اليها واسقط الخراج عن

ساكنيها • وانتقل هو اليها سنة 61 وسماها الناصرية • ولكن غلب عليها اسم بجاية • وانما اختار مكانها لكونه في سفح جبل يحفظها من غارات الهلاليين وامامها خليج مامون يسع اسطولا ضخما يهيمن به على البحر ، وسوادها خصب •

قال صاحب الاستبصار : « ليس لبجاية طريق سهلة الا من ناحية الغرب وباقي طرقها شرقا وجنوبا على اوعار فلم يكن للعرب اليها سبيل• وكان لايدخلها منهم الا من يبعث اليه الملك الحمادي لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها • فيدخلونها افذاذا وفرسانا دون عسكر » •

« ولها داران لصناعة المراكب • ومنها تغزى بلاد الروم • ومرساها عظيمة ترسى بها سفن الروم من الشام وغيرها وسفن المسلمين من الاسكندرية طريق مصر واليمن والهند والصين وغيرها » اهـ •

قال الادريسي : « ومدينة بجاية كانت مدينة المغرب الاوسط وعين بلاد بني حماد • والسفن اليها مقلعة • وبها القوافل منحطة • والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة • والبضائع بها نافقة • وأهلها مياسير تجار ، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجانسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء والمشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة • ولها بواد ومزارع • والشعير والحنطة بها كثير • والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد •

وبهادار صناعة لانشاء الاساطيل للقتال ولانشاء السفن الحمالة والمراكب النقالة لان الخشب في أوديتها كثير • ويجلب اليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران • وبها معادن الحديد الطيب موجودة ممكنة • وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة • وعلى بعد ميل منها نهر ياتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم » اهـ •

ولم تزل بجاية في اتساع عمارة ورقي حضارة ايام الحماديين ثم الموحدين ثم الحفصيين حتى أخذها الاسبان سنة 915 ، ثم أخرجهم منها الاتراك • فضعفت لتوالي الحوادث عليها • ولولا أهميتها البحرية لكان سبيلها سبيل القلعة •

وكانت بجاية أيام عظمتها عاصمة علمية تدرس بها العلوم العقلية والنقلية على اختلاف فنونها • وقد جمع الغبريني في تراجم أهل القرن السابع فقط كتابه عنوان الدراية • وبها تعلم ليونار فبونتشي الايطالي الرياضي المهندس الشهير • تعلم بها الحساب والجبر والهندسة وفي لروس « انه ولد بمدينة بيزا حوالي سنة 571 (1175م) وقام باعمال رياضية جليلة • وهو اول من طبق عمليات الجبر على الهندسة » اهـ •

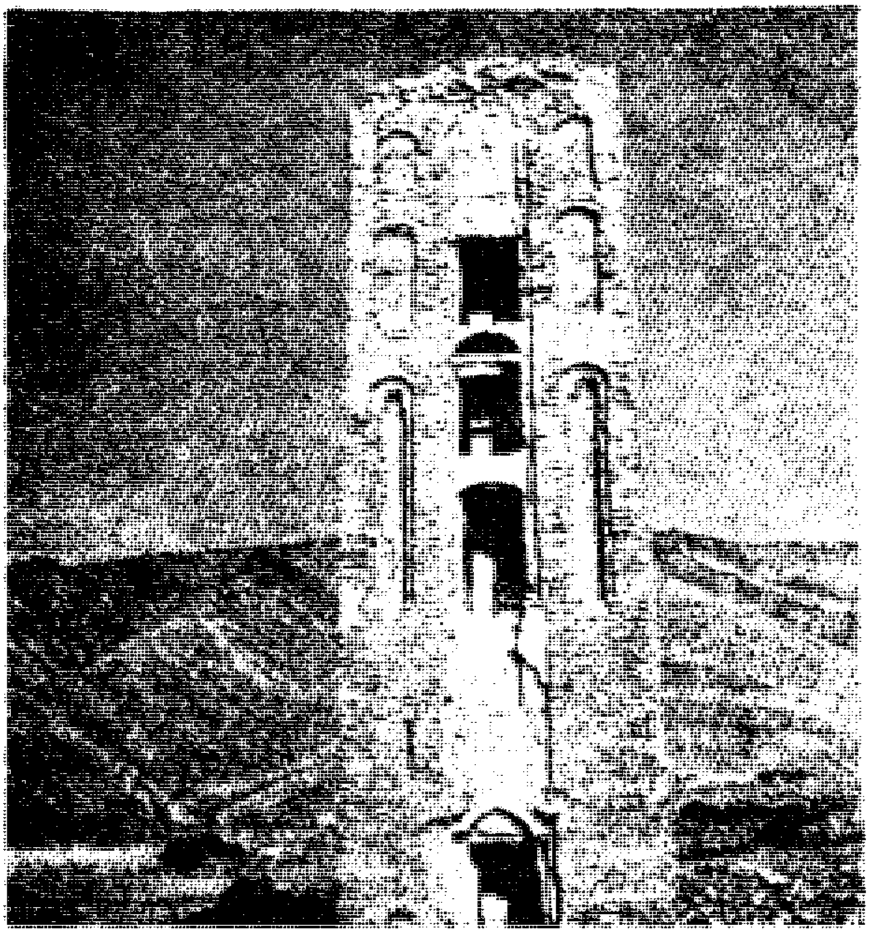

33

الفـن الديني

الاسلامي

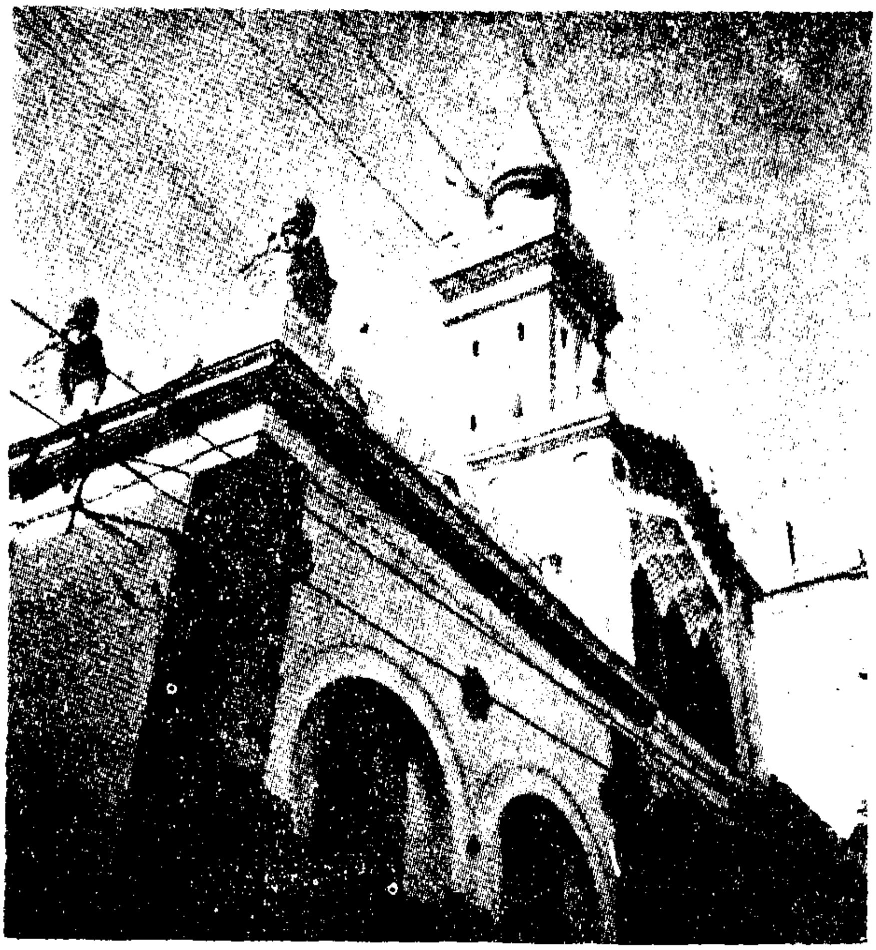

34

الفـن الديني

الاسلامي

الباب الثالث

في دولـة المرابطـين

ا ــ تمهيـــد

انتقل بنو عبيد من المهدية الى القاهرة ولم يستطيعوا توحيـــد المغرب تحت ادارتهم ، فكانت فتن بين صنهاجة العبيدية وزناتة الاموية لم تنتج اكثر من تاخر زناتة الى المغرب الاقصى وتأسيسهم فيــه دويلات مغراوية ويفرنية عاشت قرنا واقواها دولة بني زيري بن عطية بفاس ، قال ابن ابي زرع :

« وفي أيامهم عظم شأن فاس وحصنت ابوابها وزيد في جامعي القرويين والاندلس زيادة كبيرة واتســع الناس في البنــاء وكثرت الخيرات واتسع الامن والرخاء الى أن ظهر المرابطون وقد ضعفت أحوال مغراوة ونقص ملكهم وجاروا على رعيتهم ، فاخذوا أموالهم وسفكوا دماءهم وتعرضوا لحرمهم ، فانقطعت عنهــم الموارد وكثر الخوف في البلاد وغلت الاسعار ، وعدمت الاقوات في فاس واعمالها ايام الفتوح بن ذو ناس ومن بعده حتى بيعت اوقية الدقيق بدرهم » اهـ • باختصـــار •

ولم تكن حال الاندلس أحسن من حال المغرب الزناتي • فـــان البربر الذين استوطنوها ايــام بني اميــة أصبحوا يعملون للفوضى ورؤساء العرب اقتسموا ولايتها وتخاذلوا امام اعدائهم المسيحيين • فقويت شوكة الاسبان وشجعوا لابتلاع الاندلس •

أثناء هذه الظروف الحرجة ظهرت بالصحراء دولــة المرابطــين وانتشرت انباء عدلها ورفقها بالرعية • فكاتبهم علماء المغرب يستحثونهم لانقاذه من عسف زناتة • ثم راسلهم عقلاء الاندلس لصـــد غارات

الاسبان عنهم • فخرجوا من صحرائهم تلبية لصوت الواجب • واستولوا على سجلماسة سنة 447 وعلى اغمات وتادلا سنة 49 وعلى فاس سنة 62 ثم أجازوا الى الاندلس وكفوا عادية الاسبان عنها وجمعوا شملها بالقضاء على ملوك الطوائف •

أصبحت مملكة المرابطين تشمل الصحراء الى حدود السودان والمغرب الزناتي والاندلس من شرقها الى غربها • وكانت مدريد ولشبونة عاصمتا الاسبان والبرتغال اليوم من مدنهم البسيطة •

وفي سنة 454 أسس المرابطون عاصمة دولتهم مدينة مراكش على مقربة من وطنهم الصحراوي وفي سفح جبال درن وطن منافسيهم المصامدة • واتسعت خطتها باتساع المملكة وعظم عمرانها ، فلم تزل عاصمتهم حتى انقضى أمرهم •

2 — المرابطون

كان من صنهاجة اللثامية ملوك كبار بالصحراء • منهم الامير يحي بن ابراهيم القدالي : ذهب حاجا سنة 427 ولما عاد من نسكه اجتمع في القيروان بابي عمران الفاسي المالكي • وعرفه بجهل قومه ورغب منه ان يوجه معه بعض تلاميذه لبث حقائق الدين بوطنه • فكتب له ابو عمران رسالة الى تلميذه وقاق بن زلو اللمطي السوسي ليرسل بعض تلاميذه مع الامير يحي • وكان الشيخ وقاق بمدينة نفيس من أرض المصامدة يدرس العلم في رابطة له •

بلغ الامير يحي نفيس سنة 430 وسلم الرسالة للشيخ وقاق • فعرضها على تلاميذه فانتدب منهم لصحبة الامير يحي عبد الله بن يس الجزولي • وكان من حذاق الطلبة دينا فاضلا تقيا ورعا فقيها أديبا مشاركا ذا نباهة وسياسة •

رجع الامير يحي الى قومه بعبد الله بن يس • فأخذ يعلمهم الدين ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر • فثقل عليهم أمره • فهجروه • واعرضوا عن ارشاده • فعزم عبد الله على الذهاب الى السودان • ولكن الامير يحي نبذ امارته وتمسك به واشار عليه بالانعزال في ربوة يحيط بها وادي النيل • فقبل اشارته وذهب هو والامير يحي وسبعة من قدالة الى تلك الربوة • فبنوا بها رابطة للعبادة واخذ الناس يلتحقون بهم حتى اجتمع بها من اشراف صنهاجة نحو ألف رجل ففقههم عبد الله في دينهم • وسماهم المرابطين للزومهم رابطته • ثم أمرهم بالذهاب الى قومهم لانذارهم ففعلوا • ولكن لم يجدوا أذنا صاغية وقلبا رقيقا •

وفي صفر سنة 434 رفع المرابطون سلاحهم على كل مسلم لم يمتثل أوامر دينه • فحاربوا قدالة ثم لمتونة ثم مسوفة • فاستقاموا على نهج الكتاب والسنة • وتوفي الامير يحي بن ابراهيم القدالي • فخلفه الامير يحي بن عمر بن ابراهيم اللمتوني ثم أخوه أبو بكر ثم ابن عمهما امير المسلمين يوسف بن تاشفين بن ابراهيم • وهكذا تأسست دولة المرابطين •

وتوفي عبد الله بن يس شهيدا في قتال برغواطة يوم الاحد الرابع والعشرين لجمادى الاولى سنة 451 ودفن هناك • وبني عليه مسجد • وكان متحريا لاكل الحلال • وله فتاوي شاذة ونوادر تدل على شدته في الحق وحسن اعتقاد المرابطين فيه وقوة انقيادهم له • واوصاهم عند احتضاره بالاتحاد والتعاون على الحق ونبذ الخلاف والتحاسد على الرئاسة •

3 ـ المرابطون بتلمسان

في سنة 472 بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي لغزو تلمسان ،

في عشرين الفا من المرابطين • فعاث في نواحيها • ثم عاد الى أميره يوسف بمراكش •

وفي سنة 74 نهض يوسف نفسه اليها • وعسكر اليها • وأسس بمعسكره مدينة سماها تاقرارت • ومعناها المحلة • وقد أصبحت من بعد مع تلمسان مدينة واحدة واتخذها المرابطون عاصمة مملكتهم بالوطن الجزائري • وانزلوا الجند بتاقرارت •

فتح يوسف في نهضته هذه تلمسان من ايدي بني يعلي الخزريين ثم وهران وتنس وونشريس واعمال شلف • وبلغ مدينة الجزائر • ثم قفل الى مراكش • فدخلها في ربيع الاخير سنة 75 •

ولي أمارة تلمسان محمد بن تينعمر المسوفي • واجلب على مملكة بني حماد الغربية • ومات محاصرا للجزائر • فخلفه أخوه تاشفين وحارب الحماديين • ثم صالحهم يوسف بن تاشفين • وعزل تاشفين بن تينعمر بالقائد مزدلي اللمتوني • فلم يزل بها الى أن نقله أمير المسلمين علي بن يوسف الى قرطبة ، وبها توفي سنة 508 •

عادت امارة تلمسان بعد مزدلي الى مسوفة ، وكان منهم بها لاول ظهور الموحدين يحي بن اسحق الملقب انكمار ، ووقعت فتنة بين مسوفة ولمتونة ، فلحق انكمار وكثير من رجال مسوفة بعبد المؤمن بن علي قبل دخوله المغرب الاوسط ، فعادت ولاية تلمسان الى لمتونة ووليها منهم محمد بن يحي ابن فانو •

ولما فتح عبد المؤمن حصون ملوية بعث سريتين احداهما ذهبت مع الساحل الى وهران بقيادة ابن زقــو ، فقتل القائــد ، ولم تفتح وهران ، والثانية قصدت مديونة وخرج اليها ابن فانو في جنود لمتونة وزناتة ، فانخذلت زناتة ، وانهزمت لمتونة وقتل ابن فانو ، فولي بعده ابو بكر بن مزدلي وعليه انقرضت دولة المرابطين من الجزائر •

4 — حكومـة المرابطين

الدولة المرابطية مستقلة استقلالا تاما • ولكن حكومتها وهي أقوى نفوذا من خلفاء بني العباس كانت تعترف بسيادتهم • فتذكر اسماءهم في سكتها وخطبها • واستفادت من ذلك قوة أدبية لان الناس يومئذ لا يسلمون دعوى الخلافة لغير العرب •

والحكومة المرابطية مقيـدة بالكتاب والسنة لا يمضي أمراؤها وعمالها أمرا الا باستشارة شيوخ الدين وموافقتهم ، ومنذ استولى يوسف بن تاشفين على الاندلس تلقب بأمير المسلمين ، وجرى على ذلك خلفه ، ولم يتلقبوا بأمير المؤمنين لانه شعار الخلافة التي سلموها لبني العباس ، وللامير وزراء في حضرته وعمال على الجهات وقضاة بعاصمته وغيرها •

والقضاء مستقل عن الادارة كل الاستقلال ، وكان على مذهب مالك لان المرابطين ما عرفوا الدين الا على يد عبد الله بن يس المالكي ثم ملكوا الاندلس أهم ممالكهم وأهلها أيضا مالكيون ولـم تكن المالكية يومئذ عبارة عن جمود محض ووقوف عند أقوال الكاتبين في المذهب • بل هي اتباع لمالك عن بينة وبصيرة وخبرة بكتاب الله وسنة رسوله واقضية السلف •

وكانت عناية الحكومة بحفظ الاندلس من هجمات المسيحيين • ولم تشغل نفسها بمحاربة جيرانها من الدول الاسلامية بل سـالمتهم واحسنت جوارهم • فاتخذت للجهاد وحماية البلاد جيشا من لمتونة ومسوفة وغيرهم من الملثمين • وقد وصفهم البكري وهم في صحرائهم بقـوله :

« ولهم في القتال شدة وجلد ليسا لغيرهم • يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف • يقاتلون على الخيل والنجب •

وأكثر قتالهم رجالـة صفوفا ، بايدي الصف الاول القنـا الطوال المداعسة والطعان • وما يليه من الصفوف بايدهم المزاريق • يحمل الواحد منهم عدة • يزرقها فلا يكاد يخطيء ولا يشوي • ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية • فهم يقفون ما وقفت منتصبة • وان أمالها الى الارض جلسوا جميعا فكانوا أثبت من الهضاب » اهـ •

وفي سنة 64 عـزز يوسف جيشه باشتراء جملة مـن العبيـد السوداني • بلغوا نحو الفين فاركبهم فرسانا وبعث الى الاندلس في شراء العلوج فانتهى عنده منهم خمسون ومائتا فارس ، ثم استعمل ابنه علي جيشا من الروم واركبهم وقدمهم على جباية المغارم • قال صاحب الحلل الموشية : « وعلي بن يوسف اول من استعمل الروم بالمغرب » اهـ •

وكانت مالية الدولة تجمع من الجبايات الشرعية زكاة وجزيـة واخماس غنائم قال ابن ابي زرع : « ولم يجر في عمل المرابطين طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج لا في بادية ولا في حاضرة » اهـ • وقال ايضا : « جبى يوسف بن تاشفين من المال على وجهه ما لم يجبه أحد قبله • فيقال انهم وجدوا في بيت المال بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف واربعين ربعا من دنانير الذهب المطبوعة » اهـ •

وهذا شاهد بثروة الامة واقتصاد الامراء ، وقد اتفقت كلمـة المؤرخين على وصف حكومة المرابطين بالعدل واقامة الامن ، قال ابن ابي زرع :

« وكانت أيامهم ايام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، بيع القمح ايامهم اربعة اوسق بنصف مثقال ، والثمار ثمانية اوسق بنصف مثقال ، والقطاني لا تباع ولا تشترى ، كـان ذلك مصطحبا

بطول أيامهم ، وكثرت الخيرات ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة بهم ، ولم يكن قطـاع ولا مـن يقوم عليهم الى ان خـرج عليهم مهدي الموحدين سنة 515 » اهـ •

وكان أمراء المرابطين يطبعون السـكة باسمهم ، وبعـد واقعة الزلاقة جدد يوسف بن تاشفين السكة ، قال ابن ابي زرع :

« ونقش في ديناره لا اله الا الله محمد رسول الله ، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكتب في الدائرة ومن يتبع غـير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، وكتب في الصفحة الاخرى الامير عبد الله العباسي ، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته » اهـ •

5 ــ امـراء المرابطـين

تغلب أبو بكر بن عمر اللمتوني بجيوش المرابطين على اغمات ، وقتل أميرها لقـوط المغراوي • وتزوج زوجـه زينب بنت اسحق الهوارية ، أصلها من القيروان وكان أبوها تاجرا • وكانت هي امرأة حازمة لبيبه ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالامور حتى كانت تلقب السـاحرة •

وفي ذي القعدة سنة 453 عاد ابو بكر الى وطنه لاصلاح حال قومه • ففارق زينب شفقة عليها من حر الصحراء وأوصاها أن تتزوج ابن عمه يوسف بن تاشفين خليفته على المغرب • فتزوجها يوسف • واعانته بسياستها على فتح أكثر البلاد • وتوفيت سنة 464 ثم سـلم أبو بكر الامر ليوسف فاستقل بامارة المرابطين سنة 65 •

وفي سنة 67 رأى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وأعظم ملوك

الطوائف استدعاء يوسف الى الاندلس برسم الجهاد • فلامه بقية ملوك الاندلس وحذروه عاقبة مجيئه • ولكنه كان يتحقق عجزهم عن مدافعة الافـرنج والجلالقة (الصبنيول) فأجابهم بكلمته الخالدة : « رعي الجمال خير من رعي الخنازير » • وقبله قال صفوان بن امية يوم حنين : « لان يربني رجل من قريش خير من ان يربني رجل من هوازن » • وما زال ابن عباد بابن تاشفين حتى لبى دعوته سـنة 79 وكانت وقعة الزلاقة المشهورة • ثم كانت بعدها نكبته لابن عباد وسجنه باغمات حتى مات

وكان يوسف جاهلا بالعربية لا يكلم الا بترجمان ، سخيا شجاعا سياسيا حازما عادلا زاهدا لباسه الصوف وأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها وكان أسمر نحيفا معتدل القامة أكحل العينين أقنى الانف مقرون الحاجبين جعد الشعر له وفرة الى شحمة أذنيه وعاش ماية سنة • ولد بالصحراء سنة 400 وتوفي بمراكش غرة محرم سنة 500 •

وخلفه ابنه علي • وله أخوة بعضهم أكبر منه • فسلموا له الامر لان أباهم عهد به اليه سنة 96 وسار بسيرة أبيه في جميع أموره • وكان بالزهاد والعباد أشبه منه بالامراء • ومن هنات أبيه حبسه لابن عباد وقسوته عليه ، ومن هناته هو حرقه لكتاب الاحياء للغزالي لما أفتى له العلماء بذلك • وقد كان عليه أن يكلفهم بنقضه والرد عليه •

وأم علي رومية • فكان ابيض مشربا بحمرة تام القد اسـيل الوجه أفلج اقني اكحل العينين سبط الشـعر • ولد بسبتة سنة 477 وتوفي سنة 537 •

وخلفه ابنه تاشفين • وكان واليا بالاندلس • ولـه في الجهاد هنالك مقامات محمودة • ثم ظهر الموحدون فاستدعاه ابوه سنة 32 ثم عهد اليه بالامر بعده • وقضى جميع مدته في محاربة الموحدين حتى

انتهى الى وهران • فتردى في ليلة مظلمة • وألفي صباحا بجانب البحر ميتا • فاحتز رأسه وحمل الى تينملل • فعلق على شجرة وكان ترديه ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة 39 •

وكان تاشفين قد عهد الى ابنه ابراهيم • فلما بلغ نعيه مراكش وبويع ابراهيم نازعه عمه اسحق بن علي • وكانا صغيرين غير شاعرين بحراجة الحال • فاستمر الخلاف بينهما الى أن دخل الموحدون مراكش في شوال سنة 541 فقتلوهما وغيرهما مـــن المرابطين • وكان الحادث جللا •

6 ــ سقوط دولـــة المرابطين

ظهر أيام علي بـــن يوسف بجبال المصامدة محمد بن تومرت • وأعلن حربه على المرابطين • ثم توفي • فخلعه عبد المؤمن بن علي • واستولى على جهات من المغرب الاقصى قوي بها جمعه •

وفي سنة 534 خرج عبد المؤمن من تينملل عازما على استئصال دولة المرابطين وسلك طريق الجبال المانعة حيث الارزاق الواسعة • لا يخشى فيها مكروها ولا يعدم حطبا ولا ماء • وخرج تاشفين بن علي من مراكش محاذيا له في البسائط معرضا لكل خطر من هجوم وبرد ووحل وغير ذلك • يسير بسير عبد المؤمن ويقف بوقوفه ويدافع هجومه • فسئم الناس من خطته وأخذوا يتسللون لعبد المؤمن حيث لا يعدمون مرافق الحياة ، وتنازعت مسوفة مع لمتونة • فانضم كثير من قوادها وعظمائها الى عبد المؤمن •

تقدم عبد المؤمن نحو المشرق بعد وفاة علي بن يوسف وبث السرايا في عمل تلمسان • فخضعت له مديونة ، ونزع اليه بنو ومانو ،

فوفد منهم عليه وهو بالريف زيري بن ماخوخ ، وقلة بنو مكود في عودة ، ثم وفد عليه أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدر من امرائهم ، فسرح معهم عسكرا مع يوسف ابن وانو دين وابن يغمور فاثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد ، فاستصرخوا تاشفين بن علي ، فأمدهم بالعساكر معها الربرتير قائد الروم ، ونزلوا منداس ، واجتمع اليهم بنو ورسيفان وبنو توجين وبنو ينكاسن من مرين ، فكانت لهم الكرة ، واستنقذوا أموالهم ، وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه ، وتحصن الموحدون وفل ومانو بجبل سيرات ، ولحق تاشفين بن ماخوخ بعبد المؤمن صريخا فارتحل معه الى تلمسان ، ثم سيرات ، واوقع بجنود لمتونة وزناتة .

سبق تاشفين بن علي عبد المؤمن الى تلمسان ، فضبطها وعسكر بسطفسيف وهو نهر يمر بتلمسان به غلات أهلها ، ونزل عبد المؤمن بمديونة ، وأغارت سراياه على بني يستيتن وبني سنوس وبني وردروسن وبني ستلتن ، وبعث تاشفين بن علي قائده الربرتير لاعتراض غنائم السرايا . فقتل ولم ينج من عسكره الا ثلاثة من الروم وثلاثة من بني وانار وذلك عام 39 ثم نزل عبد المؤمن بين الصخرتين وهو جبل مطل على تلمسان من قبليها . فبنى به لجنوده حصنا . وأقام يقاتل تاشفين من هناك مدة شهرين .

بعث تاشفين الى الجهات مستمدا فوافته العساكر من الجهات منها عسكر بجاية . فاوقع بهم الموحدون وفرقوهم شذر مذر . واعترض تاشفين بن ماخوخ فل بجاية في قفولهم فنال منهم أعظم النيل . ولم يبق لتاشفين بن علي أمل في الانتصار فغادر تلمسان في شعبان الى وهران . وارسل الى قائد اسطوله بالاندلس محمد بن ميمون . فأتاه بعشرة أساطيل . وارسى قريبا من معسكره .

ترك عبد المؤمن جيشا لحصار تلمسان • وخرج اثر تاشفين وامامه ابو حفص عمر بن يحيى في ثمانين ساقة من الموحدين وبني ومانو • وقصد بلاد بني يلومي وغيرهم • فكانت بينهم معركة منداس • انتهت بخضوع زناتة • فلحق ابو حفص بوهران ونزل ازاء معسكر المرابطين •

ووصف صاحب الحلل الموشية معركة منداس هذه بما ملخصه :

« قال ابن اليسع حدثني غير واحد من الموحدين قالوا لما نزلنا من جبل تلمسان نريد بلاد زناتة اتبعنا المرابطون • فنزلنا بسيطا • وأدرنا به أربعة صفوف من الرجال بيد الصف الاول القنا الطوال • وبيد الثاني وهو خلف الاول الحراب والدروق • وبيد الثالث مخالي الحجارة • والصف الرابع من الرماة • والخيل وسط الدائرة • قد ترك لها فرج بالصفوف للكر والفر • فاذا هجمت خيل المرابطين رماها الصفوف بسلاحهم • واذا أدبرت خرج أثرها خيل الموحدين فتصيب منهم فاذا كر عليها المرابطون رجعت الى دائرتها • وعرف هذا اليوم بيوم منداس • فقد فيه من جيوش المرابطين ما لا يحصى • وظهر فيه أمر عبد المؤمن وكثر جمعه » اهـ •

ولما انتقلت الحرب الى وهران فشل كثير من قواد المرابطين فتفرقوا • ورأى تاشفين بن علي أنه أحيط به • وكان قد بنى حصنا على شاطىء البحر • فترك بوهران خيامه وجنوده • وصار الى الحصن ليقترب من أسطوله فينجو فيه الى الاندلس عسى أن يحفظ هناك دولته من السقوط كما فعل قبله بنو أمية • ولكن الموحدين لم لم يمهلوه • فحالوا بينه وبين أساطيله واحدقوا بالحصن وأضرموا حوله النيران كي لا يخفى عليهم شأنه • وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان — وكانت ممطرة مظلمة — خرج كي يضرب في جيش الموحدين

ويوجد الفرصة لخرق الحصار واللحاق باسطوله • فتردى به فرسه وهلك • ففر كثير من المرابطين الى تلمسان وغيرها • واستعد بعضهم للحصار بوهران ، فجهدهم العطش • ونزلوا يوم عيد الفطر على حكم عبد المؤمن ، فحكم بقتلهم ، لم ينج منهم الا واحد •

وبعد فتح وهران توجه عبد المؤمن نحو تلمسان ، فدخل اقادير ، وعفا عن أهلها ودخل تاقرارت حيث المرابطون عنوة ، فقتل رجالها وغنم أموالها • وذكر ابن اليسع ان عدد القتلى بها بلغ مائة الف أو أزيد ، وبعد سبعة أشهر من فتح تلمسان عاد عبد المؤمن الى المغرب الاقصى • فقطع منه دعوة المرابطين بفتحه مراكش سنة 41 •

وهكذا انتصر عبد المؤمن بما مهد له ابن تومرت قبل من نشر رسائل الطعن في المرابطين حتى سقطت هيبتهم ثم باحكامه خطته الحربية حيث سار بالجبال الكفيلة بحاجيات الجيش الممتنعة على العدو• وملك بذلك زمام الحرب • فصار يقاتل متى أراد القتال ويستريح متى شاء • وطاول المرابطين في هذه الحرب سبع سنوات حتى سئم جيشهم وقلق الناس مما يكون عادة لازما للحرب من اشتداد الازمات وارتفاع الاسعار •

ولقد كانت دولة المرابطين يومئذ في منتهى عظمتها وريعان شبابها • فما كانت لتسقط بهذه السرعة لولا قوة العلة التي نزلت بها وكان عنصرا علتها ابن تومرت وعبد المؤمن • وما من حركة يكون عنصراها مثل هذين الرجلين الا كان الفوز حليفها • ولكي تطمئن النفس الى سقوط هذه الدولة من غير تدريج نلخص عللها فيما يلي :

1 — دهاء ابن تومرت السياسي البارع في طرق نشر الدعوة واسقاط هيبة الحكومة المرابطية •

2 — احكام عبد المؤمن لخطته الحربية جغرافيا وسياسيا •

3 — قدم العداوة بين المصامدة والملثمين •

4 — طبيعة البربر التي تمثل الكلمة الشائعة : « لكل جديد لذة » • فنصر من نصر منهم الموحدين لا اسخط على المرابطين ومن نصر من زناتة المرابطين فانما نصروهم منافسة ومخالفة لمن كانوا مع الموحدين منهم •

5 — حدوث غلاء مقلق •

6 — اضطراب البلدان لخلوها من الحامية •

7 — اضطراب مركز القيادة العامة وتناقض أوامرها تكتب بالامر وتعقبه بضده •

8 — موت علي بن يوسف على حين شباب الفتنة •

9 — اسلام مسوفة للمتونة في وقت الحاجة والضرورة •

10— اضطرار أمير المسلمين تاشفين لقيادة الجيوش بنفسه وتعرضه للتلف •

11— تنازع ابراهيم وعمه اسحق على الامر بعد هلاك تاشفين وكلاهما صغير مضعف • ففقد المرابطون بتاشفين أميرا قويا على جمع الكلمة •

12— تفريط المتنازعين في تحصين عاصمتهم مراكش وشحنها بالاقوات • فبعد قليل من حصار الموحدين لها اضطر أهلها الى أكل الجيف والدواب • وكان معهم جيش من الروم لم يصبروا على هذه الازمة • ففتحوا للموحدين أحد أبواب المدينة • وكأنما فتحوا للمرابطين ودولتهم قبورهم •

وهكذا تفقد الامم استقلالها متى فقدت من بنيها كفؤا لجمع كلمتها ووجد من بينها خونة لا يهمهم مستقبلها ولا ينظرون لأبعد من خيال مصلحتهم الخاصة •

وكان تأسيس دولة المرابطين بالصحراء على يد عبد الله بن يس سنة 434 وثبتت قدمها بالمغرب بتأسيس مراكش سنة 454 واستقر أمرها بالجزائر منذ تأسيس تاقرارت (تلمسان الجديدة) سنة 474 •

وانتهت في الجزائر بموت تاشفين سنة 539 وبالمغرب بفتح مراكش سنة 41 ولم يحفظوا دولتهم بالصحراء لتفرق عشائرهم في الممالك الشمالية بالمغرب والاندلس • وكانت مدتهم بالجزائر خمسا وستين سنة • وكل جديد فالى بلى •

لدوا للموت وابنوا للخراب   فكلكموا يصير الى ذهاب

نقود المرابطين

12 — نقود يوسف بن تاشفين

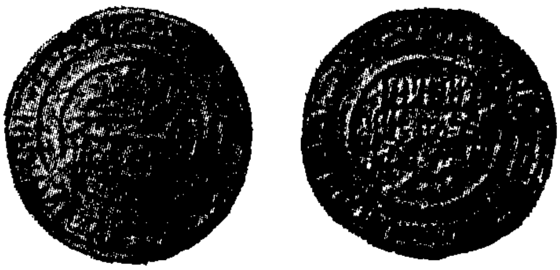

ضرب هذا الدينار بسجلماسة
سنة 480

13 — نقود علي بن يوسف بن تاشفين

ضرب هذا الدينار بتلمسان
سنة 534

14 — نقود تاشفين بن علي

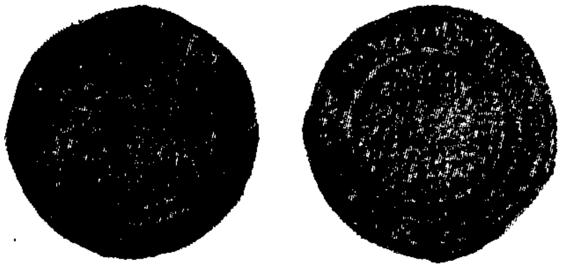

ضرب هذا الدينار بمراكش
سنة 538

15 — نقود اسحق بن علي

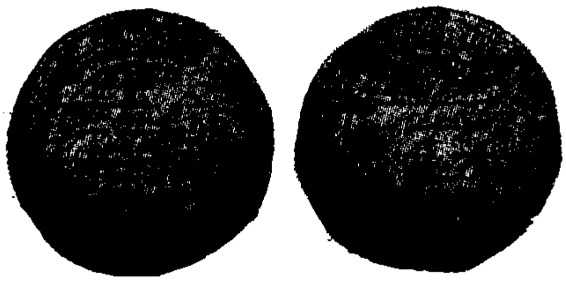

ضرب هذا الدينار بقرطبة
سنة 541

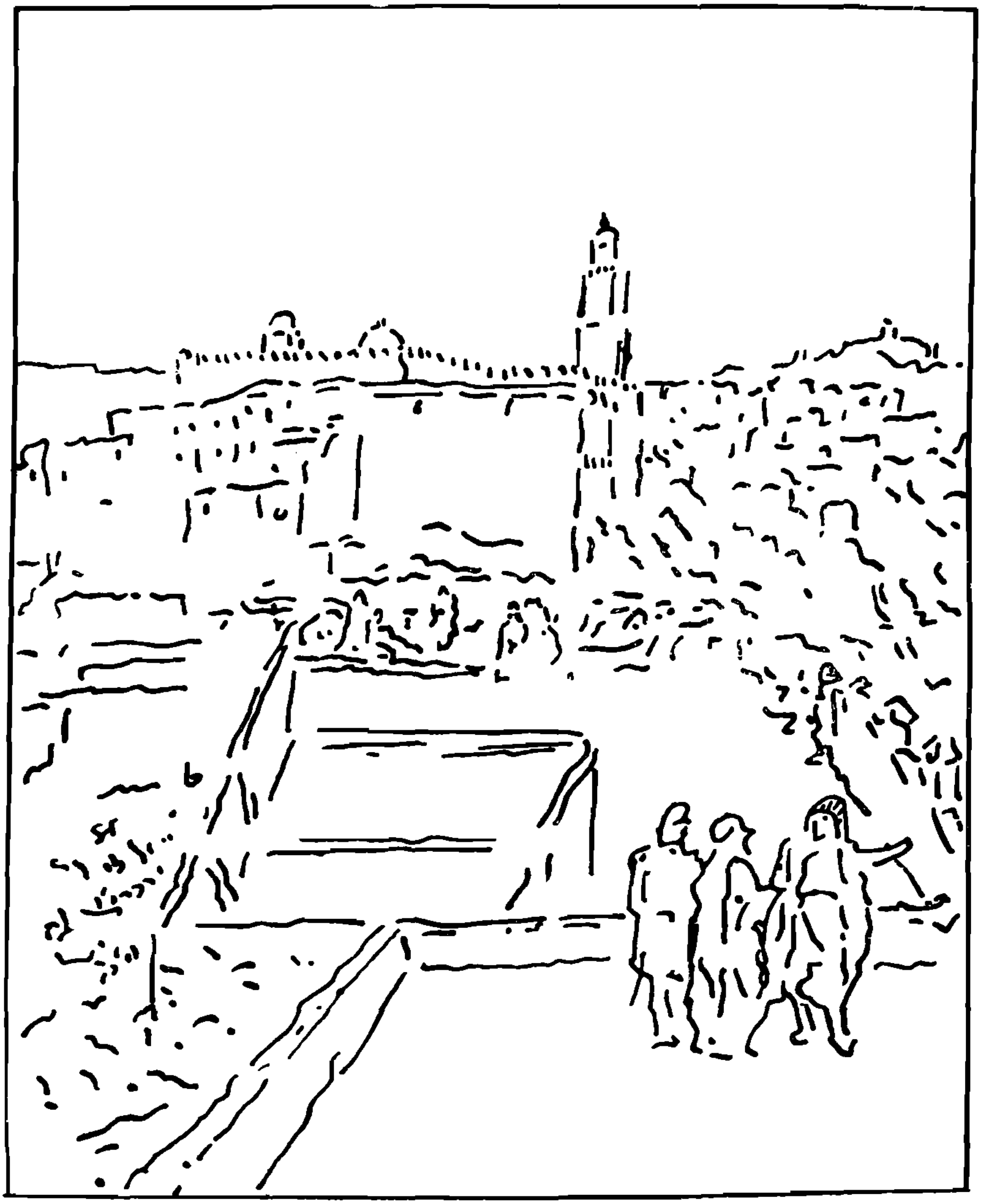

(ش36) منظر عام لجامع سيدي ابو مروان

الرسام بربروغر

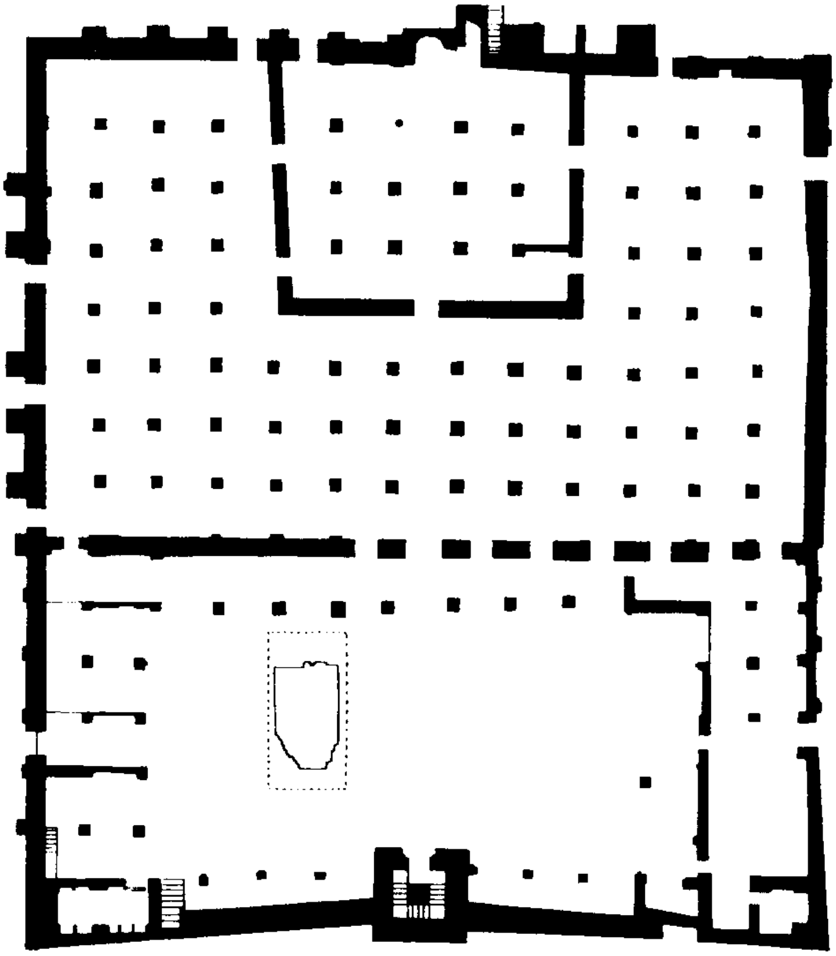

(ش37) مخطط جامع قلعة بني حماد

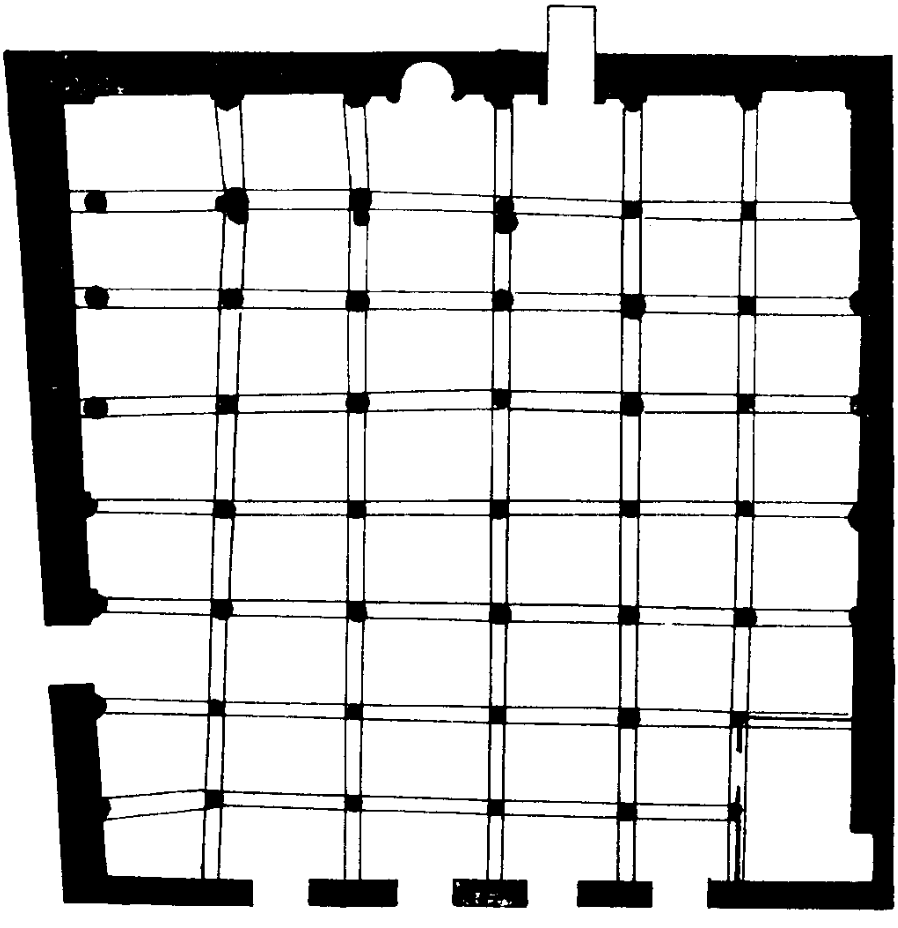

(ش38) مخطط غرفة الصلاة للجامع الكبير في قسنطينة

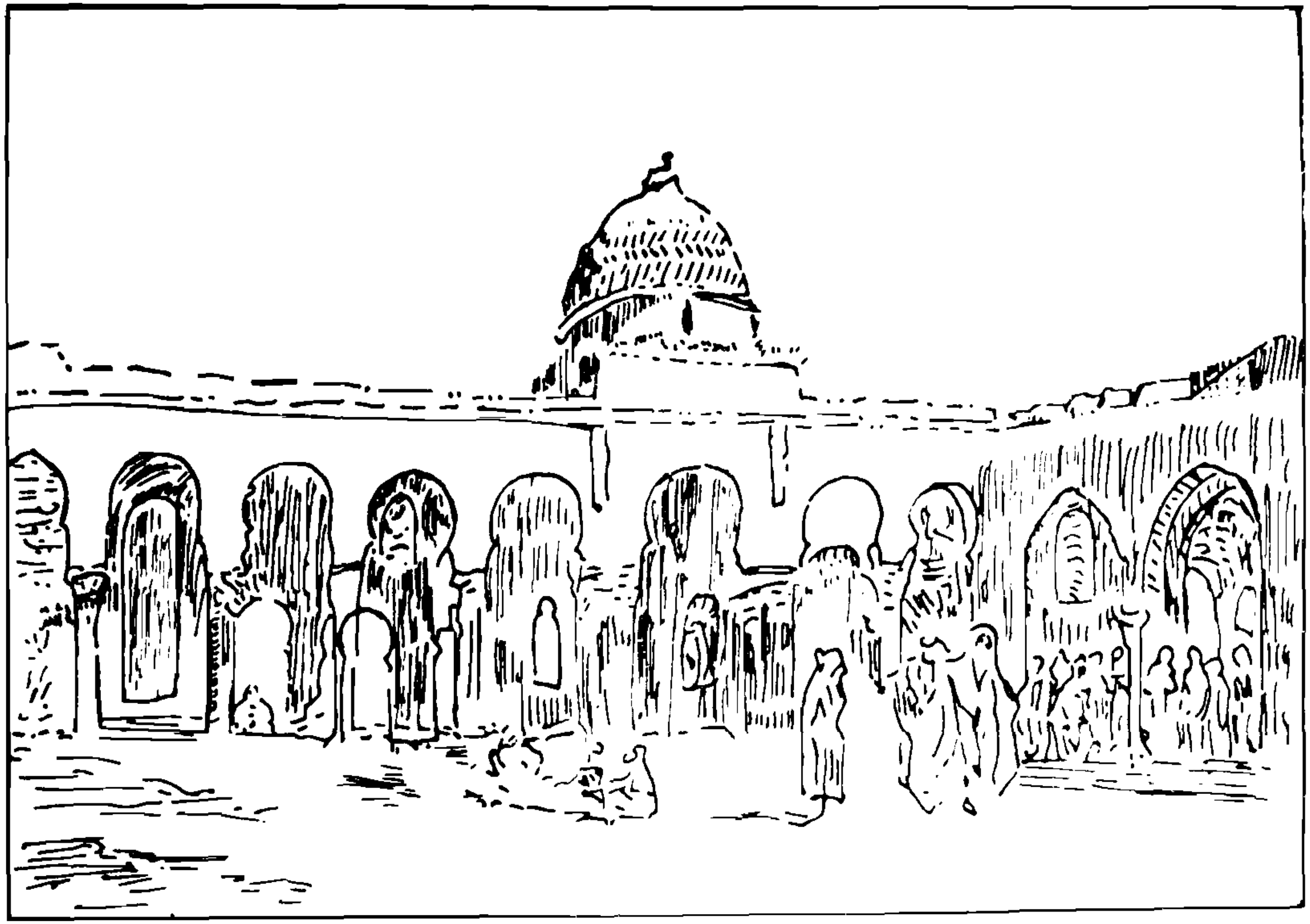

ش39 : فناء جامع سيدي ابو مروان — الرسام لوسور ووايلد

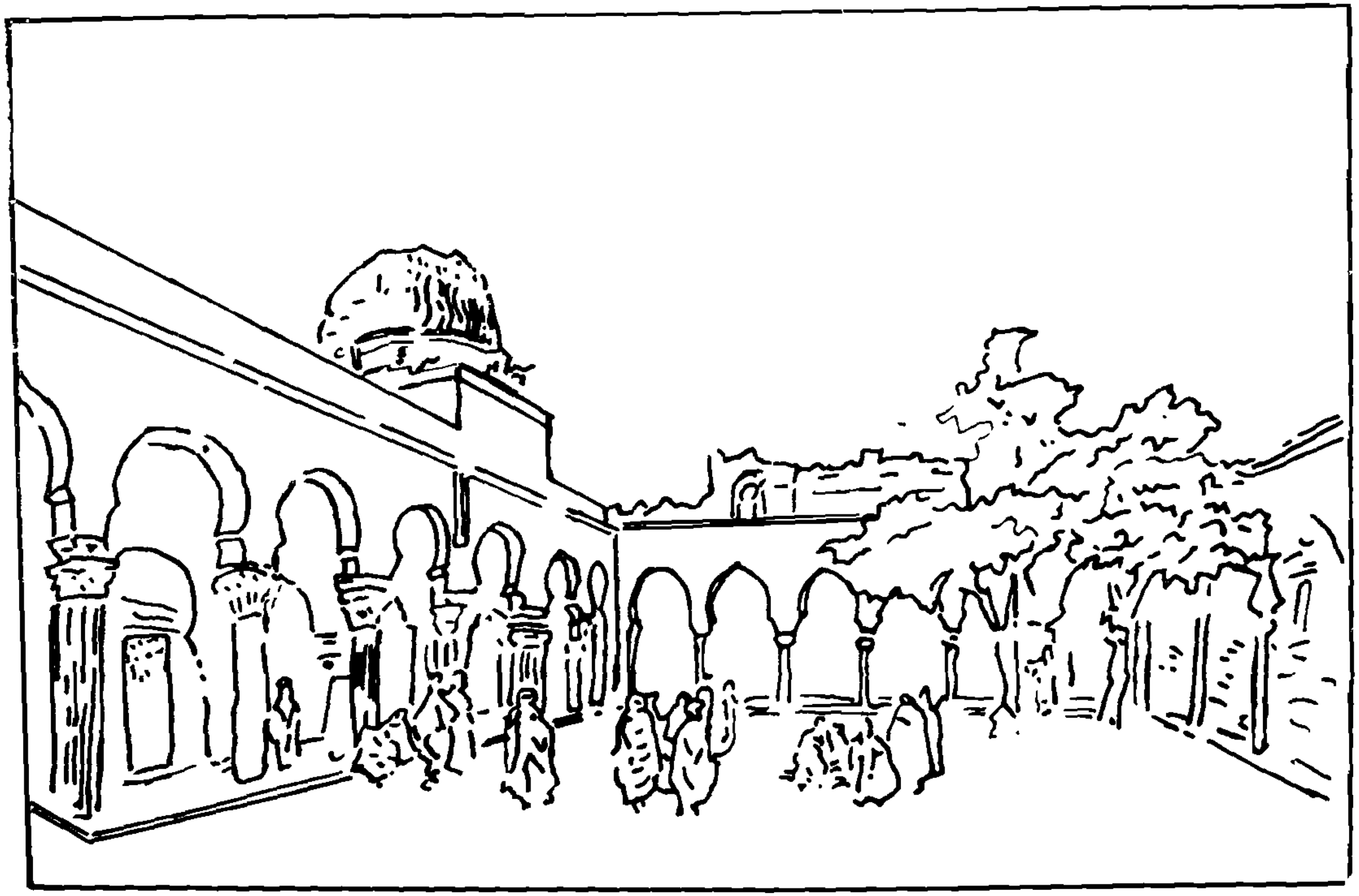

(ش40) فناء جامع سيدي أبو مروان — الرسام بربروغر

الباب الرابع

في الدولة الموحدية المومنية

ا ــ تمهيــد :

كانت الخلافة الاسلامية بالقرن الخامس لبني العباس ببغــداد وبني عبيد بمصر • وكــان خلفاء الاسرتين معا مستضعفين وقوادهم وامراؤهم عليهم مستبدين •

وكان مغرب آل زيري تعبث ببواديه العرب وتغير على سواحله سفائن النرمان ، ومغرب الملثمين في دعة وهناء لا يخشى عليه أدنى خطر داخلي أو خارجي •

وفي أواخر هذا القرن ولد بهرغة من جبال درن محمد بن عبد الله تومرت • ونشأ فقيرا طالبا للعلم • فأخذ بعض المبادىء بوطنه وارتحل سنة 500 الى الاندلس فدخل قرطبة • ثم ارتحل الى المهدية • وأخذ عن المازري ثم انتقل الى الاسكندرية ثم بغداد ، ولازم الغزالي ثلاث سنوات ، ولقي غيره من جــلة العلماء وفحول النظار فاستفاد علوما جمة ، ومهر في الحديث والاصول والجدل ، وأخذ بعقائد الاشعري واضاف اليها من عقائد الشيعة الامامية القول بالامام المعصوم •

درس ابن تومرت في رحلته هذه حالة المسلمين السياسية فعرف ضعفها ولا سيما بالمشرق ، ورأى ان الخلافة الاسلامية في خطر فحدثته نفسه ــ وكان بعيد الهمة ــ بانشاء خلافة بالمغرب تجمع شمل أهله على الاقل • وبهذه النية توجه نحو وطنه •

في غرة ربيع الاول سنة 510 قفل الى المغرب وعرج في قفوله

على العواصم العلمية والسياسية كمصر وطرابلس والمهـدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش ، وحيثما حل درس العلم وأمر بالمعروف وغير المنكر بيده ، فعرض نفسه مرارا للخطر ، ولكنه كان يحسن الخلاص ، وبهت العلماء من فصاحته ودهش الامراء من جراءته ومال اليه العامة لديانته ، فما غادر مدينة الا وترك بها سمعة واسعة وانصارا عديدين •

نزل بقسنطينة على الفقيه عبد الرحمن الميلي وغيره وببجاية في مسجد الريحانة ، وأمه ابراهيم بن محمد الميلي وغيره من الفقهاء ، ثم خشي سطوة العزيز بن المنصور ، فخـرج الى ملالة ضيعة لبني ورياغل على فرسخ من بجاية ، فأقام بها مدة ، وهنالك جمعه القدر بعبد المؤمن بن علي الكومي ، فأعجب بذكائه ، واعجب عبد المؤمن بعلمه فصحبه وخرجا فيمن معهما الى متيجة فوانشريس فتلمسان ، وبلغوا هرغة سنة 514 •

وصحب ابن تومرت من تونس ابو بكر بن علي الصنهاجي المدعو بالبيذق وكتب في كتابه أخبار المهدي عن طريقه من تونس الى هرغة نحو عشرين صفحة ، فصل فيها أخباره وحوادثه •

وكان ابن تومرت يعرف في طريقه بالفقيه السوسي وأخذ يشيع أنه الامام المهدي المنتظر ، فصار يعرف بالامام المعصوم • حتى اذا بايعه المصامدة دعي المهدي •

استهوى ابن تومرت المصامدة بمكايده وسحرهم بعذوبة لفظه فقد كان فصيحا في العربية والبربرية حتى صاروا يستغيثون به في شدائدهم ويتبركون بذكره على موائدهم ، قال ابن قنفذ في الفارسية ما ملخصه :

« داره بجبل هنتاتة يتبرك الآن بالدخول اليها ، ودخلتها انا لهذا الوجه سنة 763 وأماكـن جلوسه بالجبل معلومة لا يمـر بها راكب الا نزل » اهـ •

فصل ابن تومرت علمه وعمله بمقدار غايته السياسية فاختـار عقيدة الاشعري وهي خلاف عقائد أهل المغرب يومئذ ، ليجد سبيلا الى الطعن في عقائدهم ، وأشهر ذكره بانتحاله تغيير المنكر في طريقه • وانتسب في آل البيت واعتقد عصمة الامام ليمهد لدعواه انه المهدي المنتظر • وتظاهر بالزهد والصلاح كي تقبل العامة مكائده وحيله باسم الكرامات •

درس ابن تومرت بمصموده وألف ونشر الدعاة لبيعته فبويع في رمضان سنة 515 تحت شجرة خرنوب بعدما خطب في الناس وذكر المهدي وانه يظهر من المغرب الاقصى وان نسبه كنسبه واسمه كاسمه وفعله كفعله وعرف الناس بما يكون عليهم في القيام بدعوته من الارزاء والمحن • فالتزموا ذلك • وسماهم الموحدين وكفر المرابطين ولقبهم المجسمين وحاربهم بسيفه وقلمه ، حتى توفي على ما حققه ابن أبي زرع وغيره فيما رمضان سنة 24 وكانت ولادته سنة 471 وقيل 84 وقيل 86 وقيل 91 ولم يترك خلفا لانه لم يتزوج وله تآليف لطيفة جمع بعضها وطبع بالجزائر سنة 1321 هـ وجمع البيدق بعض رسائله طبعت مع كتابه أخبار المهدي • واستيعاب أخبار ابن تومرت ودرسها بصفة فنية يستدعي تآليف مستقلة • فانه قد احدث انقلابا عاما بالمغرب في السياسة والعلم والدين ولم يكن كسائر الانقلابات البربرية الناشئة من أسباب قومية ومنافسات بين القبائل القوية • ولا نتيجة لهـا غير سقوط دولة وقيام أخرى •

ودولة الموحدين تشبه دولة المرابطين من حيث ابتناؤهما على دعوة

دينية • ولكن الفرق بينهما كالفرق بين مؤسسيهما عبد الله بن ويس وابن تومرت فلم يكن عبد الله بن ويس في علم ابن تومرت ولا دهائه ولكن كان أطهر منه عقيدة وأصفى سريرة • ولم تكن دولة المرابطين في قوة دولة الموحدين ولا حسن ادارتها ولا اتساع معارفها ولكن كانت أعف عن الدماء وارفق بالرعية •

2 ـــ تأسيس الدولة الموحدية المؤمنية

ابن تومرت هو مؤسس هذه الدولة وكان يؤثر من اتباعه عشرة ويقرب من بينهم عبد المؤمن بن علي الكومي • فلما توفي قدم العشرة من بينهم ابا علي عمر الصنهاجي • وبعد أيام سلمها لعبد المؤمن قائلا أنه الذي أشار به المهدي • فبايعوه سرا • وكتموا موت المهدي عن العامة وموهوا عليهم بانه مريض وصار عبد المؤمن يتقدم اليهم بالاوامر على لسان المهدي حتى ركنوا اليه فأعلنوا بيعته للعامة سنة 26 واختاروه لغربته فيهم فهو أقرب الى العدل •

حكى ابن أبي زرع انه لما مات المهدي تشوق كل واحد من العشرة الى الخلافة ، وكانوا من قبائل شتى ، فتنافسوا وتحاسدوا ثم تآمروا • وخافوا افتراق الكلمة فاتفقوا على عبد المؤمن لكونه غريبا بينهم مع ما كانوا يرونه من ميل المهدي اليه اهـ •

أخذ عبد المؤمن في فتح المغرب • ففتحه في ثلاث كرات :

الاولى فتح فيها مغرب المرابطين وأقام محاربا لهم سبع سنوات ومسكنه الجبال وطاولهم هذه المدة كلها ليحفظ بها قوة رجاله ويضعف الدولة بكثرة النفقات وقلة ما تقبضه من المغارم حتى تختل طاعة الجند وتسأم الرعية ، وذلك ما وقع •

الثانية فتح فيها بجاية • ولم يعلن عليها الحرب ولا طاولها بل استعان عليها بالدسائس ولم يتريث في السير اليها ، ولولا ذلك ما نجح في فتحها ذلك النجاح •

الثالثة فتح فيها المهدية استعد افتحها ثلاث سنوات حفر فيها الآبار على طول الطريق وأمر بحفظ الزرع في سنابله وخرج اليها في صفر سنة 54 في جيوش جرارة واساطيل محاذية له بحرا ، وسار سيرا في غاية النظام وكمال العدة . ولم يسرع في سيره فبلغ تونس أواخر جمادى الثانية ، فاحتلها وتقدم الى المهدية ، فحاصرها حتى فتحها يوم عاشوراء سنة 555 وانما سلك في فتحه المهدية غير مسلكيه في فتح بجاية وحرب المرابطين لانه ليس بافريقية يومئذ دولة فاشتد أذى النرمان للمسلمين • ووفد عليه جمع منهم بمراكش يستنصرونه . فوعدهم النصرة ولكن تريث في تنفيذ وعده كي تقوى في الناس الغيرة الدينية بما يتكرر عليهم من معرات العدو ويستيقنوا ان لا ناصر لهم غير عبد المؤمن فلا يعترضون سبيله يوما ما ، ولكي يجمع هو قوته فيدهش بها القبائل التي يمر بها عربية وبربرية فلا تحدث نفسها بالثورة عليه • وذلك ما وقع ، فقد كان الناس ينضمون الى جيشه حيثما حل ففي كل مرحلة يزداد جمعه ،وما فتح المهدية وطرد النرمان حتى أتاه رؤساء المدن طائعين •

وهكذا تم لعبد المؤمن فتح المغرب • ودخلت في طاعته جزيرة الاندلس فكانت مملكته تنتهي شرقا الى التراب المصري شرقي طرابلس حيث سويقه بني مضكود ، وغربا الى البحر المحيط ، وجنوبا الى الصحراء وشمالا الى البحر الابيض وتجاوزه الى الاندلس فشملها من الجزائر الشرقية الى أشبونة •

وقد استعد عبد المؤمن لاخراج الامر من المصامدة الى قبيلته

وبنيه فجمع ثلاث آلاف ولد كأنهم أبناء ليلة واحدة جمعهم من المصادمة وغيرهم • وأخذهم بحفظ كتاب الله وحفظ الموطا وكتاب ابن تومرت ورباهم على ركوب الخيـل والرمي والسباحة ببحيرة صنعها خارج بستانه بمراكش • وكانت نفقتهم وخيلهم من عنده • فلما أكمل تأديبهم على ما أراد عزل بهم أشياخ الموحدين • وقال لهم العلماء أولى منكم • فسلموا لهم الامر • وظهر من ابنائه ثلاثة عشر ولدا على تلك الصفات • فأشار عليه أشياخ الموحدين بتقديمهم للاعمال • فتظاهر بالامتناع حتى ألحوا عليه فولاهم على الاقاليم • وذلك سنة 549 وفيها عهد بالامر من بعده لابنه محمد بعد ما دس الى رؤساء من العرب كان قد أحسن اليهم ان يطلبوا منه ولاية العهد لاحد أبنائه • وكان ولي عهده أبا حفص عمر الهنتاني جد الحفصيين • فلما طلبوا منـه ذلك أنكر عليهم • وشعر ابو حفص بسر القضية • فخشي على نفسه وخلعها من ولاية العهد • وفيها ثار عليه عبد العزيز وعيسى اخوا المهدي لما رأياه من تقديم أبنائه • وكان هو بسلا وهما بفاس • فلحقا بمراكش • ودخلاها وقتلا نائبه بها • فارسل أثرهما وتوجه نحو مراكش • فقتلا وقتل كل من شاركهم في الثورة •

وفي سنة 557 قدم على عبد المؤمن قومه كومية في أربعين الف فارس • وكان هو الذي استقدمهم ثم تجاهل سبب قدومهم تسكينا للمصامدة وتمويها عليهم وقرب موته عزل ابنه محمدا من ولاية العهد • وجعلها لابنه يوسف فلما مات لم يبايع يوسف ابو حفص الهنتاني الى سنة 563 ويومئذ تلقب يوسف بأمير المؤمنين لما تم له الامر بمبايعة أبي حفص •

وهكذا تأسست دولة الموحدين واخرج عبد المؤمن الامر من شيوخ مصمودة الى ابنائه وكانت عاصمتهم مراكش ولم يعرف المغرب

قبل عبد المؤمن وبنيه ولا بعدهم دولة أحسن ادارة ولا أرقى معارف وحضارة من دولتهم •

3 ــ الحكومة الموحدية المؤمنية

الدولة الموحدية المؤمنية مستقلة استقلالا تاما • وهي أول دولة بربرية غير خارجية ادعت الخلافة • وكانت أهلا لها اذ لم يكن بنو العباس ولا بنو عبيد يومئذ شيئا مذكورا • وتوسلوا اها من حيث النسب بدعوى ابن تومرت النسب في آل البيت وانتساب عبد المؤمن الى قيس بن مضر وتعلقه بآل البيت من جهة بعض جداته •

وحكومتها مقيدة بالكتاب والسنة مـن غير انتماء الى مذهب خاص • ورئيسـها خليفة يدعى أمير المؤمنين ومنهم من تلقب بالالقاب كالمنصور والناصر • وكان الخليفة يعين بالعهد اليه من سلفه • ثم سار أيام انحطاط الدولة يدعي الخلافة دعوى ويتغلب عليها بالقوة • ولكنها انحصرت في بني عبد المؤمن على كل حال •

ويساعد الخليفة ولاة بالاعمال الواسعة ووزراء مختلفو النفوذ وكتاب متفاوتو الدرجات حسـب مهماتهم وللخليفة وولاته مجالس شورية يلقب أهلها الشيوخ من أهل العلم والدين ولا يكونون من غير الموحدين • وقد أخذت الحكومة أنظمتها الادارية من دولتي صنهاجة وزادتها اتقانا ودقة •

والقضاء يختار له العلماء المجتهدون وأماثل المقلدين للامامين مالك والشافعي وهو مستقل عن الادارة • والناس أمامه سواء لا فرق بين أمير وسوقة •

والمالية تجمع من الزكوات وخراج الاراضي الدولية واخماس الغنائم ليس فيها مكس ولا جور قال ابن ابي زرع :

« أمر عبد المؤمن بعد فتح المهدية بتكسير الارض فكسرت من برقة الى نول من بلاد السوس الاقصى بالفراسخ والاميال طولا وعرضا فاسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والانهار والسباخ والطرقات والخروق • وقسط الخراج على ما بقي وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق • وهو أول من أحدث ذلك في المغرب » اهـ •

وكانت المالية وافية بمصارف الدولة من انشاء البنايات العامة كدور الحكومة والمساجد والقناطر والمستشفيات ، ومن عطاء الجنود والموظفين وجوائز الشعراء والعلماء •

وللحكومة جيش من الموحدين ومرتزقة العرب والبربر عدا ماهو مفروض على القبائل من الجنود ، ويبلغ ايام الحرب اربعمائة ألف فارس عدا المشاة ، وبلغ جيش الناصر الذي خرج بـه الى الاندلس مليون من الفرسان والمشاة من سائر الاقسام العسكرية غير المرتزقة •

ولها أسطول ورثته من صنهاجة وزادت فيه وعنيت بصنع الاسلحة والمجانيق والرعادات وانشأ عبد المؤمن سنة 557 اربعمائة قطعة فرقها على سواحل المغرب والاندلس • وكان يضرب له كل يوم عشرة قناطير من السهام •

وللجيش طبول ورايات • فاذا أريد النفير ضرب كبر مستدير الشكل دوره خمس عشرة ذراعا من خشب أخضر اللون مذهب • يضرب فيه ثلاث ضربات فيرتحل الناس • يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع • يتقدم الامير نحو مائة فارس ويأتي وراءه مدبرو دولته ثم بقية الناس حسب مراتبهم • ويصحب الجيش الصناع وأصحاب الحرف وكل ما يحتاج اليه في السفر حتى كأنهم مقيمون •

ومرتبة الموحدين في الجيش ومناصب الحكومة أعلى الرتب •

وهم أنفسهم درجات لا يتعدى صنف مرتبته سفرا وحضرا • وذكر صاحب المعجب القبائل التي تلقب بالموحدين ورتبهم حسب درجاتهم هكذا : هرغة ثم كومية ثم أهل تينمل ثم هنتاتة ثم قنقيسة ثم قدميوة ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض بطون هسكورة ، قال :

« فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث • وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية » اهـ •

وانما خصت هذه القبائل باسم الموحدين لكونها لبت الدعوة قبل فتح مراكش ، ورتبوا في الدرجات حسب ترتبهم في اجابة الدعوة •

وكانت الحكومة حافظة لممالكها حامية لثغورها تعاهد من سالمها وتحارب من حاربها لا تنقض عهدا ولا تخلف وعدا ، ارتبطت مع جمهورية جنوة بمعاهدة تجارية ، واختلف حالها مع ملوك المسيحية بالاندلس سلما وحربا ، يعاهدونها اذا ضعفوا وان وجدوا فرصة نقضوا العهد ، وكانت مسالمة لاصحاب صقلية ، قال صاحب المعجب :

« كان صاحب صقلية يؤدي اتاوة لابي يعقوب ، واتصلت اليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثلها » اهـ •

وكانت الحالة الداخلية على غاية من الاطمئنان ، فكثرت الاموال وتأمنت الطرق وصلح أمر الناس في البادية والحاضرة وعم الامن والرخاء وكانت الظعينة تخرج من بلاد نول الى برقة وحدها لا ترى في سفرها ما يؤذيها ، كل هذا بعدل بني عبد المؤمن وحسن سياستهم •

وبعد الناصر ولي ابنه المنتصر صبيا ، فتحكم في الدولة الحاشية ،

واختلت الدولة حتى ظهرت زناتة على مرسح السياسة وطمع الحفصيون في عرش بني عبد المؤمن ، فتغيرت الاحوال بما أدى الى سقوط هذه الدولة •

وكانت الدولة سكتها دنانير ودراهم وانصاف درهم وارباعه واثمانه والخراريب ، والدرهم المؤمني نصف درهم الزكاة ، وكان مربعا ، يكتب على السكة اسم المهدي حتى ولي المأمون بن المنصور ودخل مراكش سنة 627 فدور الدرهم وقطع منه اسم المهدي •

4 ـ عبد المؤمن وبنوه

كان عبد المؤمن وبنوه أهل علم وأدب ولهم عناية بالجهاد • قد صرفوا قواهم لحماية الاندلس حتى ان المنصور لما حضرته الوفاة جمع بنيه والموحدين وقال لهم : « اوصيكم بالايتام واليتيمة ؟ قيل له وما الايتام واليتيمة ؟ قال اليتيمة الاندلس والايتام أهلها • انه ليس في نفوسنا شيء أعظم من همها ، ولو مد الله في أجلنا لم تتوان في جهاد كفارها حتى نعيدها دار اسلام • فاياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد اسوار وحماية ثور وتربية الاجناد وتوفير الرعية » •

وكانت العلامة السلطانية عندهم « الحمد لله وحده » يكتبها الخليفة بيده بخط غليظ في رأس الرسالة أو المنشور • وفي ذلك تقول حفصة الاندلسية تخاطب عبد المؤمن :

يا سيد الناس يا من ... يؤمل الناس رفده
امنن علي بطرس ... يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه ... « الحمد لله وحده »

وكان بنو عبد المؤمن يعرفون بالسادة لا ينعت بالسيد لعهدهم سواهم •

ولد عبدالمؤمن بقرية تاقرا من ساحل تلمسان على ثلاثة أميال من مرسى هنين سنة 487 • وكان والده علي فخارا يعمل النوافيخ ، وقيل كان قاضيا • وليس لقبيلته كومية شأن • ونشأ هو فقيرا طالبا للعلم فارتحل الى بجاية • فاتفق أن كان ابن تومرت قد أخرج منها الى ملالة ، ووجد له ذكرا . فقصده • والفى بغيته لديه فصحبه واستفاد علمه ثم استغل جهوده في تأسيس هذه الدولة •

وكان عبد المؤمن أبيض مشربا بحمرة تام القد اجعد تبلغ وفرته شحمة أذنيه أكحل العينين أزج الحاجبين قويم الانف عريضه فصيحا فقيها جدليا أصوليا محدثا اماما في النحو والادب والقراءة ذاكـــرا للتاريخ وايام الناس مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية حازما سياسيا مقداما سري الهمة حسن السيرة سخيا مقربا لاهل العلم والادب منفقا لبضاعتهم •

وتوفي عبد المؤمن وترك ستة عشر ذكرا وبنتين • فخلفه منهم أبو يعقوب يوسف • وسار بسيرة ابيه • وأجاز الى الاندلس مجاهدا • وتوفي بها شهيدا • وعني بالعمران وبناء القناطر والمساجد والمستشفيات• وكان له أطباء وفقهاء يجالسونه •

وكان يشبه أباه خلقا وخلقا عاقلا ورعا مباشرا أمور المملكـــة بنفسه • وكان من كتابه أبو الفضل بن طاهر البجائي من أهل العلم والفضل والدين والتقى كان كاتبا بليغا مترسلا • وكتب بعده للمنصور ثم الناصر •

وترك أبو يعقوب ثمانيةعشر ذكرا • خلفه منهم يعقوب المنصور • أقام العدل وارجع الولاة والعمال الى أحكام القضاة • وكانت لـــه بالاندلس وقعة الأراك على النصارى سنة 591 وكان كأبيه وجده علما ودينا وسياسة كثير التواضع يشهد جنائز الفقهاء والصلحاء •

وترك من الذكور اربعة عشر • ولي الخلافة منهم ثلاثة الناصر والعادل والمأمون وخلفه منهم محمد الناصر أمه بنت أبي اسحق بن الخليفة عبد المؤمن ، وفي أيامه عظم أمر ابن غانية بافريقية ، فولي عليها أبا محمد عبد الواحد بن ابي حفص ، وكان ذلك مبتدأ الدولة الحفصية ، ثم كانت عليه واقعة العقاب بالاندلس سنة 609 وكان غليظ الحجاب لا تكاد تصله الامور ، وذلك سبب ضعف الدولة •

وعهد الى ابنه يوسف المنتصر ، فخلفه وهو دون البلوغ ، وقام بالدولة الحاشية من الموحدين ، واوقعوا بني عبد المؤمن في فتنة التنافس على الملك وصاروا لهم كالاتراك لبني العباس ، ولم يخرج المنتصر من مراكش حتى توفي • وقد ظهرت زناتة على مرسح السياسة •

وخلفه أخو جده عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، قدمه الموحدون على كراهية منه لكبر سنه وظهور الاستبداد على الخليفة ، وكان صالحا فاضلا ورعا ولم يستقم له الامر غير شهرين ، وقام عليه العادل ابن أخيه • فخلع وقتل ، وكان أول مخلوع ومقتول في هذه الدولة •

وأبو محمد عبد الله العادل هو ابن المنصور ، تغلب على الخلافة ثم قتله الموحدون وبايعوا ابن أخيه يحي المعتصم ابن الناصر ، واضطربت أموره لصغره واختلال الدولة ، فانتقل الى تينملل سنة 26 فدخل عمه المأمون مراكش سنة 27 وبقي يحي بتينملل محاربا للمأمون وابنه الرشيد حتى قتل سنة 633 •

تغلب على مراكش ابو العلاء ادريس المأمون بن المنصور ، وأعلن لعن المهدي ، وقتل كثيرا من شيوخ الموحدين العابثين بالخلافة ، وسعى في اصلاح الدولة ، ولكن عاجلته المنية فمات ولم يحقق أمنيته •

وخلفه ابنه ابو محمد عبد الواحد الرشيد وهو في سن الرابعة عشرة • فكانت خلافته قوة لمنافسي دولته ، ولما مات خلفه أخوه أبو الحسن علي الملقب بالسعيد وبالمعتصم ، وكان بطلا مقداما بعيد الهمة ، لكنه جاء بعد استفحال الداء ، وقتل في حربه مع يغمراسن ابن زيان •

وخلفه ابو حفص عمر المرتضى بن اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقتله ابن عمه ابو دبوس ادريس الواثق بن ابي عبد الله ابن عمر بن عبد المؤمن ، واستولى مكانه حتى دخل عليه بنو مرين وقتلوه في المحرم سنة 668 •

وبه انقرض أمر بني عبد المؤمن رغم محاولتهم لارجاع سلطانهم ، فقد فر الموحدون من مراكش الى جبل تينملل وبايعوا اسحق أخا المرتضى ، فقبض عليه سنة 674 وجيء به الى يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ، فقتل في جملة من ابنائه وذوي قرابته ، وفي سنة 705 ظهر بافريقية عثمان بن ابي دبوس كان بطرابلس ، فاستقدمه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب من سليم ، وبايعه واجلب به الى تونس ، فقبض عليهما وأودعا السجن ، وفي آخر سنة 748 بايع العرب أحمد بن عثمان بن ابي دبوس وكان خياطا بتوزر ، واجلبوا به على تونس ، ثم خذلوه سنة 49 وسلموه لابي الحسن المريني المستولي يومئذ على تونس فاعتقله • وانقطع أمل بني عبد المؤمن في احياء دولتهم •

عبد المؤمن وبنوه

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
عبد المؤمن بن علي	524	1130
ابنه يوسف	558	1163
ابنه يعقوب المنصور	580	1184
ابنه محمد الناصر	595	1199
ابنه يوسف المنتصر	610	1213
عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن	620	1224
عبدالله العادل بن المنصور	621	1224

الخليفة	الولاية هـ	الولاية م
يحي المعتصم ابن الناصر	624	1227
ادريس المأمون ابن المنصور	627	1230
ابنه عبد الواحد الرشيد	630	1232
اخوه علي السعيد	640	1242
عمر المرتضى بن اسحق	646	1248
ادريس الواثق	665	1266
سقوط الدولة	668	1269

نقود الدولة المؤمنية

16— نقود عبد المؤمن بن علي

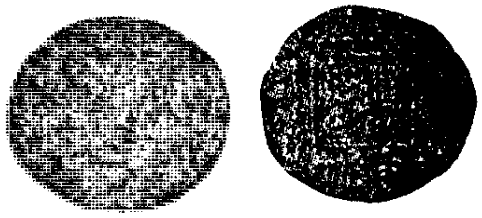

18 — نقود يعقوب المنصور

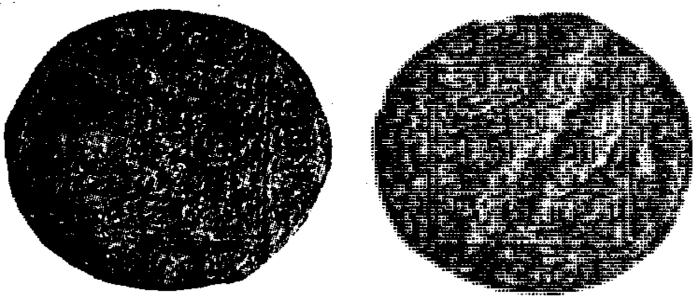

17— نقود يوسف بن عبد المؤمن

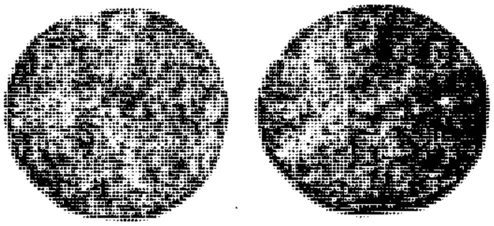

ضرب ببجاية

19— نقود عمر المرتضى

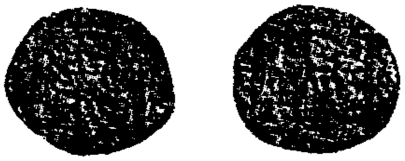

5 ـ ولاة الجزائر المؤمنية

كانت الجزائر المؤمنية مقسمة الى ولايتين كبيرتين : ولاية تلمسان من ملوية غربا الى نهر مينة شرقا ، وولاية بجاية الى حدود عمالة قسنطينة اليوم شرقا فقد ذكر صاحب المعجب من مدنها قالمة بلفظ قالم تحريفا • وفتحت مدينة الكاف في غزوة المهدية • فيظهر انها تابعة لولاية تونس وربما تبع الزاب ولاية تونس وكان للولاة وزراء وكتاب ومجالس شورى من شيوخ الموحدين •

ولي تلمسان لما فتحت سليمان بن محمد وانودين الهنتاني وقيل عمه يوسف وولي بجاية لما فتحت طلبة من الموحدين ، وفي سنة 49 بعث عبد المؤمن على تلمسان ابنه ابا حفص عمر واستوزر له ابا محمد عبد الحق بن وانودين ، واستكتب له أبا الحسن عبد الملك ابن عياش القرطبي ، وبعث على بجاية ابنه ابا محمد عبد الله واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن ، واستكتب له آبا العباس بن مضاء •

ولما ولي الخليفة يوسف امتنع من بيعته أخوه عبد الله ببجاية ، ثم أتاه مبايعا سنة 59 فعفا عنه ووصله واحسن اليه ، ثم مات •

وفي سنة 61 ولى الخليفة يوسف أخاه زكرياء ببجاية ، وأمره بتفقد أحوال افريقية ورفع مظالمها وقطع طغاتها ، وتوفي بالطاعون في مراكش سنة 71 •

وفي سنة 76 ولى يوسف على بجاية أخاه ابا موسى عيسى ، ثم ولى بعده ابن أخيه السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، فلم يزل بها حتى استولى عليها علي بن غانية سنة 80 ثم ولي تلمسان •

وفي سنة 555 استقدم عبد المؤمن ابنه ابا حفص من تلمسان ، ثم استوزره أخوه يوسف ، ومات سنة 75 وولي على تلمسان السيد

ابو عمران موسى بن عبد المؤمن سنة 56 ، ووفد على أخيه يوسف بمراكش هو وصاحب بجاية ابو زكرياء في وجوه أهـل افريقية مـن العرب وغيرهم ، وكان دخولهم مراكش سنة 64 فكان يوما مشهودا ، ثم نهض الخليفة الى غزو الاندلس سنة 66 فاستخلف على مراكش أخاه ابا عمران وبها توفي بالطاعون سنة 71 •

ثم ولي تلمسان السيد أبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن ، وقدم عليه أخوه أبو زيد من افريقية فارا من ابن غانية فتنبه لتحصين بلاده ورم أسوارها ثم عاد أبو زيد لحرب ابن غانية بأمر ابن عمه المنصور فخلص بجاية ، ونزلها ، ثم استقدمه المنصور منها ، وولى مكانه أخاه السيد أبا عبد الله بن عمر • ثم خرج المنصور نفسه لحرب ابن غانيـة •

وفي سنة 584 قفل المنصور الى مراكش ، فعقد لأبي زيد على تونس ولاخيه ابي الحسن على بجاية • فأقام بها الى أيام الناصر ، ولم يغن في دفاع ابن غانية ، وكان مولعا بالادب والطرب ، فعزل عنها • وله نفس عالية زكية وحكايات في الجود برمكية ، ومن شعره قوله يخاطب المنصور في قضاء ديونه :

وجوه الاماني بكـم مسفره	وضاحكة لـــي مستبشـرة
ولي أمـل فيكـم صـادق	قريب عسـى الله ان يسـره
عـلي ديـــون وتصحيفهـا	وعندكم الجـــود والمغفـره

وولي تلمسان بعد انتقال أبي الحسن الى بجاية السيد ابو الربيع ابن عبد الله بن عبد المؤمـن ، وتوفي هو وابـو الحسن سنة 604 فولى الناصر بتلمسان السيد ابا عمران موسى بن يوسف بن عبد

المؤمن سنة 605 وقتل في حرب ابن غانية ، فولى الناصر مكانه ابا زيد ابن يوجان ، وعزله المنتصر بابي سعيد بن المنصور •

وممن ولي ببجاية بعد ابي الحسن ابن يغمور ، فلما أفضى الامر الى العادل عزله بيحي بن الاطاس التينمللي ، وفي سنة 624 بايع أهل الاندلس ادريس المأمون باشبيلية قال ابن خلدون : وبايعه صاحب تلمسان محمد بن ابي زيد بن يوجان وصاحب سبتة ابا موسى بن المنصور وصاحب بجاية ابن أخيه ابن الاطاس ، وفي بعض نسخه ابن اخته ابن الاطامي •

وفي سنة 27 خلع ابو زكرياء الحفصي طاعة المأمون فعقد المأمون على بجاية للسيد ابي عمران بن محمد بن يعقوب المنصور ، وفي سنة 28 فتح ابو زكرياء قسنطينة وبجاية ، واعتقل السيد ابا عمران ، وثقفه بتونس ، فانقرضت كلمة بني عبد المؤمن من عمل بجاية ، وقامت بها دعوة الحفصيين •

وكان المأمون قد ولي على تلمسان أخاه السيد ابا سعيد ، وكان مغفلا ضعيف التدبير ، ومعه الحسن بن حبون الكومي عاملا على الوطن ، فغلب على ابي سعيد واغراه ببني عبد الواد • فقبض على طائفة من مشيختهم ، وشفع فيهم ابراهيم ابن اسمعيل بن علان زعيم الجند اللمتوني بتلمسان ، فردت شفاعته ، فقام بدعوة ابن غانية ، واغتال الحسن بن حبون وثقف السيد ابا سعيد ، وسرح مشيخة بني عبد الواد • ونكروه فقتلوا ابراهيم ابن اسمعيل ودخلوا تلمسان بدعوة المأمون ، واستمرت ولايتها في مشيختهم حتى استقل بها يغمراسن بن زيان •

وهكذا خرجت الجزائر من يد السادة بني عبد المؤمن الى الحفصيين وبني عبد الواد ، فكانت ولايتهم بها نحو ثمانين سنة •

6 — ثورة ابن غانيــة

كان علي بن يحي المسوفي مقربا لدى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين • فزوجه امرأة من أهل بيته تسمى غانية • فولدت له محمدا ويحي • وعقد علي بن يوسف لمحمد على الجزائر الشرقية سنة 520 فنزل ميورقة • ولما هلك خلفه ابنه اسحق • وسقطت أيامــه دولة المرابطين • ووفدت عليـــه فلولهم • فاحسن اليهم • وغني بالغزو • واستمر على الدعاء لبني العباس • واغفل الموحدون شأنه • واستشهد سنة 579 وترك ابناء منهم علي خليفته من بعده ويحي • وفي ربيع الاخير من هذه السنة استشهد بالاندلس أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن •

هنالك أراد أبناء غانية احياء دولة المرابطين بالمغرب واعادة الدعوى العباسية اليه • واتفق معهم أهل بجاية من الحماديين وغيرهم عـــلى ذلك • وظنوا كلمة الموحدين تختلف فيمن يخلف يوسف لكثرة ابناء عبد المؤمن ولعل في المصامدة من يدعو الى نفسه • وأمير الجزائــر الشرقية من ابناء غانية يومئذ علي بن اسحق المعروف بالميورقي لكونه يقطن ميورقة • وما زال لفظ الميورقي معروفا لـــدى العوام ببعض جهاتنا الجنوبية الا انهم يقولون المورقي بحذف الياء •

خرج علي بن اسحق من ميورقة في اثنتين وثلاثين قطعة ومعه بعض اخوته منهم يحي • وحمل اسطوله نحو مائتي فارس من الملثمين وأربعة آلاف راجل• فأرسى على بجاية يوم الجمعة من شعبان سنة 580 ودخلها وقت الصلاة من غير قتال • والناس آمنون • ووالي المدينة السيد سليمان بن عبد الله خارجها بايميلول • ولم يترك بها حامية للامن من طروق العدو •

لما دخل علي بن اسحق قصد الجامع الاعظم وأدار بـــه الخيل

والرجال • فمن بايعه خلى سبيله ومن أبى قتله • وألفى بها والي تونس السيد أبا موسى بن عبد المؤمن • فاعتقله • وكان والي القلعة قاصدا مراكش • فبلغه الخبر وهو بمتيجة • فعاد لمظاهرة السيد سليمان • وقصدا استرجاع بجاية • فاجتمع من الموحدين ثلاثماية فارس ومن العرب وقبائل تلك الجهات نحو ألف فارس • واجتمع الى الميورقي نحو ألف فارس • وتقابل الجمعان • فانخزل من كان مع الموحدين الى الميورقي • فانهزم السيد سليمان الى تلمسان • وغنم الميورقي أمواله وأبنيته •

استألف علي بن اسحق العرب بالمال ، واستخلف أخوه يحي ببجاية وخرج لافتتاح ولايتها• ففتح الجزائر ومليانة ومازونة والقلعة • وتوجه الى قسنطينة فحاصرها وقطع الماء عن أهلها حتى أغاثهم الله بمطر غزير فكسر واديها سده •

وبلغ المنصور بن يوسف خبر بجاية وهو قافل من الاندلس فارسل عسكرا في البر لنظر السيد أبي زيد بن عمر بن عبد المؤمن ، وبعث الاساطيل في البحر يقودها أحمد الصقلي وعقد عليها لابي محمد ابن ابراهيم بن جامع ، فاسترجعوا ما استولى عليه الميورقي من البلدان • ونزلوا على بجاية في صفر سنة 81 بجنود لا قبل ليحي بها ، ففر ومن معه من الملثمين • والحقوا بعلي وهو محاصر لقسنطينة • فكانت مدتهم ببجاية سبعة أشهر خطبوا فيها لبني العباس • وخطيبهم ابو محمد عبد الحق الاشبيلي الذائع الصيت •

عسكر السيد ابو زيد بتيكلات من ظاهر بجاية واطلق عمه اباموسى من معتقله • ثم رحل اثر ابن غانية • فأجلاه عن قسنطينة واتبعه الى نقاوس ومقرة ، ودخل علي بن اسحق الصحراء • وملك قفصة واستقر بها ، واستقر ابو زيد ببجاية •

ثم ظهر غزي الصنهاجي في جموع من الملثمين والعرب وتغلب على أشير • فسرح اليهم السيد أبو زيد ابنه عمر ومعه غانم بن مردنيش فأوقع بجموع غزي وقتله ونصب رأسه ببجاية • وغرب أبو زيد بني حمدون الى سلا لاتهامهم بتأييد ابن غانية • ثم استقدم المنصور أبا زيد من بجاية •

واجتمع الى ابن غانية بافريقية جموع العرب من رياح وغيرهم • وانضاف اليه قراقوش بمن هنالك من الاتراك • وبايعوا علي بن اسحق • ولقبوه أمير المسلمين فجدد رسوم الملك واتخذ الآلة • وأوفد الى بغداد ابنه وكاتبه عبد البر بن فرسان بالبيعة وطلب المدد • فأمر الخليفة عماله بمصر والشام بمدده • فعظم سلطان علي بن غانية واستولى على افريقية وانزل بأهلها وعمرانها بلاء لم ينزل بها أيام دخول الهلاليين ذكر تفصيله ابن الاثير وأهم المنصور أمره فخرج بجموعه الى افريقية سنة 83 وكانت بينه وبين ابن غانية وقائع غير فاصلة • ثم عاد الى مراكش سنة 84 ومات في هذه السنة علي بن غانية بنفزاوة من ناحية الجريد • فخلفه أخوه يحي • ونقل الحرب الى المغرب بعد سنة 597 •

خرج من بجاية واليها السيد ابو الحسن في جيش عظيم للقاء يحي • قال صاحب المعجب : « لم أر الموحدين جيشا أضخم منه ولا أكثر سلاحا ولا أحسن عدة • وفيه من أعيانهم وشيوخهم جملة وافرة » اهـ •

التقى الجمعان قرب قسنطينة من ناحية بجاية • فانهزم الموحدون الى بجاية في حال سيئة • وتوجه يحي الى بسكرة • فدخلها ومثل بأهلها • وسجن عاملها أبا الحسن بن أبي يعلى • ثم ملك تبسة • وبايعه أهل بونة • وعاد الى المهدية •

قوي أمر يحي الميورقي • وحاصر قسنطينة • فجهز لـه ابو الحسن عسكرا حفظها • فارتحل يحي الى حصار بجاية • وكان المدد يأتيه من ميورقة • فأجاز الناصر أساطيله اليها من مدينة الجزائر سنة 98 فاستولوا عليها سنة 99 •

وفي سنة 601 توجه الناصر نفسه الى افريقية • ولم يبـق بها للموحدين غير قسنطينة وبجاية • فأجلى يحي الى جبل دمر واسترجع البلاد لطاعته • وعقد على افريقية لابي محمد بن ابي حفص سنة 603 وقفل الى مراكش ، فخرج عليـه يحي بوادي شلف في جيش عظيم من العرب وصنهاجة وزناتة فتقاتلا قتالا شديدا ، ثم انهزم الميورقي ، وشرق ، فلقيه ابو محمد بن ابي حفص بنواحي تبسة ، فهزمه أيضا الى الصحراء وذلك سنة 604 •

وبعدما استجمع يحي قواه نهض الى المغرب يغير ويسبي ويخرب حتى بلغ سجلماسة وتقدم الى المغرب الاوسط ، فخرج اليـه والي تلمسان السيد أبو عمران • وكان اللقاء على تاهرت • فقتل ابو عمران وغنم عسكره ، وشرق يحي بالغنائم فاستنقذها منه والي تونس ، وفتك به فتكا ذهب بقوته ، فأخذت ثورته في الضعف ، وذلك سنة 606 •

وفي سنة 18 توفي أبو محمد بن أبي حفص فولى مكانه السيد أبو العلاء ادريس بن يونس بن عبد المؤمن ، وطارد يحي بن غانية ، فلحق بالزاب ونزل بسكرة ، فاتبعه ابـو العلاء ابنـه ابا زيـد ، فأجلاه عنها •

انتقل يحي الى المغرب الاوسط وانقسمت زناتة عليـه وعلى الموحدين فكانت بينهم وقائع ، قتل في بعضها أمير مغراوة منديل بن عبد الرحمن بمتيجة سنة 622 ودخل يحي بعدها الجزائر ، ولكن نجمه في أفول •

وفي سنة 24 كان والي تونس عبد الله بـن أبي محمد بن أبي حفص فبلغه أن يحي بن غانية دخل بجاية عنوة ، وتخطاها الى دلس وعاث في تلك النواحي فاخذ السير حتى دخل بجاية وسكن أحوالها ، وسار الى متيجة فمليانة ، فبلغه أن يحي قصد سجلماسة ، فانكفأ الى تونس .

وفي سنة 25 تولى تونس أبو زكرياء أخو عبد الله المتقدم . وهو جد الملوك الحفصيين . فصرف عزمه لاستئصال حركة ابن غانية . فشرده عن الزاب وورقلة . وانزل الحامية باطراف البلاد . فلم يزل يحي شريدا الى ان هلك سنة 631 بوادي شلف وقيل بالزاب .

دامت ثورة ابن غانية نصف قرن . ولم يجن الوطن منها غير الخراب . فقد خرب كثيرا من قصور الصحراء بوادي ريغ وغيره . وخربت تاهرت وقصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات والقلعة .

ولقد كان بنو غانية يرومون احياء سلطانهم بالمغرب فلم ينجحوا لقوة الموحدين وجدهم . ولكن نتج عن ثورتهم تخريب كثير مـن المدن وشغل الموحدين عن موالاة الجهاد بالاندلس واضعاف دولة بني عبد المؤمن وظهور الحفصيين .

وكان علي ويحي ابنا غانية آيتين في علو الهمة والاقدام عـلى العظائم والغناء في مواقف الحرب . وكان كاتبهما عبد البر بن فرسان الغساني مثلهما شجاعة واقداما . وهو أديب بارع . ومـن شعره يخاطب يحي بن غانية .

اجبنا ورمحي ناصري وحسامي   وعجزا وعزمي قائدي وامامي ؟

ولي منك بطاش اليدين غضنفر   يحارب عـن اشـباله ويحامـي

ألاغنيـاني بالصهيـل فانـه سماعي ورقراق الدماء مدامي !
وحطا على الرمضاء رحلي فانهـا مهادي وخفاق البنـود خيامي !

7 ـ العرب في الدولة المؤمنية

وجد العرب بغيتهم في الدولة الصنهاجية لضعفها ، فلما قدم عبد المؤمن لفتح بجاية وفد عليـه بالجزائر أميران منهم أحدهما أبو الخليل ابن كسلان أمير الاثبج وفي بعض نسخ ابن خلدون أبو الجليل بن شاكر ، وثانيهما حباس بن مشيفر أمير جشم فتلقاهما بالمبرة وعقد لهما على قومهما ، ومضى لفتح بجاية ،

ولما فتحها خشوا على حريتهم منه فحاربوه مع صنهاجة وقتلوا صهره عبد الله بن وانودين ، ثم اجتمعوا بظاهر باجة ، فوضعوا ما بينهم من ترات ، ودعتهم المصلحة المشتركة الى الاتحاد على اخراج عبد المؤمن من البلاد قبل ان يرسخ نفوذه فيها وجمعوا نساءهم وأموالهم ، وارتحلوا لحرب عبد المؤمن ليكون لقاؤهم أصدق وقدمهم في الميدان أثبت ،

وهؤلاء العرب هم الاثبج ورياح وزغبة وقرة ، وأمـير رياح يومئذ محرز بن زياد بن فادغ احدى بطون بني‌علي، ومن الامراء سواه جبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسـى بن حسن ، وأرسل اليهم رجار صاحب صقلية يعرض عليهم انجاده اياهم بخمسةآلاف فارس من النصارى ، فأجابوه يشكرون له صنيعه وانهم في غنى عن نجدته اذ لا يستعان بكافر على مسلم ،

وبلغ عبد المؤمن خبرهم ، وكان ببجاية على ما قال البيذق وهو شاهد لهذا الفتح ووقائعه فخرج للقائهم عبد الله بن عبد المؤمن ،

وأمده أبوه بالرجال فبلغ جيشه أكثر من ثلاثين آلف فارس • وانضاف اليهم من أمراء العرب ديفل بن ميمون •

التقى الجمعان بناحية سطيف ، قال البيذق سنة 46 وقال ابن الاثير في صفر سنة 48 فتاخر الموحدون حتى حل العرب بين جبال • فمالوا عليهم وهم على غير أهبة • واشتد القتال ثلاثة أيام • ثم انهزم العرب في اليوم الرابع • وتبعهم الموحدون الى ناحية تبسة •

قال ابن الاثير : « وترك العرب جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث ونعم فقسم عبد المؤمن جميع الاموال على العسكر • وترك النساء والاولاد • ووكل بهم من يحفظهم ويقوم بحوائجهم • ولما وصلوا معه مراكش أنزلهم المساكن الفسيحة وأجرى لهم النفقات الواسعة • وأمر ابنه محمدا ان يكاتب أمراء العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة • وأنــه قد بذل لهم الامان والكرامة • فوفدوا عليه بمراكش • ورد عليهم نساءهم وأولادهم وأعطاهم أموالا جزيلة • فاسترق قلوبهم بذلك • وأقاموا عنده • وكان بهم حفيا • واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد » اهـ •

وقال البيذق : « ترك عبد المؤمن من غنائم العرب وسبيها بفاس ومكناسة وسلا • وحمل معه الى مراكش سلاطينهم وعيالهم • وهم ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان وأبو قطرن وأبو عرفة والقائد بن معرف • ثم من عليهم ورد عليهم عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم الى بلادهم • وذلك سنة 547 » اهـ •

وأرى أن الامراء الذين نقلهم عبد المؤمن معه غير الذين كاتبهم جمعا بين الروايتين فان الواقعة عظيمة جدا لجمع كل من الفريقين قوته فيها • فلا يستوفيها ابن الاثير ــ وان كان مؤرخا بصيرا ــ لبعده عنها ولا يستوفيها البيذق ــ وان كان حاضرا ــ لغفلته •

ولما عاد عبد المؤمن الى المشرق وفتح المهدية أحضر أمراء العرب واحلفهم في مصحف عثمان (رض) على السمع والطاعة والسير معه للجهاد بالاندلس • واستصحب منهم في عوده فلما قرب من وهران طلبه عرب افريقية في الرجوع الى حللهم • فاسعفهم • ونقل منهم الى المغرب الفا من كل قبيلة بعيالاتهم • وكانت نيته اخلاء افريقية من العرب ونقلهم الى المغرب والاندلس ليبعدهم عن الصحراء ويقربهم من عاصمته ويشغلهم بالجهاد •

وفي سنة 58 خرج عبد المؤمن مـن مراكش يريـد الجواز الى الاندلس • فندب عرب بجاية الى الجهاد برسالة ختمها بأبيات من نظمه وهي :

أقيموا الى العلياء هوج الرواحل	وقودوا الى الهيجاءجردالصواهل
وقوموا لنصر الديـن قومة ثائر	وشدوا على الاعداء شدة صائل
فما العـز الا ظهر أجرد سـابح	يفوت الصبا في شدة المتواصل
وابيض ما ثـور كـان فرنـده	على الماء منسوج وليس بسائل
بني العم من عليا هلال بن عامر	وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت الى الغزو نية	عواقبهـا منصـورة بالاوائل
هي الغزوة الغراء والموعد الذي	تنجز من بعـد المـدى المتطاول
بها يفتـح الدنيا بها يبلغ المنى	بها ينصف التحقيق من كل باطل
أهبنا بكـم للخير والله حسـبنا	وحسـبكم والله أعـدل عـادل
فما همنـا الاصـلاح جميعكم	وتسريحكم في ظل أخضر هاطـل
وتسويغكم نعمى ترف ظلالهـا	عليكم بخير عاجل غـير آجـل
فلا تتوانـوا فالبـدار غنيمـة	وللمدلج السـاري صفاء المناهل

قال صاحب المعجب : « فاستجاب لـه منهم جمع ضخم فانزل بعضهم نواحي قرطبة وبعضهم نواحي أشبيلية • وأقاموا هنالك •

وزاد فيهم ابو يعقوب وابو يوسف فكثروا • وانتشر من نسلهم في تلك المواضع خلق كثير • وعددهم الآن وهو سنة 621 نحو خمسة آلاف فارس سوى الرجالة • وهم من زغبة ورياح وجشم وغيرهم » اهـ •

وفي سنة 77 وفد على يوسف بمراكش أمير رياح أبو سرحان مسعود بن سلطان في جيش عظيم من وجوه قومه برسم الخدمة •

وظهر ببعض نواحي افريقية مفسدون من العرب • فخرج اليهم والي تونس السيد أبو موسى بن عبد المؤمن في الجند وأولياء الدولة من العرب وغيرهم • فانهزم جيشه • وأسره العرب • وتفاوض معه أبو يعقوب أمير المؤمنين في فدائه • فتقرر الفداء بستة وثلاثين ألف مثقال • ورأى أبو يعقوب ان هذا المال مما يقويهم على فسادهم • فضربوا لهم دنانير من الصفر مموهة • وخرج أبو موسى من أسرهم • وتوجه الى مراكش • فلما كان ببجاية دخلها ابن غانية وأسره أيضا •

ولما كانت ثورة ابن غانية انضم اليها جشم ورياح وجمهور الاثبج • وانحازت زغبة الى الموحدين • ودافعت ابن غانية عن المغرب الاوسط ، فاقطع الموحدون بني يزيد منهم أرض حمزة • واستظهروا بهم على صنهاجة وزواوة • ثم دفعوهم لاقتضاء جباية تلك النواحي •

ولما خرج المنصور الى افريقية راجعت طاعته جشم ورياح وبعض القبائل • فنقل منهم الى المغرب قبائل رياح وجشم وقرة والعاصم ومقدم • وبقيت احياء من رياح أميرهم عساكر ابن سلطان الذوادي لما بلاه المنصور من حسن طاعتهم •

وحوالي سنة 90 فر من المغرب أمير رياح مسعود ابن سلطان الذوادي الملقب بالبلط لشدته وصلابته • ولحق بافريقية • واجتمع

اليه بنو اخيه عساكر • ووصل يده بابن غانية • ثم هلك فخلفه ابنه محمد • وكان رئيسا عظيما • فلم يزل يجلب مع ابن غانية على الموحدين • وقتل ابنه عبد الله سنة 606 في بعض المعارك وابن عمه حركات بن ابي الشيخ ابن عساكر وأمير من قرة • واجتمع الى محمد ابن مسعود طواعن من الضحاك ولطيف • وصار يتقلب بجموعه ما بين القيروان والجريد الى الزاب والحضنة • حتى هلك يحي بن غانية • واستغلظ سلطان الحفصيين •

8 — البربر في الدولة المؤمنية

قضى الموحدون على صنهاجة • وحاولت الثورة عليهم واتحدت مع ابن غانية • ولكنها لم تفلح • ويظهر أن كتامة ايدتهم • فان قسنطينة هي المدينة الوحيدة التي لم يحتلها ابن غانية • ولم نعلم انه جاوزها شمالا الى نواحي ميلة ، وكان أولاد علاوة بن سواق رؤساء سدويكش موالين للموحدين ، وكان أبو بكر جد بني ثابت من بني تليلان هو الذي فرض المغرم للموحدين على أهله بجبلهم المعترض ما بين القل وقسنطينة ، ولم يزل بنو تليلان وسدويكش على ولائهم حتى أفضى الامر الى الحفصيين •

وواهاصة المغرب اندرجت في كومية وواهاصة عنابة ربما كان منها بعض الخلاف ، فقد اعترضت سنة 623 أبا زكرياء مؤسس الدولة الحفصية وهو ذاهب الى تونس ، وجهه أخوه عبد الله أمامه لما وليها ، فأوقع بهم •

وهوارة تبسة كان لها شأن في ثورة ابن غانية وأميرهم يومئذ حناش بن ونيفن ، وأوقع بهم سنة 624 والي تونس عبد الله بن عبد الواحد بن ابي حفص بفحص ابة • واعتقل مشائخهم ، وانفذهم الى المهدية •

وكان بنو ومانو هم السابقين الى عبد المؤمن ثم وفد عليه بعد واقعة منداس وهو محاصر لوهران سيد الناس بن أمير الناس الشيخ بني يلومي وحمامة بن مطهر شيخ بني عبد الواد وعطية الحيو بن مناد ابن العباس بن دافلتن المنكوشي شيخ بني توجين ، ثم خالف بنو يلومي • وتحصنوا بالجعبات ، فأخضعتهم العساكر • ونقلوا منهم الى المغرب • وهلك سيد الناس بمراكش ايام عبد المؤمن ، ثم هلك بنو ماخوخ ، فضعف أمر بني ومانو وبني يلومي ، واستعلى عليهم بنو توجين وبنو عبد الواد ، فتفرقوا أوزاعا في زناتة •

ومغراوة شلف من ورسيفان وغيرهم استقاموا على الطاعة • وذهب ملك اخوانهم بني خزرون بن فلفول من طرابلس سنة 540 فلحق بهم عبد الصمد بن محمد بن خليفة بن ورابن سعيد بن خزرون ابن فلفول ، وتزوج منهم وكثر ولده ، وعرف حافده ابو ناس بن عبد الصمد بن وارجيع بن عبد الصمد بالعبادة والفضل ، فتزوج من بنات ماخوخ وولدت له عبد الرحمن ، فكان أجل اخوته بنسبه وخؤولته ، وسودته مغراوة • فكان السادة من بني عبد المؤمن يمرون به في ذهابهم الى افريقية وايابهم منها ، فيحسن خدمتهم في مقامهم لديه ، وينقلبون بالثناء عليه ، فنال صيتا عند الخلفاء ، واسلم له بعض السادة منهم ذخيرة وظهرا ، فاكتسب ثروة • واستركب من قومه واستكثر من عصابته •

ولما هلك خلفه ابنه منديل وحافظ على ولاء بني عبد المؤمن وحضر معهم غزوة الارك سنة 591 واخضع لهم وانشريس والمدية • واجلب على متيجة • ولقي بها يحي بن غانية • فانهزمت عنه مغراوة • وقتل هو صبرا سنة 622 وصلب شلوه بالجزائر •

وترك ابناء خلفه أكبرهم العباس ، وظهرت ايامه دولة الحفصيين • فأخذ بدعوتها منافسة لبني عبد الواد •

وبنو توجين صدقوا في ولاء الدولة ، وكانت بين شيخهم عطية الحيو وشيخ عبد الواد عدوى بن يكنمن من بني القاسم حروب شداد ، واستمرت بين القبيلتين الى ما بعد سقوط الدولة المؤمنية .

ولما هلك عطية خلفه ابنه العباس وكان دليل المنصور الى تلمسان في قفوله الى مراكش سنة 584 ، واجلب بقومه على ضواحي المغرب الاوسط . ثم نقض طاعة الموحدين فدس عليه والي تلمسان أبو زيد ابن يوجان من اغتاله سنة 607 فخلفه ابنه عبد القوي ، وكان قد حضر ببني توجين وقعة الأراك ولما ظهرت دولة الحفصيين أخذ بدعوتها مشاقة لبني عبد الواد .

وبنو راشد كانوا أحلافا لبني عبد الواد يوالون من والاهم ويعادون من عادوهم ، ورئاستهم في بني عمران منهم لابراهيم بن عمران ، وخالف عليه أخوه ونزمار الى أن هلك فخلفه ابنه مقاتل ، فقتل عمه ابراهيم ، وخلف ابراهيم ابنه ونزمار ، وكان معاصرا ليغمراسن ابن زيان ، وطال عمره الى أن هلك سنة 690 .

وبنو عبد الواد كانوا أصدق زناتة ولاء الموحدين ، ورئاستهم في بني القاسم ، فكان منهم لعهد عبد المؤمن عدوي بن يكنيمن وعبد الحق بن منغفاد بفتحتين فسكون وحمامة بن مطهر .

واقطعهم الموحدون جزاء اخلاصهم بلاد بني ومانو وبني يلومي ، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله وبني كمي من بطونهم ، فقتل كندوز من بني كمي زيان بن ثابت كبير بني طاع الله ، فخلفه ابن عمه جابر بن يوسف ، وقتل كندوز في بعض حروبهم ، وبعث برأسه الى يغمراسن ابن زيان القتيل فلحق عبد الله بن كندوز في قومه بتونس أيام أبي زكرياء الحفصي .

وكان جابر ابن يوسف قد حضر ببني عبد الواد وقعة الاراك ،

وفي أيام المأمون ابتدأ خلاف بني عبد الواد ، فقد كان والي تلمسان السيد أبا سعيد عثمان فاغراه عامله الحسن بن حبون الكومي ببني عبد الواد لما رآه من تغلبهم على الضاحية ، فاعتقل مشيختهم ، وسعي في خلاصهم ابراهيم بن اسماعيل بن علان زعيم الجند من لمتونة بتلمسان ، فاغتال الحسن بن حبون وأطلق مشيخة بني عبد الواد ثم بدا له في الفتك بهم فدعاهم لحضور وليمة ، وفطن لقصده جابر بن يوسف ، ففتك به ، ودخل المدينة بدعوة المأمون ، فكتب له المأمون بولايتها ، ثم خرج لاخضاع ندرومة ، فقتل في حصارها سنة 229 فخلفه ابنه الحسن ستة أشهر ، وتخلى لعمه عثمان ابن يوسف ، ولم يحسن السيرة فاخرجته الرعية سنة 31 وقدموا مكانه ابن عمه ابا عزة زكران بن زيان ومنهم من يسميه زيدان ، فشاقه بنو مطهر وأحلافهم بنو راشد ، فكانت بينهم حروب هلك فيها أبو عزة سنة 33 فخلفه أخوه يغمراسن ابن زيان ، ولم يزالوا آخذين بدعوة بني عبد المؤمن حتى أساء منهم السعيد الظن بيغمراسن فنهض لحربه سنة 45 فقتله يغمراسن واستقل بالامر واورث بنيه دولة عظمى .

وبنو مرين كانوا معادين للموحدين ، ففروا بعد واقعة منداس الى الصحراء وبلغ أميرهم المخضب بن عسكر خروج الغنائم من تلمسان الى تينملل سنة 540 فنهض لاخذها في خمسمائة فارس من قومه ، فاستنجد عبد المؤمن أولياءه من زناتة . وكتب الى عبد الحق ابن منغفاد ، فخرج في خمسمائة فارس من قومه . ولقي بني مرين بفحص مسون ، وقد احتازوا الغنائم ، فاستنقذها منهم ، وقتل المخضب .

ورأس مرين بعد المخضب ابو بكر بن حمامة ، وتوفي سنة 561 فخلفه ابنه محيو . وحضر بقومه وقعة الارك فجرح بها ومات بالزاب في صفر سنة 92 فخلفه ابنه عبد الحق ودخل بقومه المغرب سنة 610

على حين ضعف بني عبد المؤمن فحاربهم هو وبنوه حتى استولوا على مراكش وأسسوا الدولة المرينية • وهكذا قضى عبد المؤمن وبنوه على صنهاجة وأحيوا زناتة • فكانت هي القاضية عليهم ولا ايثار بالمعالي •

9 ـ المسيحية والاسرائلية

كان المسيحيون والاسرائليون بالمغرب من عناصر أجنبية عنه ومن بقي من البربر بعد الاسلام متمسكا باحدى الديانتين تنوسي أصله وصار معدودا من الاجانب • وكانوا يتمتعون بحرية واسعة حتى ظهرت دولة الموحدين •

وكانت الحروب الصليبية يومئذ بالمشرق قائمة على ساق وادعى الموحدون الخلافة • فلعل عبد المؤمن رأى أن يجعل المغرب كجزيرة العرب لا يجتمع فيه دينان حفظا لمركز الخلافة من الدسائس الاجنبية •

قال القفطي في كتابه أخبار العلماء باخبار الحكماء : « نادى عبد المؤمن في ممالكه باخراج اليهود والنصارى • وقدر اهم مدة • ومن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن بقي على ملته ولم يخرج بعد الاجل فهو في حكم السلطان مستهلك النفس والمال فخرج المخفون وبقي من ثقل ظهره وشح بأهله وماله • فاسر الكفر وأظهر الاسلام والتزم شعاره وجزئياته من صلاة وقراءة » اهـ •

قال ذوماس : « وبتوالي الايام اندمج المسيحيون في عموم جيرانهم المسلمين » اهـ • ويظهر أن اليهود لكثرتهم لم يندمجوا في غيرهم • وكان أبو يوسف المنصور يقول : « لو صح عندي اسلامهم

لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم • ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيأ للمسلمين ولكني متردد في أمرهم • ولـم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني ، منذ قام أمر المصامدة ، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة • انما اليهـود عندنا يظهرون الاسـلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا ، والله أعلم بما تكنه صدورهم وتحويه بيوتهم » اهـ • نقله صاحب المعجب • وقال :

« وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يتميز يهود المغـرب بلباس يختصون به • وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم ، وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك الى أن غيره أبو عبد الله الناصر بعد أن توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر ، فهم على هذا الزي الى وقتنا هذا وهو سنة 621 » اهـ •

وقد صار الحفصيون يميزون ايضا اليهود بلباس ويسـمونه الشكلة ، ولم يعد المسيحيون الى المغرب حتى بايع أهل مراكش المأمون وهو باشبيلية سنة 624 فلما توجه الى العاصمة بلغه أنهم نكثوا بيعته فاستعان بالمسيحيين ، وجلبهم من الاندلس • وشرط لهم حرية دينهم وأن يبني لهم كنيسة بمراكش نفسها •

قال ذوماس : « وفي أيام ابناء المنصـور كان رجال الطـرق الكاثوليكية أمثال الفرنسيسكان والدومنيكان يتجولون في المغـرب بكل حرية ويعاملون معاملة حسنة ويغشون مجتمعات التجار الاوربيين

ويؤدون هناك وظائفهم الدينية من عقد نكاح ووعظ ويزورون أسرى المسيحيين ويحملون لهم الاعانات وعبارات التسلية وربما اضطروا لاتباع زي أهل البلاد فسمح لهم البابا هنوريوس الثالث سنة 626 (1229 م) بتغيير لباسهم واطالة لحاهم ما داموا في المغرب (وكانت عادتهم حلق اللحي والشوارب) وارسل من جاء بعد هنوريوس من البابوات رسائل الشكر لأمراء الموحدين على حسن معاملتهم للمسيحيين الذين كثر عددهم حتى وضع على رأسهم قس من رتبة افيك سنة 630 (1233 م) اهـ كلامه •

10 ـ الاقتصاد والعمران والحضارة

لم تعرف الجزائر في حياتها ايام أمن وعدل كأيام عبد المؤمن وبنيه فنشطت لذلك الحركة الاقتصادية الداخلية ، وربط العرب بقوافلهم التجارية بين الجهات الشمالية والجنوبية وقوي اتصال المغرب بالمشرق تجاريا برا وبحرا ونظمت التجارة الاروبية مع المغرب تنظيما دوليا وكانت في الدرجة الثانية بالنسبة لتجارة المشرق •

عقد عبد المؤمن معاهدة تجارية مع دول أوربا وكانت جمهورية جنوة انشطها تجارة فعقدت مع عبد المؤمن معاهدتها التجارية سنة 548 (1153 م) ثم أوفدت سنة 555 (1160 م) قنصلها أطوبون من أسرة كاملة الشهيرة فقابله عمال عبد المؤمن بالاجلال أينما حل حتى قابل عبد المؤمن وأمضى معه معاهدة تضمن حرية التجارة لرعايا جنوة برا وبحرا على أن يأخذ عن البضائع الواردة الى بجاية العشر والواردة الى غيرها ثمانية من مائة • وأسست جنوة اثر هذه المعاهدة شركات خاصة للتجارة بالمغرب •

وكان ببجاية قناصل للدول التجارية لحفظ حقوق رعايا دولتهم

وكاتب خاص لضبط حساب تجار دولته وتقديمه للديوانة المؤمنية .
ومراسي الجزائر التجارية العظمي يومئذ هـي هنين مرسى تلمسان وطريقها الى الاندلس خربها شرلكان . ويليها شـرقا المرسى الكبير فوهران فارزيو فمزغران فمستغانم فتنس فشرشال فالجزائر فبجاية فجيجل فالقل فاستورة قرب السكيكدة فبونة .

وكان تجار أروبا يستوردون من المغرب الزيت والصوف والشب وريش النعام والأدم ومواد الدباغة النباتية والشمع والزبيب وسـائر الفواكه الجافة ويصدرون اليه الملف وسائر الاقمشة والذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن قطعا ومصنوعة أواني وأدوات منزلية كالمرجل والابر والسكين والناس اليوم من قبيلتنا وجيرانهم يسمون السكين « الجنوي » .

ولكي تتصور ما بلغتـه الثروة الجزائرية اجمالا استحضر ان دولتها المؤمنية كانت لا تعرف جـورا ولا يدخـل خزينتها إلا مال الزكوات وخراج الارضين وما تفرضه على السلع الاجنبية ومع ذلك كانت ماليتها وافية بشؤونها ولم يشك جنودها نقصا في المرتب أو تأخرا في قبضه على كثرتهم وانتصابهم في سائر المدن حاميات وانتقالهم حينا فحينا الى الاندلس مجاهدين أو الى افريقية للثورات مسكنين .

ولقد حافظت الدولة المؤمنية على ما قبلها من عمران وحضارة واربت على من تقدمها فيهما غير أن عنايتها بالاندلس والمغرب الاقصى أكثر من عنايتها ببقية المغرب وكانت ولاية تلمسان قد قلدت في حضارتها الاندلس أيام المرابطين ثم تلتها ولاية بجاية أيام الموحدين .

وفي سنة 540 أمر عبد المؤمن ببناء أسوار تاقرا مسقط رأسـه وأعلى الاسوار وحصن المدينة وبنى جامعها .

وفي سنة 555 عاد من فتح المهدية فمر بالبطحاء وكانت مدينة

بنواحي شلف شمالا شرقيا من غليزان ثم خربت فأمر عبد المؤمن ببنائها قال ابن ابي زرع :

« وسبب بنائه اياها انه لما طالت بالموحدين الاقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهم وأولادهم عزمت طائفة منهم على اغتيال عبد المؤمن إذا نام في خبائه فأعلمه شيخ بنبئهم وقال له دعني أبت على فراشك فان فعلوا كنت فداءك فبات على فراشه فقتل ، فلما صلى عبد المؤمن الصبح افتقده فوجده مقتولا • فحمله بين يدي مسيره على ناقة لا يقودها أحد ، فلما بركت دفنه في مبركها وبنيت عليه قبة وبني بازاء القبة جامعها ، ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد ، وترك بالمدينة عشرة من كل قبيلة من قبائل المغرب ، فقبر الشيخ هناك معظم عند أهل تلك البلاد يزار الى اليوم » اهـ •

وذكر الدمشقي من أهل القرن الحادي عشر في أخبار الدول مدينة البطحاء فقال : « مدينة عظيمة ببلاد الغرب في وطأة من الارض وتسمى مدينة البدرة وبها أنهار كثيرة » اهـ •

وقال ابن أبي زرع يذكر أبا يوسف المنصور : « وحصن البلاد وضبط الثغور وبنى المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والاندلس وبنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم وأجرى الانفاق على أهل المارستانات والجذمى والعميان في جميع عمله وبنى الصوامع والقناطر والجباب للماء واتخذ عليها المنارات وبنى المنازل من سوس الاقصى الى سويقة بني مضكود » اهـ •

وكان السادة من بني عبد المؤمن ولاة بجاية وتلمسان يعنون بالبناء والغراسة عناية الملوك ، قال ابن خلدون يذكر ابا الربيع سليمان ابن عبد الله بن عبد المؤمن والي بجاية : « وهو الذي جدد الرفيع

والبديع من رياضها وكان بنو حماد شيدوهما من قبل ، فاصابهما الخراب » اهـ •

واذا كانت الحكومة عادلة حافظة للامن معنية بالاقتصاد والعمران مقيمة للحضارة فالامة تكون في ذلك أنشط ما يكون والبلاد أبهج ما يرى •

11 ــ العلوم والآداب

لم يدع الموحدون الخلافة حتى نهضوا بما نهض به قبلهم العباسيون والفاطميون من نشر العلوم الاسلامية والفلسفية تفسيرا وحديثا وفقها وكلاما ومنطقا ورياضة وسياسة مدنية ومنزلية وخلقية وغير ذلك من كل ما عرف ببغداد والقاهرة قبل ، وامتاز عصرهم العلمي على ما قبله بالاتقان والدقة وعلى ما بعده بعدم الجمود والاقتصار على الموجود •

ولقد كانت العلوم الطبيعية والانظار الفلسفية مرغوبا عنها بالمغرب خصوصا أيام المرابطين الذين حكموا الفقهاء في دولتهم فارهقوا المفكرين خشية منهم على تعاليم الاسلام ، ولما جاء الموحدون وكان خلفاؤهم مشاركين في كل العلوم أحسنوا تمييز ما ينافي الدين منها مما لا ينافيه •

فحافظوا على جوهر الدين بنشر أصوله العقلية والنقلية وتركوا للعقول حريتها تجري طلقة العنان في ميادين البحث والاستنتاج ، ونشطوا أهل العلم قاطبة بادرار الرزق عليهم وشمولهم بعنايتهم وخالطوهم في مجالسهم ، وأنشأوا المدارس وكفوا طلبتها مؤنة الاسترزاق وكان يعقوب المنصور يقول :

« يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه أمر منكم فزع الى قبيلته ، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمـر فأنا ملجأهم وإلي فزعهم وإلي ينتسبون » • قال صاحب المعجب : فاه المنصور بهذا لما بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه اياهم وخلوته بهم •

وأظنك إذا صدقت البحث وأجدت النظر لا تجد عصرا تآخت فيه الفلسفة والشريعة كعصر الدولة المؤمنية ، فهذا الحفيد ابن رشد أعظم فلاسفة الاسلام تجده أيضا من أعاظم حفظة الشـريعة ناهيك بكتابه بداية المجتهد ، وكان مقربا لدى المنصور • فلم يحرم الناس مواهبه وكثر تلاميذه ، وكان منهم أبو عبـد الله محمد بن سحنون الكومي الندرومي من قرية ندرومة •

شملت هذه النهضة العلوم والآداب والصنائع والحرف ، فساعدت على انشاء مدنية ان لم تكن أعلى المدنيات فمن أعلاها ، قال الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم •

« ويتعلق بذكر الهالة ما حكاه أبـو عبـد الله بن عياش كاتب المنصور أبي يوسف يعقوب ، قال كان لابي بكر بن مجبر وفادة على المنصور في كل سنة • فصادف في احدى وفاداته عليه فراغ المنصور من احداث المقصورة التي كان احدثها بجامعة المتصلة بقصره في حضرة مراكش ؛ وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتخفض لدخوله ، وقد انشده الشعراء في ذلك ، فلم يزيدوا على شـكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره ، ولم يتصدوا لوصف الحال فانشد ابن مجبر قصيدته التي أولها :

أعلمتنـي القى عصـا التسـيار   في بلـدة ليسـت بدار قراري

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها :

طورا تكون بما حوته محيطة فكأنها سور من الاسوار
وتكون طورا عنهمو مخبوءة فكأنها سر من الاسرار
وكأنما علمت مقادير الورى فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحسنت بالامام يزورها في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده كتكون الهالات للاقمار

قال المقري : « وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف » .

وكان شاعر بني عبدالمؤمن منقسنطينة اباعلي حسن بن علي بن عمر الفقون . قال عبد القادر الراشدي : « وبنو الفقون من قرية فقونة بأوراس ولم يتحرر لي نسبهم » وفد على خلفائهم بمراكش ونظم رحلته في قصيدة ذكرها العبدري في رحلته والمقري في نفح الطيب ، وامتدح الناصر بن المنصور بقصيدة بليغة لما نزل بقسنطينة سنة 601 وكان كثر الوفادة على السادة من ولاة بجاية ، وله ديوان شعر كان موجودا بأيدي الناس .

وكانت بجاية يومئذ عاصمة المغرب علما وأدبا لا يفوقها إلا مراكش عاصمة الخلافة ، ولابي العباس الغبريني جزء في علمائها وادبائها طبع بالجزائر ، وهو متداول بين الناس .

12 ـــ الاعتقادات والمذاهب الفقهية

كان مبنى اعتقاد المسلمين في الإله على الكتاب وصحيح السنة . يثبتون له من الصفات ما أثبتاه وينزهونه عما نزهاه عنه ، ثم ظهرت بعد ترجمة كتب اليونان وغيرهم أيام العباسيين طريقتا النظر والرياضة

لمعرفة الله ، وطريقة الرياضة نفرد لها فصلا بعنوان التصوف • وطريقة النظر والاستدلال بالطبيعيات على الإلهيات مع التقيد بالدين هي المسماة كلاما وأهلها متكلمين •

نكر أهل السنة طريقة الكلام ، وسموا أهلها معتزلة حتى جاء أبو الحسن الاشعري ، فقرأ على أبي علي الجباءي المعتزلي ، ولازمه الى الاربعين من عمره ، ثم اعتزل الاعتزال ونصر السنة بطريقة الكلام نفسها ، وألف كتبا كثيرة منها تفسيره المسمى المختزن في خمسمائة مجلد ، وكانت منه نسخة واحدة بدار الخلافة • فبذل الصاحب بن عباد ــ وكان يميل الى الاعتزال ــ لخازن المكتبة عشرة آلاف دينار ليحرقها » فاحترق ذلك التفسير فيما احترق من الكتب ، وكانت وفاة الاشعري ببغداد سنة 324 •

وانقسم أهل السنة الى سلفيين يؤمنون بآيات وأحاديث الصفات كما جاءت ولا يعتمدون على الكلام ، والى أشاعرة يعتمدون على الكلام ويؤولون بعض آيات وأحاديث الصفات •

وكان أهل المغرب سلفيين حتى رحل ابن تومرت الى المشرق وعزم على احداث انقلاب بالمغرب سياسي علمي ديني • فأخذ بطريقة الاشعري ونصرها وسمى المرابطين السلفيين « مجسمين » وتم انقلابه على يد عبد المؤمن ، فتم انتصار الاشاعرة بالمغرب • واحتجبت السلفية بسقوط دولة صنهاجة ، فلم ينصرها بعدهم إلا أفراد قليلون من أهل العلم في أزمنة مختلفة ، ولشيخ قسنطينة في القرن الثاني عشر عبد القادر الراشدي أبيات في الانتصار للسلفيين طالعها :

خبرا عني المؤول اني ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ كافر بالذي قضته العقول

ومنذ أعلن المعز بن باديس مذهب مالك أصبح هو مذهب أهل السنة بالمغرب • وزاده المرابطون تأييدا • فكان لا يقطع أمر في

مملكتهم الا بمشورة الفقهاء المالكيين فعظم شأنهم ونفقت كتب المذهب • قال صاحب المعجب :

« وكثر العمل بكتب المذهب ونبذ ما سواها حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسونه (ص) فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء • ودان الناس بتكفير من يخوض في علم الكلام • وقرر الفقهاء عند علي بن يوسف بن تاشفين تقبيحه وكراهة السلف له وانه بدعة في الدين ، وربما أدى الى اختلال في العقائد فكان يكتب عنه في كل وقت بالتشديد في نبذه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ، وأمر باحراق كتب ابي حامد الغزالي لما دخلت المغرب ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال الى من وجد عنده شيء منها واشتد الامر في ذلك » اهـ •

ولم يكن يومئذ بالمغرب غير مذهب مالك وربما كان من أهل الاندلس من أخذ بمذهب الشافعي أو أبي سليمان داوود امام أهل الظاهر • وولادته سنة 202 ووفاته سنة 270 وأظهر من أيد مذهبه بالاندلس ابن حزم المتوفي سنة 456 •

وعكست دولة الموحدين كل ما كان أيام المرابطين ، ففي سنة 550 بنى عبد المؤمن المساجد وأصلحها وحرق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث ثم جاء حفيده المنصور فجرد كتب الفقه من الآيات والاحاديث ، ثم حرقها ، فاحرقت مدونة سحنون ونوادر ابن أبي زيد ومختصرة وتهذيب البرادعي وواضحة بن حبيب وغيرها • ومنع الاشتغال بعلم الرأي وأمر جماعة من المحدثين بجمع أحاديث من الموطأ والصحيحين والترمذي وأبي داوود والنسائي والبزار وابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي فجمعوا منها أحاديث في الصلاة وما يتعلق بها فكان يملي هذا المجموع بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه • فانتشر

في جميع المغرب وحفظه العامة والخاصة . وجعل لمن حفظه جعلا من كسي وأموال .

قال صاحب المعجب : وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وازالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وكان هذا مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره هو » اهـ .

قال ابن الاثير : « واستقضى يعقوب المنصور آخر أيامه الشافعية على بعض البلاد . ومال اليهم » اهـ .

13 ــ التصوف والصوفية

كان عليه الصلاة والسلام مجتهدا في العبادة حتي ورمت قدماه . ولكنه نهى من أراد من أصحابه الانقطاع للعبادة . وصح عنه « ان الله لا يمل حتى تملوا » وظهر بعده بالبصرة وغيرها نساك بالغوا في التعبد ونقلت عنهم حكايات غريبة في التواجد لسماع القرآن فأنكر عليهم الصحابة وعلماء التابعين .

قال ابن تيمية في رسالته الصوفية والفقراء : « والمنكرون لهم مأخذان . منهم من ظن ذلك تكلفا وتصنعا . يذكر عن محمد بن سيرين انه قال ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط . فان خر فهو صادق ومنهم من أنكر ذلك لانه رآه بدعة مخالفة لما عرف من هدي الصحابة كما نقل عن اسماء وابنها عبد الله » اهـ .

ثم ظهر على مرسح السياسة غلاة الشيعة الامامية والاسماعيلية والقرامطة . فلما غمرتهم القوة العباسية تدثروا بالزهد والنسك .

ونشروا دعاتهم في البلاد لاصطياد غفل العوام باشراك سداها التدجيل بالغلو في العبادة والمبالغة في تعظيم آل البيت ونسبة الكرامات اليهم • وبهذا تأسست دولة بني عبيد الذين كان منهم من ادعى الالوهية أو أدعيت له •

هذه صورة مصغرة لحياة المسلمين الدينية والسياسية في القرن الثاني • قال السهروردي : « ولم يعرف اسم التصوف الى المائتين من الهجرة » اهـ • ولا يعرف بالضبط تاريخ ظهور التصوف ولا واضعه ولا أول صوفي • وقد قيل ان الصوفي منسوب الى صوفة الذين كانوا يجيزون بالحجاج في الجاهلية • وأول من سمي منهم صوفة هو الغوث ابن مر بن ادبن طابخة بن الياس بن مضر ، ويزيفه انه لم يعرف اسم الصوفية لطائفة من العباد ذات شعار خاص لا في الجاهلية ولا زمن الصحابة والتابعين ، وهناك أقوال في توجيه لفظ الصوفي ، نقضها القشيري في رسالته ، وقال : « لا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والا ظهر انه كاللقب » اهـ •

ولم يوجه القشيري تلقيبهم بهذا اللقب • فكأنه اعترف بانه لا أصل له في العربية • وهو الحق ، فان التصوف معرب تيو صوفية (THEOSOPHIE) وهو لفظ يوناني مركب من تيوص بمعنى الإله وصوفية بمعنى الحكمة • وهي طريقة رياضية لمعرفة الله ، يزعم أهلها مناجاته ووحيه اليهم ونيلهم منه عرفانا ومننا خاصة وانه يتجلى لهم في الكون أو الطبيعة حتى يمتز جوابه ومذهبهم وحـدة الوجود ، ولمريديهم درجات في السلوك الى هذه الغاية •

هذا هو التصوف الذي عرفه اليونان والهنود قديما ، ثم استقت منه المسيحية حتى اذا انتشرت باروبا غطته فتنوسي بها الى أن أحياه بالتآليف العديدة سبينوزا بروخ اليهودي المتوفي بمدينة لاهاي سنة 1088 (1677 م) فصار التصوف معروفا اليوم بأروبا •

ودخلت لفظة التصوف اليونانية الى العربية لما ترجمت كتب اليونان والهند في الدور العباسي لا سيما أيام المأمون ، وكان ذلك العصر عصر اختلاف ديني واضطراب سياسي ، فأخذ من التصوف كل فريق حسب استعداده وصوره بما يلائم غايته ، واختلفت قواعد التصوف ونظمه باختلاف جنسية المتصوف وعصره ومصره وميله إذ العمدة فيه الرياضة وما يرد على صاحبها أثناءها من خواطر والهامات ، فليس له ضابط يضبطه ولا قانون يسيطر عليه .

وكان من الصوفية من يعتمد على الرياضة وحدها ومنهم من يقيدها بالدين ، فتعددت مذاهبهم الى سنيين ومبتدعين ومارقين من الدين يقولون بالوحدة المطلقة أو الاتحاد المطلق أو الحلول المطلق أو الحلول الخاص ، ولهم في تصوير مذاهبهم عبارات غامضة واشارات بعيدة ، فربما يجمع قارئي كلامهم بين الايمان والكفر وهو لا يشعر ، فيصير كمن قال :

عقد الخلائق في الإله عقائدا وانا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وكان سيد الصوفية السنيين ابو القاسم الجنيد المتوفي سنة 297 يقول : « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام » وقال : « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الامر لان علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » .

وقد استعمل غلاة الشيعة بعض الصوفية في مقاصدهم السياسية ، فألف منهم جماعة في القرن الرابع رسائل سموها « رسائل اخوان الصفا » وبثوا فيها من الكفر والضلالات والاستخفاف بالشريعة ما يعلم بمطالعتها ، وقالوا انهم جمعوها من كلام الخلصاء الصوفية .

وذكر ابن خلدون في المقدمة امتزاج التصوف والشيعة الامامية ،

فقال : « ثم أن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة • وملؤا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره ، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم •

« وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وألهية الأيمة مذهبا لم يعرف لأولهم ، فاشرب كل من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم ، وتشابهت عقائدهم » •

« وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان ، وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها •• وهو بعينه ما تقوله الرافضة ، ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء ، ثم انهم أسندوا لباس خرقة التصوف الى علي (رض) وهو من هذا المعنى ايضا ، وإلا فعلي (رض) لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال » اهـ •

وتصوف ابن سينا انما هو تصوف يوناني مأخوذ عن ارسطاطليس ، قال القفطي متكلما عن مترجمي كتب ارسطاطليس : « وأقرب الجماعة حالا في تفهيم مقاصده في كلامه الفارابي ابو نصر وابن سينا ، فانهما دققا وحققا فحملا علمه على الوجه المقصود واعذبا منه لو ارده مذهبه المورود ، ووافقاه على شيء من أصوله فكفرا بكفره » اهـ • ثم قال في الكلام على الالهيات : « وقد قرب من ارسطاطليس في قوله فيها الفارابي وابن سينا » اهـ •

وقد استمال الصوفية العامة بظواهرهم فمالت اليهم لتقريبهم لها

طريق السعادة بالرياضة التي هي على العامة أيسر من العلم ، وباعتقاد أن شيوخهم يحملون عنهم تقصيرهم في الدين ، فكان للصوفية فيهم نفوذ اضطر الامراء الجائرين الى خدمتهم وعلماء السوء إلى تأييدهم من غير فرق بين سني وغيره ، فأصبح التصوف مطلقا هو لب الدين في عقد العامة ومغفلي العلماء ، ويرحم الله القائل :

وهل أفسد الدين الا الملوك   واحبار ســـوء ورهبانها

وقد ضج العلماء الناصحون والصوفية السنيون من أعمال عامة الصوفية واضلالهم للعامة ، قال القشيري من أهل القرن الخامس في صوفية عصره : « ثم اعلموا رحمكم الله ان المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زمننا هذا منهم الا أثرهم :

اما الخيام فانها كخيامهم   وارى نساء الحي غير نسائها

زال الورع وطوي بساطه ، واشتد الطمع وقوي رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالات بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، واستخفوا باداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات وركنوا الى اتباع الشهوات وقلــة المبالات بتعاطي المحظورات والارتفاق بما يأخذونه من الســوقة والنسوان واصحاب الســلطان » .

« ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا الى أعلى الحقائق والاحوال وادعوا انهم تحرروا عن رق الاغلال وتحققوا بحقائق الوصال وانهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وانهم كوشفوا باسرار الاحدية واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية

وبقوا بعد فنائهم عنهم بانوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم اذا نطقوا والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا » اهـ •

ولابي حيان النحوي المتوفي سنة 745 في صوفية عصره :

حلبت الدهر أشطره زمانا — وأغناني العيان عن السؤال
فما ابصرت من خل وفي — ولا آلفيت مشكور الخلال
ذئاب في ثياب قد تبدت — لرائيها باشكال الرجال
ومن يك يدعي منهم صلاحا — فزنديق تغلغل في الضلال
ترى الجهال تتبعه وترضى — مشاركة بأهل أو بمال
فينهب مالهم ويصيب منهم — نساءهمو بمقبوح الفعال
ويأخذ حاله زورا فيرمي — عمامته ويهرب في الرمال
ويجرون التيوس وراء رجس — تقرمط في العقيدة والمقال

ولشيخ الاسلام أحمد بن تيمية المتوفي سنة 728 رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور أجاب بها عن استفتاء رفع اليه ونصه :

« ما تقول السادة العلماء ايمة الدين وعلماء المسلمين رضوان الله عليهم أجمعين بمن يزور القبور ويستنجد بالمقبور في مرض به أو بفرسه أو بعيره يطلب ازالة ذلك المرض ويقول يا سيدي أنا في جيرتك أنا في حسبك : فلان ظلمني فلان قصد أذيتي • ويقول ان المقبور يكون واسطة بينه وبين الله تعالى ، وفيمن ينذر للمساجد والزوايا والمشائخ حيهم وميتهم ، الدراهم والابل والغنم والشمع والزيت وغير ذلك : يقول ان سلم ولدي فللشيخ عليّ كذا وكذا وامثال ذلك وفيمن يستغيث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع وفيمن يجيء الى شيخه ويستلم القبر ويمرغ وجهه عليه ويمسح القبر بيديه ويمسح بهما وجهه وأمثال ذلك ، وفيمن يقصده بحاجته ويقول يا فلان ببركتك أو يقول قضيت حاجتي ببركة الله وبركة

الشيخ ، وفيمن يعمل السماع ويجيء الى القبر فيكشف ويحط وجهه بين يدي شيخه ساجدا ، وفيمن قال ان ثم قطبا غوثا جامعا في الوجود . افتونا مأجورين وأبسطوا القول في ذلك » اهـ .

ومما يستغرب اتفاق عالمين جزائريين وحجازي في القرن الحادي عشر على وصف صوفية زمانهما بوصف واحد ، قال الاخضري الجزائري » اهـ .

وظهرت في هذه البلاد طائفة البلع والازدراد

وقال شهاب الدين المرشدي المكي الحجازي :

صوفية العصر والاوان صوفية العصر والاواني

قال محشي شيخ الاسلام زكرياء على الرسالة القشيرية الشيخ مصطفى محمد العروسي من أهل القرن الثالث عشر في عقيدة له :

« اني بذلا للنصيحة أحذرك من متابعة مشائخ هذا الوقت ممن لا يثمر الاجتماع بهم خلاف المقت اذ هم قطاع طريق الله على عباده وأعداء الاولياء الداعين الى سبيل ارشاده حيث لا همة لهم الا جمع العرض الفاني ولا سعي لهم الا في تجريد القاضي والداني أزاحهم الله من جميع البلاد وأراح منهم الدواب والعباد .. فعليك يا أخي في مثل هذا الوقت بخاصة نفسك وتباعد عمن بهم تزيد قاذورات رجسك ، وتابع هدى سيد المرسلين وامام كل النبيئين والمرسلين فكافيك التمسك بالقرآن والتنسك على طريق سيد ولد عدنان ولا تغرنك — لو فرض — خوارق العادات فانها كما تكون للكرامة توجد لقصد الاهانة ، فهذه وصيتي اليك قد ذكرتها شفقة عليك دعاني الى ذكرها رعاية المقام فتقبلها ومني عليك السلام » اهـ .

وقد أطلنا خلاف عادتنا في هذا الموضوع ، ولكنا في الحقيقة قد

بالغنا في الايجاز فانه موضوع طويل عريض . ولـه بحياة المسلمين الدينية والسياسية ارتباط قوي ، فلا يجدر بالمؤرخ اهماله وان لم يسعه استقصاؤه .

وقد عرفت الجزائر التصوف زمن بني عبيد ، لكن العلماء انكروا عليهم وكفروهم حتى قال محمد بن عمار الكلاعي الميروقي يوصي ابنه من قصيدة :

وطاعة من اليه الامر فالزم وان جاروا وكانوا مسلمينا
فان كفروا ككفر بني عبيد فلا تسكن ديـار الكافرينا

فلم يكن يومئذ بالمغرب شأن للصوفية الـى أن جاءت الدولة المؤمنية ونشرت المعارف ونصرت الفلسفة ، فظهر من الصوفية رجال ذوو علم طار صيتهم في الآفاق ولكن لقوة نفوذ الدولة لم يتغلبوا على العامة حتى سقطت وخلفتها دول تنازع امراؤها أمرهم بينهم فضعف سلطانهم ، وعلت كلمة الصوفية فمثلوا أدوارهم مع العامة وكان ذلك مبتدأ انحطاط الجزائر والمغرب دينيا وسياسيا .

ومن مشاهير الصوفية الذين عرفتهم الجزائر أبو مدين شعيب الاندلسي دفين تلمسان المتوفي سنة 591 (أو) 594 قرأ بفاس على ابن حرزهم وغيره وأخذ التصوف عن ابي يعزى وتعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني وأخذ عنه واستوطن بجاية فكان يقرئى بها رسالة القشيري وغيرها ، وكثر أتباعه فاستقدمه يعقوب المنصور الى مراكش فلما بلغ تلمسان توفي بها ودفـن برابطة العباد ، وضريحه مشهور يتبرك بـه .

ومن كلامه « بفساد العامة تظهر ولاة الجور وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون » وقال : « احذر محبة المبتدعين فهو أبقى على دينك ، واحذر محبة النساء فهو أبقى على قلبك » .

ومنهم محي الدين بن عربي الاندلسي دفين دمشق المتوفي سنة 638 وكان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات يميل في فلسفته الى الغموض ، ومن آرائه : « التثليث أساس الوجود ، ومع ان الله في اعتقادنا فرد فاول عدد فردي ثلاثة لا واحد » .

ومنهم ابو الحسن الشاذلي نسبة الى شاذلة قرية بتونس قيل انها مرناق ، وتوفي بارض الحجاز سنة 655 والناس فيه بين مادح وقادح ، وله أوراد واذكار انتشرت في الناس غربا وشرقا ، وتفرع من طريقته طرق كثيرة ، ويلقب اتباعه بالدراويش وبالفقراء ، والدرويش كلمة فارسية معناها القانع أو الفقير .

ومن كلامه : « اذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بهما ودع كشفك ، فان الله قد ضمن فيهما العصمة ولم يضمنها في الكشف » .

ومنهم عبد الحق بن سبعين المتوفي سنة 669 سكن بجاية مدة وأقرأ بها ثم لحق بالمشرق وجاور بمكة ، وعن قطب الدين القسطلاني انه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث : مذهب ابن سبعين وتملك التتر للعراق واستعمال الحشيشة حكاه في نفح الطيب وذكر أيضا : « ان الامير ابا عبد الله بن هود من أمراء الاندلس أرسل سفيرا عنه الى البابا برومة ابا طالب بن سبعين أخا عبد الحق فقال له البابا ان أخاك ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه » وارى أن هذه الشهادة ان لم تدل على مواصلة سرية بين البابا وعبد الحق تدل على قرب مذهبه من المسيحية . ومن كلامه في أبي مدين : « شعيب عبد عمل ونحن عبيد حضرة » .

هذا وقد اتخذ دجاجلة الصوفية الانتساب الى سني صوفي عظيم سببا للارتزاق وخلبوا عقول العوام بالظواهر والدواعي . وغمروها

بالخرافات والاضاليل فأوردوها موارد الردى وصدوها عن سبل الهدى • ولله عبد الحق الاشبيلي استاذ بجاية اذ يقول :

لا يخدعنك عن دين الهدى نفر ... لم يرزقوا في التماس الحق تأييدا
عمي القلوب عروا عن كل فائدة ... لانهم كفروا بالله تقليدا

14 — سقوط الدولة المؤمنية

كان الاولون من خلفاء هذه الدولة يباشرون أمور المملكة بأنفسهم ويطالعون أخبار حكامهم ولا سيما المنصور • فقد قال عنه صاحب المعجب ما ملخصه :

« وكان يقعد للناس عامة ولا يحجب عنه صغير ولا كبير حتى قضى بين رجلين في نصف درهم • ثم قعد للناس في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة • وكان قاضيه يجلس حيث يسمع حكمه في جميع القضايا ، ليس بينهما غير ستر من ألواح وكان يدخل عليه أمناء الاسواق وأشياخ الحضر مرتين في الشهر يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم • واذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عنه عمالهم وقضاتهم وولاتهم ، ويحذرهم كتمان الشهادة ، وقد يتلو قوله تعالى : يايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين » اهـ •

بهذا استقامت أمورهم ، فلما ولي الناصر تغيرت الحالة بعض التغير ففوض الشؤن لوزيره أبي سعيد بن جامع الذي لم يكن نبيه البيت في الموحدين ، فاستهان بشيوخهم حتى فر من بساط الناصر من يعتمد عليه منهم •

وفي سنة 607 خرج الناصر لغزو الاندلس بعدما استنفر الناس

عامة ، وأساء ابن جامع التدبير ، وأوغر صدور بعض العظماء ، فكانت وقعة العقاب على المسلمين سنة 609 فني فيها أكثر رجال الدولة وذهبت الحامية من البلدان وانحرف قواد الاندلس عن بني عبد المؤمن ثم ظهر الخلاف بينهم انفسهم ، وتواثبوا على عرش مراكش ، فاختلت الدولة .

وفي سنة 610 صعد بنو مرين الى تلول المغرب الاقصى ، فملكوا بواديه وأعلنوا حرب بني عبد المؤمن سنة 613 واقتطع عنهم ابو زكرياء الحفصي ولايتي تونس وبجاية سنة 28 وثبت يغمراسن بن زيان والي تلمسان على ولايتهم حتى أخضعه أبو زكرياء سنة 640 .

وفي سنة 610 صعد بنو مرين الى تلول المغرب الاقصى ، فملكوا واجفل امامه بنو مرين ، ووفد عليه يغمراسن ابن زيان في ألف فارس من قومه ، فبايعه بفاس وخلع عليه السعيد وأمره باستئصال مريـن وأمده بالاموال والرجال ، فخرج اليهم يغمراسن حتى ألحقهم بكرت ، ثم عاد الى فاس فقيل له انك مغدور ، فغادر فاسا هو وقومه وسالم بني مرين ، وبعث اليه السعيد بالامان ، فامتنع خشية الغدر .

وفي سنة 45 خرج السعيد من مراكش لاخضاع المستبدين عليه من بني مرين وبني عبد الواد وبني ابي حفص ، وحشد أمما كثيرة ، وبلغ تازا في المحرم سنة 46 فأرسل اليه أمير مرين ابو يحي ابو بكر ابن عبد الحق ببيعته ، وعرض عليه العود الى مراكش وانه يكفيه أمر يغمراسن ، وكان السعيد شهما حازما يقظا بعيد الهمة ، فشكر لابي يحي خدمته ، وأمره بامداده وتوجه نحو تلمسان .

وخرج يغمراسن في أهله وقومه الى قلعة تامزردكت قبلة وجدة فاعتصم بها وأوفد وزيره الفقيه عبدون على السعيد بالطاعة والاعتذار عن تخلفه ، فابى السعيد الا حضوره ، فامتنع يغمراسن خشية على

نفسه فقصد السعيد القلعة وأحاط بها ثلاثة أيام وفي الرابع ركب حين القيلولة يبحث عن عورة يأخذ منها القلعة فبصر به فارس من بني عبد الواد كان يحرس القوم ، فطعنه وكبه عن فرسه ، وكان يغمراسن وابن عمه يعقوب بن جابر قريبين منه ، فعرفا السعيد وانقض القوم من الشعاب على مواليه • وبلغ النبأ المحلة فتفرقوا ايدي سبا وذلك في صفر سنة 46 •

وبادر يغمراسن الى السعيد وهو يجود بنفسه فحياه وفداه واقسم له على البراءة من دمه فلما قضى حمله الى العباد ودفنه وارسل مع حرمه واخته من اوصلهن الى مأمنهن ، وانتهى أمر بني عبد المؤمن من تلمسان ثم قضى عليهم بنو مرين بدخولهم مراكش سنة 68 •

وكانت مدة هذه الدولة بولاية بجاية من سنة 547 الى سنة 628 وبولاية تلمسان من سنة 539 الى سنة 646 ومدتها منذ مبايعة المهدي بتينملل الى القبض على اسحق ابن اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن بتينملل من سنة 515 الى سنة 674 •

ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكأنها وكأنهم أحلام

الباب الخامس

في احـــوال العـــرب

لعهد الحفصيين والزيانيين والمرينيين

ا ــ تمهيــد :

استكان العرب بعد ثورة ابن غانية لقوة الدولة التي عرفت كيف تسوسهم • لكن الحفصيين نواب بني عبــد المؤمن بتونس استقلوا عنهم • وحنو الى وطنهم • فطمعوا في فتح مراكش • ولم يقووا على تحقيق آمانيهم الا بمعاضدة زناتة • فعاضدتهم وهي تسر حسوا في ارتغاء • وكانت النتيجة سقوط الدولة المؤمنية وقيام ثلاث دول مكانها هم الحفصيون والزيانيون والمرينيون •

لم تعترف هــذه الدول بعضها لبعض بالاستقلال • فاستمرت الحروب بينهن • وربما وقعت الحرب بين الامراء المرشحين للملك في الدولة الواحدة • وتقاربت قواتهم الحربيــة والسياسية فلم ينحسم النزاع •

وكان ملوك تلك الدول في حاجة الى العرب لكن اضطربت سياستهم معهم • فاذا كانت الحرب واحتاجوا اليهم اقطعوهم الاراضي الواسعة وجباية القبائل المستضعفة ونفحوهم بالهدايا والاموال وقربوهم بالصهر والاستشارة • واذا استغنوا عنهم بالسلم قلبوا لهم ظهر المجن وحاولوا تجريدهم من امتيازاتهم • فلم يعدم العرب في الامراء المرشحين للملك والملوك الطامعين في التوسع ما يعينهم على احداث ثورة للاحتفاظ بامتيازاتهم •

وكان العرب يحسنون الاستفادة في أمثال هذه الظروف لتقوية حريتهم وتوسيع مجالات تنقلهم في الشمال والجنوب وكانوا يفترقون حسب افتراق مصالحهم على الدول والملوك •

ونتج عن هذه السياسة ضعف الدول وفقد الامن وقلة الانتاج واستحكام العداوة بين القبائل وطمع اسبانيا في امتلاك المغرب ، ولولا قيام الدولة التركية بأساطيلها في وجوه الدول الاروبية للحق المغرب بالاندلس وصقلية • على أن عوامل الافتراق التي غرست في هذا الدور لم تزل تنخر جسمنا الى اليوم •

والمسئول عن هذه النتائج السيئة هم الحفصيون الذين أسقطوا الدولة المؤمنية حامية الاندلس وآسية العرب • ثم عجزوا عن حفظ المغرب وتوحيده • ثم اضطربت سياستهم مع العرب وقووا أغراضهم في الحياة البدوية بدلا من تمدينهم وتهذيبهم • والعرب بداة لا غرض لهم في الملك • فليس عليهم ضمان في هذه النتائج السياسية التي هي خاصة الملك •

ولعلنا بهذا الفصل وضعنا أساس البحث للناقد البصير في قواعد ابن خلدون الاجتماعية التي وضعها على حساب العرب البداة دون الحفصيين الملوك الذين كان ريشه منهم هواه معهم • يعرف ذلك من عرف حياته ودقق النظر في أساليب تاريخه • فأدرك الفرق بين أسلوبه في الدولة الحفصية وأسلوبه في غيرها • حتى انه أجهد نفسه في تصحيح نسب ابن تومرت في آل البيت ونسب الحفصيين في آل عمر بن الخطاب (رض) مع انه انكر انسابا هي أقوى من هذين النسبين والكمال لله •

2 — رياح والاثبج وسليم

كانت قبيلة عوف بن سليم تجاور رياحا على حدود عمالة قسنطينة ، وتبلغ ناجعتها نواحي بونة ، واها بطنان هما مرداس وعلاق ، ومن علاق حصن ويحي ومن حصن حكيم وبنو علي ، ومن يحي العكوب ، ومن العكوب أولاد مهلهل وأولاد ابي الليل ، ومن أولاد ابي الليل الاعشاش •

وكان ابو زكرياء الحفصي اصطنع عوفا على رياح فاخرجتهم الى عمالة قسنطينة ، وجازتها الدولة على ذلك بالتضريب في بطونها ، حتى لا يستبدوا عليها فكان المغلوبون من عوف ينزلون على رياح للاجلاب على الدولة ، واستقرت رئاسة عوف في أولاد مهلهل وأولاد أبي الليل ، وتنازعوا أمرهم بينهم وأصبح حال الدولة بينهم حال القائل : رضى هذا يحرك سخط هذي •

وحكيم كانوا يحالفون تارة أولاد مهلهل وأخرى أقتالهم ، واشتهر من شيوخ حكيم أبو زيد بن عمر بن يعقوب وابنه خليفة ومحمد ابن مسكين وخليفة ابن أخيه ، وكان منهم أول القرن التاسع الشيخ المرابط أحمد بن أبي صعنونة بن عبد الله بن مسكين •

وكان بمقرة بيوت من دباب ومرداس ، أوقع بهم المستنصر سنة 651 واعتقل منهم بالمهدية رحاب بن محمود وابنه في آخرين •

وأقطع الحفصيون كرفة بادس والزاب الشرقي وجباية أوراس الشرقي ، ليوقعوا رياحا بين نارين ، فلم تفعل كرفة أكثر من المحافظة على اقطاعها ، ولم يجدوا في بقية بطون الاثبج من يقدر على مقاومة رياح ، وان بقيت في بعضهم رئاسة •

قال ابن خلدون : « ورئاسة أولاد وشاح من دريد لعهدنا منقسمة

بين سحيم بن كثير بن جماعة بن وشاح ، وأحمد بن خليفة بن رشاش ابن وشاح ورئاسة أولاد مبارك بن عابد منقسمة ايضا بين نجاح بن محمد بن منصور بن عبيد بن مبارك ، وعبد الله بن أحمد بن عنان ابن منصور » اهـ •

وكان شيخ محيا من العمور في القرن الثامن عامر بن أبي يحي ابن محيا حج ولقي بمصر يوسف الكوراني شيخ الصوفية ، فلقن طريقه وحمل عليها قومه وعني بتأمين السبل فحارب النضر جيرانه لافسادهم • فاغتالوه •

وفي عصره كان شيخ أولاد زكرير يعمور بن موسى بن ابي زيد ابن زكرير فكان يناهضه في شرفه ، ولكن عامرا اسود منه لمعه بين مشيختي القبيلة والطريقة •

وكانت عياض تتولى جباية جيرانها من البربر لصاحب بجاية وأكثر الاثبج عجزوا عن الظعن وأقاموا بالمدن وانضوى تحت لواء رياح الضحاك ولطيف والعمور الشرقيون •

غلبت رياح أولا على منطقتي الهضاب والصحراء من عمالة قسنطينة الى زاغز من عمالة الجزائر • وعنوا بالفلاحة وتربية المواشي ، فأثروا وكثروا واعتزوا على الدولة الحفصية لبعدهم عن عاصمتها ، وأصبحوا مأمنا لكل مسخوط من الدولة وعونا لكل ثائر يخطب الملك •

وكانت لهم امتيازات واقطاعات منحهم اياها ملوك أعانوهم على تبوأ العرش أو على حمايته من ثائر عليه حتى ان الذواودة كان لهم بقسنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم علاوة على ما بايديهم من البلاد وما لهم من خفارات ، وكانوا معفين من الضرائب وكان هذا مما يضر بمالية الدولة •

وكانت الحكومة اذا آنست من نفسها القوة انتقمت منهم على اعانتهم لثائر أو نقصتهم عطاءهم أو منعتهم اياه ، فلم يعدموا في ملوك زناتة أو أمراء البيت الحفصي قائدا للثورة ، وهكذا استمرت حياة رياح والحفصيين • واختلفت أيامهم سلما وحربا ، ولم تزد رياحا الايام إلا قوة •

وكانت بطانة الحفصيين يستعملون نفوذهم مع رياح وغيرها في مصالحهم الخاصة وحسب أهوائهم ، فربما دعوا القبيلة اليوم الى طاعة ملك ودعوها غدا الى حربه ، وهذا عبد الرحمن بن خلدون كان مع الحفصيين فدعا رياحا لطاعتهم ثم فارقهم • فدعاها لابي حمو الثاني سنة 769 ثم حملها على حربه ومحالفة عدوه عبد العزيز بن ابي الحسن سنة 772 • ومع هذا التلاعب الذي لم يسلم منه فيلسوفنا نراه يؤنب العرب ان جرؤا على الدولة •

وكانت بطون رياح تبعا للذواودة الذين كان منهم مسعود بن سلطان واخوه عساكر ومحمد بن مسعود • واستمرت الرئاسة في أولاد مسعود • ومال عنهم ابناء عساكر للدولة سنة 666 فولى المستنصر رئاستهم مهدي بن عساكر ثم ابنه ماضي ثم موسى ابن ماضي • واقطعتهم الدولة نقاوس ، وحالفتهم عياض • ولكن غمرهم اولاد مسعود •

وكان محمد بن مسعود مع يحي بن غانية وتوفي بعد وفاته • فخلفه ابنه موسى • وكان عظيم الصيت معتزا على الدولة • ووفد على أبي زكرياء لما نزل بباغاية سنة 47 فبايعه • وتوفي أيام المستنصر • فخلفه ابنه شبل • واستطال على الدولة • وبايع أبا القاسم بن عبد الرحمن ابن الامير عبد الواحد سنة 661 وقد نزل عليه بنقاوس • وخرج اليه المستنصر سنة 64 فبلغ المسيلة • واعجزه • فعاد الى تونس • وأمر عامل بجاية أبا هلال باستئلافه •

وخرج المستنصر سنة 666 فعسكر بالحضنة على ثنايا الزاب ازاء جموع رياح • وترددت الرسل بين شبل وابي هلال • فأقنعه بحسن عاقبة الوفادة على السلطان • فقدم هو وأخوه يحي وسباع بن يحي ابن دريد بن مسعود وطلحة بن ميمون بن دريد وحداد بن مولاهم ابن خنفر بن مسعود ودريد بن تازير شيخ أولاد نابت من كرفة • فضرب المستنصر أعناق هؤلاء الامراء • وصلب اشلاءهم بزرايا قرب نقاوس حيث بايعوا ابن عمه ابا القاسم • وأجفلت رياح والعساكر أثرها تنهبها حتى قطعت وادي جدي ، فرجعت العساكر ، ولحق أولاد يحي بن دريد بيغمراسن ابن زيان ، وبنو محمد بن مسعود بيعقوب بن عبد الحق فأكرموهم ووصلوهم بالمال والخيل والابل والكراع •

وعادت رياح فغلبت على ورقلة ووادي ريغ ، وتقدموا الى الزاب فهزموا عامله عثمان بن محمد بن عتو ، ثم قتلوه بقطاوة ، وملكوا أوراس أيضا ، وقتلوا موسى بن ماضي ، وأخذوا الحضنة ، واضطرت الدولة الى مهادنتهم ، فاقطعهم السلطان ابو اسحق أخو المستنصر ما غلبوا عليه •

ونشأ سباع بن شبل في كفالة عمه مولاهم بن موسى ، ورأس على قومه واقطعته الدولة المسيلة ، وتربى علي بن سباع في حجر عمه طلحة بن يحي وصارت اليه المسيلة وبقيت في عقبة ، وكانت مقره في اقطاع أحمد بن محمد بن مسعود وخلف سباع بن شبل ابنه عثمان العاكر ، وخلف علي بن سباع ابنه سليمان فتنازعا رئاسة قومهما ، وافترق أولاد مسعود الى فرقتين أولاد محمد وأولاد سباع بن يحي وافترقت عليهم رياح فكان سعيد مع أولاد محمد ، ومسلم والاخضر مع أولاد سباع ، واقتسموا المواطن بورقلة وريغ والزاب والحضنة والتلول ، فكان لاولاد سباع المسيلة وجبال عياض ومتنان وانوغة

ونواحي بجايـة ، ولاولاد محمد مقـرة والزاب الاوسط ونواحي قسنطينة ، وكانت طولقة والزاب الغربي بينهم • فتقاتلوا عليه حتى اختص به أولاد سباع • ولكن مواطن أولاد محمد أخصب وأوسع وسيادتهم أعظم وعددهم أكثر •

ثم افترقت رئاسة أولاد سباع بين علي وعثمان ابني سباع بن يحي وعثمان هذا هو الذي وفد سنة 701 على السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان وحرضه على ملك بجاية •

وخلف علي بن سباع ابنه سليمان ثم ابنا سليمان عطية ويوسف ثم عثمان بن يوسف الذي أخذ بطاعة ابي عنان المريني ، ويرادف أولاد سليمان أخوتهم أولاد يحي أخي سليمان •

وانتقلت رئاسة أولاد محمد الى أولاد أحمد بن عمر صاحب مقرة ، فتولاها أبو يحيى بن أحمد الى أن هلك أوائل المائة الثامنة ، فخلفه أخوه علي ، وكان أعظم أمراء رياح ، وخلفه ابنه يعقوب ، وطالت مدته ، حتى توفي سنة 790 بنقاوس ودفن ببسكرة واشتهر من ابنائه صولة ومحمد •

وكان يعقوب بن علي أعظم أمراء رياح من سبقه منهم ومن لحقه• له ولوع بالفلاحـة والعمران ، اختط قريـة فرفار قرب طواقة ، ونزل عليه بها ابن خلدون في وفادته على سلطان تونس سنـة 780 وله أملاك بطولقة ونقاوس والصحراء والتل ، وله رغبة في السلم ، وكثيرا ما يصلح بين أمراء الحفصيين أو بين الامراء والرعايا ، ونزل عليه الامير أبو يحي زكرياء لما ثار على أخيـه سنة 759 واصهر اليه في ابنة اخيه سعيد فانكحه اياها •

وكان يعقوب قد بايع ابا الحسن المريني • وفد عليه في زحفه على تونس بأرض بني حسن قرب البرواقية ، وذهب معه أخوه ابو دينار

سليمان الى المغرب حتى مات • فوفد على ابنـه ابي عنان واكرمه ، وطلب منه تسهيل السبيل لفتح تونس ، فلما زحف اليها ابو عنان بايعه يعقوب واخوه سليمان ، وخالفهما اخوهما ميمون الى ولاء الحفصيين• ثم رأى يعقوب محاولة ابي عنان لانتزاع امتيازاتهم فنبذ طاعته سنة 58 وخالفه اليه ميمون ، ورام ابو عنان ارضاء يعقوب او القبض عليه ، فلم يقدر على أكثر من تخريب قصوره بالصحراء والتل •

ثم حج يعقوب وعاد فالفى قومه في حرب مع أمير قسنطينة ابراهيم بن السلطان ابي العباس لمحاولته نزع امتيازاتهم ، فسعى في الصلح وطلب من ابراهيم انصاف العرب فأعرض عنه فاعتزل يعقوب الحرب وتوفي فخلفه ابنه محمد وفرق عنه ابراهيم كلمة رياح وحاربه فانهزم ، فلما أصحر محمد جد ابراهيم في حماية التلول عنـه واضطره الى المصيف في الزاب سنة 92 ثم هجم على التل في السنة التالية ، ومات الامير ابراهيم وتفرقت جموعه فتقدم محمد بن يعقوب الى نواحي قسنطينة ونادى بالامان فأمنت الطرق وصلحت أحوال الرعايا • وبعث الى السلطان ابي العباس بطاعته •

وفي سنة 96 ولي قسنطينة ابو بكر بن ابي العباس وعكف على لذاته وأساءت بطانته الادارة فانقضت رياح على الدولة وقتلوا في بعض حروبهم معها قائد قسنطينة جاالخبر سنة 833 •

وكان كبير الذواودة سنة 38 عيسى بـن محمد ، وكلمته مـع السلطان محمد الرابع المنتصر مسموعة ، ومن معاصريه سباع بن محمد ولعله أخوه وبينهما اختلاف ومن شيوخ الذواودة منتصف هذا القرن التاسع أحمد بن علي ، ومنهم نصر بن صولة ولا ادري أصولة هذا هو ابن يعقوب بن علي أم غيره ؟

وآخر كلمة في تاريخ دولتي الموحدين للزركشي قوله : « وفي

أواسط المحرم من عام 882 ورد على السلطان نصر بن صولة شيخ الذواودة طالبا للعفو فعفا عنه وانصرف الى أهله بعد الاحسان خديما » اهـ •

3 — رياح والاصلاح

كان القرن السابع الذي سقطت فيه الدولة المؤمنية مبدأ انحطاط عام ، فكثر الملوك وتزاحمهم وتحاربهم • ووجدت الرعايا سبيلا الى الفوضى • والولاة سبيلا الى الجور • وفشت المنكرات وأخيفت الطرقات •

وفي أوائل القرن الثامن ظهر من رياح ثم من رحمان رجل يدعى سعادة كانت أمه من الصالحات ونشأ هو على العبادة والزهد وارتحل الى المغرب فصحب ابا اسحق التسولي شيخ الفقهاء الصالحين يومئذ وعاد الى قومه بفقه صحيح وورع وافر ونزل طولقة • وانذر عشيرته وبث دعوته فاجابه خلق كثير بالزاب وريغ وكثير من البلدان • فلقبهم السنية •

ومن مشاهير مريديه من أولاد مسعود ابو يحي بن أحمد وعطية ابن سليمان وحسن بن سلامة من أولاد طلحة بن يحي بن دريد ، ومن أولاد عساكر عيسى بن يحي بن ادريس ، ومن زغبة هجرس بن علي اليزيدي ورجالات من العطاف •

استظهر سعادة بهؤلاء الامراء واتباعهم على تأمين السبل وتغيير المنكر واحياء السنة ، ودعا منصور بن مزني أمير الزاب الى اعفاء الرعية من المغرم والمكس وسائر الظلامات ، فهم بقتله • ولكن حال دونه مريدوه • وبايعوه على اقامة السنة والموت دونه •

وأعد منصور سعادة ثائرا فاستعد لحربه واستنجد أمير بجاية

خالد بن أبي زكرياء المنتخب واستمال اليه بعض رياح فمال اليه علي ابن أحمد منافسة لاخيه ابي يحي ، وسليمان بن علي منافسة لعطية ابن سليمان وخشي سعادة من الاقامة في طولقة ، فابتنى بضواحيها زاوية انتقل اليها بمريديه ٠

ثم زحف سعادة الى بسكرة سنة 703 وسنة 704 وحاصر بها منصورا فامتنعت عليه أولا وثانيا ٠ وانحدرت رياح الى مشاتيها سنة 705 فبقي في قل من مريديه ٠ ومع ذلك حاصر مليلي ، فصبحه بها منصور في جند الدولة ورياح وبعد جولة استشهد سعادة ٠

نعي سعادة الى السنية بمشاتيهم ٠ فصعدوا الى الزاب برئاسة ابي يحي بن احمد وزحفوا الى بسكرة مرارا ٠ وقطعوا نخيلها وأحرقوا عمال الدولة بالنار فصرخ منصور في أوليائه من الذواودة فلبوه وعقد على الجند لابنه علي ومعه علي بن أحمد على رياح ٠ وكانت المعركة بالصحراء سنة 13 فقتل علي بن منصور ٠ وآسر علي بن أحمد ٠ فأطلقه عيسى بن يحي لمكان أخيه ، وعظم أمر السنية بعد هذا الانتصار ٠

ثم هلك ابو يحي وعيسى بن يحي وكاد أمر السنية ينحل فاتفقوا على استدعاء عالم يقيم لهم أمر الدين ويجمع كلمتهم واختاروا الفقيه أبا عبد الله محمد بن الازرق من فقهاء مقرة ٠ أخذ على ابي محمد الزواوي كبير شيوخ بجاية ٠ فارتحل اليهم ٠ ونزل على حسن بن سلامة ٠ ووالاهم ابو تاشفين الاول اضعافا للحفصيين الذين كان معهم في حرب ٠ فصار يبعث اليهم بالهدايا ويخص عالمهم ابن الازرق بجائزة معلومة كل سنة ٠

وخلا وجه رياح لعلي بن أحمد بموت أخيه ٠ فقاتل هؤلاء السنية مرارا ثم هلك حسن بن سلامة ٠ واستدعى ابن مزني الفقيه ابن الازرق لقضاء بسكرة ليقضي على دعوة سعادة ٠ فأجابه ٠ وطويت صحيفة السنية ٠

وبعد حين غاضب علي بن أحمد ابن مزني • فأحيا هذه الدعوة ، وحاصر بسكرة سنة 40 وأقام عليها اشهرا ، ثم عاد الى موالاة ابن مزني ، وهكذا حاولت اصلاح المجتمع رياح • فذهبت مساعيها لاختلافها أدراج الرياح • وكفى سعادة سعادةً انه ادى الواجب وفاز بالشهادة •

قال ابن خلدون : « وبقي من عقب سعادة في زاويته بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزني رعاية ، وتعرف لهم أعراب الفلاة من رياح حقا في اجارة من يجيرونه من أهل السابلة وبقي هؤلاء الذواودة ينزع بعضهم احيانا الى اقامة هذه الدعوة • فيأخذون بها أنفسهم غير متصفين من الدين والتعمق في الورع بما يناسبها ويقضي حقها • بل يجعلونها ذريعة لاخذ الزكاة من الرعايا ويتظاهرون بتغيير المنكر يسرون بذلك حسوا في ارتغاء فينحل أمرهم لذلك وتخفق مساعيهم ويتنازعون على ما يحصل بايديهم ويفترقون على غير شيء » اهـ •

4 ـ امارة بني مزني ببسكرة

كانت قاعدة الزاب الحفصي مقرة من أرض الحضنة • فكانت بسكرة تابعة لها ومشيختها لبني رمان منذ سقوط الدولة الحمادية • وكان بنو مزني بقرية حياس قربها • وملكوا بها جنات النخيل والثمار بمياهها • وانتقلوا اليها • وشارك كبارهم في مجالس شوراها • فاستنكف منهم بنو رمان • وتلاحوا بالكلام ، وانتهى أمرهم الى سلطان تونس فمال مع بني رمان لقدمهم ، ولكن النزاع لم يفصل واصلتوا سيوفهم ، وتقاتلوا في سكك بسكرة •

وفي سنة 651 دعا ابو اسحق لنفسه مغاضبا لاخيه المستنصر فبايعته رياح بنقاوس وزحفوا به الى بسكرة فبايعه من مشيختها فضل

ابن علي بن أحمد بن الحسين بن علي بن مزنى وابى أهلها موافقته ، وعزموا على قتله فخرج الى ابي اسحق الذي لم يتم أمره واجاز معه الى الاندلس حتى توفي المستنصر وعاد مع ابي اسحق الى تونس •

وبنو مزنى ينتسبون الى مازن بن فزارة قال ابن خلدون :« والذي تلقيته عن نسابة الهلاليين أنهم بنو مزنة بن ديفل بن محيا بن جرير من فصائل لطيف • وهو الصحيح فان أهل الزاب كلهم من أفاريق الاثبج عجزوا عن الظعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح • وانما نزعوا عن نسب الاثبج لما صاروا اليه من المغرم والوضائع » اهـ •

وفي سنة 78 ملك ابو اسحق تونس وجازى فضلا عن صحبته اياه بولاية الزاب فنزل بسكرة وخضع له بنو رمان ظاهرا • وحالفوا أولاد جرير • واغروهم بقتل فضل وتناول الامر من يده وهم يومئذ بقرية ماشاش قرب بسكرة ولهم اختلاط مع أهلها بالنسب والصهر فقتلوه ظاهر البلد سنة 83 وانتقلوا الى بسكرة فنبذ لهم بنو رمان عهدهم لعامين من حلفهم ، فلم تسعهم المدينة ولا قرية ماشاش لقربها فتفرقوا في وادي ريغ واستبد بنو رمان ببسكرة وتغلبت رياح على الزاب •

وكان منصور بن فضل لما قتل ابوه بتونس فخشي بنو رمان غائلته • وسعوا به لدى السلطان ابي حفص فاعتقله الى ان تمكن من الفرار ولحق بأوراس فنزل على الشبه من كرفة خير منزل • ثم لحق ببجاية سنة 92 وابو زكريا بن ابي اسحق يومئذ مستقل بها والزاب في طاعة صاحب تونس فتقرب اليه منصور واستظهر به على ولاية الزاب على ان يحول دعوته اليه كما فعل أبوه مع أبيه من قبل فسرحه سنة 93 بالجنود الى بسكرة واستبعد بنو رمان صاحبهم بتونس فوفدوا على ابي زكرياء مبايعين خائفين من منصور فامنهم وجعل

احكامهم الى قائد عسكره وكتب الى منصور بالعفو عنهم ففتحوا أبواب المدينة لمنصور وعسكر بجاية وبعد ان ثبتت قدم منصور في بسكرة أجلى بني رمان عنها كما أجلوا قبــل أولاد جرير • وكما تدين تدان •

اعجبت حكومة بجاية بصدق طاعــة منصور وحسن ادارته ، فأضافت له ورقلة ووادي ريغ والحضنة وجبل أوراس ، وبقيت كذلك لخلفه فامارة بني مزني تمتد من ورقلة جنوبا الى المسيلة ونقاوس شمالا ومن الدوسن غربا الى بادس شــرقا ، ودخلت مواطن عياض وسدويكش في هذه الامارة ايام منصور خاصة •

ولهذه الامارة مواصلات تجارية مع أهالي السودان وما حولها من الاوطان ولتوسطها بين الصحراء والتل جمعت بين خواصهما : تجد فيها النخيل والزيتون والابل والبقر وتحسن بها تربية المواشي وفلاحة الحبوب والثمار • فكان أهلها أغنياء ، وامراؤها تشبه ثروتهم ثروة الملوك •

قال العياشي في رحلته : « وبسكرة مــن أعظم المدن وأجمعها لمنافع كثيرة مع توفر اسباب العمران فيها ، قد جمعت بين التل والصحراء ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جار في نواحيها وارحاء متعددة تطحن بالماء ومزارع حناء الــى غير ذلك ، وبالجملة ما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لاسباب المعاش » اهـ •

وذكر ان عام ستين والف كان عام وباء وانه مات به في بسكرة نحو من سبعين الف نفس ، وهذا يرشد الى مبلغ عمرانها بعد بني مزني باكثر من قرنين ونصف قاست فيها الوانا من الشر وضروبا من الفتن فكيف يكون عمرانها ايام سعادتها وهنائها تحت بني مزني ؟

احسن بنو مزني سياسة الرعية ، وعاشوا مع رياح احسن مما عاش معهم الحفصيون ،حتى ان ثورة سعادة لم تشمل رياحا أجمعين • وكان مع بني مزني علي بن أحمد ثم نافسهم لاستئثارهم بمال الجباية دونه ، فثار عليهم متدثرا بالسنية ، ولكن يوسف بن منصور استمال ابنه يعقوب وابن عمه سليمان بن علي بن سباع ، وأنزلهما معه ببسكرة وأنكح أخته يعقوب ، ثم انعقدت السلم بين يوسف بن مزني وعلي ابن أحمد حوالي سنة 40 فلم تنقض بعد •

وكانت بطانة أمراء الحفصيين ببجاية تحسد بني مزني على هنائهم وثروة امارتهم ، فتسعى بهم لدى الامراء ، وكان بنو مزني يطفئون تلك السعايات بتوفير الجباية للامراء واتحاف بطانتهم بالهدايا ، وربما لم ينجح هذا الدواء فيضطر بنو مزني الى نصب أحد الحفصيين الملك ومبايعته ضد الامير السابق أو الى موالاة ملوك زناتة أهل تلمسان وفاس •

ففي أيام ابي البقاء بن ابي زكرياء فر يحي بن خالد بن السلطان ابي اسحق الى منصور بن مزني وقد فسد ما بينه وبين ابي البقاء فبايعه واجلب به على قسنطينة ، ووسوس ليحي بعض حاشيته في منصور فعزم على نكبته اذا تم أمره وشعر به منصور فنبذه ، وراجع طاعة ابي البقاء وخاب سعي يحي ، فنزل على منصور • وأقام تحت جرايته وحرسه مرصدا للعواقب الى أن مات سنة 721 فكان ابن اللحياني يصانع منصورا من أجله بالجوائز واقطعه من املاك السلطان بضواحي تونس املاكا ورثها عنه بنوه •

ودعا منصور لابي تاشفين الاول أيام ابي بكر أخي ابي البقاء ، وترددت اليه العساكر • فأعجزها • وبقي على ذلك الى أن خلفه ابنه عبد الواحد ، فلم يلبث ان غاضبه عامل بجاية محمد بن ابي الحسين

ابن سيد الناس فدعا لصاحب تلمسان ونازلته عساكر بجاية مرارا من غير طائل • ثم انعقد بينهما صهر وسلم •

ووالى يوسف بن منصور ابا الحسن المريني لما ملك تلمسان • واقتصر مع الحفصيين على دفع الجباية لهم ثم تحرك ابو الحسن لفتح تونس ، فوفد عليــه في جموع الذواودة بارض بني حسن • وذهب اليه سنة 49 بجبايته واجتمع بقسنطينة مع عمال المغرب بجبايتهم ووفدي صاحبي السودان والاندلس بهداياهم • وبلغتهم نكبة ابي الحسن • فهم بهم القسنطينيون واجارهم يعقوب بن علي وانزلهم يوسف بسكرة وكفاهم مهماتهم شهورا • وأقام على ولائه لابي الحسن حتى هلك • وملك ابنه ابو عنان تلمسان ، فبايعه وامده في فتح قسنطينة سنة 54 ودله على الطريق في اتباعه يعقوب بن علي • وانزله بعساكره ظاهر بسكرة ثلاثا أغرب في ضيافتهم على كثرتهم بما تحدث الناس بــه دهرا • وقدم اليه جبايته قناطر ذهبا • فخلع عليه ابو عنان وأجزل صلته • ثم اوفد عليه ابنه احمد سنة 59 بهدية فيها عتاق الخيل وفاره الرقيق • وتوفي ابو عنان فاتحفه خلفه بتحف ملوكية ، وانقطعت الطرق بالثورات فخفره صغير بن عامر شيخ بني عامر حتى أبلغه مأمنه •

واجلى ابو حمو الثاني ابا زيان محمــد بن عثمان الثـاني عن مملكته سنة 78 فنزل على صاحب توزر يحي بن يملول واتحد يحي وأحمد بن يوسف على استغلاله ضد الحفصيين ، فراسل احمد ابا حمو بكف ابي زيان عنه واشغاله هو للحفصين بالاجلاب على مملكتهم ثم طرد الحفصيون يحي بن يملول فلحق ببسكرة ومعه ابو زيان فاوفد أحمد بن يوسف على ابي حمو يعقوب بن علي سنة 82 لاستنجاز وعده في حرب الحفصيين ، ومات يحي بن يملول وترك صبيا ، فسرحه أحمد لاسترجاع توزر فلم يقدر أبو حمو على أكثر من امداده بالمال •

وخرج سلطان تونس ابو العباس لحرب أحمد بن يوسف، فسعى يعقوب بن علي في السلم، وحمل أحمد على الطاعة • وارسل الى السلطان بالشفاعة • وسرحوا أبا زيان الى قسنطينة ايذانا بنفض أيديهم من أبي حمو • وبلغت رسل أحمد بهديتهم وطاعة ابا العباس أول سنة 83 وهو معسكر بساح تبسة فاعرض عن حربه •

ثم مرض بعدها في الطاعة • فخرج اليه سنة 86 ومعه سليم، ومر بتبسة وجنوب أوراس وتهودا، وانضم اليه أولاد سباع بن شبل وأنفت بقية رياح من دخول سليم مواطنها • وتناوش الفريقان القتال • وانتبذ عنهم يعقوب ساعيا في الصلح فتم باقلاع السلطان عن بسكرة وبذل أحمد له طاعته وجبايته •

وقويت الدولة الحفصية بضعف دولتي زناتة • وقطعت عنها كل المستبدين • ولم يبق الا بنو مزني • فخرج اليهم السلطان ابو فارس بن ابي العباس سنة 804 وتلوم اياما ببئر الكاهنة • ثم دخل بسكرة يوم السبت سابع جمادى الثانية • وولى عليها من قواده وحمل معه أحمد بن يوسف الى تونس • فانتهت امارة بني مزني •

وقد عاشت هذه الامارة نحوا من قرن ونصف تخللها بنو رمان بين فضل بن علي وابنه منصور • ولم يعرف الزاب الى اليوم عصرا كعصرها هناء ورغادة عيش لما كان عليه بنو مزني من حسن التدبير والادارة، فقد أحسنوا معاملة الذواودة، فاستعانوا بهم • وعرفوا ما بالبلاط الحفصي من دسائس فوصلوا ايديهم بزناتة التي لولا تطاحن دولتيها حتى ضعفتا ما سقطت هذه الامارة في دور اكتهالها •

ومما يحسن ختم هذا الفصل به ابيات للسان الدين بن الخطيب بعث بها أثناء رسالة لابن خلدون وهو مقيم على أحمد بن يوسف • وهي :

من أنكر غيثا منشؤه في الارض وليس بمخلفها

فبنـــان بنـــي مزنـــي مزن　　تنهـــل بلطـــف مصرفهـــا
مزن مـــذ حـــل ببســـكرة　　يومـــا نطقـــت بمصحفهـــا
شـــكرت حتـــى بعبارتها　　وبمعناهـــا وباحرفهـــا
ضحكت بابي العباس من الا　　يـــام ثنايـــا زخـــرفهـــا
وتنكـــرت الدنيـــا حتـــى　　عرفـــت منـــه بمعرفهـــا

وهذا جـــدول امراء بني مزني

الامـــير	الولايـــة هـ	م	الامـــير	الولايـــة هـ	م
فضل بن علي	678	1279	اخوه يوسف منصور	729	1329
ابنه منصور	693	1294	ابنه أحمد	767	1365
ابنه عبد الواحد	725	1325	النهاية	804	1402

5 ـ رئاسة الثعالبة بمتيجة واخبار المعقل

كان الثعالبة مستضعفين عاجزين عن الترحال • فاستقروا بالتل ، وتغلبت عليهم توجين ايام كانوا بتيطري ثم مليكش وولاة الجزائر لما انتقلوا الى متيجة أواخـــر القـــرن السابع • وأدوا المغارم لدول الحفصيين والمرينيين الذين تداولوا ملك متيجة والجزائر • وبقوا غفلا من حلف القبائل واقطاع الدول الى أن نشأ فيهم سالم بن ابراهيم •

وكان رئيس الثعالبة سباع بن ثعلب بن علي ومر به ابن تومرت فأكرمه فكان اذا وفد على خلفاء الموحدين وضعوا على عمامته دينارا عظيما اكراما له • واستمرت الرئاسة في عقبه • فكانت أولا لبني يعقوب ابن سباع ثم لبني محمد بن سباع •

ولما ملك ابو الحسن المريني تلمسان ولى عليهم ابا الحملات بن عايد بن ثابت بن محمد بن سباع ، وهلك بالطاعون سنة 749 فخلفه ابراهيم بن نصر بن حنيش بن ابي حميد بن ثابت ، وهلك ايام ابي عنان ، فخلفه ابنه سالم ، واستولى على تلمسان بعد ابي عنان ابو حمو الثاني •

وفي ذي الحجة سنة 767 ثار أبو زيان محمد بن عثمان الثاني على ابن عمه أبي حمو ، وبايعه حصين وملك سنة 68 مليانة ولمدية ، ووالي الجزائر يومئذ علي بن غالب من بيوتاتها ، ونفر أهلها من السلطان أبي حمو • فاستبد بها ، وساعدت هذه الظروف سالم بن ابراهيم على وضع ذل المغرم عن عاتق قومه ، فوصل يده بابي زيان ، ووسوس لاهل الجزائر ان واليهم يريد الدعاء لابي حمو ، فثاروا به • وأخرجه سالم الى حيه وعجل له بحينه واستبد بالجزائر داعيا لابي زيان •

وخرج أبو حمو سنة 71 الى متيجة فاخضع الثعالبة وأخذ منهم جباية السنوات الماضية ، وامتنعت عليه الجزائر ثم ملك عليه عبد العزيز سلطان مرين تلمسان سنة 72 وطرد ابا زيان ووضع على الثعالبة مغارم ثقيلة ، ثم مات سنة 74 وعاد أبو حمو الى تلمسان وابو زيان الى تيطوي •

وفي سنة 76 سعى محمد بن عريف شيخ سويد في اطفاء هذه الفتنة ، فتم الامر بخروج أبي زيان الى رياح واداء أبي حمو له اتاوة سنوية ، واوفد على أبي حمو سالم بن ابراهيم وشيوخ حصين واعيان الجزائر ، فأمنهم وعادوا الى طاعته وبقي سالم على رئاسته بالجزائر ومتيجة وعمال ابي حمو تستوفي منه الجباية • وكل ينتظر الفرصة اشفاء صدره من الآخر •

وفي سنة 78 تآمر سالم ومرضى القلوب على ابي حمو ،

واستقدموا ابا زيان فغلب أبو حمو على الثورة وطلب سالم الامن لنفسه على مفارقة ابي زيان فمنحه اياه ، وخرج أبو زيان الى الجريد وعاد ابو حمو الى تلمسان مضمرا الفتك بسالم لكثرة تلاعبه بالعهود ، فلما كان فصل الشتاء وانحدرت العرب الذين يخشاهم ابو حمو الى مشاتيهم نهض الى متيجة ، فاجفلت امامه الثعالبة الى رؤس الجبال ، وبعث سالم ابناءه وأولياءه الى الجزائر وتحصن هو بجبل بني خليل ، ثم نزل كثير من الثعالبة الى أبي حمو مستأمنين ، وانتقل سالم الى بني ميسرة من جبال صنهاجة وبعث أخاه ثابتا الى أبي حمو فاقتضى منه العهد ونزل الى ابنه ابي تاشفين أواخر رمضان ، فتقبض عليه أبو حمو ولم يراع عهده ولا ذمة ابنه ، واستولى على الجزائر وقفل الى تلمسان فقتل سالما في شوال وتتبع اخوانه وقبيلته بالقتل والسبي والنهب حتى دثروا ، ثم قتل الاتراك منهم لاول استيلائهم على الجزائر مقتلة عظيمة ضاعفت ضعفهم •

واذا لم يظهر من الثعالبة امراء عظام فكفاهم فخرا عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر وعالم القرن التاسع ، وأبو مهدي عيسى عالم القرن الحادي عشر ، ولعل الشيخ عبد الرحمن من فرع محمد بن سباع ولكن الناس يرفعون نسبه الى علي بن ابي طالب (رض) كانهم لم يكتفوا بشرف العلم •

وقد حكى الاخباريون ان الشيخ محمد المقري التلمساني كان يحضر مجلس السلطان ابي عنان فاذا دخل مزوار الشرفاء قام لـه السلطان فمن دونه الا المقري فقال له المزوار ذات يوم مالك لا تقوم لي مثل السلطان اكراما لجدي فاجابه اما شرفي فمحقق بالعلم الذي ابثه ، واما شرفك فمن لنا بصحته بعد مضي أكثر من سبعة قرون ؟ ولو تحققناه لاقمنا هذا السلطان من مجلسه واجلسناك مكانه !

وبقية المعقل غير الثعالبة ذوو كثرة وانتجاع ، ومواطنهم بـين

زناتة فكانوا أحلافا لهم ، وأكثر انحياشهم الى مرين ، وكان المنبات من ذوي منصور أحلافا ليغمراسن بن زيان ، وذوو عبيد الله محاربين له ، ثم خضع الخراج منهم لبني عبد الواد اذ كانت مواطنهم في مملكتهم فأدوا لهم الخراج وعسكروا معهم .

ولما أخذت الدولة في الضعف منحت الخراج خفارة وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس . ثم اقطعتهم اياها . فتملكوها . وتملكوا ايضا هنين ووضعوا على المجيز منها الى تلمسان ضريبة فصارت جباية معظم مملكة تلمسان الغربية لهم .

ولما تملك ابو الحسن المريني تلمسان استخدم ذوي عبيد الله ، وانتزع منهم كثيرا من أملاكهم بالصحراء فثار عليه شيخهم يعقوب بن يغمور بن عبد الملك من العثامنة ، ولكن لم يفعل أكثر من تشرده بالصحراء وولي مكانه منصور بن يعقوب بن عبد الملك ثم ابنه رحو ، ولما عادت تلمسان لبني عبد الواد صدق يعقوب بن يغمور في ولائهم ، ورأس على قومه ومات فخلفه ابنه طلحة ، وكان لرحو مقامات في خدمة ابي حمو الثاني . فولاه رئاسة قومه . وجعل طلحة رديفه ، ويظهر ان رئاسة الخراج مغمورة برئاسة عامر وسويد من زغبة .

6 ــ زغبة

تمتد مواطن زغبة غربي مواطن رياح على جنوب عمالتي الجزائر ووهران وتقدموا مع احلافهم بني بادين الى التل أواخر الدولة المؤمنية ، ونقل يغمراسن بن زيان بني عامر من نواحي زاغز الى جنوب تلمسان أشجاء للمعقل الذين كثر عيثهم هنالك . وتبعت حميان بني عامر ، وصارت في عدادهم ثم خشي يغمراسن على دولته من زغبة

فحجرهم بالصحراء وأذلهم بالمغرم والعسكرة في جنده • واستمروا على ضعفهم المالي والسياسي مدة عظمة دولة تلمسان •

وكانت بين قبائل زناتة حروب خاضت زغبة غمارها توسلا الى دخول التل ، فلما تمكن الضعف من بني عبد الواد ايام ابي حمو الثاني نزل ابو زيان ابن جبل تيطري سنة 767 وقام بدعوته حصين وسويد وبعض بني عامر ، وكاد يتغلب على تلمسان ودامت ثورته نحو اثنتي عشرة سنة توالت فيها على ابي حمو الهزائم وتغلبت زغبة على كثير من التلول ، ولم تنجل هذه الغمرة عن ابي حمو الا باقطاعه زغبة كل ما تغلب عليه اعداؤه منها او طمع فيه أولياؤه •

تقوت زغبة بهذه الاقطاعات ووضعت عنها ذل المغرم وجبت من في اراضيها من البربر وحرمت عروة لضعفها من الاقطاع ، وقعدت حصين واكثر بني يزيد عن الضعن •

ولزغبة حروب مع جيرانها فكانت بين بني يزيد والذواودة حروب وتغلبت الذواودة على الدهوس • فاستنجد بنـو يزيد بعامر وهم يومئذ جنوبهم فانجدوهم ، وأخرجوا رياحا عنهم • ففرض لهم ابو بكر بن زغلي رئيس بني يزيد على قومه الف غرارة من الحبوب يأخذونها كل سنة وعرفت هذه الضريبة بالغرارة وكانت حروب ايضا بين عروة وجيرانهم من العمور ومسلم وسعيد ، وبين سويد وبني عامر مـع جيرانهم من المعقل وكانت فتن بين بطون زغبة المتجاورين •

وتنقلت رئاسة بني يزيد في كثير من بطونهم ثم استقرت في بني زغلي • فوليهم زيان بن زغلي ثم أخوه ديفل ثم أخوهما ابو بكر ثم ابناء ساسي فمعتوق ثم موسى بن أبي الفضل بن زغلي كان ايام ابي الحسن المريني ، ثم أخوه أحمد ثم اخوهما علي ثم ابو الليل بن موسى وتوفي سنة 791 فخلفه ابنه •

ومن رؤساء حصين لعهد ابن خلدون علي بن صالح بن دياب ابن مبارك بن محيا بن مهلهل بن شكر بن عامر بن محمد بن خشعة •

ومن رؤساء عروة لعهده محمد بن زيان بن عسكر بن خليفة بن النظر ويرادفه سمعون بن ابي يحي بن خليفة بن عسكر •

وأقوى بطون زغبة سويد احلاف مرين وبنو عامر احلاف بني عبد الواد • ويحالف سويدا محيا من العمور والعطاف والديالم وبنو يقظان وعبيد الله من زغبة • ويحالف بني عامر أولاد زكرير من العمور والنضر من زغبة • وموطن بني عامر تسالة وملاتة الى هيدور جبل وهران • وموطن سويد ما بين وانشريس وتلمسان عرضا وخليج رزيو والشط الشرقي طولا • وينحدرون شتاء الى مزاب فيمرون بافلو وتاجموت • وموطنهم اغنى مواطن زغبة واكثرها سكانا ومع ذلك لم يبلغ بنو عامر ولا سويد عظمة الذواودة لكثرة الفتن بالمغرب الاوسط وخلوه من امارة كامارة بني مزني تؤيد اخوانها من العرب ولعدم اجتماع كلمة زغبة على هذين البطنين •

وكانت سويد موالين لعبد الواد قبل تملكهم تلمسان ، ورئاستهم لاولاد عيسى بن عبد القوي ، وكان رئيسهم لعهد يغمراسن مهدي بن عيسى ثم ابنه يوسف واقطعه ببلاد سيرات والبطحاء وأقطع ابن عمه عنتر بن طراد بن عيسى قرارة البطحاء ورأس بعد يوسف أخوه عمر ، وادناه يغمراسن ، فربما استخلفه في خروجه للحرب على تلمسان ومملكتها الشرقية ، ثم كانت بينهما فتنة هلك فيها عمر ، وتأخر قومه فنزلوا خلف مواطن توجين وحالفوهم على حرب عبد الواد •

ورأس طغون سويد عثمان بن عمر وترك من الابناء ميمونا وسعيدا ويحي ، فخلفه ميمون ثم تغلب عليه سعيد ، فلحق ببني مرين وتوفي بسجلماسة ايام الامير ابي علي أخي السلطان ابي الحسن ،

ووفد سعيد بن عثمان على السلطان يوسف المريني وهو محاصر تلمسان فاكرمه ثم أجمع قتله ، ففر الى قومه واجلب أثناء ذلك الحصار على أطراف التلول فملك السرسو وجبل كريكرة ، وعادت تلمسان لعبد الواد وافضى أمرها الى أبي تاشفين الاول ، وكانت بينه وبين عريف بن يحي مودة ، فقربه اليه ثم سخطه فلحق ببني مرين سنة 720 وانتقم منه ابو تاشفين بسجن عمه سعيد • فلم يزل مسجونا حتى توفي حوالي سنة 737 •

وخلف سعيدا ابنه سمعون ، وهلك سنة 32 فخلفه أخوه عطية ، وهلك بعد فتح تلمسان ، فعقد ابو الحسن مكانه اونزمار بن عريف ، فغضب المسعود بن سعيد ولحق ببني عامر • واجلب على ابي الحسن بالدعي بن هيدور • ففرق ونزمار جموعهم ، ثم رقى أبو عنان ونزمار الى مجلسه وعقد على بادية سويد لاخيه عيسى وقتله ابو حمود الثاني في زحفه الى تلمسان وعقد مكانه على سويد لميمون ابن سعيد • فدس عليه محمد وابو بكر ابنا عريف من اغتاله • وخلفاه في رئاسة قومهما • وغمسا ايديهما في ثورة ابي زيان واطمع محمد ابا حمو في استصلاح أخيه وطالت تمنيته اياه • فاتهمه بالمراوغة واودعه السجن سنة 70 فلحق ابو بكر باخيهما ونزمار • فحمل عبد العزيز المريني على فتح تلمسان • وبعد وفاة عبد العزيز عاد ابو حمو الى تلمسان • واستقام معه ونزمار وحمل اخويه على مصافاته • فاقطع ابو حمو ابا بكر كلميتو ومحمدا مازونة •

وأعظم رؤساء سويد هما عريف بن يحي بن عثمان وابنه ونزمار • فقد اتخذ ابو الحسن المريني عريفا خليلا ووزيرا مشيرا وسفيرا بينه وبين ملوك مصر وتونس وغرناطة ورفع مقامه على كل عربي في ممالكه ، وهو الذي كان يغريه بفتح تلمسان ، وحضر معه فتحها وفتح تونس ، وكان على يمينه في موكب دخوله تونس وعاد لحرب عبد الواد لما

ملكوا تلمسان ، فهزموه ولم يجد السبيل للعود الى تونس ، فلحق بفاس ، وأكرمه ابو عنان الثائر يومئذ على ابيه • وتوفي ايامه وكان منجبا ، فاشتهر من ابنائه ونزمار ومحمد وابو بكر وعيسى •

وكان ونزمار أكبرهم ، وعقد له ابو الحسن بعد فتح تلمسان على قبيلة بني مالك وجعل له رئاسة البدو بجميع ممالكه وأخذ الصدقات والضرائب منهم ، فعكف على بابه كبراء العرب وشيوخهم ونزلوا على اشارته ، ولما اوقعت مغراوة بابي الحسن سنة 50 انجاه الى جبل العمور • والحقه بسجلماسة • فبعث اليه ابوه عريف بالرجوع عنه ارضاء لابي عنان • فلما خلص الامر لابي عنان اقطع ونزمار قلعة تاوغزوت والسرسو وكثيرا من بلاد توجين وهلك عريف، فاستقدمه واجلسه مجلس ابيه حذو اريكته •

وبعد موت ابي عنان كثرت الاضطرابات بالمغربين الاوسط والاقصى فنبذ ونزمار مجلس السلطان • وانتبذ بوادي ملوية • وبنى هنالك قصر مرادة وغيره وتوجهت اليه ملوك مرين وغيرهم وشيوخ العرب ورؤساء الاقطار مستشيرين صادرين عن رأيه • وكان يحاول استئصال دولة عبد الواد وهو علة ضعفهم ومحرك الحروب والثورات عليهم • وخرب أبو حمو قصر مرادة من منتزهاته سنة 85 فانتقم منه ونزمار بادخال مرين تلمسان وتخريبهم قصور الملك بها ولم أعلم متى مات ؟ ويظهر ان سويدا بعده تلاشى أمرها ، ولم يبق لرؤسائهم كبير اعتبار •

وبنو عامر كانت رئاستهم في بني يعقوب ويرادفهم بنو حميد • ثم سخط عثمان بن يغمراسن بني يعقوب ورضي بني حميد لاستقامتهم على طاعته • فاستشاط بنو يعقوب غيرة لتقديم بني عمهم • ووصلوا

أيديهم بمرين ثم حالفوا سويدا • وعظمت رئاسة بني حميد • وتعددت بطونهم ، فعد منها الشيخ عبد القادر المشرفي سبعا وستين ولم يسلم بنو حميد بعد من الخلاف على دولة عبدالواد فكان من رؤسائهم من وصلوا أيديهم بمرين أو بالحفصيين • ثم كان بين أبناء أبي حمو الثاني نزاع شديد على الملك كان لبني عامر فيه اليد الطولى ، ثم أصبحوا بعد سقوط دولة بني عبد الواد بعضهم جند الاسبان وبعضهم رعية لهم •

وكان رئيس بني يعقوب امرة يغمراسن وابنه داود بن هلال بن عطاف بن رداد بن كريش بن عياد بن منيع بن يعقوب • وكان أبو زكريا بن أبي اسحق الحفصي لدى عثمان بن يغمراسن • ورام امتلاك بجاية على عمه أبي حفص فمنعه • فتظاهر بالصيد • ولحق بداود ابن هلال • فأمره عثمان برده عليه • فأبى • وأوصله الى عطية بن سليمان الذوادي • فتغلب على بجاية • وأقطع داود أرض كدارة من بسيط حمزة • وسخطه عثمان بن يغمراسن فلحق بالصحراء • وكان حصار يوسف بن يعقوب لتلمسان • فوفد عليه داود برسالة من ابي زكرياء • فكان ليوسف في تلك الرسالة ريبة • فلما قفل من عنده بعث أثره من قتله في سيق •

وخلفه ابنه سعيد ، وانجلى الحصار عن تلمسان ، فرضي عنه عبد الواد لقتل مرين اباه ، ثم دفعته الغيرة من مكانة بني حميد الى الوفود على السلطان ابي ثابت المريني ، فرده بخفي حنين ، وقتله بنو حميد ايام ابي حمو الاول ، فخلفه ابنه عثمان واختلفت ايامه مع بني حميد سلما وحربا ، ثم حالف سويدا ، ولحق في قومه بالمغرب احتماء بعريف ابن يحي السويدي ، ثم عادوا الى مواطنهم لما زحف ابو الحسن الى تلمسان ، فقتل بنو حميد عثمان ، وخلفه رديفه هجرس بن غانم بن هلال

الى أن مات ، فخلفه سليم بن داود ، ثم ابنه ساسي ، فلم يزل ساسي ابن سليم في خلافه على عبد الواد ، وانتقل الى النضر من عروة •.

وكان رئيس بني حميد لعهد يغمراسن معروف بن سعيد بن رباب ثم ابنه يعقوب ، وكان مع داود بن هلال في انجاد عامر لابي بكر بن زغلي على رياح ، ثم ابنه ابراهيم ، وهلك بعد مقتل سعيد بن داود ، فخلفه ابنه عامر ، وكان شهما حازما حسن السمعة ، ووفد على ابي سعيد سلطان مرين قبل سنة 720 وخطبه بنته ، فأنكحه عامر اياها ، ووصله السلطان بمال خطير ، وقتله عثمان بن سعيد اليعقوبي غدرا •

وخلفه ابنه صغير وفر في قومه الى الصحراء لما ملك ابو الحسن تلمسان ونزل القليعة جنوب مزاب ، ثم جاءه تائبا ، وصحبه الى تونس وحضر معه وقعة القيروان وعادت تلمسان لعبد الواد • فاخلص لهم الطاعة • وملك ابو عنان تلمسان فاصحر كعادته • وردد الغارات على أطراف ممالك مرين • ووصل يده باعدائهم • وبلغه خلاف يعقوب ابن علي الذوادي على ابي عنان • فوفد بقومه عليه • وابو حمو الثاني يومئذ بتونس • فاتفق يعقوب وصغير على تجهيزه لطلب ملك سلفه بتلمسان • فعاد به صغير في جمع من الذواودة ابلغوهم تخوم بلادهم • ولقيتهم سويد فهزموها • واحتلوا تلمسان بعد وفاة ابي عنان • ومات صغير سنة 761 ودفن بالعباد • واحتفى ابو حمو بجنازته •

وخلف صغيرا اخوه خالد • ويرادفه عبد الله بن صغير • وكان ابو حمو قد قرب اليه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب بن معروف ابن سعيد فحملت الغيرة خالدا على الخلاف ، ووصل يده بعبد العزيز سلطان مرين • وحارب ابا حمو ونال منه ثم غمس يده في ثورة ابي زيان ، فاخرج له ابو حمو ابنه ابا تاشفين في جموع سويد والديالم والعطاف وغيرهم ، وكانت جموع خالد عظيمة لكن ابو تاشفين هزمه

وقتل عبد الله وملوك ابني اخيـه صغير علـى وادي مينة سنة 777 وهلك خالد على فراشه سنة 78 •

وخلفه المسعود بن صغير ، فكان دون عمه ، وافترقت عنه الجموع وتخلى عنهم ابو زيان ، وضاقت به السبل فاستأمن لابي حمو هو وساسي بن سليم ، فأمنهما وقومهما • وعزم على استئصالهم فتقبض ذات يوم على المسعود وعشرة من بني عامر بن ابراهيم وصبح ابو تاشفين احياء بني يعقوب بسيرات • ثم اعترض فلهم ببني راشـد فعظمت النكاية • ونجا ساسي الى النضر وشفع ابو العباس سلطان مرين بسعي ونزمار بن عريف في المسعود وجماعته • فسرحهم ابو حمو ، وعادوا الى الخلاف ، وضعفت مرين عن صريخهم • فاستصرخوا صاحب تونس ابا العباس الحفصي • فوعدهم • ووفد عليه علي بن عمر بن ابراهيم كبير الثائرين على ابي حمو بعد ابن عمه خالد • فلم يزده على المواعيد • وهنالك خضع لابي حمو فقدمه على بني عامر • وكان قد استبد برئاسة عامر بعد خلاف خالد بن عامر عمه سليمان ابن ابراهيم ويرادفه عبد الله بن عسكر الى أن عزله ابو حمو بعلي ابن أخيه فلحق ببني يعقوب النازلين على أبي بكر بن عريف •

هذا ما أفادنا به ابن خلدون من أخبار العرب وانا لنأسف لاغفال من بعده هذا الشأن • فلم نجد حديثا نصله بحديثه الا تنفا لا تجلي غامضا وقد تكون رسائل صغيرة مبعثرة في زوايا الوطن لو جمعت لتكونت منها حلقات لهذه السلسلة غير انا لم نسمع بها ولعل الله يبعث في الامة روحا علمية فيظهر كل ما لديه من حلقات ولعل الله ييسر لنا جمع هذه الحلقات من بعد فنلحقها بالكتاب الرابع ان شاء الله •

الباب السادس

في الدولـة الحفصية

ا ـ تأسيس الدولة الحفصية

للموحدين دولتان المؤمنية والحفصية • والحفصيون ينسبون الى أبي حفص عمر بن يحي الهنتاتي أحد العشرة من أصحاب ابن تومرت • وينسبه ابن نخيل الى عمر بن الخطاب (رض) • وفيه بعد •

وكان أبو حفص معظما في الدولة المؤمنية • وتوفي سنة 571 وولي للناصر ابنه عبد الواحد على تونس سنة 603 فكان له غناء في دفاع ابن غانية• وتوفي سنة 618 • واشتهر من أبنائه عبدالرحمن وعبدالله المدعو عبو أبو زكريا مؤسس الدولة ومحمد اللحياني • وولي تونس بعده السادة من بني عبد المؤمن •

وفي سنة 23 ولى العادل بتونس عبو وقدم معه أخوه أبو زكرياء فولاه قابس • ودعا المأمون لنفسه • فأبى بيعته عبو • وقبلها أخوه أبو زكرياء وتغلب على تونس في رجب سنة 25 • ثم نقض بيعة المأمون سنة 27 لسبه مهديهم ابن تومرت وقتله رجال هنتاته وشيوخ الموحدين الذين كانوا سبب الفتن بين أبناء عبد المؤمن • واقتصر أبو زكرياء على ذكر المهدي ولقب الامير • ولم يزل ذكر المهدي في سكة خلفه الى آخر الدولة •

وفي سنة 28 فتح أبو زكرياء قسنطينة وبجاية • ثم فتح سنة 32 الجزائر وشلف والبطحاء وسائر مواطن مغراوة وتوجين • وذكر اسمه في الخطبة بعد المهدي سنة 34 وبايعته الاندلس الشرقية سنة 35 وفتح تلمسان سنة 40 وتتابعت عليه البيعات من المغرب والاندلس • وتم ارث الحفصيين للدولة المؤمنية ببيعة مرين لهم لما فتحوا مراكش سنة 668 •

ولم يحقق الحفصيون هذا الارث لضعف القوة الحربية عن حماية

الممالك النائية • فانسلخت عنهم أكثر الجهات • وكانوا يصبون الى مراكش • فتمسكت بها مرين • وبقيت عاصمتهم بتونس على أنهم غلبوا عليها أحيانا •

وأول من غلبهم عليها الدعي • وهو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي • ولد بها سنة 642 ونشأ ببجاية وسيما خياطا معنيا بالتنجيم • يخط الرمل • فيحدثه خطه بالملك • ثم لحق بعرب المعقل من صحراء سجلماسة • وادعى نقل المعادن الى الذهب وأنه المهدي المنتظر • ففضحه العجز • وانتقل الى عرب طرابلس • وادعى أنه الفضل بن الواثق • وكان الفضل قد قتله السلطان أبو اسحق • ولكن أكثر العرب اذا وجدوا سبيلا للثورة خانتهم أحلامهم • فصدقوه • وبايعوه سنة 81 ونزع اليه مرضى القلوب من كبار الدولة • فدخل تونس لاشهر من بيعته • وفر السلطان ابو اسحق الى بجاية • وحاول حربه • فلم ينجح •

وكان الدعي سفاكا للدماء • قتل كثيرا من شيوخ العرب وجند زناتة والنصارى • وبسط العذاب على آخرين • فسئمته الرعية • وتطلب العرب أميرا حفصيا • وكان ابو حفص أخو السلطان ابي اسحق بقلعة سنان • فقصدوه • وبايعوه • ودخلوا به تونس سنة 83 واختفى منه الدعي حتى أخذ وقتل • وكانت بيعته كما قال لسان الدين ابن الخطيب •

غريبة من لعب الليالي ما خطرت لعاقل ببال

2 ـــ الحكومة الحفصية

الدولة الحفصية مستقلة استقلالا تاما وحكومتها بيد كبار الموحدين وعظماء الجاليات الاندلسية وكلا الفريقين متدرب على قلب الحكومات تخلصا من منافس وطلبا للتمكن في الرئاسة • فشا فيهم

هذا الخلق أواخر الدولة المؤمنية • فشقيت به الدولة الحفصية واصبح ملوكها العوبة بايديهم الا قليلا منهم •

وكان أبو زكريا الاول وابنه المستنصر ملكين عظيمين اخضعا الثوار وحفظا الامن فتقدمت الدولة أيامهما في الحضارة تقدما عظيما وعاش الناس في رفاهية • وغمرت من بعدهما الفتن حتى ضعفت دولتا زناتة بعد ابي عنان وابي حمو الثاني وفنيت البيوت الكبيرة من الموحدين والاندلسيين ويومئذ أصبح الملك الحفصي آمرا ناهيا آمنا في سربه ولكن مالية الحكومة في ضعف لتغلب العرب على البوادي وتقوي الاروبيين بالبحر •

وكان ملوك الحفصيين يدعون أمير المؤمنين لارثهم الخلافة عن بني عبد المؤمن وسقوط بغداد أيامهم حتى بايعهم بالخلافة أهل الحجاز سنة 659 ويتلقبون بالقاب الخلفاء من مستنصر وواثق وغيرهما وكانت علامتهم « الحمد لله والشكر لله » لها كاتب خاص وقسمها المستنصر الى كبرى ترسم بعد البسملة اول الصحيفة عن أمر الخليفة والى صغرى ترسم اسفل المنشور عن أمر نائب الخليفة في الامور الصغيرة وربما استضعف الملك نفسه فترك شعار الخلافة واقتصر على لفظ الامير وكان الملك يعهد لمن بعده واحيانا يتغلب على الملك أحد القرابة ويبعد عنه ولي العهد •

وللحفصيين مع ملوك مصر والسودان علاقات حسنة ، وحاولوا تحسين علاقتهم مع ملوك أروبا لكن هؤلاء لا عهد لهم يحفظ فمتى وجدوا غرة في الساحل ملكوها وكثيرا ما ينزلون بالمدينة تجارا فان وجدوها خالية من الحامية انقلبوا حربيين وعلاقتهم مع زناتة تختلف حربا وسلما وكانت زناتة ظاهرة عليهم ثم ضعفت فظهروا عليها وخطبت لهم بتلمسان وفاس منذ سنة 827 •

وللدولة جيش من زناتة وصنهاجة والنصارى وتستنفر في الحرب

أولياءها ورعاياها من العرب والبربر وحالها في البحر ضعيف لضعف ماليتها باقطاعات العرب وابو زكرياء الاول الذي لم تكن ايامه اقطاعات وكان مقتصدا يلبس الصوف ، قال ابن قنفذ : « بلغ جيشه سبعين ألف فارس وماليته تسعة عشر بيتا والبيت الف الف » اهـ • وما أحسن الاستغناء ببيت عن عجمة مليون •

واقتدت الحكومة الحفصية بالمؤمنية في جميع انظمتها • ونقل الزركشي ان الحفصيين كانوا قديما لا يتركون القاضي في قضائه أكثر من عامين لوصية عمر بن الخطاب (رض) بذلك وليكثر المتدربون على القضاء ويكونوا الى العدل أقرب اهـ •

وهذا جدول الملوك الحفصيين بحذف كناهم الكثيرة الاستعمال كتكنية يحي بابي زكريا وابراهيم بابي اسحق وعمر بابي حفص وخالد بابي البقاء :

الملك	الولاية هـ	الولاية م	الملك	الولاية هـ	الولاية م
يحي الاول	627	1230	الفضل بن ابي يحي ابي بكر	750	1350
ابنه محمد الاول المستنصر	647	1249	أخوه ابراهيم الثاني	751	1350
ابنه يحي الثاني الواثق	675	1277	ابنه خالد الثاني	770	1369
ابراهيم الاول بن يحي الاول	678	1279	احمد الاول بن محمد بن ابي يحي	772	1370
اعتراض الدعي	681	1283	ابنه ابو فارس عزوز	796	1394
أخوه عمر الاول	683	1284	محمد الرابع بن محمد بن عزوز	837	1434
أبو عصيدة محمد الثاني بن الواثق	694	1295	أخوه ابو عمر عثمان	839	1435
خالد الاول بن يحي بن ابراهيم	709	1309	يحي الثالث بن محمد بن عثمان	893	1488
زكريا بن احمد بن اللحياني	711	1311	محمد الخامس بن الحسن بن محمد بن عثمان	899	1494
ابنه ابو ضربة محمد الثالث	717	1317	ابنه الحسن	932	1526
ابو يحي أبو بكر اخو خالد الاول	718	1318	ابنه أحمد الثاني	943	1536
ابنه عمر الثاني	747	1347	أخوه محمد السادس	977	1569
اعتراض مرين	748	1347	انقراض الدولة	981	1573

نقـود الحفصيين

21 — نقود ابي زكريا يحي الاول

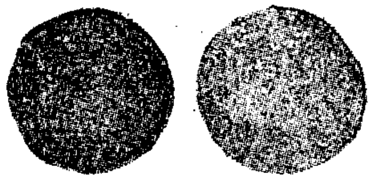

22 -- 23 — نقود المستنصر بن ابي زكريا ـــ ضرب بجاية

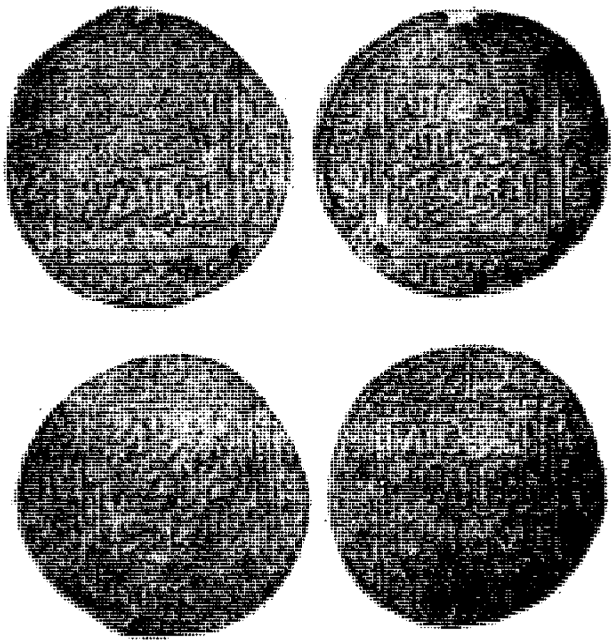

24 — نقود أبي اسحق ابراهيم الاول

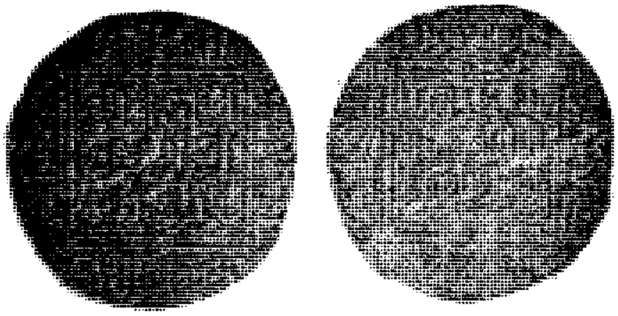

25 — نقود ابي حفص عمر الاول ـ ضرب تونس

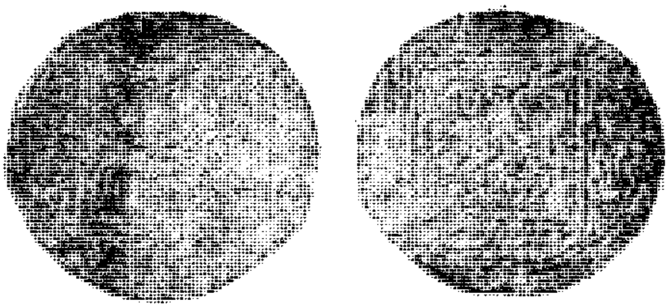

26 — نقود أبي زكريا يحي المنتخب

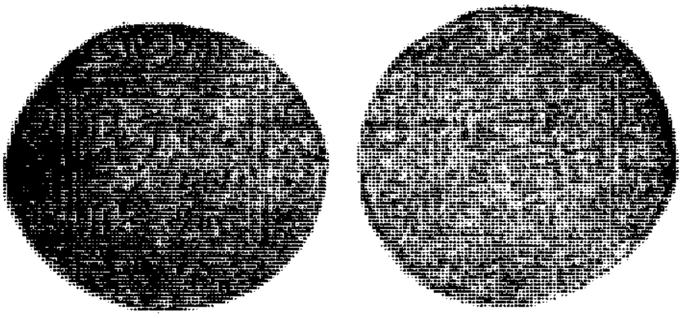

27 — نقود ابي البقاء خالد الاول

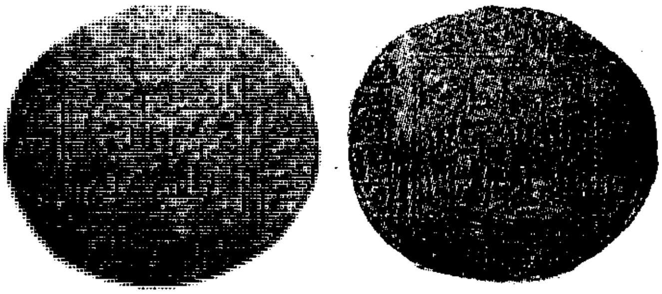

28 — نقود ابي يحي ابي بكر ـ ضرب بجاية

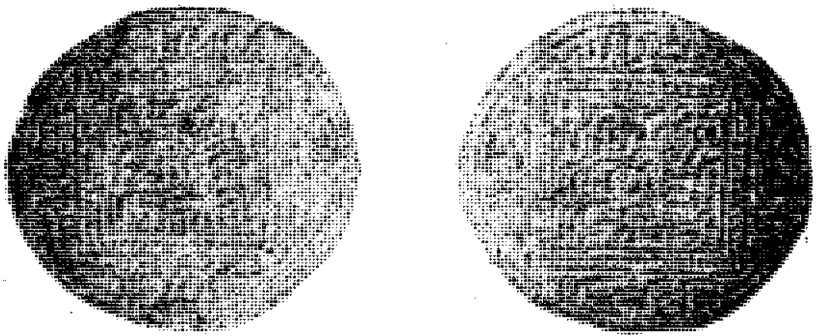

29 — نقود ابي يحي ابي بكر ـ ضرب قسنطينة

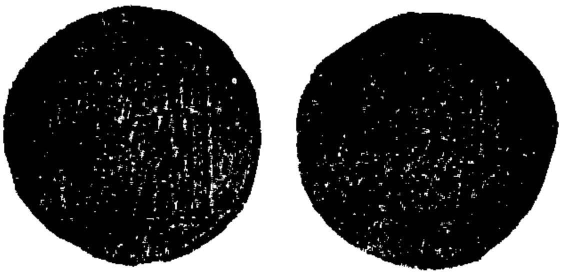

30 — نقود ابي العباس احمد الاول

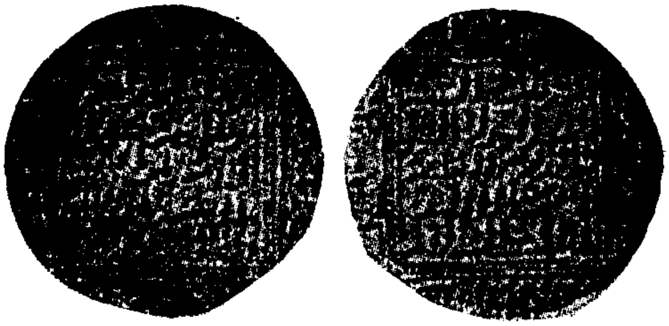

31 — ضرب ببجاية عن أمر عبد الله المستنصر بن محمد بن أبي زكريا بن ابي يحي ابي بكر (لا أعلم من حال هذا الامير غير كونه عاش آخر القرن الثامن) .

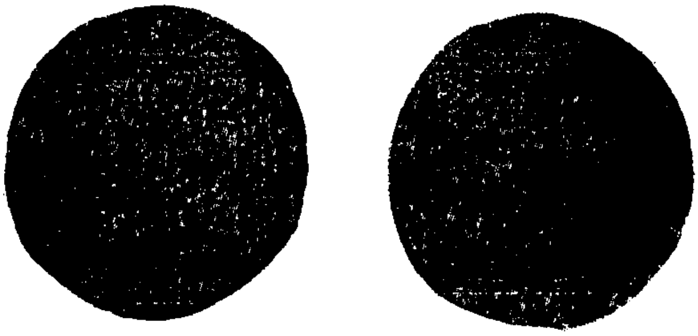

32 — نقود ابي فارس عزوز

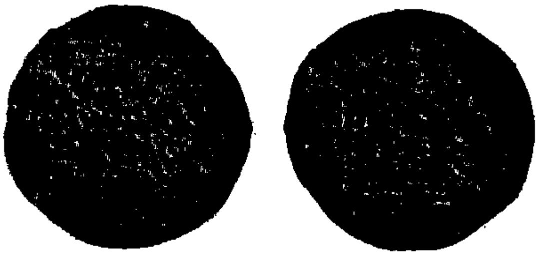

33 — نقود ابي عمر عثمان ـ ضرب تنس

34 — نقود ابي عمر عثمان ـ ضرب الجزائر

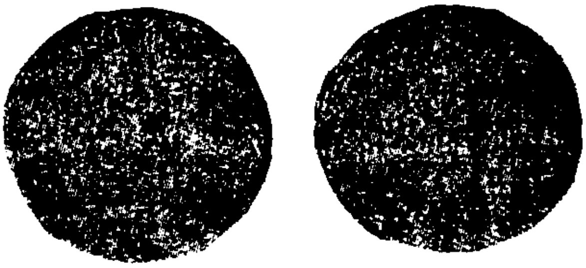

35 — نقود محمد بن الحسن بن محمد المسعود

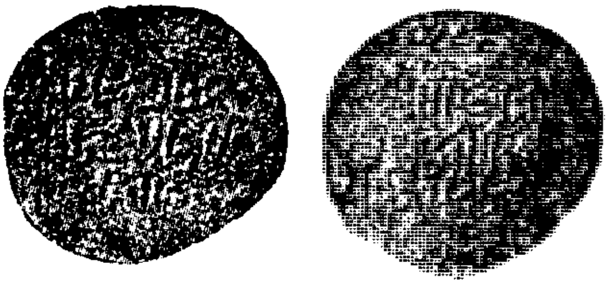

36 — نقود الحسن بن محمد بن الحسن

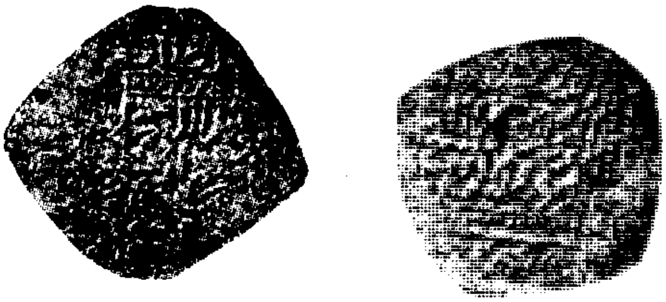

٤ — ولاة الجزائر الحفصية

الجزائر الحفصية هي عمالتا قسنطينة والجزائر الى مابعد مليانة شمالا غربيا ، وما بعد ورقلة جنوبا الا ما تغلبت عليه زناتة من بعد ٠

وكانت عاصمة هذه المملكة الغربية بجاية حتى أكثرت زناتة من الغارات على ساحتها فصارت الاهمية لقسنطينة واكثر ولاة بجاية وقسنطينة وبونة حفصيون وقد يليهن مواليهم ٠ وبقية المدن يليها أولياؤهم وصنائعهم أو شيوخ من أهلها ٠ وكثيرا ما تستقل هذه المملكة عن تونس ، وقد يستقل مدنها بعضها عن بعض ٠

والولاة الحفصيون يتخذون الحجاب والوزراء والكتاب كالملوك ٠ وأولهم أبو يحي زكريا ٠ أنزله أبوه أبو زكريا يحي الاول ببجاية سنة 633 ٠ وجعل وزارته ليحي بن صالح بن ابراهيم وشوراه لعبد الله بن ابي تهدي وجبايته لعبد الحق بن ياسين ٠ وكلهم من هنتاتة ٠ ثم ولاه عهده سنة 38 وكتب له وصية طويلة جامعة لمحاسن الدين وسياسة الملك ٠ نقلها ابن خلدون وسقطت من نسخته المطبوعة بمصر ٠ وكان عالما دينا جليل القدر ضابطا لاموره عدلا في أحكامه ٠ وتوفي سنة 46 ٠ وكان ابو زكريا لما فتح قسنطينة ولى بها بني النعمان من هنتاتة ٠ فقويت شوكتهم وغمسوا أيديهم في بعض الثورات على المستنصر ٠ فنكبهم واباد رؤساءهم قتلا ونفيا سنة 51 وولى بها ابن كلداسن من مشيخة الموحدين فاقام بتونس واناب عنه ابا بكر بن موسى بن عيسى الكومي المعروف بابن الوزير ، فكان ذا غناء وصرامة ٠ ثم سماه المستنصر حافظا عليها ٠ فلم يزل بها الى ايام ابي اسحق ٠

وفي سنة 59 جهز المستنصر أخاه عمر لاخضاع مليانة ، فلما قفل

من فتحها وافاه بطريقه عقد الولاية على بجاية ، فرغب في المقام بتونس ، فاعفاه المستنصر وولى عليها ابا هلال عياد بن سعيد الهنتاتي ، فلم يزل بها الى ان توفي بقرية بني ورار سنة 73 ، فخلفه ابنه محمد ، وضايقه الواثق بتولية ادريس بن عبد الملك الغافقي الاندلسي على اشغال بجاية ، فتخلص منه بقتله سنة 77 وخشي انتقام الواثق ، فبايع عمه ابا اسحق ابراهيم •

وكان ابراهيم ثار على أخيه المستنصر ولم يفلح • ففر الى الاندلس فلما بلغته وفاته أجاز الى تلمسان • ونزل على يغمراسن حتى جاءته بيعة ابن عياد • فدخل بجاية في ذي القعدة وخشيه الواثق فبعث لضبط قسنطينة عبد العزيز بن عيسى بن داود الهنتاتي قائدا فصد عنها ابراهيم ولكنه تغلب على تونس بمساعدة أخيه عمر في ربيع الاول سنة 78 •

وفي سنة 79 ولى ابراهيم الاول على بجاية اكبر بنيه عبد العزيز وحجبه محمد بن ابي بكر بن خلدون الاندلسي • وابقى بقسنطينة ابا بكر بن الوزير • فثار بها في شعبان سنة 79 وكاتب ملك ارغون من ارض الاندلس مستمدا اسطوله فخرج اليه عبد العزيز بعد خمسة عشر شهرا من ثورته فلما بلغ ميلة وفدت عليه رسله معتذرين ، فاعرض عنهم وتقدم الى قسنطينة ، فحاصرها حتى فتحها في رمضان سنة 81 وقتل ابن الوزير وعاد اسطول ملك ارغون من القل خائبا ، ورم عبد العزيز ما أفسدت الحرب من أسوار المدينة وقناطرها ، وولى عليها ابا محمد بن بوفيان الهرغي ولم يزل عبد العزيز عزيزا في مملكته الى ان ظهر الدعي وفر منه ابوه ابراهيم اليه • وانخلع له ، فبويع عبد العزيز بالخلافة ، وتلقب المعتمد على الله • وصمد الى تونس • فتلقاه الدعي

بمرماجنة قرب قلعة سنان في ربيع الاول سنة 82 فقتل عبد العزيز ، ثم ابوه ، ونجا أخوه يحي الى تلمسان •

ولما ملك عمر الاول تونس عاد يحي لامتلاك بجايــة ، فملكها بمساعدة الذواودة سنة 84 واستقل بالمملكة الغربية ، وتلقب المنتخب لاحياء دين الله ، وحجبه ابو الحسين بن سيد الناس الاشبيلي الى أن توفي سنة 90 فحجبه ابو القاسم بن ابي حي الاندلسي ، وعهد لابنه خالد سنة 98 وولاه قسنطينة وتوفي ببجاية سنة 700 •

ويحي المنتخب أول من قسم الدولة الحفصية شطرين • وأجلب على تونس مرارا • فنهض اليه أبو عصيدة سنة 95 حتى بلغ ميلة • وانكفأ منها الى تونس • فاقصر يحي عن طلب تونس • ولم يدع الخلافة • وكان حازما يقظا سري الهمة متقشفا متواضعا يرقع ثوبه بيده محبا لاهل العلم مشرفا على ممالكه بنفسه مقسما سنته بين بجاية وقسنطينة ذا آثار صالحة منها توسيع قصبة قسنطينة وجامعها •

نعي الى خالد أبوه وهو بقسنطينة • فانتقل الى بجاية • واستوزر يحي بن ابي الاعلام • وقدم على الموحدين يحي بن زكريا الحفصي وعلى صنهاجة كبيرها يعقوب بن خلوف الى ان مات فخلفه ابنه عبد الرحمن • وابقى على حجابته ابن ابي حي • فولى هذا الحاجب صهره علي بن الامير الهمذاني على قسنطينة • واتهم بمولاة ابي عصيدة • فعزله عن حجابته سنة 705 وحجبه بعده ابو عبد الرحمن يعقوب بن غمر (بالغين سمي السحاب) السلمي الشاطبي • فحول ابن الامير الدعوة الى ابي عصيدة • فنهض اليه خالد وفتح قسنطينة وقتله • وخشيه ابو عصيدة • فاصطلحا على ان المملكة لمن بقي بعد صاحبه • وتوفي أبو عصيدة سنة 709 فانتقل خالد الى تونس وجمع بين المملكتين الشرقية والغربية • ثم تغلب عليه ابن اللحياني سنة 11 فانخلع له ومات سنة 713 •

ولما انتقل خالد الى تونس انتقل معه حاجبه ابن غمر واستخلف على بجاية عبد الرحمن بن يعقوب بن خلوف الصنهاجي • وبينه وبين الحاجب تنافس • وخشي الحاجب تغير خالد عليه • فدبر في الابتعاد عنه • وخوفه من ابن خلوف • فعقد خالد لاخيه أبي بكر على قسنطينة، وسرح معه حاجبه ابن غمر مشرفا على بجاية •

وفي سنة 711 دعا ابو بكر لنفسه باشارة ابن غمر • وتلقب المتوكل على الله • وخالف عليه ابن خلوف • فقتله غدرا • واحتل بجاية سنة 12 وبعث ابن غمر الى ابن اللحياني قبل تغلبه على تونس مظاهرا له • فلما دخل تونس عقد معه سلما • وقفل الى أميره أبي بكر ببجاية • وعادت الدولة الى انقسامها شرقية وغربية • ثم تغلب على تونس سنة 18 فجمع بين المملكتين وطالت مدته وغالب الخطوب حتى توفي في رجب سنة 747 •

وكانت ولادته ونشأته وقراءاته بقسنطينة • وله رياض بظاهرها • وكان كثير التردد عليها •

ولما انتقل ابو بكر الى تونس بقي الحاجب ابن غمر ببجاية مستقلا بهذه المملكة الغربية ليس لابي بكر فيها غير السكة والخطبة • ثم توفي في شوال سنة 19 • فولى ابو بكر ابناءه محمدا بقسنطينة ويحي ببجاية والفضل ببونة • وبعث معهم الحجاب والوزراء والقواد •

وفي سنة 37 توفي الامير محمد بقسنطينة وترك ابناء خلفه منهم عبد الرحمن وكان محمد مرضي السيرة حسن الادارة ذا علم وذكاء وجود وحياء • وكانت ولادته ونشأته وقراءته كأبيه بقسنطينة •

وفي ربيع الاول سنة 47 توفي الامير يحي • فقدم البجائيون ابنه محمدا ووافقهم جده على توليته • ثم مات ابو بكر واستولى ابو الحسن المريني على الممالك الحفصية • فابقى الفضل ببونة لان أخت

الفضل تحته • ونقل محمدا الى ندرومة وعبد الرحمن واخوته الى وجـدة •

وفي سنة 49 استرجع الفضل من مرين قسنطينة وبجاية • وثار ابو عنان بالمغرب على ابيه ابي الحسن وهو بتونس • فسرح محمدا وعبد الرحمن الى ولايتيهما ليكونا سدا بينه وبين ابيه • فانقبض الفضل الى بونة • ثم ملك تونس سنة 50 •

وفي سنة 53 أخذ أبو عنان بجاية من الامير محمد • ونقله الى تلمسان • ثم تغلب عليها عمه ابراهيم الثاني سنة 61 فسرح مرين الامير محمدا لاسترجاعها • فمانعه عمه • حتى دخلها عليـه سنة 65 فعاد ابراهيم الى تونس • وكان عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الشـهير بالاندلس ، فاستقدمه الامير محمد ، فوفد عليه سنة 66 وولاه حجابته •

وفي سنة 56 خرج عبد الرحمن من قسنطينة مجلبا على تونس ، واستخلف أخاه أحمد ، فدعا لنفسه بالخلافة ، وعاد عبد الرحمن الى بونة طامعا في قسنطينة • فتمسك أهلها باخيه ، فاصطلح عبد الرحمن مع عمه ابراهيم الثاني بعدما كان منازعا له ، وسلم له بونة على ان يأذن له في المقام بتونس •

وفي سنة 58 دخل ابو عنان قسنطينة ، ونقل الامير احمد الى سبة ، ثم سرحته مرين الى ولايته سنة 61 فبعث أخاه زكريا لفتح بونة فاسترجعها من عمه ابراهيم ، وحارب ابن عمه محمدا على بجاية فقتله واستولى عليها سنة 67 وعادت المملكة الغربية تحت أمير واحد كما كانت أمرة يحي المنتخب ، ثم ملك تونس سنة 72 وبها توفي سنة 96 •

وكان دينا عاقلا شجاعا سمحا ، ولد بقسنطينة سـنة 729 وكان يقرب القسنطينيين ويوليهم المراتب السامية في دولته بتونس •

ولما انتقل السلطان أحمد الى تونس ولى حجابته أخاه زكريا ،

ونقله معه من بونة ، فاستخلف بها ابنه محمدا وبعث السلطان ابنيه محمدا على بجاية وابراهيم على قسنطينة ، وبعث معهما الحجاب والقواد من الموالي وتوفي محمد سنة 85 فخلفه ابنه أحمد ، وتوفي ابراهيم سنة 93 فخلفه كاتبه ابراهيم بن يوسف الغماري وكان الامير ابراهيم محجوبا للقائد بشير المتوفي سنة 79 فاكتسب منه صفات حميدة ، وكان دينا محسنا متواضعا اداريا حازما •

وكان ولي عهد السلطان أحمد ابنه ابا بكر • فلما حضرت الوفاة اباه بعثه أخوته لحفظ قسنطينة • وقبضوا على عمهم زكريا • فلما توفي السلطان بويع ابنه عبد العزيز المدعو عزوز • فخالف عليه ابو بكر • ودعا لنفسه • وعكف على لذاته • فتوجه الكاتب احمد بن الكماد مع العرب الى بونة • فحضوا صاحبها الامير محمد على ملك قسنطينة • فنازلها في ذي القعدة سنة 96 وحاصرها شهرين ونصفا • ثم أقلع عنها • وعاد اليها سنة 97 وكثر عيثه في ساحتها • فنهض اليه السلطان عزوز في رمضان • والتقى الجمعان بتبرسق • فانهزم الامير محمد الى سيبوس • ودخل بونة موقنا بعجزه • فركب البحر الى فاس مستصرخا صاحبها • ودخل عزوز بونة • ووفد عليه بها أخوه أبو بكر مبايعا • وكتب الى الخطباء ببيعته لاخيه • ثم أعقبه بكتاب يمنعهم من الدعاء لاخيه • وكل ذلك في رمضان سنة 97 •

توقف الخطباء فلم يدعوا لاحد حتى جبرهم ابو بكر على الدعاء له في صفر سنة 98 ثم كتب لاخيه بالبيعة في جمادى الثانية ثم هم بنقضها • فاستقدم القسنطينيون عزوزا • فنازلها في شعبان وحاصرها نحو شهر لم يضر فيه بزرع ولا شجر ، واسمه يذكر على المنابر ، وفتح المدينة في رمضان ، وأقام بها ممهدا للاحوال ، وعاد الى تونس آخر شوال ومعه ابو بكر ، وقدم لقيادة قسنطينة القائد نبيلا ولقصبتها الشيخ قاسم بن احمد بن تافراقين التينمللي ، وتداول أمرها الموالي •

عظم أمر عزوز بفتح قسنطينة ، فنازل أوراس ، وضل هو وجنوده السبيل وكادوا يهلكون ، وخشي أحمد أمير بجاية سطوة السلطان فوفد عليه في هذه السنة سنة 98 مبايعا منخلعا •

ولى السلطان عزوز أخاه زكريا على بونة ، وفي سنة 810 وفد عرب افريقية على صاحب فاس ليرسل معهم الامير محمدا المنهزم اليه ويمده على السلطان عزوز • فخرج الامير محمد في جموع مرين والعرب • وما بلغ أطراف عمل بجاية حتى كثرت جموعه من العرب ووفد عليه المرابط ابن ابي صعنونة • فسرح جيش مرين • وخشيه عزوز على بجاية • فنقل اليها أخاه زكريا من بونة • ولكن البجائيين ادخلوا الامير محمدا فركب زكريا البحر مشرقا • وعقد الامير محمد على بجاية لابنه المنصور وتوجه للقاء عزوز فخالفه الى بجاية فدخلها • وقبض على المنصور واعيانها • فاعتقلوا بتونس • واعاد الى ولايتها صاحبها أحمد ابن اخيه محمد• ونهض لقتال الامير محمد • فلما تراءى الجمعان انخزل المرابط الى عزوز • فانهزم الامير محمد • وادرك في بتيتة جوفي تامغزة • فقتل وقبر هناك • وذلك في المحرم سنة 812 •

ثم ولى على بجاية ابو البقاء خالد وعزل سنة 24 بالمعتمد ابن السلطان • ثم عزل المعتمد سنة 34 فصارت ولاية بجاية الى الموالي •
وفي سنة 37 ولى محمد الرابع على قسنطينة أخاه عثمان ، وعلى بجاية عمه علي بن عزوز • ثم قلد عثمان حرب ابي زكريا بن الامير محمد دفين بتيتة الذي أثار عليه العرب بوطن تونس فأناب عثمان مواليه بقسنطينة الى ان أفضت اليه الخلافة سنة 39 •

ونافس عثمان عمه علي أمير بجاية • فدعا لنفسه • وحاصر قسنطينة نحو شهر • امتنعت عليه وتوجه نحو تونس • ومعه عيسى ابن محمد شيخ الذواودة فوفد على السلطان عثمان سباع بن محمد من

شيوخ الذواودة ايضا • وكثرت جموع الامير علي والتقى بالسلطان على سراط شرقي سوق هراس في ربيع الاول سنة 840 وكان النصر في جانب الامير علي، ثم انهزمت جموعه ونجا بنفسه الى بجاية وغنم معسكره وعاد السلطان من المعركة الى تونس • وفي آخر العام قصد بجاية ، فرده بنو سيلين • وعاد اليها سنة 43 فدخلها في جمادي الثانية بعدما فر منها الامير علي • فولى عليها عبد المؤمن ابن عمه أحمد • واغتاله بنو سيلين سنة 46 فخلفه أخوه عبد الملك •

وفي سنة 50 دخل الامير علي بجاية على حين غفلة من قائدها • وأقام بها عشرين يوما وازعجه السلطان عنها الى الجبال • فبقي يجلب عليها الى سنة 56 فاستراب بأهل وطن حمزة • وتحول عنهم الى سعيد ابن عبد الرحمن السيليني صهر محمد بن عبد كبير بني سيليين • وخرج السلطان لحسم دائه • فاتفق محمد بن سعيد مع احمد بن علي الذواوي على الغدر بالامير علي • وأخبر قائد قسنطينة • فالتزم له قبول كل ما يطلبه ان هو قبض عليه ، ثم أعلم صهره بما عقده مع القائد • فكبر عليه الغدر بنزيله • فلم يزل به حتى وافقه • فقبضا عليه وبعثا الى قائد قسنطينة • فأتاهما • وامكناه منه • فارسل الى السلطان وهو في طريقه • فبعث شيخ الموحدين محمد بن ابي هلال ليتسلم الامير عليا من القائد • فتسلمه بايكجان يوم عيد الفطر ، وتوجه به الى السلطان • ثم خشي هذا الشيخ ان يفتك العرب منه الامير • فقتله ليلة الثالث من شوال ودفن جثته • وبعث برأسه الى السلطان • واستمر السلطان في سيره الى بجاية ، وارسل الى صاحبها عبد الملك بمقابلته ، فتلكأ وخشي السلطان ثورته ، فتلطف له • وارسل اليه قاضي المحلة والفقهاء والمرابطين ، فقدم معهم الى السلطان وهو بابي بحاب قريبا من جبل أولاد رحمة ، ومن الغد قيده ، وانصرف به الى تونس وولى على بجاية قائدا من الموالي ، واصبحت الجزائر الحفصية للموالي •

وفي سنة 59 توجه السلطان الى بجاية لتمهيد ساحتها وقبض قرب ميلة على ابي بكر بن الامير عبد المؤمن لان أهل بجاية قصدوا تقديمه عليهم لسابقة ولاية ابيه وعمه ، فرده الى تونس ، وتوجه نحو بجاية ، فتلقاه اعيانها بالطاعة ، فولى عليهم ابنه عبد العزيز ، وانصرف الى حضرته ، فلما بلغ قسنطينة اضاف الى قائدها بسكرة وتقرت .

وفي سنة 66 خرج السلطان الى تلمسان . واستولى في طريقه على قلعة حليمة من جبل أوراس . وقفل من تلمسان في صفر سنة 67 . فعقد في طريقه على قسنطينة لحافده محمد المنتصر بن محمد المسعود .

وبقي عبد العزيز والمنتصر على ولايتهما سنين ولكنا نجهل خاتمتهما ومن خلفهما . وآخر وال حفصي بالجزائر الحفصية — فيما أعلم — هو أحمد بن الحسن . ولي بونة ايام أبيه الى أن نبذ أهل تونس للحسن عهده ، فبايعوه مكانه سنة 943 ولا نعلم للحفصيين بعده نفوذ اداري بالجزائر .

وان من ولاة الجزائر الحفصيين من ارتقى الى عرش تونس أو ادعى الخلافة فتغلب على تونس او عجز عنها ، وهذا جدول الاقسام الثلاثة :

المرتقون الى تونس	المتغلبون على تونس	المبايعون بالجزائر فقط
عمر الاول	ابراهيم الاول	عبد العزيز بن ابراهيم الاول
خالد الاول	ابو يحي ابو بكر	
ابو عمر عثمان	ابنه الفضل	ابو بكر بن احمد الاول
احمد الثاني	أحمد الاول	علي بن السلطان عزوز

4 ـ رؤســاء القبــائل

كانت رئاسة البوادي بالجزائر الحفصية لشيوخ مــن القبائل القوية ، وقد مرت أخبار العرب في بابها ، وأظهر المعاصرين اهم مــن البربر هم مليكش وزواوة وصنهاجة وسدويكش وبنو تليلان وريغة وورقلة •

وكان مليكش مستعلين بمتيجة على الثعالبة ، وهم تابعون لوالي الجزائر يستقيمون باستقامته وينحرفون بانحرافه ، ورفع منزلتهم ابو زكريا يحي الاول فعقد لشيخهم منصور سنة 640 ومنحه ابهة الملوك مزاحمة ليغمراسن بن زيان ، ومر به العبدري سنة 89 فرماه باللؤم والبخل وكل نقيصة ولكنه شاعر لا تؤخذ عنه الحقائق التاريخية ولم تزل رئاسة متيجة لبني منصور حتى غلب على الجزائر ابو حمو الزياني سنة 712 ففروا الى الحفصيين ، وأخذ الثعالبة بعدهم في الظهور •

وكان من زواوة بنو يراتن ذوي سياده ، ورئاستهم في بني عبد الصمد ، وشاخت منهم عجوز اسمها شمسي ، لها عشرة بنين عظم أمرها بهم ، ونزل عليها ابن هيدور من خدام ابي عبد الرحمن ابن ابي الحسن المريني مدعيا انه أبو عبد الرحمن وداعيا الى الثورة على أبيــه ، وابو الحسن يومئذ بمتيجة ، فسرب الاموال في بنيها وقومها ، فأجارته وقامت بدعوته حتى تبين كذبه ، فنبذته ولحق بالذواودة •

وكانت عمدة بجاية جنــود صنهاجة ، ولهــا اقطاعات بنواحيها ولكبرائها مكانة في الدولة ، فكان يعقوب بن خلوف منهم يلقب المزوار ويستخلفه ببجاية ابو زكريا المنتخب ، ومات فخلفه ابنه عبد الرحمن واستخلفه خالد الاول لما نهض الى تونس سنة 709 فثبت على ولائه له لما دعا ابو بكر بقسنطينة لنفسه ، فزحف له ابو بكر وكانت بينهما

معركة ، وعاد ابو بكر الى قسنطينة مفلولا • وانتهبت صنهاجة معسكره واتبعته الى ميلة وحاصرته بقسنطينة اياما ثم عادت الى بجاية •

وفي هذه المدة ظهر ابن اللحياني بطرابلس محاربا لخالد الاول فوصل ابو بكر يده به وأوفد عليه حاجبه ابن غمر • وتظاهر بنكبته ، فصادر منازله وسطا بحاشيته ، فعل ذلك كيدا لابن الخلوف ، واستيقن ابن الخلوف اختلال أمر خالد وطمع في حجابة ابي بكر ، وسفر بينهما عثمان بن سباغ الذوادي وغيره فاحكموا السلم بينهما وعهد ابو بكر بحجابته لابن الخلوف ، وارتحل الى بجاية سنة 712 فلقيه ابن الخلوف بفرجيوة ، ومن الليل غدر به ابو بكر ، فقتله وأخذ السير الى بجاية ، فدخلها على حين غفلة ، وغضب عثمان بن سباع وصنهاجة لهذه الخيانة فوصلوا ايديهم بابي حمو الاول الزياني •

ومن زعماء صنهاجة منصور بن ابراهيم بن الحاج • ثار سنة 753 على مرين المحتلين ببجاية ولكن كبار البجائيين خشوا سطوة ابي عنان فبعثوا اليه بطاعتهم واخرجوا منصورا وحزبه من المدينة فتفرقوا في الجهات ولحق كبراؤهم بتونس ، ثم كانت لصنهاجة كرة أخرى على يد أحمد بن القاضي لما تقلص ظل الدولة الحفصية عن الجزائر وظهر بها الاتراك •

وكان بنو تليلان ممتنعين بجبلهم الممتد شمال ميلة وقسنطينة الى أن غلب الموحدون على افريقية فوفد شيخهم ابو بكر على الخليفة بمراكش وتقرب اليه بفرض المغرم على جبل قومه وثبت عقبه على الولاء لدولتي الموحدين وبقوا على رئاستهم بالجبل • وعرفوا باولاد ثابت وسمي الجبل بهم • ويظهر ان جبلهم هو المدعو اليوم سقاو ، بقاف بدوية مخففة قبالة ميلة • فان سقاو كثير المياه والثمار وبه آثار حصون مدهشة ، وقد قال يحي بن خلدون : « فتح ابو حمو الزياني

ميلة آخر شوال سنة 758 واصمد قومه رابع يوم فتحها الى جبل بني ثابت » اهـ •

ومن بني ثابت حسن بن ابراهيم بن ابي بكر بن ثابت • ولاه أبو بكر حجابته لما خرج الى بجاية سنة 712 واناب بقسنطينة أخاه عبد الله • ثم عاد ابن غمر من وفادته على ابن اللحياني • فسعى فيهما لدى أبو بكر كي يخلو له وجهه فقتل عبد الله بفرجيوة سنة 13 وكان أخوه حسن قد خرج لجباية الوطن • فاوعز ابو بكر بقتله الى عبد الكريم ابن منديل السدويكشي ، فقتله بوادي القطن • وهو واد شرقي ميلة قريب منها يصب في وادي قسنطينة •

قال ابن خلدون : وكان آخرهم رئاسة بالجبل علي • أدرك دولة بني مرين بافريقية وولى بعده ابنه عبد الرحمن ووفد على ابي عنان بفاس ولما استجد السلطان احمد حفيد ابي بكر دولته بافريقية استولى عليهم ومحى أثر مشيختهم ورياستهم وصيرهم في عداد جنده وحاشيته واستعمل في الجبل عماله » اهـ •

وبقية بني ثابت مساكنون اليـوم لقبيلتنا اولاد مبارك • وهم قليلون يدعون الشرف الشرعي شأن الاسر التي فقدت الشرف الحربي •

وكانت رئاسة سدويكش في أولاد سواق ثم في بني سيلين • ومواطنهم في عمل بجاية • وقريتهم بنو ورار بتخفيف الراء هي آخر ذلك العمل • وربما دعيت بني وراء او بني ياورار أو تاووريرت • وهي في آخر وطن فرجيوة غربا بقربها انقاض مدينة ايكجان وبمقربة من انقاضها اليوم قرية بني عزيز وكانت تمر بها الطريق من قسنطينة الى بجاية فذكرها اديب قسنطينة علـي بن الفكون في نظم رحلته الى مراكش بقوله :

وكم أورث ظباء بني ورار   أوار الشوق بالريق الشهي

وجمع العبدري بينها وبين ميلة ، فقال في رحلته :

« ثم وصلنا الى بني ورار ثم الى ميلة فلم نر الا رسوما بحوادث الدهر محيلة ، وكلاهما على شكل مدنية ليست بثمينة ولا متينة عمل البلى فيهما وفي السكان وأدخل الجميع في خبر كان ، وفي كلتيهما عين تسح وعنصر يجود ولا يشح وبنو ورار أعمر المحلين وعينهما أغزر العينين » اهـ ، واليوم بنو ورار خراب وميلة لم تزل عامرة .

وكان رئيس أولاد سواق علي بن علاوة بن سواق ثم أبناءه طلحة فيحي فمنديل الذي عزله أبو بكر ، وأدال من بني علاوة بني عمهم أولاد يوسف بن حمو بن سواق ، فلحق بنو علاوة بجبل عياض ، ثم كانت لهم كرة ايام أبي عنان ، فعقد على سدويكش لهنا بن تازير ابن طلحة ، ولكن قتله أولاد يوسف ، فعاد بنو علاوة الى جبل عياض ، ورأس عليهم عدوان بن عبد العزيز بن زروق بن علي بن علاوة ، ثم هلك وافترق بعده أمرهم ، وبقيت رئاسة سدويكش لاولاد يوسف .

قال ابن خلدون : « ويرادف أولاد سواق في الرئاسة على بعض احياء سدويكش بنو سكين ، ومواطنهم جوار لواتة بجبل بابور وما اليه من نواحي بجاية ، ورئاستهم في بني موسى بن ثاير ، أدركنا ابنه صخر بن موسى ، واختصه السلطان ابو يحي بالرئاسة على قومه ، وكان له مقامات في خدمته ، ثم عرف بالوفاء مع ابنه الامير ابي حفص ، فلم يزل معه الى ان اوقع به بنو مرين بناحية قابس ، فقطعه السلطان ابو الحسن من خلاف ، وهلك بعد ذلك ، فخلفه ابنه عبد الله ، وكان له شأن في خدمة صاحب بجاية وهلك اعوام الثمانين ، فخلفه ابنه محمد ، وهو لهذا العهد » اهـ .

ويظهر ان سكين محرف سيلين ، فان الموطن لبني سيلين ، وبني

صخر معروفون برئاستهم • وكان لهم آيام السلطان ابي عمر عثمان تغلب على وطن بجاية • واعفوا ذكر اولاد يوسف • ففي سنة 840 نازل السلطان نفسه عبد الله بن عمر بن صخر • ولم ينل منه حتى قتل غدرا سنة 43 وحملت رأسه الى السلطان • وفي سنة 46 قتل محمد ابن يحي السيليني عبد المؤمن بن احمد والي بجاية • وعظم صيت محمد بن سعيد من بني صخر من بعد • واختلفت حاله مع السلطان ولاء وعداء • فنقله وأهله سنة 64 الى تونس • ثم سرحه سنة 67 فأثار عليه محمد المتوكل سلطان تلمسان سنة 70 وكان يدعو له من قبل • وقد انقطعت عنا اخبار شمال الجزائر الحفصية بعد المراكشي الذي انتهى الى ايام ابي عمر عثمان • اما الجنوب فكانت به لورقلة وريغة رئاسة • وربما قطعتها الدولة • فتجددت بعد حين • ولم تزل الامارة بورقلة وتقرت حتى العصر التركي •

قال ابن خلدون ما ملخصه : « اختطت ريغة ما بين الزاب وورقلة قرى كثيرة في عدوة وادي ينحدر من الغرب الى الشرق منها المصر الكبير والقرية المتوسطة والأطم • قد نضدت حفافيها النخيل وانساحت خلالها الميـاه » •

« وكان وادي ريغ من عمل الزاب وفي اقطاع الذواودة • فكثيرا ما يعسكر عليهم ابن مزني أو الذواودة لاقتضاء الجباية ، وأكبر تلك الامصار تقرت • مصر مستبحر العمران بدوي الاحوال كثير الميـاه والنخل ، وكانت رئاسته لعبيد الله بن يوسف بن عبد الله ثم لابنائه داوود فيوسف فمسعود ثم الحسن بن مسعود ثم ابنه احمد شيخها اليوم ، وتماسين دون تقرت في العمران والخطة ، ورئاسته لبني ابراهيم من ريغة ايضا وسائر امصار ريغة كل مصر منها مستبد بأمره وحرب لجاره » •

« وورقلة اختطوا المصر المعروف بهم ، ودخله ابو زكرياء الاول

في مطاردته لابن غانية ، فزاد في تمصيره ، واختط مسجده العتيق ومأذنته المرتفعة ، ونقش في الحجارة اسمه وتاريخ وضعه ، وهو باب أهل الزاب الى السودان » •

« ويعرف رئيسه باسم السلطان شهرة غير نكيرة بينهم ، وهو اليوم ابو بكر بن موسى بن سليمان من بني ابي غبول ، فخذ من بني واكير احدى بطون بني ورقلة ، ورئاستهم متصلة في عمود هـذا النسب ، وكان يوسف بن عبيد الله صاحب تقرت تغلب على ابي بكر أزمان حداثته » اهـ •

وقال الزركشي ما ملخصه : « كان يوسف بن حسن من بيت مشيخة تقرت قد منع جبايته لاول دولة ابي عمر عثمان ، فخرج اليه سنة 53 وحاصره وقطع النخيل ، ودافعه يوسف اياما حتى عجز ، فدخل عليه المدينة ، وقدم عليها قائدا من قبله ، وأخذ يوسف وولده واخاه وعمه وأهله فاعتقلهم بتونس • ثم بلغه خلاف أهل تقرت ، فخرج اليهم آخر سنة 69 واغرمهم مالا وهدم سور البلد ، وقدم عاملا بورقلة ، وأخذ منها ومن مزاب مالا جليلا ، وقفل فدخل تونس في رجب سنة 870 » اهـ •

5 ـ الحفصيون وزناتة

أهل الشوكة من زناتة لاول القرن السابع هم مرين وعبد الواد وتوجين ومغراوة ، والعداوة بين المتجاورين منهم متأصلة ، ولتوسط عبد الواد بينهم وعلو كعبهم في الملك تواطؤا على عدائهم •

ولما استقل الحفصيون بتونس ودوا لو يملكون مراكش فيكونوا بين قومهم المصامدة ، ولكن دون ذلك زناتة ذات الكثرة والميزة الحربية • فأخذ أبو زكريا الاول يستميلهم بالرغبة والرهبة ، وبايعته مغراوة سنة 32 وحاربته توجين • ففتح حصونها ، وأسر

أميرها عبـد القوي بـن العباس ، فاعتقله بتونس ، ثم مـن عليه استئلافا له .

وبهذا الفتح جاور أبو زكريا بني عبد الواد . فضاعف الرشيد خليفة مراكش احسانه ليغمراسن واتحفه بأنواع الهدايا ، فخلصت موته له وأصبح شجا في حلق التوسع الحفصي وعقبه كأداء في سبيل الخطة التي رسمها أبو زكريا لفتح مراكش .

وفي سنة 39 وفد على ابي زكرياء عبد القوي التوجيني وبعض بنو منديل المغراويين ، واستحثوه لحرب يغمراسن ، فسرحهم امامه لاحتشاد زناتة واحلافهم من زغبة . وجمع هو جموعه عربا وبربرا . فبلغت فرسانه اربعة وستون الفا . وخرج في شوال . فوافته زغبة بزاغر . ووجه من مليانة الى يغمراسن يطلب بيعته فابى ، فنزل على تلمسان آخر المحرم سنة 40 وعجز يغمراسن عن دفاع ذلك الجيش العرمرم ، فخرج في أهله وذويه وخاصته من باب العقبة ، وأجلى الموحدين من سبيله ، ولحق بالصحراء .

ودخل ابو زكريا تلمسان في ربيع الاول وقبض ايدي الجند عن النهب . وعرض ولايتها على شيوخ الموحدين وكبراء زناتة ، فتدافعوها خشية من يغمراسن . وجاءته الرسل ببيعة يغمراسن ومظاهرته له على بني عبد المؤمن على أن يترك له تلمسان ، فقبل مسرورا ، وأوفد يغمراسن أمه سوط النساء لاحكام العقد . فتمت السلم على يدها بعود ابنها الى تلمسان مستقلا بماليتها ومعانا بجباية بعض أعمال افريقية مبلغها السنوي مائة الف دينار .

ولكي يحافظ أبو زكرياء على خضوع يغمراسن اقام في قفولة من منافسيه عبد القوي التوجيني والعباس المغراوي ومنصور المليكشي ملوكا مناهضين وولى المستنصر بمليانة محمد بن منديل المغراوي سنة 59 بعدما فتحها من يد ابي علي بن أحمـد الملياني الثائر بها ، ثم خرج

المستنصر الى المسيلة سنة 64 فوفد عليه محمد بن عبد القوي التوجيني مجددا طاعته ، فنصب له فساطيط القطن والكتان وجنب له جياد الخيل بمراكبها المذهبة ولجمها المحلاة وأكثر من المال والظهر والكراع والسلاح واقطعه جباية مقرة واوماش •

وبقيت عبد الواد على مبايعتها للحفصيين ، وفي باطنها ما فيه لتقديتهم أعداءها مغراوة وتوجين عليها ، ففي سنة 666 فرت رياح أمام المستنصر الى عبد الواد • فأعانوها على استرجاع وطنها ، ورددوا الغارات على توجين ومغراوة • ففتحوا مليانة سنة 68 ولمدية سنة 87 واستولوا على مواطنهم تدريجا • فلحق اعيانهم ببجاية وتونس ، وكان منهم جند هو شوكة الجيش الحفصي ، وما اتى القرن الثامن حتى انحصرت شوكة زناتة في عبد الواد ومرين •

فاما مرين فقد خشيت من مبايعة يغمراسن لابي زكريا سنة 40 ان يظاهره عليها ، فبعثت له بالطاعة وبيعة ما تفتحه من المدن ووعدته العون على فتح مراكش وامدها المستنصر لما توجهت الى مراكش بالمال والخيل والسلاح ، فلما فتحتها خطبت له بها زمنا ، ثم استغلظ ملكها فقطعت الدعوة الحفصية ، وبقي بين الدولتين مهاداة وروابط ودية ، وتأكدت بالمصاهرة ، ففي سنة 730 اوفد ابو يحي ابو بكر ابنه ابا زكرياء وشيخ الموحدين عبد الله بن تافراقين على ابي سعيد سلطان مرين مستنجدا به على ابي تاشفين الاول ، فوعده المظاهرة • وخطب فاطمة شقيقة ابي زكرياء لابنه ابي الحسن • فزفت اليه سنة 31 وقتلت في واقعة طريف سنة 41 فخطب ابو الحسن بعدها لنفسه اختها شقيقة الفضل سنة 46 وزفت اليه سنة 47 •

واضعف الحفصيين الثورات والفتن والحت عليهم عبد الواد بالغارات • فتحركت مرين لنصرة الحفصيين حتى اذا غلبت على تلمسان وجاورت الحفصيين اربى اضرارها بهم على عبد الواد • ففي سنة 699

كانت واقعة جبل الزان بين مرين وابي زكريا المنتخب انهزم فيها • ومات بها خلق كثير حتى سـمي المعترك « مرسى الرؤوس » • وفي سنة 701 خرج أبو يحي أخو السلطان يوسف المريني الى بجاية • فضايقها • وبلغ تاقرارت من وطن سدويكش • وخشي ابو عصيدة على ممالكه • فصانع السلطان يوسف • وأوفد عليه رسـله سنة 703 لتجديد عهد الصلة بين الدولتين • واقتفى أثره خالد أمير بجاية • وأوفد رسله أيضا سنة 704 فانقبضت مرين يومئذ عن بجاية الى سنة 48 حيث استولى ابو الحسن على تونس ومحا الدولة الحفصية • ثم ثار عليه العرب بافريقية وابنه ابو عنان بالمغرب • فاضطر لتسليم الممالك الحفصية فعادت الى أهلها سنة 750 •

وفي سنة 53 ملك أبو عنان تلمسان • ونزل لمدية فوفد عليـه أمير بجاية أبو عبد الله محمد • وكانت بينهما صداقة منذ كان في منفاه بندرومة • فشكا اليه سوء طاعة جنده وبطانته وامتناع رعيته من الجباية ، فكلف ابو عنان من يزين له النزول عـن بجاية واستبدال بعض ولايات المغرب بها ، فتنازل عنها لابي عنان على ان يلي مكناسة فلم يف له بعهده •

وبامتلاك أبي عنان بجابة فتح باب شر على قسنطينة فوالى عليها غاراته الى ان اشتد مرضه بفاس وظن وزراؤه هلاكه منه • فكتبوا الى عبد الله الياباني سنة 57 بالاقلاع عن قسنطينة وارجف بموت السلطان فأحرق عبد الله مجانيقه • وارتحل لا يلوي على شيء ، وكان القائد موسى بن ابراهيم بوادي القطن • فسرح اليه ابو العباس أحمد أمير قسنطينة أخاه زكرياء فبيته في ذي الحجة وقتل طائفة من اركان جيشه ، وأبل ابو عنان من مرضه ، فآسفته هذه الواقعة ، وخرج بنفسه الى قسنطينة ، فاستولى عليها ، وفتحت قواده تونس ، وخرج سلطانها

ابراهيم الثاني ، فجمع جموعه ، وقصد ابا عنان ، فبلغ فحص تبسة ، ولكن مرين تسللت الى مغربها ، فاضطر ابو عنان الى العـود ، فانكفأ ابراهيم الى تونس ، وطرد منها مرين ، وكل ذلك سنة 58 وأعاد ابو عنان جيوشه الى افريقية سنة 59 فلم تتجاوز عمل بونة ، وبعد موته خرجت مرين من الممالك الحفصية ، فلم تطأها بعد ، وعادت الكرة للحفصيين ، فطمع سلطانهم عزوز سنة 827 في فاس حتى دافعه صاحبها عبد الحق ببيعته .

واما عبد الواد فقد أغضبها الحفصيون بتقوية مغراوة وتوجين عليها وأطمعها الجوار في ممالكهم ، فأخذت تدبر لهم الثورات وتردد عليهم الغارات حتى ملكت عليهم كثيرا من أعمال بجاية ، وطمعت في فتح بجاية نفسها ، وحافظت أولا على الدعاء لهم حتى والى ابو عصيدة السلطان يوسف وهو محاصر لها بتلمسان .فقطع ابـو زيان الاول دعوتهم الى ان دخل السلطان عزوز تلمسان سنة 827 فبايعه صاحبها .

وفي سنة 677 قدم ابراهيم بن ابي زكرياء الاول مـن الاندلس طالبا للخلافة بتونس ، فنزل على يغمراسن ، فبايعه ووعده المظاهرة على شأنه ، وخطب منه ابنته لابنه عثمان ، فزفت اليه من تونس سنة 81 ولما قتل ايام الدعي فر ابنه ابو زكريا الى صهره عثمان ، فأكرم مثواه ، ثم بويع بتونس عمر الاول ، فوفد على ابي زكريا من حرضه عـلى الثورة عليه ، فلم يأذن له صهره عثمان . فتظاهر ذات يوم بالصيد . ولحق بالعرب الذين أعانوه على امتلاك بجاية . وأصبح يغير على تونس . فاستاء عثمان . وجدد بيعته لابي حفص عمر فطلب منه اشغال ابي زكريا عنه بالغارة على بجاية . فحاصرها عثمان سنة 86 سبعة ايام ، فاضطر أبو زكريا لترك افريقية . واقلعت جيوش عثمان الى تلمسان . فلما ولي ابو عصيدة أجلب على ابي زكريا . فتوسل الى عثمان بالصهر . وعقد معه سلما . وتفرغ لدفاع ابي عصيدة .

واشتد طلب عبد الواد لبجاية ايام ابي حمو الاول وابنه ابي تاشفين • وانتهى ايام أبي حمو الثاني • ففي سنة 709 استخلف خالد الاول على بجاية عبد الرحمن بن خلوف • فحاربه ابو حمو • واستولى على دلس سنة 12 • وارسل اليه سنة 710 صاحب قسنطينة ابو بكر مولاه سعيد بن يخلف في اتصال اليد على ابن الخلوف • ثم قتله ابو بكر ودخل بجاية • فوفد على ابي حمو صنهاجة واولاد سباع بن يحي مغرين له بابي بكر • فادعى عليه انه شرط بجاية لنفسه لما وفد عليه مولاه سعيد • وجهز الجيوش لحصارها • ثم جاوزها ففتحوا جبل ابن ثابت سنة 13 وبلغوا بونة • وحاصروا قسنطينة • وشيدوا في قفواهم حصنا بأصفون لحصار بجاية • فهدمه ابو بكر سنة 14 • وأعاد غارته سنة 15 لكن ثورة ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن اضطرته الى استرجاع جنوده • فشغل بها حتى هلك •

ووصل ابو بكر يده بمحمد بن يوسف وسوغه سهام يغمراسن بافريقية • ثم قتله ابو تاشفين الاول سنة 19 وتفرغ للغارة على بجاية وما وراءها شرقا كل عام فيما بين سنتي 19ـــ32 وابتنى في طريقها على واديها الحصون • وشغل ابا بكر باطماع ذوي قرابته في ملك تونس • فأسس حصن بكر سنة 21 ونزل عليــه أبو ضربة سنة 32 طامعا في استرجاع ملكه • فجهزه بما يحتاج اليه • فهزمه ابو بكر برغيس بين بونة وقسنطينة • فعاد الى تلمسان وبها مات • ثم نزل عليه ابراهيم بن ابي بكر بن عبد الرحمن الحفصي سنة 24 فاعانه ايضا بالجنود والقواد وانحصر منهم ابو بكر في قسنطينة • فدخل ابراهيم تونس في رجب سنة 25 واقلعت عبد الواد عن قسنطينة فخرج ابو بكر واسترجع تونس في شوال • وفي سنة 26 اختط بخميس تيكلات حصنا أعظم من حصن بكر واقرب منه الى بجاية • وسماه تيمززدكت

باسم الحصن الذي قتل عليه الخليفة السعيد سنة 646 وشحنه بالرجال والاقوات والذخائر • وقصدته جيوش أبي بكر سنة 27 فانهزمت شر هزيمة • وبنى سنة 29 حصنا آخر بالياقوتة قبالة بجاية • وسرح سنة 30 محمد بن ابي بكر بن ابي عمران الحفصي لامتلاك تونس• فهزم ابا بكر بالرياش من ناحية مرماجنة • ودخل تونس في صفر •

ونجا ابو بكر الى بونة • وركب البحر الى بجاية ، واوفد ابنه ابا زكريا على ابي سعيد المريني • فوعده الاعانة • ولكن ابا بكر استعاد تونس في رجب ثم توفي ابو سعيد وخلفه ابنه ابو الحسن • فخاطب ابا تاشفين في الاقلاع عن بجاية • فرد شفاعته فنهض اليه سنة 32 ونزل بتسالة وبعث المدد في البحر الى بجاية • وجاء ابو بكر من تونس وسرح السرايا من بجاية لتخريب الحصون المقامة لحصارها وقد انقبضت عنها الحامية الى تلمسان ، فخربها وغنم ذخائرها وزحف الى المسيلة موطن اولاد سباع شيعة عبد الواد • فخرب أسوارها • وقفل الى تونس في شوال ولم يجتمع بابي الحسن الذي شغل عن تلمسان بثورة أخيه أبي علي •

ولما استولى أبو عنان على تلمسان سنة 53 نجا ابو حمو الثاني الى تونس وصحب ابراهيم الثاني واعانه على اخراج مرين من ميلة وجبل بني ثابت في شوال سنة 58 ثم استقر ابراهيم ببجاية وملك أبو حمو تلمسان ففر بعض مغراوة الى ابراهيم وحماهم من ابي حمو فساء ما بينهما فاغار ابو حمو على بجاية سنة 63 وفتح تدلس وحمزة وبني حسن ثم جهز أبا عبد الله أمير بجاية الاقدم سنة 64 ففتح بجاية سنة 65 ونكر جميل أبي حمو وهو يومئذ مشغول بالفتن • فاخرج قائده من تدلس فسرح اليه جنده سنة 66 فعجزوا عن فتحها • ولكن الامير محمدا جذبه ابن عمه احمد صاحب قسنطينة من خلفه وأغار على عمله • فاضطر الى موالاة أبي حمو وأعاد له تدلس • وزوج منه

ابنته ، فزفت اليه سنة 67 وفيها قتل أحمد الامير محمدا وملك بجاية • فتظاهر أبو حمو بالانتصار الى صهره وخرج الى حربه في جموع من قبائل بعضها منحرف عنه • وكان مع الامير أحمد أبو زيان بن عم ابي حمو • فأثاره عليه • ومالت اليه مرضى القلوب • فانهزم ابو حمو شر هزيمة خامس ذي الحجة • وشغل بثورة ابن عمه • فلم يطـأ جيشه تراب بجاية بعد •

وضعفت زناتة آخر القرن الثامن • فعادت الكرة للحفصيين • وفر ابو حمو من ابنه ابي تاشفين وطلب من قائد اسطول بجاية النزول • فأنزله ببستان الرفيع سنة 89 وجاء الامر من الخليفة أحمد الاول محاربه بالامس باكرامه وامداده على استرجاع ملكه من ابنه • فاسترجعه سنة 90 وفتح عزوز تلمسان سنة 827 وولى بها محمد بن ابي تاشفين الثاني • فقطع بيعته من بعد • فحاربه واعان عليه عمه عبد الواحد فاخرجه من تلمسان سنة 31 ثم قتل الامير محمد عمه سنة 33 فخرج اليه عزوز سنة 34 ففتحها وولى بها أحمد بن ابي حمو • ونقل معه الامير محمدا • فاعتقله بقصبة تونس الى أن توفي ونقض أحمد بيعته فخرج اليه سنة 37 ولكنه توفي أثناء سيره بولجة السدرة حيث عين الزال قرب وانشريس • فعاد جيشه بشلوة • وفي ايام ابي عمر عثمان تكررت الهدايا بينه وبين صاحبي فاس وتلمسان • ثم تغلب عـلى تلمسان محمد المتوكل سنة 66 فخرج اليه ابو عمر • وعاد ببيعته • ثم نقضها ووصل يده باعداء ابي عمر من الذواودة وبني سيلين • فخرج اليه أبو عمر سنة 70 وخضعت له في طريقه المدن والبوادي • وبلغ تلمسان في ربيع الثاني سنة 71 وبعد قتال شديد عاد المتوكل الى الطاعة وأنكح ابنته دون خطبة حافد السلطان ابا زكريا يحي بن محمد المسعود وقفل السلطان الى تونس في شعبان • وضعفت بعده الدولة الحفصية فلم يكن بين الحفصيين والزيانيين ولاء ولا عداء الى

أن ملك الاتراك الجزائر • فعادت بين الدولتين المحتضرتين مخاطبات في الاتحاد على الاتراك لم تأت بثمرة •

والاخبار التي قصصناها تدل على أن عظمة زناتة اضرت بالحفصيين وعظمة الحفصيين أضرت بزناتة وان قوتيهما لم تجتمعا في عصر واحد • ولعل السر في ذلك أن افريقية الشمالية لا تحتمل اكثر من دولة واحدة ، ولا تصلح الا بادارة قوية متحدة مثل الادارة المؤمنية •

6 ـ سقوط الدولة الحفصية

عرفت الدولة الحفصية في حياتها دور الصعود والعظمة الى خلع الواثق • ثم دور الاضطراب والفتن الى خلافة أحمد الاول • ثم دور الانتعاش الى موت ابي عمر عثمان • ثم دور الاحتضار الى قبض الاتراك على محمد السادس • ومن غرائب الاتفاق ان الدولة العثمانية التي حلت محل الحفصيين انتهت ايضا بخلع محمد السادس وحيد الدين •

وليس لخلفاء هذا الدور الاخير كبير نفوذ بالجزائر • وكان من أمرائهم بقسنطينة عبد العزيز • وعلى عهده احتلت اسبانيا بجاية ودلس والجزائر سنة 915 (1510 م) من غير مقاومة حفصية • وانتقل عبد العزيز الى قلعة بني عباس لمضايقة بجاية • وبها توفي سنة 966 وهي قلعة حصينة جنوبها سهل مجانة الغني وتهيمن على الطرق الرابطة بين بجاية وقسنطينة والجزائر • وقلعة بني حماد بعيدة عنها الى الجنوب الشرقي من برج بوعريريج • وهي في الشمال الغربي منه • وقد غلط صاحب تحفة الزائر • فظنها اياها • وفي سنة 919 ملكت اسبانيا جيجل • والامير الحفصي يومئذ بقسنطينة ابو بكر • وفي سنة 41 تنازل الحسن لها عن بونة • فتم خروج الجزائر من ايدي الحفصيين ، ومدتهم بها

ما بين سنتي 628ـ941 ثلاث عشرة وثلاثمائة سنة • ومدتهم بتونس ما بين سنتي 627ـ981 اربع وخمسون وثلاثمائة •

وعلة سقوط دولتهم امتناع بداة العرب والبربر من الجباية ، وقلة اهتمام الخلفاء بالدولة ، وانقطاعهم الى لذاتهم الشخصية ، ووقوعهم بين دولتين عظيمتين هما اسبانيا غربا والعثمانيون شرقا •

ورائد العثمانيين الى المغرب هو بربروس ، كان معنيا بغزو مراكب النصارى البحرية ومدائنهم الساحلية ، واعجبه موقع تونس ، فاستمال صاحبها محمد بن الحسن بالهدايا ومنحه خمس الغنائم ، ونزل عليه • ولحق به أخوه خير الدين ، وكثرت أمواله وجنوده فهاجم بجاية وبقية السواحل التي ملكتها اسبانيا ، وسر به الحفصيون والامة ، فوصل يده بابي بكر وعبد العزيز أميري قسنطينة والقلعة واستدعته كتامة لاسترجاع جيجل ، فملكها سنة 20 واتخذها مركز حركته ثم ملك الجزائر سنة 22 وبعث بفتحها الى السلطان سليم العثماني ، فولاه بها ، وكان ذلك أول قدم للدولة العثمانية بالجزائر •

واغضب صنيع بربروس الحفصيين ، فوصلوا ايديهم بملوك تلمسان واستمالوا أحمد بن القاضي اعظم زعماء البربر يومئذ ، ولم تفدهم هذه السياسة غير التشويش على الاتراك وتعطيل هجومهم على تونس •

وهنا نلخص عن القيرواني والدمشقي ما يبين حياة الخلفاء المتأخرين وموقفهم بين الاتراك والاسبان قال القيرواني ما ملخصه :

« لما ولي يحي بن محمد المسعود جاءته بيعة بلد العناب وقابس وصفاقس ، ودانت له البلاد ، وخرج أكثرها عن محمد بن اخيه ، وملك الاتراك الجزائر واضطربت على ابنه الحسن البلاد ، وخرجت عنه سوسة والقيروان ، وملك الاتراك قسنطينة ودخلوا عليه تونس سنة 935 فاحتمى بملك اسبانيا ، فأخرجهم عنه سنة 41 واستقدمت

بطانة ابنه احمد علي باشا الجزائر . فملك تونس سنة 77 واستنجد أحمد اسبانيا . فاشترطت عليه شروطا اباها . وقبلها أخوه محمد ، فأدخلوه تونس وفر عنها الاتراك ثانية الى أن قدم الوزير سنان باشا من الاستانة في ربيع الاول سنة 81 واجتمع اليـه الاتراك والعرب والبربر من الجزائر وتونس وطرابلس ، ففتح برج الاسبان بحلق الوادي سادس جمادى الاولى ثم قلعة البستيون المتحكمة في تونس في الخامس والعشرين منه » اهـ •

وقال الدمشقي في أخبار الدول ما خلاصته : « كان محمد بن الحسن مشتغلا باللهو والخمر مهملا لامور الملك ، وترك خمسة واربعين ذكرا . خلفه منهم الحسن فقتل أخوته لم ينج منهم الا الرشيد وعبد المؤمن لغيبتهما ، واشتغل بالخمور والفجور وجمع حوله أكثر من اربعمائه أمرد ، فمالت عنه الامة الى الرشيد •

« ولجأ الرشيد الى خير الدين صاحب الجزائر • واستعان به على حرب أخيه • فشكاه الحسن الى سلطانه سليمان • فاستقدمه ، وأمره باستصحاب الرشيد ليمسكه عنده • ولكن خير الدين لما وفد عليه زين له امتلاك تونس ليتمكن من التحكم في البحر ، وعرفه سخط الامة على الحسن • فاذن له •

« وجاء خير الدين تونس • فكاد أهلها بانه آتى بالرشيد • فملك المدينة • وفر الحسن الى اخواله من العرب • ثم شعروا بالمكيدة • فأغار الحسن على تونس من غير طائل • ثم لحق بملك اسبانيا مستنجدا • فاستقبحت الامة فعل الحسن • واخلصت لخير الدين • ولكن قوة اسبانيا كانت فوق الطوق • فانهزم خير الدين بعد حروب • ودخل ملك آسبانيا والحسن تونس حوالي سنة 40 ثم عاد الملك بنفائس الذخائر • وكثر عدد الاسبان بتونس ، وابتنوا مدينة مسورة ، وتضرر بهم عامة المسلمين •

« وثارت القيروان على الحسن • فخرج لاخمادها • فقدم الناس بعده ولده حميدة (أحمد) ولحق هو باسبانيا • واتى منها بعمارة حاصرت تونس • وبعد حروب انتصر حميدة • وأسر اباه • ثم تغيرت سيرته • فمد عينه الى الحريم ، وجمع حوله أكثر من ثلاثمائة بنت ، فنكرته الامة ، وانتظرت خروجه لقتال العرب فاستقدمت علي باشا الجزائر ، فاستولى على تونس في شوال سنة 78 (في غيره 77) •

« واستنجد حميدة اسبانيا • فأنجدته • وفتحت تونس ، لكنها ولت مكانه أخاه محمدا صورة من غير مال ولا رجال • والامر كله للاسبان ، وعاود الاتراك غزو تونس ، فنزلوا عليها في ربيع الاول سنة 82 (في غيره 81) وبعد حروب شداد استولوا على تونس ، وأسروا قائدها الاسباني وبعثوا بالسلطان محمد الى الاستانة فانتهى به أمر الحفصيين » اهـ •

الباب السابع

في دولــة بني مريــن

ا — بنــو مريــن

بنو مرين قوم بداة كانوا أعزاء على الدولة المؤمنية . ودخل بهم كبيرهم عبد الحق بن محيو تل المغرب الاقصى سنة 610 على حين ضعف الدولة ، وأعلن الحرب عليها سنة 13 وقتل سنة 14 فخلفه ابنه عثمان ، وتغلب على الضواحي وكثير من القبائل ، واغتيل سنة 37 فخلفه أخوه أبو معرف محمد ، وقتل في حرب الدولة سنة 42 فخلفه أخوه أبو يحي ابو بكر ، فبايع ابا زكريا الحفصي . واستولى على فاس . ومات سنة 56 فخلفه ابنه عمر . وخلع سنة57 وبويع عمه يعقوب ابن عبد الحق . ففتح مراكش سنة 68 وتلقب بامير المسلمين . فكان هو أول ملوك هذه الدولة المرينية . واصبح لقبه شعار ملوكها .

وكانت مملكة بني مرين تشتمل على المغرب الاقصى وجهات من الاندلس الاسلامية غير تابعة لبني الاحمر ملوك غرناطة . وعاصمتها فاس . وعني الملوك الاولون برفاهيتها وسعادتها ، فأقاموا العدل ورفعوا المكوس . وأعانهم غنى المملكة الطبيعي واتصالها بالاندلسيين العريقين في التمدن .

وللحكومة علاقات ودية ومهاداة مع دول مصر والسودان وتونس ولكن جوارها لدولتي تلمسان وغرناطة كان يحدث لها معهما مشاكل . وقربها من تلمسان جعل ايام السلم معها قليلة وكان بغرناطة جيش عظيم

من مجاهدي زناتة يرأسه بنو عبد الحق من مرين • فربما تحكمت في دولة فاس • بما لديها من القرابة المرشحين للملك •

واقتفت الحكومة آثار الدول قبلها في النظم الادارية والقضائية والمالية والحربية • وأيامها ظهر البارود • واستعمله يعقوب بن عبد الحق في حصار سجلماسة سنة 672 وصنع لابنه يوسف في حصاره تلمسان سنة 697 قوسا عظيمة بعيدة النزع توقر على احد عشر بغلا • سموها قوس الزيار •

ولم يزل ملوك هذه الدولة عظاما حتى هلك ابو عنان منهم • فاختلفت حال من بعده قوة وضعفا • وربما تغلب على الامر الوزراء ، وقدموا الملك الصبيان صورة • وربما استقل عن صاحب فاس بعض منازعيه بسجلماسة ومراكش ، فاختلت الاحوال واعتلت الدولة حتى افضى الامر الى عبد الحق بن ابي سعيد عثمان فاقصى عن الحكومة بني وطاس • وولى رئاسة دولته هارون اليهودي وساء أثره في المسلمين فثاروا به وبسلطانه ، وقتلوهما سنة 869 (1465 م) وبايعوا محمد بن علي الادريسي ، فانقرضت بذلك دولة بني عبد الحق ، واومض برق الخلافة الادريسية ، لكنه كان خلبا • فان محمدا الشيخ الوطاسي استولى على فاس سنة 876 وأعاد اليها ملك بني مرين • فلم يزل الامر للوطاسيين الى أن تغلب على فاس محمد الشيخ السعدي سنة 961 (1554 م) فانقرضت دولة مرين • وخلفتها دولة السعديين •

ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم رعايا •• ولكن مالهن دوام

بنو عبد الحق

الملك	هـ	م
يعقوب بن عبد الحق	657	1259
ابنه يوسف	685	1286
عامر بن عبدالله يوسف	706	1307
أخوه سليمان	708	1308
عثمان بن يعقوب بن عبد الحق	710	1310
ابنه ابو الحسن علي	731	1331
ابنه ابو عنان فارس	749	1348
ابنه ابو بكر السعيد	759	1358
عمه ابرهيم بن ابي الحسن	760	1359
اخوه تاشفين	762	1361
ابو زيان محمد بن يعقوب بن ابي الحسن	763	1361
عبد العزيز بن ابي الحسن	768	1366
ابنه ابو زيان محمد الثاني	774	1372
احمد بن ابرهيم بن ابي الحسن	776	1374
موسى بن ابي عنان	786	1384
ابو زيان الثالث بن احمد	788	1386
ابو زيان الرابع بن ابي الفضل بن ابي الحسن	788	1386
عود احمد بن ابرهيم	789	1387
ابنه عبد العزيز الثاني	796	1393
اخوه أبو عامر عبدالله	799	1396
أخوهما عثمان الثاني	800	1398
ابنه عبد الحق	823	1320
السقوط	869	1465

بنو وطاس

الملك	هـ	م
محمد الشيخ بن ابي زكريا	876	1472
ابنه محمد البرتقالي	910	1504
اخوه ابو حسون علي	931	1525
احمد بن محمد البرتقالي	932	1526
الاستيلاء السعدي الاول	956	1549
عود ابي حسون	961	1554

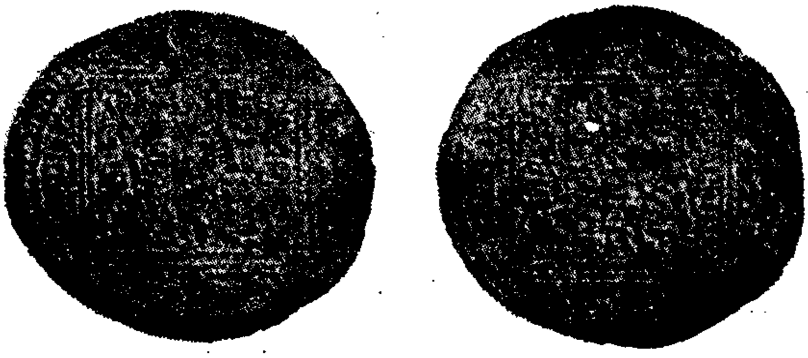

20 — نقد مضروب بتلمسان في أحد وجهيه اسم « أمير المؤمنين ابو الربيع سليمان » وفي الآخر « المتوكل على الله أمير المسلمين ابو عبد الله محمد » •

2 ـ بنـو مرين بالجزائر

الضغائن بين مرين وعبد الواد قديمة ، ناشئة عـن الجوار في الموطن ثم في الملك وعن المنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة ، فكثرت الحروب بينهما ، وكان ملك مرين أعظم ، فكان الفوز لهم غالبا ، فلما احتضر يغمراسن اوصى خلفـه بمسالمة مرين والتوسـع في مملكة الحفصيين ، لكن مرين التي لا يرضيها مقاسمة عبد الواد لها رئاسة زناتة كانت تتجنى عليهم تارة بانهم آووا ثائرا عليها ، ولم يكن يومئذ تسليم المجرمين السياسيين من الحقوق المقررة بين الدول ، وأخرى بأنهم ردوا شفاعتها في مجرم سياسي من رعاياهم أو في تخلية سبيل الممالك الحفصية ، فلم يكن في امكان عبد الواد ارضاؤها ، وكانت أيام السلم بينهما هي أيام اشتغالهما بفتن داخلية .

وقعت بين يغمراسن وابي يحي واقعتا اسلي قرب وجدة سنة 648 وابي سليط سنة 55 ثم وقعت بينه وبين يعقوب واقعة ناحية تازا سنة 57 واصطلحا سنة 58 ثم تحاربا بوادي تلاغ قرب ملوية سنة 666 وعزم يعقوب بعدها على فتح تلمسان ، فتهيأ له يغمراسن ، فمال الى الصلح ، لكن يغمراسن كتب اليه :

فلا صلح حتى نروي السيف والقنا
وتأخذ عبـد الـواد منكم بثارها

وأشفي غليلي من مرين التي طغت
بسـبي غوانيهـا وقتـل خيارهـا

فكانت بينهما واقعة اسلي سنة 70 انتصر فيها يعقوب ، وحاصر تلمسان ثلاثة أيام وثلاثـة أشـهر ، ووفـد عليه محمد بن عبـد القـوي التوجيني ، فاختلفت أيدي مرين وتوجين على العيث في ساحة تلمسان ،

ثم أقلعوا عنها ، وانعقد الصلح بين الفريقين سنة 73 وانتقم يغمراسن من توجين •

ثم ان يعقوب عزم على الجواز الى الاندلس ، فارسل الى يغمراسن في تأكيد الصلح رسالة منها هذان البيتان :

فلنترك الناس الى جهادهم مؤملين في حمى بلادهم
واقعد ولا تنهض الى توجين فانها في العهد مع مرين

فأحفظ يغمراسن حمايته لتوجين وهي من رعيته • ونقض الصلح • فكانت بينهما واقعة الملعب سنة 80 والملعب ميدان لعب الخيل باحواز تلمسان • وانهزم يغمراسن فانحصر بتلمسان أياما • وشاركت توجين مرين ايضا في اعمال الفساد ، ثم عاد كل الى مقره • وانتقم يغمراسن من توجين • وتوفي ، واوصى ابنه عثمان بمسالمة مرين ، فعقد السلم مع يعقوب سنة 84 •

ثم آوى عثمان بعض الثوار على يوسف بن يعقوب ، فخرج يوسف سنة 89 الى تلمسان ، وحاصرها ستة عشر يوما اصابت فيها ايدي الجيش نواحيها بالنهب والتخريب ، ووفد ثابت بن منديل المغراوي على يوسف سنة 94 مستصرخا به على عثمان ، فارسل اليه بالشفاعة فيه ، فردها عثمان ، وخرج يوسف منتقما منه سنة 95 فحاصر ندرومة اربعين يوما ، ثم حاصر تلمسان سنة 96 اياما ثم نصب عليها قوس الزيار في رجب سنة 97 وحاصرها ستة أشهر ، وانزل جيوشه بوجدة للغارة على مملكة تلمسان •

وفي رجب سنة 98 خضعت ندرومة لبني مرين لاضرار غارات العسكر بها وفي شعبان نزل يوسف على تلمسان ، واقام محاصرا لها الى ان قتله احد خصيانه في ذي القعدة سنة 706 •

وأعظم آفات الملوك عبيدها

وملكت مرين في هذه المدة كل مملكة تلمسان ما عدا المدينة

ودخلت جيوشها مملكة بجاية ، فملكت ندرومة وهنين سنة 98 ووهران ومستغانم ومزغران وتنس ومليانة سنة 99 والقصبات وبرشك وشرشال وونشريس ومازونة والبطحاء وتامزقدت سنة 700 وتفرقينت ولمدية سنة 703 ولما قتل يعقوب رغب في الملك كل من أخيه ابي يحي وابنه ابي سالم وحافده ابي ثابت عامر ، فراسل عامر بني عبد الواد في تخلية ممالكهم على ان يؤيدوه ، ففعلوا ، وتم له الامر ، ووفى لهم بالعهد ، وبقيت السلم بين الدولتين الى أن نقضها ابو سعيد عثمان ، فأغار سنة 714 على تلمسان وبلغ الملعب ، وعاثت جيوشه في الجهات قتلا ونهبا ، وفتحوا معاقل بني يزناسن ثم عادوا الى فاس .

واستولت مرين من بعد على تلمسان ست مرات وعلى الجزائر الحفصية مرتين وتداخلت بعد ابي حمو الثاني في أمر العرش ونصبت حمايتها على المستعينين بها على الملك ، ثم ضعفت عن ذلك حتى انها احتمت بالدولة الحفصية .

ولم تجن الجزائر من تداخل مرين في أمرها غير تخريب قصور ونسف عمران الى تعطيل حركة الانتاج وسير الاقتصاد الى افساد الرعايا ونشر الفوضى الى اضعاف الحكومة الشرعية وشغلها عن ترقية ممالكها .

وقد ترك يوسف بن يعقوب وابو الحسن ابن أخيه بالجزائر آثارا ، منها ابتناء قصبة لمدية سنة 704 ومنها تأسيس المنصورة سنة 700 حيث المعسكر المحاصر لتلمسان ، بني اولا قصر السلطان بمضرب قبابه وبازائه جامع كبير ومنارة عظيمة على رأسها تفافيح من ذهب بسبعمائة دينار ، وادير على القصر والجامع سور وابتنى الناس حوله المنازل والقصور وغرسوا البساتين وأجروا المياه وادير على ذلك سور سنة 702 فكانت مصرا من أعظم الامصار عمرانا ونفاق أسواق ، ذات حمامات وخانات ومارستان ، وخربها من بعد بنو عبد الواد وطمسوا معالمها .

ومنها البرج الاحمر وبرج المرسى بوهران بناهما ابو الحسن سنة 748 وبني في حصاره لتلمسان مدينة غربيها سماها ايضا المنصور • وخربت ايضا وبقي بعض آثاره المدهشة •

وما هدمت مرين مـن المجتمع الجزائري لا تجبره أمثال تلك البناءات قال تعالى ــ ومن أصدق من الله قيلا ــ : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة • وكذلك يفعلون » •

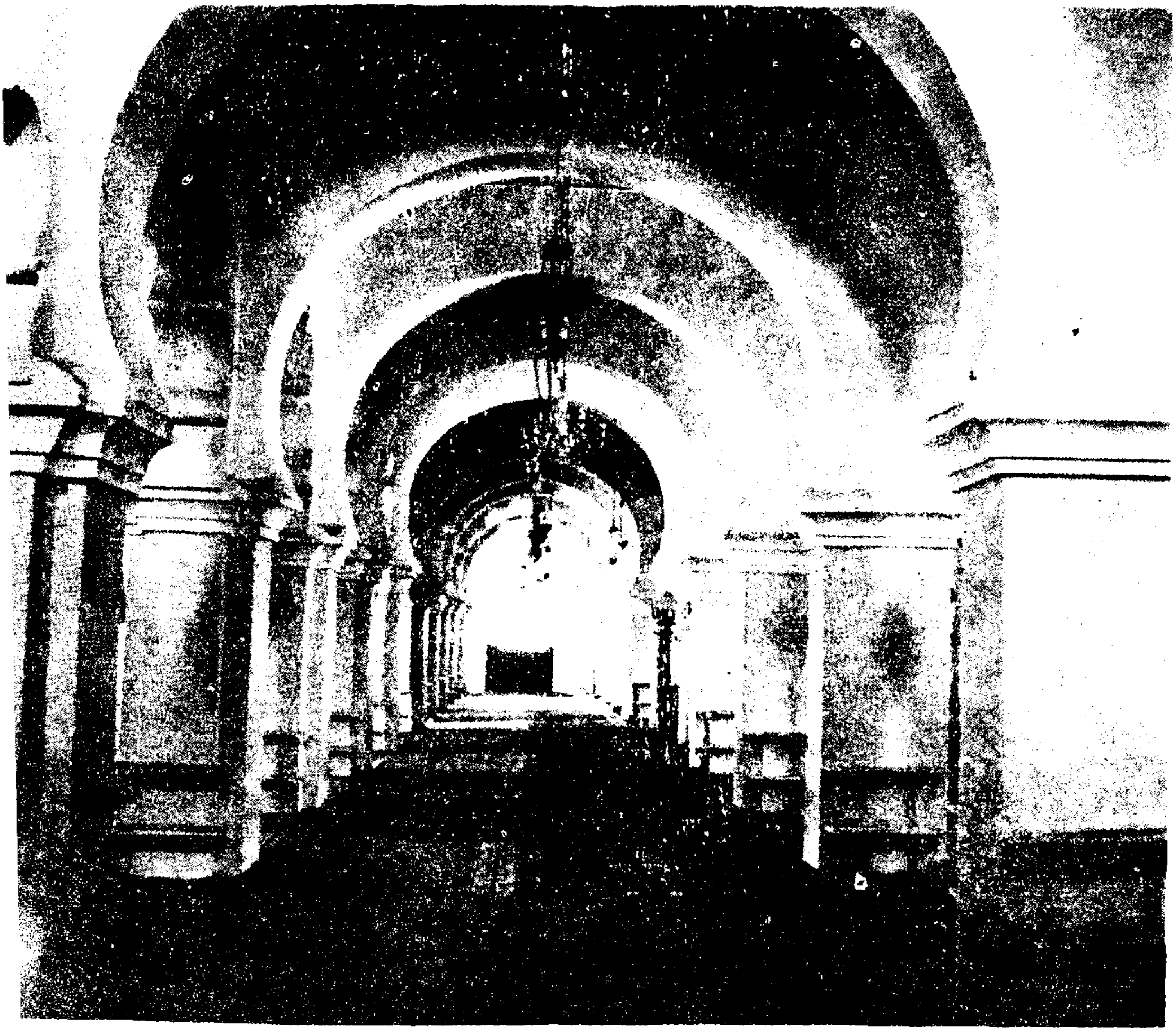

(ش41) داخل الجامع الاعظم في تلمسان

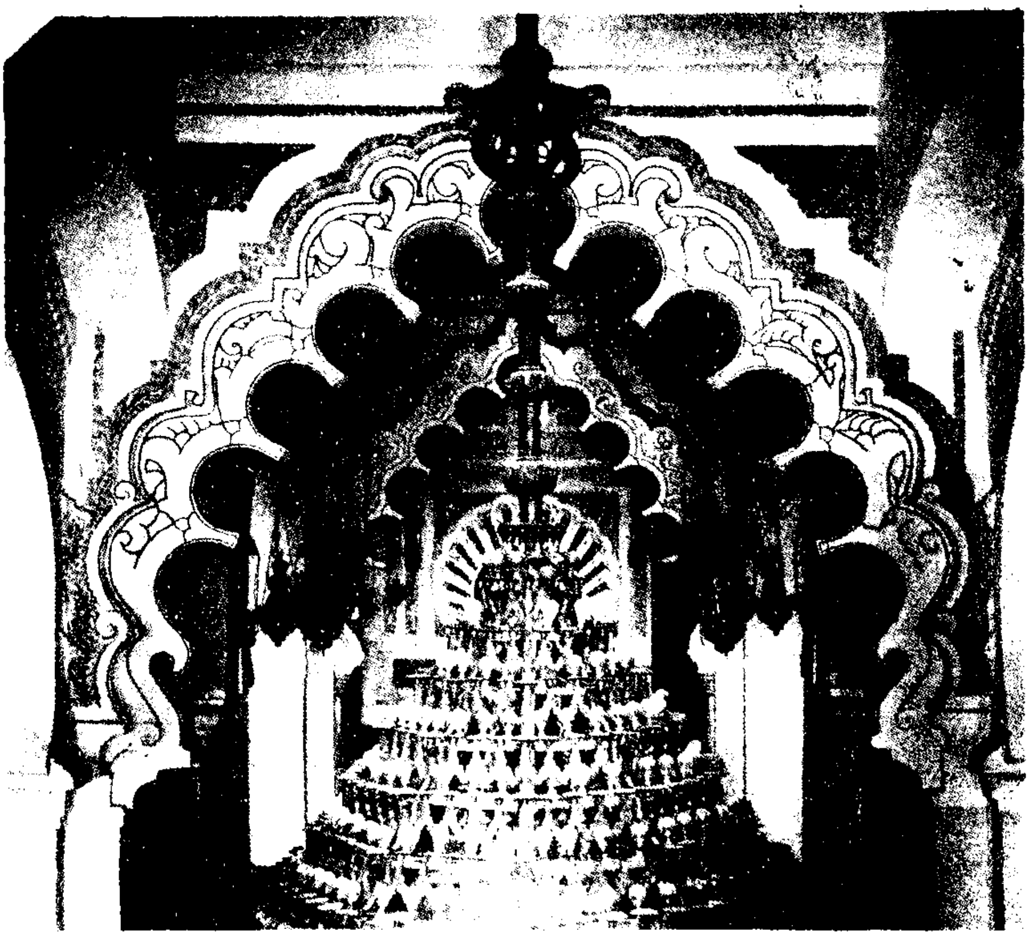

(ش42) الجامع الاعظم في تلمسان

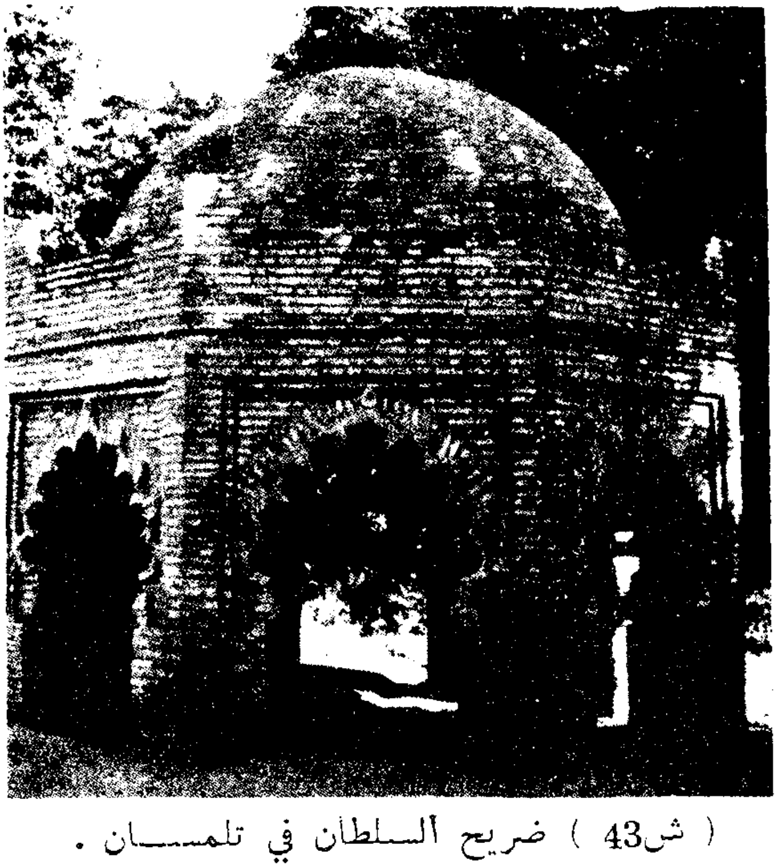

(ش43) ضريح السلطان في تلمســان .

3 — استيلاء ابي الحسن على الجزائر

كان ابو تاشفين الاول يكثر الاغارة على الممالك الحفصية ويحاول فتح بجاية • فخشيت مرين عاقبة تغلبه على الحفصيين • واوفد ابو يحي ابو بكر الحفصي وفده على ابي سعيد المريني مستغيثا سنة 730 فتظاهرا على ابي تاشفين • وأحكما التظاهر بالتصاهر • وعزما على استئصال دولة عبد الواد • ومات ابو سعيد دون أمنيته • وخلفه ابنه ابو الحسن فخاطب ابا تاشفين في الرجوع الى حدود مملكته القديمة وتسليم ما تغلب عليه لصاحب تونس • فأبى ونهض ابو الحسن الى تلمسان • فجاوزها الى تسالة • ونزل هنالك في شعبان سنة 32 واغارت أساطيله على السواحل • وارسل الى ابي يحي في الملاقاة وجمع قوة الدولتين على فتح تلمسان • فاسترجع ابو يحي ممالكه ولم يتقدم الى تلمسان • واثار ابو تاشفين ابا علي أمير سجلماسة على أخيه ابي الحسن • فارتحل ابو الحسن لاطفاء ثورته •

وفي سنة 35 عاد ابو الحسن الى تلمسان • فحاصر وجدة • واستولى على ندرومة وهنين • ونزل تسالة وبايعته توجين ومغراوة وانبثت سراياه في الجهات • فاخضعت له سنة 36 وهران وتنس ومليانة والجزائر والمدية وونشريس وشلف وسائر المغرب الاوسط • فولى بها العمال • وتوجه لحصار تلمسان • فخندق على معسكره وابتنى المنصورة لسكناه وسكنى جيوشه • وبعد وقائع تمكن من فتح تلمسان • فدخلها في رمضان سنة 37 ونزل بالجامع • وقبض أيدي الجند عن الفساد ورفع القتل عن بني عبد الواد • واستلحقهم بجيشه • وابقاهم على مراتبهم • وفرض لهم العطاء • فاذعنوا وصدورهم تكاد تميز من الحقد •

وبلغ أبا الحسن ان ابا يحي وافد عليه للتهنئة • فلاقاه سنة 38

الى متيجة وطال مقامه بها حتى مرض • وحذر أبا يحي وزراؤه من هذه الوفادة • فانقبض عنها • وظن عبد الرحمن يعقوب بن ابي الحسن ان اباه هالك • فتوثب على الامر منافسة لاخيه ابي مالك • فتدارك ابو الحسن الامر ، وفر ابنه الى موسى بن ابي الفضل أمير بني يزيد بسهل حمزة • فرده عليه ، وحبس بوجدة • ثم قتل سنة 742 وأيس أبو الحسن من وفادة ابي يحي • فعاد الى منصورته •

وكان بنو عامر منحرفين عن الطاعة لمكان سويد منافسيهم • ففر اليهم ابن هيدور جازر ابي عبد الرحمن ، وادعى انه هو ، فبايعه شيخهم صغير بن عامر ، وزحف به على لمدية ، فهزم قائدها ، وجهز ابو الحسن ونزمار بن عريف في قومه سويد • فقضى على الثورة • ولحق ابن هيدور الدعي بزواوة فافتضح • فانتقل الى الذواودة فبعث ابو يحي الحفصي خدمة لابي الحسن الى يعقوب ابن علي من كشف له أمر الدعي • فأشخصه الى أبي الحسن سنة 40 وهو يومئذ بسبتة • فقطعه من خلاف • وهلك سنة 68 •

وعني ابو الحسن بالجهاد وفي نفسه تشوقا الى امتلاك تونس • وانما أقعده عنها مكان صهره ابي يحي • ففي سنة 747 مات ابو يحي ، وتغلب على الامر ابنه عمر ، وقتل أخاه أحمد ولي العهد ، فتعلق ابو الحسن بهذا السبب ، وعقد على تلمسان والمغرب الاوسط لابنه ابي عنان ، وفوض اليه ادارتها ، وفصل منها في صفر سنة 48 فأتته بوهران بيعات أمراء الجريد وجربة وقابس وطرابلس ، ووفد عليه بارض بني حسن من نواحي البرواقية اعيان الجزائر ويعقوب ابن علي الذوادي ومنصور بن مزني ، فولى على جباية الجزائر مسعود ابن ابرهيم اليرنياني من طبقة الوزراء ، وتلقاه بساحة بجاية أميرها محمد لما لم يجد نصيرا ، فنقله عزيزا مكرما الى ندرومة واوصى ابنه ابا عنان بالاحسان اليه •

دخل ابو الحسن بجاية ، فوضع عن أهلها ربع المغرم وولى عليها محمد بن النوار من طبقة الوزراء ، وترك له حامية ، وتقدم الى قسنطينة ، فتلقاه أميرها ابو زيـد في أخوته مبايعين . فنقلهم الى وجدة . واقطعهم جبايتها ، وولى على قسنطينة محمد بن العباس . وانزل معه بني عسكر . واقر صهره الفضل على بونة . وتقدم الى تونس فملكها وأقام بها الى شوال سنة 50 وفي هذه المدة اجتمع له ملك المغرب . ولم يجتمع لاحد بعد بني عبد المؤمن غيره .

وفي محرم سنة 49 هزم العرب ابا الحسن على القيروان هزيمة منكرة . وكان بعسكره بنو عبد الواد وتوجين ومغراوة . فكانت لهم يد في جر الهزيمة عليه لسلبه اياهم ملكهم . وارجف بموته . فدعا ابنه ابو عنان لنفسه وثار عليـه صهره الفضل بن ابي يحي الذي أقره على بونة وكان الفضل يرى أنه سينزل له عن ملك تونس ، ولا يغتصبه عرش سلفه ، فاستولى على قسنطينة وبجاية ، واخرج منها مرين واخذ يجلب على تونس .

وارتحل ابو عنان الى فاس ، وترك على تلمسان عثمان بن جرار من أولاد طاع الله من بني عبد الواد ، واجتمع بظاهر تونس بنو عبد الواد ، فبايعوا عثمان بن عبد الرحمن . وتحالفوا مع مغراوة وتوجين ، وهدروا ما بينهم من دماء ، وارتحلوا في زهاء خمسمائة فارس الى مواطنهم ، فقتلوا عمال مرين ، ودعا عثمان بن جرار لنفسه . فنكر الناس دعوته لكونه لا سلف له في الملك ، فكان ذلك مما أعان عثمان ابن عبد الرحمن عليـه ، فغلبه على تلمسان . ودخلها في جمادى الثانية سنة 49 وقتله غريقا . وعقد سلما مع ابي عنان على أن يمنع اباه عنـه .

ولم يبق بعد واقعة القيروان على بيعة ابي الحسن غير مدينة

الجزائر ووهران ووانشريس • فسرح اليها ابنه الناصر مع يعقوب بن علي وعريف بن يحي • فاطاعته حصين والعطاف والديالم وسويد • وتوجهوا نحو منداس • فلقيهم الزعيم بقومه عبد الواد • وقد أمده ابو عنان بالمال والرجال • فانهزم الناصر على وادي ورك من أرض العطاف آخر ربيع الاول سنة 50 وانقلب الى تونس • وخضع العرب للزعيم فتوجه الى وهران • وقد امتنع بها قائدها عبو بن سعيد بن اجانا حتى مات وخلفه أخوه علي • فدخلها الزعيم عنوة في جمادى الاولى • وعفا عن علي •

وفي شوال خرج ابو الحسن الى الجزائر بحرا • وترك بتونس ابنه ابا الفضل فغرق اسطوله بساحل زواوة • ونجا في بعض رجاله عراة الى جزيرة • فأدركه بعض اجفانه • ولحق بالجزائر • وامد ابو عنان ابا ثابت الزعيم • فخرج في ربيع الاول سنة 51 الى منداس والسرسو وتيطري وحمزة • فاخضعها • وقفل فدخل تلمسان في رجب • ونهض ابو الحسن بعد قفوله • وامامه ابنه الناصر • فاستولى على لمدية ومليانة وتيمزوغت • فاتحدت مغراوة مع عبد الواد • وتكفل الزعيم بلقاء ابي الحسن وعلي بن راشد المغراوي بلقاء الناصر • فالتقى الجمعان بتيغر متين عند شدبونة من وطن شلف في شعبان • فقتل الناصر • ونجا ابو الحسن الى جبل العمور • وأصحر الى سجلماسة • واستولى الزعيم على الجزائر سنة 52 وصرف من بها من مرين الى فاس • وهكذا عادت الجزائر الى اربابها •

4 — استيلاء ابي عنان على الجزائر

لم يتنازل ابو عنان لأبيه بعد تحقق حياته خشية أن يحرمه ولاية عهده فوصل يده بأمراء تلمسان وبجاية وقسنطينة ليكونوا سدا

دون نفوذ ابيه اليه فلم يخلص اليه الا وهو مهيض الجناح • ولكنه شغل به حتى مات سنة 52 فاستقام له الامر • واستعد لاسترجاع ما استولى عليــه أبوه •

ففي سنة 53 زحف الى تلمسان • وكان ابو دينار سليمان بن علي الذوادي مع أبيه ووفد عليــه بعد وفاته • فسرحه بين يديــه لحشد رياح • وخرج عثمان من تلمسان بجموعه ، فكان اللقاء بسهل انكاد في جمادى الاولى ، فانهزم بنو عبد الواد • وأسر ابو عنــان سلطانهم عثمان ، وقتله لما احتل بتلمسان ، ونجا اخوه ابو ثابت من المعركة • فاحتمل الحرم وما خف من الذخيرة • ونزل بشــلف على مغراوة ، وأخذ في الحشد ، فسرح له ابو عنان وزيــره فارس بن ميمون • فكانت على شلف معركة شديدة في رجب ، ثم هزم الوزير ابا ثابت واستولى على معسكره بما فيه من نساء وأموال ودواب ، وقصد الجزائر ، فخضعت له ، وذهب ابو ثابت في فل من أصحابه مشرقا ، وجاء ابو عنان الى لمدية ، فأرسل الى أمير بجاية يترصده فقبض عليه وعلى ابي زيان ابن اخيه عثمان ووزيرهم يحي بن داود • وبعثهم الى ابي عنان • فقتلهما في رمضان بتلمسان • واستحيا ابا زيان وانتهت الدولة الثانية لبني عبد الواد • فكانت حياتها على يد أبي حمو الذي نجا الى تونس •

ووفد محمد بن يحي أمير بجاية في شعبان على ابي عنان بلمدية لما بينهما من قديم الود • وطمع ان يعينه على تعنت رعيته • فأشار اليه بتسليم بجاية اليــه • فأعلن للملأ تسليمه • وكتب الى عامله ببجاية بتمكين عمال ابي عنان منها ولسان حاله يقول مكره اخاك !

وكان الصنهاجيون أهل الشوكة ببجاية • فولى ابو عنان بها عمر ابن علي الوطاسي • وبنو وطاس ينتسبون الى يوسف بن تاشــفين

الصنهاجي • فلم ينخدع الصنهاجيون لهذه المجاملة السياسية • وثاروا بالعامل ومن معه من مرين لكن أعيان بجاية خشوا ابا عنان • فاستدعوا عامله بتدلس يحي بن عمر الونكلسني ليقوم بأمرهم ريثما يولي عليهم ابو عنان •

بلغ الخبر ابا عنان • فانهض حاجبه محمد بن ابي عمر في خمسة آلاف فارس في ذي الحجة • وقصدت صنهاجة الى لقاء الحاجب ببني حسن • ثم خامت عن اللقاء ولحق أثافي الفتنة منها بقسنطينة فتونس • ولقي مشيخة بجاية الحاجب بتكلات • فأشخص أهل الظنة منهم الى ابي عنان بتلمسان • ودخل بجاية في المحرم سنة 54 وسكن الاحوال • ووفد عليه يوسف بن مزني والذواودة • ورجع بمن وفد عليه من العرب الى تلمسان في جمادى الاولى • قال ابن خلدون :

« وكنت يومئذ في جملتهم • وقد خلع علي الحاجب وحملني واجزل صلتي وضرب لي الفساطيط • فجلس السلطان للوفد واعترض ما جنب له من الجياد والهدية • وكان يوما مشهودا • ثم أسنى جوائز الوفد • واختص يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد البر والكرامة • وائتمرهم في شأن افريقية ومنازلة قسنطينة وانصرف الحاجب بي وبالوفد لاول شعبان » اهـ •

واطلق السلطان يد الحاجب في المال والجيش ، وولاه حرب قسنطينة وانزل معه موسى بن ابرهيم اليرنياني من طبقة الوزراء بقرية بني ورار تحت نظره وفي سنة 55 هزم الحاجب أمير قسنطينة • وانتهى الى ميلة • فترك بها موسى بن ابرهيم • وتقلب في عمله حتى بلغ المسيلة وهلك ببجاية فاتح سنة 56 فنقل الى تلمسان • وكان حميد السيرة • وجمع له ابو عنان قبل ولاية بجاية بين العلامة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر

ألقاب دولته وخصوصيات داره • وأصله تميمي كان سلفه بالمهدية • وانتقلوا الى تونس وتقلبوا في وظائف الدولة • ثم ساءت أحوالهم • فخرج ابوه الى القل • واتصل بالحاجب ابن غمر بالاعجام • فاستعمله في شهادة الديوان بتدلس • ثم لحق بابي حمو • فاستعمله على قضاء تلمسان الى أن ملكها ابو الحسن • فعزله وعهد اليه بتأديب ابي عنان فنشأ ابنه محمد هذا مع ابي عنان • وكان ذلك سبب نعمته •

وولي بجاية بعد ابن ابي عمر الوزير عبد الله بن علي بن سعيد الياباني • فلما كانت وقعة وادي القطن على موسى بن ابرهيم اتهمه بالتقصير في امداده • فعزله ابو عنان واعتقله • وولى مكانه يحي بن ميمون بن أمصمود • وخرج بنفسه الى قسنطينة • ففتحها سنة 58 وولى عليها منصور بن خلوف الياباني المريني • وبايعته بونة • وفتح جيشه تونس في رمضان • فطمع في اللحاق بها شأن ابيه • لكنه لم يحسن سياسة العـــرب وأراد ارتهان ابنائهم على الطاعـــة وانتزاع اقطاعاتهم ، فخالف عليه يعقوب بن علي ، وخشيت مرين ان يلحقها معه في دخول افريقية ما لحقها مع ابيه قبل ، فانفضت من حوله واضطر الى الرجوع بعدما تم استيلاؤه علـــى الجزائر وكادت قدمه تثبت بتونس وبقية المغرب • فدخل فاسا في ذي الحجة • ومات بها في السنة التاليـــة •

وكان ابو عنان كثيرا ما ينزل بتلمسان • وولى عليها ابنه محمدا المهدي فأخرجه منها ابو حمو الثاني سنة 60 واخرج ابراهيم الثاني الحفصي مرين من بجاية بمساعدة أبي حمو ويعقوب بن علي سنة 61 وافضى أمر مرين الى أبي سالم ابراهيم • فنفض يده من هذه الممالك • وكتب الى منصور بن خلوف والى قسنطينة بتسليمها الى ابي العباس احمد الحفصي ، فسلمها له في رمضان سنة 61 فتم اخراج مريـــن من

الجزائر بعدما استولت على تلمسان سبع سنوات وعلى بجاية ثمانيا وعلى قسنطينة وبونة ثلاثا •

5 ـ الاستيلاءات الاخيرة على تلمسان

لما توفي ابو عنان بويع ابنه السعيد طفلا خماسيا مستبدا عليه • فثارت لبيعته قلاقل شغلت مرين عن تلمسان وانتهت بتغلب ابي سالم ابراهيم على الامر • وعامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزردالي • فخشي ابا سالم لانه كان مخلصا لاخيه ابي عنان وتحيل في إشخاص أخيهما ابي الفضل اليه لما ثار عليــه • فقتله سنة 55 واحتمل أهــله وذخائره • ولحق بابي حمو في شوال سنة 60 لقديم حلف بينه وبين عبد الواد ، ونقل أولياءه عرب المعقل الى صحراء تلمسان ، فنبذوا مرين وحالفوا عبد الواد •

وساء ذلك أبا سالم ، فطلب من أبي حمو اسلام الزردالي ورجع المعقل الى مغربه ، فأبى ، فزحف اليه في رجب سنة 61 وبعد حرب شديدة دخل ابو سالم تلمسان سادس شعبان ، فاجلب ابو حمو على قرسيف وانكاد • فعاد ابو سالم لحفظ مملكته ، وترك تلمسان لابي زيان الفتى من بني عبد الواد وهواه مع مرين لانه نشأ في نعمتهم ، فعاد اليها ابو حمو ودخلها ثامن رمضان ، وفر منه ابو زيان ، وانعقدت السلم بين المملكتين ، فكانت مدة هذا الاستيلاء شهرا وأياما •

ولما ملك عبد العزيز أحيا قضية المعقل الذين استكثر بهم ابو حمو واستعان بهم على سويد ، فلم يجد لدى ابو حمو اذنا صاغية ، ثم وفد عليه أهل الجزائر وسويد ساخطين على ابي حمو لجبره اياهم على اداء المغرم ، فتقوى عزمه ، وزحف الى تلمسان آخر سنة 71

ومال اليه ذوو عبيد الله ، فلم يسع ابا حمو الا الفرار ، ودخل عبد العزيز تلمسان في المحرم سنة 72 واستولى على مملكة عبد الواد ، وفرق العمال في الجهات ، وانتزع من العرب اقطاعاتهم ، فثاروا عليه في كل ناحية . واضطرم المغـرب الاوسـط نارا ، فاضطر سنة 73 لامضاء اقطاعات العرب ، وأخرج الجنود لاخضاع بقية الثوار من مغراوة وحصين وغيرهم ، وأقام بتلمسان حتى توفي بها سـنة 74 فنقل شلوه الى فاس ، وبويع ابنه • فولى على تلمسان ابراهيم بن ابي تاشفين الاول كان مكفولا لمرين منذ مقتل أبيـه ، واستدعى ابا حمو أولياؤه من منتبذة بنيقوارارين ، وردوا ابراهيم على عقبه الى فاس ، ودخل ابو حمو تلمسان في جمادى الاولى ، فكانت مدة هذا الاستيلاء عامين وأشهرا •

وفي سنة 76 انقسمت دولة مرين بين أحمد بن ابي سالم بفاس وابن عمه عبد الرحمن بمراكش ، ثم كانت بينهما حروب ، فمال ابو حمو الى صاحب مراكش لبعده عن جوار مملكته ، وأراد أن يرغم أحمد على الافراج عنه سنة 84 فاجلب بجموع العرب وزناتة عـلى مملكة فاس ، وقام بدفاعه ونزمار بن عريف وعامل فاس ، ثم ورد الخبر بفتح مراكش منتصف السنة ، فانقبض ابو حمو الى تلمسان وعاد احمد بن ابي سالم من مراكش ، فاخرج ابا حمو من تلمسان سنة 85 وهدم قصور الملك بها •

وكان الغني بالله بن الاحمر صاحب غرناطة وليا لابي حمو ، ولديه كثير من بني عبد الحق المرشحين للملك ، فكان يمنع ابا العباس أحمد من حرب تلمسان متى هم بها • فلما فتح مراكش ظـن قوته لا يؤثر فيها ابن الاحمر • وأجلى ابا حمو فانتقم منه ابن الاحمر بتسريح موسى بن ابي عنان لفاس، واعانه على شأنه ، فغادر ابو العباس تلمسان أوائل سنة 86 ولكن موسى ابن عمه قد سبقه الى فاس وعاد طريده

موسى ابو حمو الى تلمسان • واصبح السالب مسلوبا ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، وكانت مدة هـذا الاستيلاء نحو سنة •

ثم عاد ابو العباس الى ملك فاس • وأعان ابا تاشفين الثاني على قتل ابيه ابي حمو • وسجن لديه أخاه ابا زيان ليهدده به وقت الحاجة • وتوفي أبو تاشفين سنة 95 فملك ابو العباس تلمسان ، وأقام بها ابنه عبد العزيز لاخضاع ممالكها ، بعض سنة ، وتوفي أبوه سنة 96 وبويع مكانه • فعاد الى فاس • وأطلق من السجن ابا زيان • فملك تلمسان • ولم تدخل الراية المرينية الجزائر بعد •

وهكذا كان القرن الثامن قرن عراك بين مرين وعبد الواد • وانتهى بضعفهما معا ، وجروا معهم في الضعف دولة غرناطة اذ كانت تستمد منهم عسكريا وماليا وادبيا • فتقوى عليها الاسبان حتى قضى عليها سنة 897 واشتدت وطأته على سواحل المغرب أجمع • وما ذلك الا لاهمال العمل بمثل قوله تعالى : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة •

الباب الثامن

في دولة بني زيـــان

ا ــ تأسيس الدولة الزيانية

هذه الدولة تضاف الى عبد الواد الذين بسيوفهم قامت وبابطالهم حميت ، وتنسب الى زيان بن ثابت بن محمد من بني طاع الله لان ملوكها من عقبة • وبنو طاع الله من بطون بني القاسم من عبد الواد • وزعموا ان القاسم هذا هو ابن ادريس او ابن محمد بن ادريس او ابن محمد بن عبد الله أو محمد ابي القاسم بن ادريس وفي بني محمد ابن سليمان الذين كانوا بتلمسان القاسم بن محمد أيضا • قال ابن خلدون : وهو اشبه بهذه الدعوى من القاسم بن ادريس •

ولقد كان بنو عبد الواد اجلاس خيل وابطال هيجاء يرون المعالي منوطة بالعوالي لا يخنعون الى مناهض ولا تكسر من شبانهم الشدائد • يغالبون النوائب ويصابرون الخطوب • وبمثل هذه الاخلاق أسسوا دولتهم • وبها حافظوا على حياتها رغم ضيق المملكة واتساع مطامع جيرانهم الاقوياء من مرين وبني ابي حفص •

وكان دخول عبد الواد تلمسان امرة جابر بن يوسف منهم • فناب امراؤهم بها عن خلفاء مراكش حتى ولي يغمراسن بن زيان سنة 633 فأحسن سياسة قومه واحلافهم من زغبة وبني راشد ، وجمع كلمتهم ، فاشتد ساعده وتوطد أمره • فاتخذ ابهة الملك وشعاره من جند وتولية عمال ولم يبق لخليفة مراكش الا الدعاء على المنابر وتقلد العهد من يده تأنيسا للعامة ومرضاة للاكفاء من قومه • فكان يغمراسن أول ملوك هذه الدولة •

وقد قاست من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ما قصصنا بعضه في البابين قبل هذا وسنقص منه في هذا الباب ، وان تعجب فعجب حياتها مع تلك الحروب المبيرة حتى سقطت مع منافسيها المرينيين والحفصيين •

2 ـ المملكة الزيانية

مملكة آل زيان الاصلية هي مواطن عبد الواد واحلافهم بني راشد الممتدة طولا من البحر الى الصحراء وعرضا من ناحية وادي مينة ، وجبال سعيدة حيث يجاورون توجين ومغراوة الى ملوية وفيقيق حيث يجاورون مرين واحلافها •

وملكوا سجلماسة بين سنتي 62ـ673 وغلبت مرين على وجدة ، فاستقرت الحدود بين الدولتين على تاوريرت بجانبها الغربي عامل مرين وبالشرقي عامل بني زيان • ثم يمر خط الحدود جنوب وجدة الى فيقيق وتيقورارين جنوبا والى غربي ندرومة شمالا • فيشمل مواطن ذوي عبيد الله غربي حدود الجزائر الحديثة •

ثم ملكوا مواطن توجين ومغراوة وفتحوا الجزائر ودلس سنة 712 وبلغوا تيكلات قرب بجاية • ومنها يذهب الخط جنوب جرجرة الى البويرة الى دلس شمالا • ويمر مصحرا شرقي حمزة والمسيلة ومزاب الى تيقورارين •

وبهذه المملكة من قبائل العرب المعقل وزغبة وأولاد سباع بن يحي من رياح ، وتقدمت أخبارهم في الباب الخامس ، ومن قبائل البربر التي كان لها ظهور قوي أو ضعيف مطغرة وكومية وبنو راشد وهوارة وتوجين ومغراوة • وقبائل المملكة الشرقية أقوى وأكثر خلافا لكثرة جبالهم ويسر مسالك الصحراء عليهم وضعف دولة الحفصيين المجاورة لهم وبعد عاصمتهم عنهم بخلاف أهل المملكة الغربية فان خلافهم على آل زيان يدخلهم في قبضة مرين الاشداء ، فضعفوا لذلك وقلت ثوراتهم •

أما مطغرة فكان رئيسهم في الدولة المؤمنية خليفة • وله على ساحل البحر حصن تاونت كان مؤسسا من قبله ، فقد ذكره البكري

بقوله : « وهو على ساحل ترنانا في جبل منيف • به معدن الأثمد ، ويحيط به البحر من ثلاث جهات ، وله مرتقى وعر من شرقيه لا يطمع فيه أحد ، وله بساتين وشجر كثير وأهله من البربر يعرفون ببني منصور » اهـ •

وبقيت الرئاسة في عقبة وبايع هرون بن موسى بن خليفة يعقوب ابن عبد الحق وتغلب على ندرومة • فاسترجعها منه يغمراسن وغلبه على تاونت • ثم تغلب يعقوب بن عبد الحق على ندرومة واعاد اليها هرون • فاستبد بها • وقطع دعوة الدولتين منها خمس سنين حتى غلبه يغمراسن سنة 72 فلحق بيعقوب بن عبد الحق وأجاز الى الاندلس واستشهد هنالك •

وخلفه على مطغرة أخوه تاشفين • وهلك سنة 703 وبقيت الرئاسة في عقبة • هذا ما حدث به عبد الرحمن بن خلدون • وقال أخوه يحي : في ربيع الاول سنة 98 شرق عثمان الاول الى توجين وأطال المغيب في تدويخ بلادهم • فخلع زكريا بن يخلفتن المطغري قائده بندرومة طاعته • وبايع لمرين • فاضطرمت أرجاء حضرته نار فتنة • فأخذ السير الى تلمسان • وكان اثر ذلك الحصار الطويل •

وأما كومية فقد بقيت منهم بعد الدولة المؤمنية علالة في بني عابد قوم عبد المؤمن متحدة مع ولهاصة • كان من رؤسائهم ابراهيم بن عبد الملك ، نسبه ابن خلدون مرة الى ولهاصة وأخرى الى بني عابد ، وكان آخذا بدعوة ابي الحسن بعد تغلبه على تلمسان ، فلما وقعت عليه واقعة القيروان واشتد الهرج في الاوطان حدثته نفسه باحياء الدعوة المؤمنية ، فدعا لنفسه ، وأضرم بلاد كومية وسواحل تلمسان نار فتنة ، وعاد آل زيان الى تلمسان فخرج اليه ابو ثابت الزعيم عاشر رجب سنة 749 فاقتحم هنين وندرومة وأسره واعتقله

بتلمسان حتى قتل . وكانت هنين فرضة تلمسان المعتبرة حتى خربها شرلكان ، قال البكري ما خلاصته :

« حصن هنين على مرسى جيد مقصود ، وهو أكثر حصون ساحل تلمسان بساتين وضروب ثمر ، تسكنه كومية ، وبينها وبين ندرومة ثلاثة عشر ميلا ، يفصل بينهما جبل تاجرا ، وندرومة في طرف الجبل ، غربيها وشمالها بسائط طيبة ومزارع ، وبينها وبين البحر عشرة أميال ، وهي مسورة جليلة بها نهر وبساتين فيها من جميع الثمار » اهـ .

وأما بنو راشد فكانوا أحلافا لعبد الواد ، وربما نبذوا عهدهم ، وكانت رئاستهم لعهد يغمراسن لونزمار بن ابراهيم بن عمران ، وهلك سنة 690 فخلفه غانم بن محمد بن ابراهيم ، ثم موسى بن يحي بن ونزمار ، ثم ابو يحي بن موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار ، وكان أيام تغلب ابي الحسن على تملسان ، ونقله في رؤساء زناتة الى المغرب الاقصى . فمات هنالك وخلفه ابنه زيان . وملك ابو حمو الثاني تلمسان . فوفد عليه . واتهمه بمشايعة مرين . فحبسه بوهران . وفر منها بعد مدة الى مرين وتظاهر بالاخلاص لابي حمو . فأعاده . وولاه على قومه . ثم اعتقله حتى قتله سنة 768 وبه انقرضت رئاسة بني راشـــد .

وكانت في مواطنهم مدينتا معسكر وايفكان . والمعسكر اليوم من المدن الشهيرة . وذكره الادريسي في النزهة بقوله : « قرية عظيمة لها أنهار وثمار » . اهـ . ويقال أنها كانت معسكرا للايمة الرستميين واتخذها بنو زيان معسكرا للاجلاب على توجين . ولم يعتنوا بتمدينها حتى مصرها الاتراك . وايفكان ويقال ايضا فكان جنوب المعسكر . قال البكري :

« كانت سوقا لزناتة . فمدنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني .

وكان ابتداء تأسيسه لها سنة 338 وارتحل اليها أهل المعسكر من أهل تاهرت ويلل وشاطئي بني واطيل ووهران وقصر الفلوس • فعمرت وتمدنت وعظمت • وهي في سفح جبل اوشيلاس • وهو بجوفيها ذو شعراء غامضة وقبليها نهر سيره ينبعث من عيون شرقيها ، عليه الارحاء والبساتين من كلتي ضفتيه ، وغربي فكان اسفل بساتينها مجمع وادي سيرة ووادي سي ووادي هنت • وعلى المدينة سور طوب ، وبها جامع وحمام وفنادق • » اهـ • ولعل لفظ من في قوله من أهل تاهرت محرف عن الواو •

واما هوارة فكانت رئاستهم في بني اسحق • واختط كبيرهم محمد بن اسحق القلعة المعروفة بقلعة هوارة • ومات • فخلفه اخوه حيون • وصارت في عقبة ووالوا آل زيان • فاستعمل منهم ابو حمو الاول يوسف بن حيون على توجين سنة 710 الى أن خلفه على توجين ابنه يعقوب امرة أبي تاشفين الاول • ثم غلب ابو الحسن على تلمسان ، فاستعمل عبد الرحمن بن يعقوب على قبيله ثم عبد الرحمن ابن يوسف • ثم ابنه محمدا • ثم تلاشت هوارة • وخف ساكن القلعة فانقرض بيت بني اسحق •

واما مغراوة وتوجين فكانوا مناهضين للدولة • وتكررت فتنهم حتى ان ابا حمو موسى الاول اقام سنة 711 لحربهم بوادي نهل من شلف • وابتنى هنالك قصره المعروف باسمه قرب مازونة • وهو المعروف اليوم بعمي موسى •

وكانت مدينة الجزائر للحفصيين • ويدير أمرها مشيخة من أهلها • فنبذوا دعوتهم سنة 669 ونازلتهم العساكر مرارا • فامتنعوا عليهم • ثم فتحوها سنة 74 واعتقل مشيختها بتونس حتى سرحهم الواثق ثم قطعوا دعوتهم ثانيا حوالي سنة 98 واستبد بها محمد بن

علان • وبايع بني مرين لما نزلوا على تلمسان في الحصار الطويل • ونازلته عساكر بجاية مرارا • فامتنع عليهم حتى فتحها ابو حمو الاول سنة 712 ونقل ابن علان الى تلمسان • وعادت للحفصيين سنة 813 ثم فتحها عبد الواحد بن ابي حمو • وتغلب عليها المستعين حافد ابي تاشفين سنة 842 واستقل بها عن تلمسان • وقتله أهلها سنة 43 وأدار شؤونها مشيختهم يرأسهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي حتى توفي سنة 75 وصار أمرها الى أولاد سالم بن ابرهيم من الثعالبة وكان منهم سالم التومي الذي خضع مضطرا الى الاسبان لما ملكوا بجاية • فلما ظهر عروج بربروس بجيجل استنجده • فانجده ، ودخل الجزائر سنة 922 وندم سالم على استدعائه • فغدر به عروج وتغدى به قبل ان يتعشى هو به ، فقتله وفتك برؤساء الثعالبة تمكينا لسلطته ، ومن ذلك الحين أصبحت الجزائر تركية •

وكانت الجزائر تدعى جزائر بني مزغنة اضافة الى أهلها من صنهاجة ، قال البكري : « وهي مدينة جليلة قديمة ذات آثار وأزاج محكمة تدل على انها كانت دار مملكة للاول وصحن دار الملعب فيها مفروش بحجارة ملونة صغيرة مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان باحكم عمل لم يغيرها تعاقب القرون • ولها أسواق ومسجد جامع • وكانت بها كنيسة عظيمة • بقي منها جدار مدير من الشرق الى الغرب مفصص كثير النقوش والصور وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين » اهـ •

3 ـــ عاصمة المملكة الزيانية

عاصمة هذه المملكة هي تلمسان بكسرتين فسكون ، علم زناتى مركب من تلم بمعنى تجمع وسان بمعنى اثنين يعنون انها تجمع بين اثنين التل والصحراء وهي في سفح جبل بني ورنيد المار جنوبها ،

ويسمى قبالتها بالصخرتين ، ينحدر منه نهر سطفسيف المار شرقيها • الى ان يلتقي بنهر يسر ثم بنهر تافنا • وتنحدر منه أيضا ساقية النصراني ، وعلى الساقية والنهر مبان وجنات وارحاء • وبقرب المدينة عينا الفوارة وام يحي يدخل ماؤها اليها • ويجري الى الدور والحمامات والخانات وغير ذلك • وحولها فحوص أشهرها العباد حيث ضريح ابي مدين الشهير ، وكان قرية كبيرة ذات مساجد ومدارس وخانات ، ثم تراجعت عمارتها حتى آضمحلت في العهد الفرنسي •

وتلمسان مدينتان احداهما قديمة تعرف بأقادير أسسها بنو يفرن قبل الاسلام والثانية احدثها يوسف بن تاشفين سنة 474 بمعسكره المحاصر لاقادير ، وسماها تاقرارت باسم المعسكر في لسانهم وفي عهد الادريسي صاحب النزهة كانتا يفصل بينهما سور ، ويحيط بهما سور حصين متقن الوثاقة •

وقد عني البكري بوصف تلمسان القديمة وما بساحلها من سهول وحصون ومراسي ، نقتصر من ذلك على قوله ملخصا :

« هي قاعدة المغرب الاوسط ودار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر ومقصد تجار الآفاق ، لها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار ، وكان الاول قد جلبوا اليها ماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال • ولها خمسة أبواب ، في القبلة باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة، وفي الشرق باب العقبة، وفي الغرب باب ابي قرة ، وفيها للاول آثار قديمة ، وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار ، وبها بقية من النصارى الى وقتنا هذا ، ولهم بها كنيسة معمورة » اهـ •

ولم تزل تلمسان منذ الفتح الاسلامي عاصمة مملكة معتنى بعمارتها وتحصينها ولا سيما ايام الموحدين وفتنة ابن غانية حتى

اقتعد كرسيها آل زيان • فشادوا بها القصور الجميلة • واغترسوا الرياض والبساتين ، وأجروا خلالها الميـاه ، وبلغ من عمرانها ان عد برجيص المسيحي في كتابه « تلمسان » من المساجد التي شاهدها قائمة في هذا العصر الفرنسي أحدا وستين مسجدا •

قال عبد الرحمن بن خلدون : « فأصبحت أعظم أمصار المغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع • وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » اهـ •

وقال العبدري في رحلته : « تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور • ولها جامع عجيب مليح متسع ، وبها أسواق قائمة ، وأهلها ذوو ليانـة ولا بأس باخلاقهم وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعباد هو مدفن الصالحين وأهل الخير •• والدائر بالبلد كله مغروس بالكرم وانواع الثمار • وسوره من اوثق الاسوار وأصحها ، وبه حمامات نظيفة • أشهرها حمام العالية قل ان يرى له نظير ، وبالجملة هي ذات منظر ومخبر وانظار متسعة ومبانيها مرتفعة » اهـ •

وقال يحي بن خلدون ما خلاصته : لها خمسة أبواب ، قبلة باب الجياد وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوى وباب القرمدين وغربا باب كشوط ، وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما الآن سور واحد • أحدهما أقادير والاخرى تاقرارت • وهي الآن أكبر وأشهر من الاولى • والجامع الاعظم وقصور الملك ونفيس العقار بها والناس اليها أميل وبها أشد عناية » اهـ •

وذكرها ابو الفداء في تقويم البلدان ، فقال ان لها ثلاثة عشر بابا وهو معاصر لآل زيان لكنه بعيد عنها ، وقد عارضه يحي كاتب حكومتها •

وقد اختلفت على تلمسان أيـدي الحفصيين ومرين والاسبان فطمسوا كثيرا من معالمها واعفوا معظم آثارها ، وأشار الى علة ذلك لسان الدين بن الخطيب في وصفه لها بقوله :

« تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف • كأنها ملك على رأسه تاجه وحواليه من الدوحات حشمه واعلاجه • عبادها يدها ، وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد حجبتها ايدي القدرة عن الجنوب ، فلا تحول بها ولا شحوب ، خزانة زرع ، ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الانواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع ، الا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا ، مغلوبة للامراء أهلها ليست عندهم الراحة الا فيما قبضت عليـه الراحة ، ولا فلاحة ، الا لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب الا فيما بين الاقارب ، ولا شطارة الا فيمن ارتكب الخطارة » اهـ •

وللادباء في وصفها ومدحها نثرا ونظما ما لا يسعه ديوان ، ومن أطولهم في ذلك باعا وابرعهم تصويرا واصدقهم وصفا شاعرها النازح عنها الى غرناطة محمد بن خميس ، قال في مطلع قصيدة طويلة جـدا :

تلمسان لو ان الزمان بها يسخو ... منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

4 ـــ الحكومة الزيانية ومشاهير من رجالها

الدولة الزيانية مستقلة داخليا وخارجيا غير انها لم تدع أولا الخلافة ، فكانت تدعو لدولتي الموحدين الى سنة 703 واودعت الخلافة الى سنة 791 فأصبحت تدعو لمرين ، ثم تمشت حسب الظروف : تعلن

الخلافة أياما ، وتدعو للحفصيين أو المرينيين أخرى الى أن ظهر على مسرح السياسة الجزائرية الاسبان والاتراك • فاختلفت ايديهم على هذه الدولة كل يجذبها لحمايته •

وحكومتها ملوكية استبدادية مطلقة غير جارية على قواعد سياسة الخلافة كالحكومات المعاصرة لها شرقا وغربا ، وسياستها مع جارتيها الحفصية والمرينية عدائية كسياستهما معها • وقد أوصى يغمراسن ابنه عثمان بمسالمة مرين لقوتهم واتقاء مقابلتهم بالانحصار ، وانتهاز الفرص في ممالك الحفصيين واتخاذ بعض الثغور الشرقية موئلا لحفظ دخائر الحكومة • وعلى هذه الوصية سارت الحكومة الا انها عجزت عن اتخاذ معقل بالمشرق لصعوبة بجاية عليها • فاتخذ ابو حمو الثاني من الصحراء معقلا •

ومد بنو الاحمر ملوك غرناطة ايديهم الى يغمراسن لما خشوا من مزاحمة مرين لهم بالاندلس وان يعيدوا معهم مأساة ابن عباد ، فاستمرت العلاقات بين الحكومتين حسنة • وكان أبو حمو الثاني يمد أهل غرناطة كل سنة ، بالزرع والمال والخيل ، وييسر لهم اسباب وسق الطعام • ويرى ذلك من الجهاد ويحمل عليهم حديث الطائفة التي لا تزال بالمغرب ظاهرة على الحق • وفي ذلك يقول لسان الدين الخطيب :

لقد زار الجزيرة منك بحر ... يمد فليس نعرف منه جزرا
اعدت لنا بعهدك عهد موسى ... سميك • فهي تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وافدت كنزا ... ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وكانت الحكومة ترفع منازل الإشراف والفقهاء وتداري الاعيان من رؤساء القبائل والتجار واشباههم ، وتجري في سياسة العامة على

قول الحكماء : « العامة اذا قدرت ان تقول قدرت ان تصـول » فتضرب بين زعماء القبائل ليكونوا في حاجة اليها وتأخذ من ابنائهم رهنا على الطاعة واتخذ لهم أبو حمو الاول عصبة واذن لهم في النكاح والبناء واختط لهم المساجد جمعوا فيها للجمعة ونفقت بها الاسواق والصنائع قال ابن خلدون :

« فكانت تماثـل بعض الامصـار العظيمة وهي مـن أغرب ما حكي عن سجن » اهـ •

ومالية الحكومة تجمع من المغارم المفروضة على الرعية ومـن الغنائم الحربية فان هذه الحكومات المتعاصـرة لا تبالي ــ عـلى اسلامها ــ بأخذ ما غلبت عليـه من أموال محاربتها • وتوزع في مصالح الحكومة وجوائز الاعيان وعطاء الموظفين ورزق الجنـد ، وكانت تطبع السكة • وكتبت فيها بعد انتهاء الحصار : « ما أقرب فرج الله ! » ولها نفائس تذخرها مما يخف حمله وتعظم قيمته غنم يغمراسن أهمها من الخليفة السـعيد الذي قتله بتامزردكت • منها الثعبان عقد منتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر • يشتمل على مئتين كثيرة من حصبائه • وأعظمها مصحف عثمان بن عفان (ض) يقال ان عبد الرحمن الداخل حمله من خزائن قومه الى الاندلس ثم صار الى المرابطين ثم الموحدين • وحديث المصحف طويل يطلب في نفح الطيب • وقد أخـذه والثعبان في نفائس ابـو الحسن المريني لما استولى على تلمسان •

وللحكومة جند مؤلف من أربعة أقسام ، تستعين بجموعهم في حروبها وتدرأ أقسامهم بعضها ببعض الاول الخاصة ، وهم من وجوه القبائل ، ومنهم قواد بقية الاقسام ، والثاني القبيل ، وهم بنو عبد الواد قرابة الملك ، ورئيس فرقتهم يدعى شيخا ، والثالث الانصار ، وهم نخبة من الجند يكونون محدقين بالملك في الحرب ، والرابع

المماليك ، وهم اخلاط من السودان والاعلاج وغيرهم ، ولكل قسم رايات يمتاز بها ، ولهم أعطية حسب اقدارهم الا المماليك فحسب حاجتهم لقوتهم ونفقة عيالهم وعلف مركوبهم ، وللملك ايام في السنة يستعرض فيها الجند ، ويتفقد العدد الحربية ، ويرقي من يستحق الارتقـاء •

وكان يغمراسن قد استخدم جند النصارى الذين كانوا مـع السعيد في وقعة تامزردكت وهم زهاء ألفي فارس ، ورفع من قدرهم حتى استعجل أمرهم واجمعوا قتله لما استعرض الجند بباب القرمدين سنة 652 فشعر بهم ، وقتلوا أخاه وأحاطت بهم الدهماء من الجند والرعية ، فاستلجموهم ، ولم يستخدم بعدها جند النصارى بهـذه الحكومة •

ويقسمون الجيش عند التبعية الى مقدمة امام الملك او نائبه وميمنة عن يمينه وميسرة عن يساره وساقة يكون الملك فيهم ويسمون أيضا قلبا وأهل الدخلة ، ومنهم من يجعل الاقسام خمسة ويباين بين القلب والساقة ، وبذلك سمي الجيش خميسا •

ولم يكن ملوك آل زيان يتلقبون بألقاب الخلفاء كالمنصـور والمستعين الا بعض ذرية ابي حمو الثاني ، وكانوا يلون الامر بالبيعة الشرعية الا ابا تاشفين الاول وسميه الثاني وأكثر ذرية ابي حمو ، فانهم تغلبوا على الامر بقوة عصبية أو مدد خارجي •• والملك مصدر كل السلط • وولي عهـده رديفه ومظهر سـلطانه ونائبه في قيادة الجيوش • وله حاشية وبطانة ربما نافست بطانة الملك • فافضت الحال الى منافسة ولي العهد للملك نفسه ، وللملوك وزراء وحجـاب وكتاب وأصحاب اشغال وقضاة بالحضرة ومفاتي يبينون لهم ما أشكل عليهم من الاحكام ويتعدونهم بالموعظـة وقواد وعمـال وأصحاب شرطة •

فالوزير واسطة بين الملك والعامة ومعينه بالرأي ونائبه في قيادة الجيش ان لم يركب هو ولا ولي عهده • والحاجب هو صاحب الباب يأذن بالدخول للملك عن أمره • ويلقب بلسان زناتة المزوار • والكاتب يعرض على الملك كل يوم ما ورد من الرسائل ويتلقى أوامره بالجواب عنها وبعقد الولايات وغيرها من شؤون الحكومة • وصاحب الاشغال له النظر المطلق في الدخل والخرج • والعمال نوابه في الجهات يؤدون اليه جبايات أعمالهم ولكنّ توليتهم من الملك • والقواد رؤساء فرق الجند • وصاحب الشرطة يتولى النظر في التهم على الجرائم ومباشرة تنفيذ الحكم على أهلها •

فالحكومة الزيانية تتألف من عناصر السيف والقلم والمال والعلم • فمن مشاهير رجال السيف غير بني زيان هلال القطلوني وموسى بن علي الكردي ويحي بن موسى السنوسي وعبد الله بن مسلم الزردالي وبنو مقن •

فاما هلال فعلج اهداه ابن الاحمر الى عثمان الاول • وصار الى ابي حمو • فاعطاه وولده ابا تاشفين ، فكان من خواصه ومن كبار المغرين له بابيه • فلما قتله ولاه حجابته ، وكان مهيبا فظا غليظا استولى على أمر السلطان وزحزح منافسيه عن مناصبهم ، ثم أخذ السلطان يخفض من صوت صولته حتى عزله سنة 29 واعتقله الى ان هلك سجينا قبيل فتح ابي الحسن تلمسان •

واما موسى فمن بيت نبيه في الاكراد ، فروا أمام التتر ، ونزلوا على المرتضى بمراكش ، فأكرم مثواهم ، وبعد دخول مرين مراكش تفرقوا في تلمسان وتونس ، وبقي جمع منهم مع مرين ، ونشأ موسى هذا بين حرم السلطان يوسف حتى اذا نزل محاصرا لتلمسان أغضبه ذات يوم ، فلحق بعثمان الاول • فعرف فضله ، وبالغ في اكرامه ،

وتولى قيادة جيوش ابي حمو ، وثبت ابا تاشفين لما دهش لمقتل أبيه • واخذ له البيعة، وشقي بهلال الذي أغرى به السلطان فنفاه الى غرناطة ، ثم استقدمه وولاه حـرب بجاية ، واتهمه بالتقصير فعـزله سنة 17 ولحق بسليمان ويحي ابني علي بن سـباع بن يحي ، ثم استقدمه وسجنه بالجزائر ، فلما سخط هلالا ولاه مكانه واخرجه مـن ذل السجن الى عز الحجابة ، ولم يزل عزيزا حتى هلك مع سلطانه يوم الفتح • ونجا ابنه سعيد من الملحمة جريحا • فعفا عنه ابو الحسن • وكان له من بعد ذكر بالحكومة الزيانية •

واما يحي بن موسى فمن بني سنوس بطن من كومية كانوا في حلف بني كمي من عبد الواد • وخدموا يغمراسن • وظهر فضل يحي هذا أيام الحصار الطويل • فولاه ابو حمو مراقبة الحرس الليلي وضبط الابواب وقسم القوت بمقدار على المقاتلة : وكان له اقدام في الحرب • فرفعت منزلته بعد الحصار • واستعمله ابو تاشفين الاول بشلف • ثم ولاه عمل القاصية وحرب بجاية بعد عزل الكردي • وكان هذا العمل من دلس الى لمدية • ولما نزل ابو الحسن على تلمسان بايعه • فرفع مجلسه وهلك بعد الفتح •

واما الزردالي فكان قومه أخوة عبـد الواد من بني بادين • واندرجوا فيهم لقلتهم • وكان عبد الله هذا مشهورا بالبسالة والاقدام • فاعجب به ابو الحسن بعد دخوله تلمسان • فبعثه الى درعة • وولاه بها أبو عنان • فاستألف عرب المعقل • وقطع الثوار • وقبض على أبي الفضل الثائر هناك • وبعث به الى أخيه ابي عنان • فقتله • فلما ملك أخوهما ابو سالم خشية عبد الله • فلحق بابي حمو الثاني في ثروة من المال وعصبة من العشير واولياء من العرب • فقلده لحينه وزارته • وفوض اليه تدبير ملكه • ولم يزل في عظمته حتى توفي بالوباء سنة 765 •

واما مقن فهم أخوة بني زيان من أولاد طاع الله • استوزر منهم يغمراسن يحي بن مقن ، ثم أخاه عمروش ، ومات سنة 36 فخلفه ابنه عمر • ونفي يحي وابنه الزعيم الى الاندلس • ثم عادا اليـه فاستعمل الزعيم بن يحي على مستغانم سنة 81 وما كاد يستقر بها حتى ظاهر مغراوة • وثار على يغمراسن فحاصره حتى دخلها ونفاه ثانيا الى الاندلس ، فلحق به أبوه يحي • وبقي أخوه علي بن يحي بتلمسان • وله ابن علـّمه داوود صار كبير مشيخة بني عبد الواد وصاحب شوراهم • وولد لداوود يحي • فكان وزير عثمان الثاني •

ومن مشاهير رجال القلم ابو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب ومحمد بن عمر بن خميس ويحي بن خلدون ، فاما ابن خطاب فهو مرسي اندلسي ، وفد على يغمراسن مع جالية شرق الاندلس ، فاستكتبه ، وصدرت عنه رسائل في مخاطبات خلفاء مراكش وتونس تنوقلت وحفظت ، واستقدمه المستنصر الحفصي وبعث اليه بمال ، فرده عليـه ، وأقام بتلمسان على خطته الى أن توفي يوم عاشوراء سنة 681 قال في الاحاطة : « كان كاتبا بارعا شـاعرا مجيدا لـه مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما » اهـ •

واما ابن خميس فتلمساني ، استكتبه عثمان الاول ، ثم انتقل الى غرناطة فقتل بها سنة 708 وكان شاعرا مجيدا طويل النفس ، أثنى عليه العبدري في رحلته على شحه بالثناء ، وروى له قصائد ، وشعره كثير •

واما يحي فأخو المؤرخ الكبير استكتبه ابو حمو الثاني ، والف في دولته بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، وكان كاتبا شاعرا ، له قصيدة في السيف والقلم ومراسلات مع لسان الدين بن الخطيب ، وقتله ابو تاشفين في رمضان سنة 780 لمماطلته بعقد ولايـة وهران ، وكانت المماطلة عن أمر ابي حمو •

ومن مشاهير رجال المال بنو الملاح ، قرطبيون معروفون بالامانة والدين حرفتهم سكة الدينار والدرهم ، ووفدوا على يغمراسن ، وعنوا بالفلاحة ، فولى منهم على اشغاله عبد الرحمن بن محمد بن الملاح • ثم كانوا أصحاب دولة ابي حمو الاول وأضاف اليهم حجابته فتولاها محمد بن ميمون بن الملاح ثم ابنه محمد الاشقر ثم ابنه ابراهيم ومعه علي بن عبد الله بن الملاح • وقتلوا مع ابي حمو سنة 718 وانتهبت أموالهم •

5 ــ ملوك آل زيـــان

كان ملوك آل زيـــان يفوقون بني مرين والحفصيين حـــربيا وسياسيا • ولكنهم يفوقونهم كثرة • فظـــل الصراع مستمرا بـــين القوتين المعنوية والحسية بهجمات دولية أو اثارة قبائل قوية • حتى ان يغمراسن بلغت حروبه مع العرب خاصة اثنتين وسبعين • وعنوا بتحصين تلمسان وشحنها بالاقوات والمؤن حتى انهم صبروا على الحصار الطويل الذي دام ثماني سنين وثلاثة أشهر وأياما • مات فيها من رجالهم زهاء عشرين ألفا ومائة ألف • ونالهم من الجهد وغلاء الاسعار ما لا نظير له في التاريخ • أكلوا القطوط والفيران وأشلاء الموتى • وبلغ ثمن الفار عشرة دراهم والبيضة ستة دراهم والتينة درهمين • وقد أطال عبد الرحمن بن خلدون في بيان أسعار بقية المقتاتات •

وأخيرا نفدت مدخراتهم • ولم يبق من المقاتلة الا نحو الالف مشاة • فوطنوا أنفسهم على الاستماتة • ولكن الله فرج عنهم بقتل سلطان مرين • قال عبد الرحمن بن خلدون : « حدثني شيخنا محمد ابن ابراهيم الابلي ـ وكان قهرمان دارهم ـ ان السلطان ابا زيان سأل صبيحة يوم الفرج خازن زرعه عما بقي • فقال له قوت اليوم

فقط • ودخل أخوه ابو حمو فأعلمه • وبينما هم مطرقون اذ دخلت دعد وصفية زوج عثمان الحفصية • فقالت : لم يبق لمصارعكم غير فواق ناقة وبنات زيان يقلن لكم لا خير في العيش بعدكم • فاريحونا من معرة السبي ! فامتنع ابو زيان ـ وكان شفوقا ـ من قتلهن ـ وراجعه ابو حمو فيه فقال لعل الله يجعل بعد عسر يسرا • فأرجئني ثلاثا وسرح بعدها اليهن اليهود والنصارى وتعال نخرج في قومنا فنستميت وأجهش بالبكاء واذا برسول مرين ينعى له سلطانهم ! » اهـ بايجاز •

والى جانب ما لهم من شجاعة حربية وادبية نرى شهادة عدوهم عريف بن يحي شيخ المجالس الملوكية لهم بالسبق في ميدان السياسة • قال ابن خلدون : « سمعته يقول موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة وانما كانوا رؤساء بادية فحد حدودها وهذب مراسمها واقتدى به اقتاله وانظاره منهم » اهـ •

وكان ابو تاشفين الاول اوسعهم مملكة واغناهم خزائن واكثرهم آثارا • وابو حمو الثاني أعظمهم قدرا وأوفاهم من الخطوب كيلا • وعلو كعبه في الحرب والسياسة والعلم والادب يظهر لمن درس كتابه « واسطة السلوك في سياسة الملوك » وأيامه تكفل بتفصيل حوادثها صاحب زهر البستان • وخصها يحي بن خلدون بالجزء الثاني من كتاب بغيـــة الرواد •

وكانوا أيام عظمتهم متحدين لا يتنازعون أمرهم بينهم • فأبو حمو اول من بايع أخاه ابا زيان • وقال يحي بن خلدون يذكر عثمان الثاني وأخاه ابا ثابت : « استشعرا كلاهما ابهة الملك • ودان له الناس بالبيعة • ومضت اوامره في الاحكام والجبايات الا ان السرير والمنبر والدينار للسلطان عثمان ، والجيوش والالوية والحروب للسلطان ابي ثابت مع تعظيمه لاخيه وبروره به ، ورضي يوسف أخوهما الاكبر

سكنى ندرومة للعبادة . ولم أقف بتاريخ على مثل هذه الاخوة » اهـ . واول من شرع العقوق منهم ابو تاشفين الاول ، فكان هو سبب ثورة محمد بن يوسف على أبيه . ثم أقدم على قتله وسلك سبيله سميه بن أبي حمو الثاني . وكان أكبر أبنائه ، منافسا لاخوته كثير الشكوك في أبيه ، ولي عهده في جمادى الاولى سنة 774 واشتدت غيرته من المنتصر وابي زيان وعمير ، أمهم ميلية ، وتولى ابو زيان منهم وهران ، فطلبها ابو تاشفين من أبيه مزاحمة له ، وماطله بها ، فعدا على الكاتب ابن خلدون ، ووضع على ابيه العيون خائفا ان يخلعه من ولاية عهده .

ولم يطب لابي حمو المقام معه ، فخرج الى الجزائر موريا باصلاح العرب . فرده ابو تاشفين من أسافل البطحاء ، ثم ارسل الى ابنه المنتصر عامل مليانة بولاية الجزائر واحمال من المال وانه لاحق به متى وجد فرصة ، فاطلع ابو تاشفين على ذلك ايضا ، واستشاط غيظا ، وخلعه سنة 88 واعتقله بقصبة وهران ، واعتقل بتلمسان من بها ، من اخوته ، وتوجه نحو مليانة فاستولى عليها . وتحصن منه المنتصر بحصين . فاقام محاصرا له بتيطري وخشي أن يكيده ابوه وأخوته من خلفه . فبعث من يقتلهم . وبلغ أبا حمو مقتل اولاده . فصعد على سور القصبة مستغيثا بالوهرانيين . فاغاثه خطيبهم . وقام ببيعته . وتدلى اليهم بحبل وصله بعمامته ! ودخل قصر الملك بتلمسان اوائل سنة 89 .

وبلغ الخبر ابا تاشفين . فأخذ السير الى تلمسان . فدخلها . وكانت يومئذ عورة لهدم مرين أسوارها وحصونها . فالتجأ ابو حمو الى مأذنة الجامع الاعظم . فاستنزله ورق له وبكى . وقبل يده . فاستأذنه ابو حمو في الحج . فأركبه من وهران ولكنه نزل ببجاية .

وأمده الحفصيون على استرجاع ملكه وطاف على العرب بصحرائهم • حتى جمع قوة دخل بها تلمسان في رجب سنة 90 •

ولحق ابو تاشفين بمرين مستنجدا ابا العباس احمد• فاوعز ابو حمو الى خليله الغني بالله محمد بن ابي الحجاج بن نصر بطلب ابي تاشفين من ابي العباس • فالح في طلبه • ولكن ابا تاشفين استهوى الوزير • فغلب على هوى ابي العباس • وأمده أواخر سنة 91 بجيش • فخرج أبو حمو الى الغيران جنوب تلمسان ناحية سبدو • وارهقته مرين عن الاصحار كعادته وكبا به فرسه • فانقضى نفسه • واتى برأسه الى ابنه • واسر له اخوه عمير • فقتله • واستحكمت القطيعة بين ابناء ابي حمو فاصبح بأسهم بينهم شديدا •

واول ملوك آل زيان ابو يحي يغمراسن • ولـد سـنة 603 وبويع في ذي القعدة سنة 33 ومات برهيو منقلبه بعرس ابنه عثمان الحفصية آخر ذي القعدة سنة 81 ومن آثاره بناء باب كشواط سنة 68 وصومعتي جامعي تلمسان القديمة والحديثة • ومنعه اخلاصه ان يكتب اسمه بهما • وكان آية في الجراءة والدهاء جليلا مهيبا حليما جوادا متواضعا مؤثرا لاهل العلم •

وخلفه ابنه ولي عهده ابو سعيد عثمان الاول ولـد سنة 639 وتوفي بذي القعدة سنة 703 ويقال سم نفسه • وكان شهما مقداما محبوبا ذا سياسة وصبر •

وقدم بعده ابنـه ابـو زيان محمد الاول • ولـد سـنة 659 وتوفي في شوال سنة 707 وقال لسان الدين : أثناء الحصار • ونقله التنسي عن صاحب درر الغرر من الشاهدين للحصار • وكان رقيق القلب فاضلا مباركا حسن الملكة •

وخلفه اخـوه ابو حمـو موسى الاول • ولـد سـنة 665

وقتله ابنه في جمادى الاولى سنة 718 ومن آثاره تأسيس مدينة اقبو وبناء القصر المعروف باسمه على وادي تهل قرب مازونة ، ويعرف اليوم بعمي موسى • وكـان صارما حازما يقظا داهية ذا حـدة وغلظـة •

وتغلب على الملك قاتله ابو تاشفين عبد الرحمن الاول ولد سنة 692 ودخلت عليه مرين المدينة في رمضان سنة 737 فوقف بباب قصره • وقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه ! وقاتل حتى قتل هو وابناؤه عثمان ومسعود ويوسف وكبـار دولته • وفي واسطة السلوك ان سبب الكائنة عليه اعتماده على حصانة المدينة وامساكه عن العطاء • فلما كاد العدو يدخل عليـه طلب من يأخـذ ماله فلم يلقه • وقال ابن مرزوق : توطدت دولة عبد الواد بقتلهم ابا الحسن السعيد • وكان اسمر لام ولد • وختمت بقتل ابي الحسن المريني لهم • وهو بصفته حذو النعل بالنعل وكان ابو تاشفين فاضلا حميد السيرة رحب الجناب عظيم الخلق جميل الخلق • ذا آثار عظيمة • أخذت الدولة أيامه زخرفها وازينت • فأصبحت بسيوف مرين حصيدا كأن لم تغن بالامس •

وجددها ابو سعيد عثمان الثاني بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن • انخزل بقومه من جيش ابي الحسن في واقعة القيروان الى العرب • وبايعه قومه ظاهر تونس آخر ربيـع الاول سنة 749 فاتحد مع مغراوة وتوجين وارتحلوا الى بلادهم في زهاء خمسـمائة فارس ، وقد انتثر سلك الامن فخلصوا من غارة بني ونيفن ناحية باجة ، وثربة ناحية بونة ، وبني ثابت بجبلهم ، وزواوة بجبل الزان وبلغ عثمان وقومه تلمسان في جمادى الثانية ، فولى شؤون دولته أخاه ابا ثابت الزعيم فمهد المملكة ، وما كاد يستريح حتى قصدهم ابو عنان ، فاستولى على دولتهم وقتل عثمان في جمادى الاولى سنة 53

ثم أدرك أخوه ابو ثابت وقتل ، فكان من حديثه مع ابي عنان : « انا غلبناكم رجلة فغلبتمونا بخنا » • وكان معروفا بالبسالة والفتوة ، وكان عثمان شيخا محنكا داهية ذا عبادة ونسك •

وجدد الدولة ابو حمو موسى الثاني بن يوسف أخي عثمان الثاني قبض على عمه ابي ثابت بليزر من ساحة تلمسان ، ونبت عنه العيون ، فنجا الى تونس ، وأكرم مثواه عبد الله بن تافراقين وزير ابي اسحق الثاني ، ولما دخل جيش ابي عنان تونس خرج هو مع ابي اسحق حتى نزلوا ساحة تبسة ، فارتد ابو عنان الى مغربه ، وردد ابو حمو الغارة على نواحي قسنطينة ، وفتح ميلة ونزلها ، وتزوج منها ، واخرج مرين من جبل بني ثابت وقرية بني ورار ، ثم ارتحل منها سنة 59 لما قدم الوزير سليمان بن داود بجيش لا قبل له به ، فجهزه الحفصيون الى وطنه ليشغل عنهم مرين ، فسلك على عين السمارة قرب قسنطينة وجبل عياض وثنية غنية ، وتزوج بالزاب ، ودخل تلمسان في ربيع الاول سنة 60 وبويع بالخلافة وابوه حي ، ونهضت اليه مرين • فأجفل أمامها الى الصحراء • واجلب على ممالكها حتى عادت الى مغربها ، فعاد هو الى تلمسان بعد شهر ، وقطعت دولته مرين ثم ابنه سبع مرات •

وكانت الصحراء حصنه الحصين ، وخاطر بنفسه مرارا في طلب سلطانه ، ومدح هذه المخاطرة في واسطة السلوك ، وتمثل بقول امرىء القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وايقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا او نموت فنعذرا

ولد بالاندلس أيام مقام أبيه بها سنة 723 وقتل غرة ذي الحجة سنة 91 وكان ممدوح لسان الدين واضرابه ، وجمع الحافظ التنسي كتابا

سماه « راح الارواح فيما قاله المولى ابو حمو من الشعر وما قيل فيه من الامداح » •

وخلفه ابنه قاتله ابو تاشفين عبد الرحمن الثاني ، ولد بندرومة أيام كان ابوه وجده بها سنة 752 وتوفي في ربيع الثاني سنة 95 وقضى أيامه في دعة وهناء قائما بدعوة مرين مؤديا لهم ضريبة سنوية ، فقويت مطامعهم وكثر تحكمهم في عرش تلمسان • ولو طالت ايامه لرفع عن الدولة هذا الكابوس •

وخلفه ابنه ولي عهده أبو ثابت الاول وقتل لاربعين يوما •

وخلفه قاتله عمه ابو الحجاج يوسف بن ابي حمو في جمادى الاول • ولاشهر ملكت عليه مرين تلمسان • وقتله أخوه ابو زيان سنة 96 وحلاه التنسي بقوله : « جند الجنود وعقد الالوية والبنود • وامر الايام فائتمرت وطافت بكعبته الآمال واعتمرت ، الى بيان جبل عليه وفصاحة ورحب جناب للوافدين وساحة » اهـ •

وسلمت مرين تلمسان لاخيه ابي زيان الثاني ، كان ثائرا على أخيه أبي تاشفين مطالبا بدم أبيه ، واضطره العجز الى الوفادة على مرين ، فادخرته لعاقبة سياسية ، وسرحه سلطانها عبد العزيز الى تلمسان ، فدخلها غرة ربيع الثاني سنة 96 ونشط العلوم والآداب ، وكان عالما شاعرا ، ألف كتاب « الاشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الامارة » وكانت بينه وبين برقوق صاحب مصر مهادات وتنكرت له مرين • فاعانت عليه أخاه عبد الله ، فأخرجه سنة 801 واغتيل سنة 805 •

وخلفه أخوه ابو محمد عبد الله الاول فباشر أموره بنفسه ، ونهض بدولته نهوضا خشيته مرين ، فأغارت عليه سنة 804 وأسرته •

وخلفه باعانة مرين اخوه ابو عبد الله محمد الاول المعروف بابن

خولة • ويلقب بالواثق بالله ، وكان أمثل الملوك المتأخرين رحب الفناء جزيل العطاء حليما عن الدماء محبوبا من الرعية • فاستراحت الامة ايامه وكاد يعيد للدولة شبابها ومات سابع ذي القعدة سنة 813 •

وخلفه ابنه عبد الرحمن وخلع لشهرين وايام • وخلفه خالعه عمه السعيد بن ابي حمو اواخر المحرم سنة 814 وعاثت منه يد الاسراف في أموال الدولة • وامدت مرين عليه أخاه عبد الواحد فخلعه منتصف رجب ، وذهب على وجهه •

وخلفه خالعه أخوه ابو مالك عبد الواحد • وكان شجاعا متناهياً في الحزم والجد مقتفيا آثار أبيه ، استرجع الجزائر من الحفصيين • وحارب مرين في عقر دارها ونصب على كرسيها بعض حفدة ابي عنان • وأخذ منها بثأر آل زيان فاشتدت بذلك صولته وامتدت دولته • وانتهى به تداخل مرين في عرش تلمسان ولكن هذه الدولة لا تخرج من أزمة الا الى أخرى فثار عليه محمد ابن أخيه ابي تاشفين • واستمد الحفصيين • فنهض سلطانهم عزوز في جموعه معه ، وبعد معارك دخلوا تلمسان • وفر عبد الواحد الى فاس • وانتصب بتلمسان سنة 827 ابو عبد الله محمد الثاني بن ابي تاشفين الثاني المدعو بابن الحمرة • وعاد عزوز الى تونس بعدما انفق أكثر من عشرة احمال مالا في هذه الحركة •

وحاول عبد الواحد استرجاع ملكه • وعجزت مرين عن مظاهرته • فتوجه شطر تونس • وارسل ابنه المستنصر الى سلطانها عزوز • فرجع منه بكتاب يعده الاعانة على أن يقدم بنفسه الى تونس • فقبضت على المستنصر عيون ابن الحمرة فقتله • وقطع ذكر عزوز من الكتب والخطبة • ولحق عبد الواحد بتونس • وعاد منها بجيش هزمه ابن الحمرة • فخرج عزوز نفسه معه • وفتح تلمسان في رجب سنة 31 وعاد عبد الواحد الى ملكه •

وخرج ابن الحمرة الى جبال بني يزناسن • ثم انتقل الى جبال برشك وتنس واستألف عربها • وفتح تلمسان رابع ذي الحجة سنة 33 وقتل عمه عبد الواحد • فنهض اليه عزوز • واخرجه الى جبال بني يزناسن ثانيا • وحاصره بها • فزين له بعض أصحابه النزول اليـه ليلين له • فرفعه معـه الى تونس • واعتقله بقصبتها حتـى مات سنة 840 •

وخلفه عمه احمد العاقل بن ابي حمو • نصبه على كرسي أسلافه عزوز غرة رجب سنة 834 فضبط الامور وأظهر العدل واحسن السيرة • فطالت مدته وانتزع منه بعض آله وهران والجزائر • واستقل عـن عزوز فخرج اليه • ولكن مات في طريقه • فعاد الجيش الي تونس ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وهادى حافده ابـا عمر عثمان سنة 62 فكافأه ، وتغلب عليه المتوكل غرة جمادى الاول سنة 66 واجازه الى الاندلس ، فعاد لطلب ملكه ، وحاصر تلمسان اسبوعين ، ثم مات في ذي الحجة سنة 67 ودفن بالعباد •

وخلفه خالعه ابو ثابت الثاني محمد المتوكل بن ابي زيان محمد المستعين بن ابي ثابت الاول ، فجمع آل زيان المشتتين شرقا وغربا ، وأحسن معاملتهم وأدر عليهم الارزاق ، ومهد المملكة واخضع الرعية ، وخرج اليه ابو عمر عثمان الحفصي سنة 66 فخضعت له سويد وعامر ، واقتضى بيعة المتوكل وتهاديا سنة 68 ثم استقل عنه المتوكل سـنة 70 فخرج اليه واخضعه ثانيا ، ومات سنة 890 •

فخلفه ابنه تاشفين نحو اربعة اشهر أو أقل •

وخلفه أخوه ابو ثابت الثالث محمد ، وعجز عن ضبط ممالكه الشرقية ، فاضطرمت فتنة ، ومات سنة 902 •

وخلفه أكبر بنيه أبو عبد الله محمد الثالث المعروف بالثابتي نسبة الى جده ابي ثابي • وزاد ما بين سنتي 904ـ906 في احباس ابي مدين ما قيمته مائتا دينار • ومات سنة 909 •

وخلفه اخوه ابو زيان الثالث المسعود ، فخلعه عمه ابو حمو الثالث ، الملقب عند ابي راس بابي قلمس ، وفي تحفة الزائر بابي كلمون ، وسجن المسعود ، وملكت عليه اسبانيا المرسى الكبير سنة 911 ثم وهران سنة 14 وقيل 15 وثار عليه يحي اخو المسعود ، واستبد بتنس تحت حماية اسبانيا ، وحاربها ابو حمو مرارا ، واستأصل جيشها سنة 12 ثم ضعف عن مقاومتها • فاحتمى بها • وادى لها ضريبة سنوية مبلغها اثنا عشر الف دوقة واثنا عشر فرسا وستة بزاة •

وغضبت الامة عليه لاهانته الاسلام باحتمائه بالنصارى ولاثقاله كاهلها بالضرائب لضيق مملكته • فاستدعت عروج بربروس • فدخل تلمسان سنة 23 وفر ابو حمو الى وهران • وارتقى على العرش. سجينه ابو زيان المسعود • وبعد ايام قلائل اخرج الاتراك من تلمسان محاولا للاستقلال • فعاد اليه عروج • وقتله في سبعة من قرابته ونحو الستين من عامة عبد الواد وزهاء الف من التلمسانيين •

وزحف على الاتراك ابو حمو بنجدة اسبانية • فحاصر تلمسان ستة أشهر • ثم احتلها في جمادى الأولى سنة 24 وفر عروج فأدرك وقتل ومات ابو حمو سنة 24 نفسها •

وخلفه اخوه ابو محمد عبدالله الثاني بن المتوكل• وحاول قطع طمع اسبانيا وتركيا في تلمسان وابعد أخاه ابا سرحان مسعودا الى فاس • ثم استرجعه • فعدل عنه الى خير الدين بالجزائر • واستعانه على اخيه مقابل ضريبة سنوية ومبايعة سليم الاول العثماني • فأمده بالمال والجيش واخرج اخاه الى وهران •

وملك مسعود تلمسان ، ونقض طاعة خير الدين ، فدعاه الى الوفاء • فأساء الجواب ، واستثمر ذلك اخوه ابو محمد ، فلحق بخير الدين وضمن له البيعة والضريبة فأيده •

عاد ابو محمد الى تلمسان ، ففر مسعود ، وأخذ يغير عليه ،

فأمده خير الدين وانجلت الفتنة بالقبض على مسعود ، واختلت احوال خير الدين • فقطع ابو محمد طاعته ، ثم صلحت أحواله ، فعاد الى طاعته ، ومات سنة 930 •

وخلفه ابنه ابو عبد الله محمد الرابع ، واشتدت ايامه شوكة اسبانيا • وفتحت تونس ، فخضع لها ، واشترطت عليه ضريبة سنوية وتسريح أسارى النصارى وعدم منازعتها الاستيلاء على الجزائر وشرشال وتنس لكن الظروف حالت دون تنفيذ هذه الشروط •

وفي سنة 49 خلعه اخوه ابو زيان احمد باعانة الاتراك واقام جند منهم بتلمسان • فلحق ابو عبد الله بوهران • واتى بنجدة اسبانية استأصلها ابو زيان بشعبة اللحم في شوال ثم أعادوا الكرة • ودخلوا تلمسان في ذي الحجة وفعلوا بأهلها الافاعيل قتلا ونهبا واعتداء على الحرم •

عاد ابو عبد الله الى عرشه • وهجم عليه اخوه ابو زيان سنة 50 وبعد معارك خذل ابو عبد الله لجنايته على تلمسان بادخال النصارى اليها • وعاد ابو زيان الى عرشه • فلحق اخوه بوهران • واسرع العود بنجدة اسبانية • فقتل • وهزمت نجدته شر هزيمة •

وفي أواسط شعبان سنة 52 استولى حسن بن خير الدين على تلمسان • فلحق ابو زيان بدبدو • وغدر به صاحبها عمر بن يحي الوطاسي • فاعتقله ووزيره منصور بن ابي غانم ومن معه من آل زيان • ونهب أموالهم • ثم سرح منصور في محرم سنة 53 •

وفي جمادى الاولى سنة 57 اخرج السعديون المتغلبون بفاس ابا زيان احمد من تلمسان • فلحق بوهران • ولا أدري كيف كان خلاصه من صاحب دبدو ويظهر ان السعديين لما دخلوا فاس سنة 56 سرح الوطاسيون ابا زيان ليحفظ تلمسان منهم • واخرج الاتراك السعديين من تلمسان في نفس سنة 57 ودخلت حكمهم •

ملـــوك تلمســـــــان

الملـــك	الولاية هـ	م
يغمراسن بن زيان	633	1236
ابنه عثمان الاول	681	1283
ابنه ابو زيان الاول	703	1304
اخوه ابو حمو الاول	707	1308
ابنه ابو تاشفين	718	1318
استيلاء مرين الاول	737	1337
عثمان الثاني	749	1348
استيلاء مرين الثاني	753	1352
ابو حمو الثاني	760	1359
ابنه ابو تاشفين الثاني	791	1389
ابنه ابو ثابت الاول	795	1393
عمه يوسف	795	1393
اخو هابو زيان الثاني	796	1394
اخوهما عبد الله الاول	801	1398
اخوهم ابو عبدالله الاول	804	1402
ابنه عبد الرحمن	813	1411
عمه السعيد	814	1411
أخوه عبد الواحد	814	1411
ابو عبد الله الثاني بن ابي تاشفين	827	1424
عود عبد الواحد	831	1428
عود ابي عبد الله	833	1430
احمد العاقل بن ابي حمو	834	1431
ابو ثابت الثاني المتوكل	866	1462
ابنه تاشفين	890	1485
اخوه ابو ثابت الثالث	890	1485
ابنه ابو عبد الله الثالث	902	1496
عمه ابو حمو الثالث	909	1503
ابن اخيه ابو زيان الثالث	923	1517
عود ابي حمو	924	1518
اخوه عبد الله الثاني	924	1518
اخوهما مسعود	925	1519
عود عبد الله	?	?
ابنه ابو عبد الله الرابع	930	1524
اخوه ابوزيان الرابع احمد	949	1542
عود ابي عبد الله	949	1543
عود احمد	950	1543
الاستيلاء التركي	957	1550

37 — نقود المعتصم بالله ابي العباس احمد

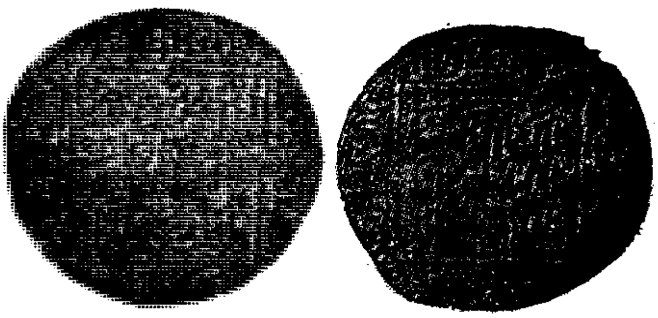

38 — من نقود المتوكل بن ابي زيان محمد

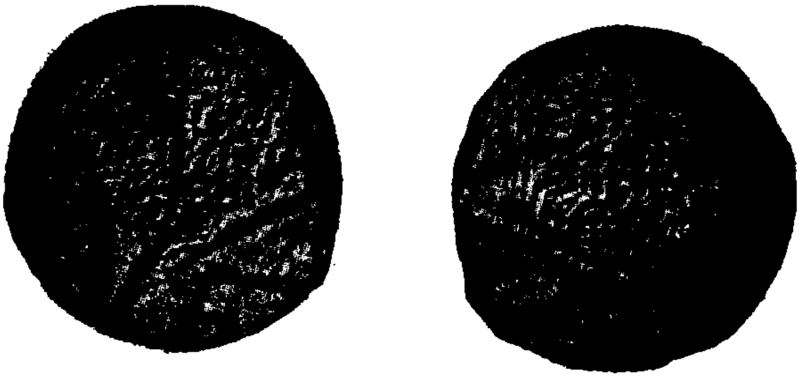

39 — من نقود ابي عبد الله محمد ، ضرب تلمسان

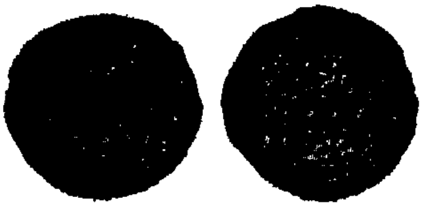

40 — من نقود المتوكل ، ضرب تلمسان

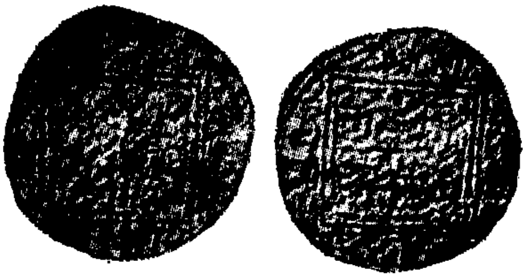

41 — من نقود ابي عبد الله المتوكل ، ضرب تلمسان

6 ـــ مغراوة وبنو زيــان

موطن مغراوة شمال وانشريس ووادي شلف الى البحر • ينتهي شرقا الى وادي السبت قرب متيجة وغربا الى البطحاء ناحية نهــر مينة • يشتمل على جبال شاهقة وسهول خصبة ومدن عامرة • منها مليانة وواجر شرقيها ومازونة وتنس وبرشك وشرشال •

وغلبوا أيام منديل بن عبد الرحمن على وانشريس ولمديــة • واختطوا قصبة سيرات • وخربوا عمران متيجة • وكان أهلها على ما يحكى يجمعون في ثلاثين مصرا • ثم ظهرت توجــين بوانشريس ومليكش والثعالبة بمتيجة • فانقبضوا الى وطنهم القومي •

ولم تفارق مغراوة ورؤساؤها حياة الظعن • فكانوا بداة وأمر المدن الى مشائخ من أعيانها • وربما استبد بعض الشيوخ بمدينته • ففي سنة 659 استبد بمليانة ابو علي الملياني حتى أخرجه الحفصيون من سنته • وفي سنة 683 استبد ببرشك زيري بن حماد المكلاتي المدعو زيرم • وشغلت عنه الدول حتى قتله بنو عبد الواد سنة 708 •

وقد دخل العبدري مليانة سنة 689 فكتب عنها ما خلاصته : « مدينة حصينة مجموعة مختصرة • وليست عن أمهات المدن مقصرة اشرفت من كثب على وادي شلف في روضة جمة الازهار والطرف وفرعت في سفح جبل حمى حماها ان يرام وشرعت في أصل نهر يشفى من الهيام وبها جامع مليح عجيب » اهـ •

ثم أخذ يندب أفول نجم العلم والادب بها بقصيدة على لسان حالها ، مطلعها :

زمان لذي عهد الشبيبة قد عسا	اعلل فيــه النفس علي او عسى
لعل ربوعا من حلاهــا عواريا	تعود لها تلك المفاخــر ملبســا
لعل نجوما كنت هالــة بدرهــا	ستجلو ظلاما حــل افقي فالبسا

وبرشك بين تنس وشرشال • قال الادريسي : « هي مدينة صغيرة على تل بضفة البحر عليها سور تراب • وشرب أهلها من عيون عذبة • وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير » اهـ • وقال الدمشقي : « بلدة صغيرة كثيرة الانجاص والتين والعنب الاسود » اهـ •

ومازونة اختطها ابو منديل عبد الرحمن من رؤساء مغراوة سنة 565 قال الادريسي : « هي على ستة اميال من البحر شرقي حوض فروخ بين أجبل ذات أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مؤنقة من أحسن البلاد بقعة وأكثرها فواكه والبانا وسمنا وعسلا » اهـ •

وكانت مغراوة كبني عبد الواد على الدعوة المؤمنية حتى وطيء ارضها أبو زكريا الحفصي سنة 632 فبايعته • وخالفت بذلك سياسة عبد الواد • فأوجدت السبيل عليها ليغمراسن بن زيان ، ونهض اليها • فعجزت عن مقاومته • واستصرخت ابا زكريا فأصرخها • واحتل تلمسان سنة 40 فبايعه يغمراسن • وعقد ابو زكريا على مغراوة لرئيسها العباس ابن منديل ، ومنحه الاستقلال الداخلي • واتخذ بحضرته الآلة وشارة الملك • ولكن هذه القوة الادبية لم تثبت أمام قوة يغمراسن الحقيقية • فاجلب على مغراوة حتى استقامت على ولائه • ولم تنتفع ببيعة الحفصيين الذين كانوا في شعل عنها ، وانما عقد لها خالد بن ابي زكريا المنتخب ـ وهو ببجاية ـ حلفا مع صنهاجة فصار رؤساؤها يلتجئون الى جبال صنهاجة متى غلبوا على بلادهم ، وشعرت بضعف فائدة هذه البيعة فحولت وجهها شطر مرين فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ولم تكن لسياستها هذه من نتيجة خارجية غير شغل آل زيان ، ولا داخلية غير تشتيت شملها ، فقد لحق كثير من أبطالها بغرناطة مرابطين للجهاد ومنهم من لحق بالحفصيين أو مرين •

ابتدأ يغمراسن حربه لمغراوة بالتضريب بين بني منديل رؤسائها

فقتل عابد وثابت ابنا منديل اخاهما محمدا سنة 662 بالخميس من بسائطهم • فاختلفت كلمة مغراوة بعده • وجاس يغمراسن خلال معاقلهم سنة 66 حتى بلغ متيجة وأمكنه عمر بن منديل من مليانة سنة 68 على ان يعينه على رئاسة قومه • فخرج لاعانته سنة 72 وباع منه عابد وثابت بعد حروب تنس باثني عشر الف دينار • ومات عمر • واجاز عابد الى الاندلس • وخلا وجه مغراوة لثابت • فاسترجع مليانة وتنس • وغلبه يغمراسن على تنس سنة 81 •

وخلف يغمراسن ابنه عثمان • فاثخن في بلاد مغراوة • وملك مازونة سنة 86 وتنس سنة 88 وأعان ثابت سلطان مرين في حصار تلمسان سنة 89 فانتقم منه عثمان حتى ألجأه الى جبال صنهاجة ثم عاد اليها سنة 93 حتى ألجأه الى برشك ، فحاصره بها اربعين يوما ، ثم ركب البحر في أهله وولده الى يوسف سلطان مرين ، فأكرم مثواه ، وقتله بعض مرين سنة 94 فكفل السلطان أهله وولده ، وتزوج حافدته ، وبقي ابنه محمد أميرا في قومه ، ومات بعده بقليل •

واستكانت مغراوة لبني زيان ثم لمرين أثناء حصارهم الطويل لتلمسان ، وبعد تغلبهم عليها ، وولي يوسف بن يعقوب منهم عمر بن ويعزن بن منديل ثم ابنه محمدا ، وكان راشد بن محمد بن ثابت يأمل من صهره ان يؤثره بامارة قومه ، فلما خاب ظنه ـ كما سيخيب ظن الفضل الحفصي في صهره ابي الحسن ـ ثار عليه ، وملك مازونة سنة 700 وشغل مرين حتى ألحقوه بزواوة سنة 704 وعاد بعد مقتل صهره الى قومه ، فأجلاه ابو حمو الاول الى زواوة ايضا سنة 708 فلحق بالجيش الحفصي • وكان ذا مكانة في الدولة لفضل شجاعته وكرم أصله وقتله عبد الرحمن بن خلوف الصنهاجي في ملاحاة بينهما حوالي سنة 711 ولحق ابنه علي بعمته لدى سلاطين مرين •

وبعد واقعة القيروان على ابي الحسن سنة 749 تحالفت مغراوة

وعبد الواد بظاهر تونس على التناصر واحترام الحدود الوطنية ، وبايعت مغراوة علي بن راشد فدخل وطنه واخرج عمال مرين من مدنه ، ثم خرج ابو ثابت من تلمسان لحرب الناصر بن ابي الحسن سنة 50 وبمقتضى المعاهدة ارسل الى علي بن راشد في اجتماع اليد • فقعد عنه ، فلما هزم الناصر نهض الى مغراوة في شوال ، وهزمهم بوادي رهيو • وملك مازونة ثم اجتمعوا لحرب ابي الحسن حتى هزموه سنة 51 ثم اجتاز بمغراوة احد بني كمي من عبد الواد ، فقتلوه ، فاوجدوا السبيل عليهم لابي ثابت • فنهض اليهم فاتح سنة 52 وبقي موافقا لهم حتى ألجأ عليا الى تنس ، ودخلها عليه منتصف شعبان ، فانتحر ، وانتهت به امارة مغراوة ثانيا • وكان علي قد استشفع بابي عنان ، فرد ابو ثابت شفاعته ، وكان ذلك مما دعاه الى فتح تلمسان ، فكان عود دولتي مغراوة وعبد الواد وسقوطهما معا •

وكان لعلي ابن اسمه حمزة نشأ بين ابناء سلاطين مرين ، وفي نفسه تشوف لاسترجاع ملك سلفه فلما دخلت مرين تلمسان سنة 72 لحق بقومه ، وجدت مرين في حربه حتى قتلته ، ثم ولت على مغراوة سنة 74 علي بن هرون بن ثابت بن منديل ، وكان وليا لها عدوا لعبد الواد ، فبادر ابو حمو الثاني بحربه حتى أجلاه الى جبال صنهاجة ، وعاد سنة 75 فحصره ابو تاشفين بن ابي حمو بجبل زاتيمة ، واخرجه من أرض مغراوة في ربيع الاول سنة 76 فلحق ببجاية • وركب منها الى فاس • ونامت بعده امارة مغراوة نومها الاخير •

امـراء مغـراوة

الامير	ولاية هـ	ولاية م	نهاية هـ	الامير	ولاية هـ	ولاية م	نهاية هـ
العباس بن منديل	640	1242	647	عمر بن ويعزن	699	1299	700
اخوه محمد	647	1249	662	ابنه محمد	700	1300	707
اخوهما عابد	662	1264	672	راشد بن محمد بن			
اخوهم عمر	668	1269	676	ثابت	700	1300	708
اخوهم ثابت	676	1277	694	ابنه علي	749	1348	752
ابنه محمد	694	1294	694	ابنه حمزة	772	1370	772
اخوه علي	694	1295	?	علي بن هرون	774	1372	776

7 ـ توجين وبنو زيان

موطن توجين شرقي عبد الواد وجنوب مغراوة فيما بين سعيدة ولمدية ، وحياتهم بدوية كمغراوة يبلغون في رحلة الشتاء مزاب والزاب الغربي ، وبموطنهم جبل وانشريس وسهل منداس ووزينة والسرسو ، وبه من القلاع الحصينة تاوغزت وتاقدمت وتافرقينت ولمدية ، وغلبهم بطون من زغبة على السهول فانقبضوا أخيرا الى وانشريس •

وجبل وانشريس جبل عظيم شماله نهر شلف وغربه سهل منداس وجنوبه سهل وزينةغربا وسهل السرسو شرقا ، قال الادريسي: « يسكنه قبائل بربرية منها مكناسة وحرسون وواربة وبنو ابي خليل وكتامة ومطماطة وبنو مليلة وبنو وانجان وبنو ابي خليفة ويصلان وورولات وبنو تمسوس وزوارة ونزارة ومطغورة وواترين وبنو ابي هلال وايزكرو وبنو ابي حكيم وهوارة ، وطوله اربعة ايام ينتهي طرفه الى قرب تاهرت » اهـ •

وينسب اليه علماء كثيرون ، منهم أبو علي عمر بن عثمان ويونس ابن عطية والحسن بن عثمان بن عطية ، لقيهم لسان الدين بن الخطيب بالمغرب ، وعدهم من شيوخه ، ومنهم محمد بن ابي بكر خطيب جامع الزيتونة المتوفي سنة 853 ، ومنهم احمد بن يحي صاحب المعيار المتوفي سنة 914 وابنه عبد الواحد القتيل بفاس سنة 955 •

وتاوغزوت قلعة منيعة قرب فرندة ، حصنها سلامة بن علي بن نصر شيخ بني يدللنن على عهد عبد القوي بن العباس ، وتداول رئاستها بنوه من بعده ، فدعيت قلعة ابن سلامة ، وخربها أبو حمو الثاني سنة 770 •

وتاقدمت قرب تاهرت ، خربت بتوالي الفتن ، وعمرها الامير عبد القادر عمارة بسيطة ، ذهبت بعده • وتافرقينت ذكرها ابنا خلدون عاصمة لمحمد بن عبد القوي وسمى غيرهما عاصمته تاقدمت •

وقد كانت توجين مشاقة لبني عبد الواد • فاخذت بالدعـوة الحفصية ، وعقد ابو زكرياء الاول عليها سنة 640 لعظيمها عبد القوي ابن العباس من بني منكوش وربما نسب في آل البيت ، وسلك بها سبيل العباس بن منديل •

وامتنعت توجين على آل زيان مدة عبد القوي وابنه ابي زيان محمد • فنازلوها مرارا من غير طائل ، ووالى عبد القوي يغمراسن آخر حياته ، ومات سنة 647 فخلفه ابنه محمد ، وعظم سلطانه ، وولى بلمدية حسن بن يعقوب بن عزيز من توجين وبوانشريس أخاه شريطا وبرهيو علي بن عشيرة ، وبتاوغزوت سلامة بن علي شيخ بني يدللتن ، وقدم على بني يرناتن شيخهم ابن اخته نصر بن مهيب بن نصر بن علي ، ووفد على المستنصر الحفصي بالمسيلة سنة 666 ثم ذهب لاعانته على دفاع لويس التاسع ، وأعان يعقوب بن عبد الحق على حصار تلمسان والعيث في ساحتها سنتي 70ـــ80 واستفاد من هذين السلطانين أموالا جمة ، وسعدت به توجين حتى مات سنة 684 •

وخلفه ابنه سيد الناس • وكان دونـه قيمة ، فاختلفت عليـه توجين ، وضرب عثمان الاول من آل زيان بين رؤسائها ، فقتـل بنو عبد القوي بعضهم بعضا • واستبد بنو نصر بن مهيب برئاسة قومهم يرناتن وأولاد عزيز بلمدية واولاد سلامة برئاسة قومهم يدللتن •

وبهذا الخلاف اوجـدوا السـبيل عليهم لعثمان الاول فملك وانشريس سنة 87 ولمدية سنة 88 وكرر غاراته على محاولي الثـورة منهم • وقتل شيخ يدللتن يغمراسن بن سلامة سنة 98 فبايعه أخوه محمد ، وحوصرت تلمسان الحصار الطويل فلم تسع توجين في توحيد كلمتها بل ازدادت تفرقا وأمكن شيخ بني تيغرين يحي بن عطية مرين من وانشريس • فملكته سنة 703 بعد حروب •

ففي سنة 85 قتل موسى بن محمد بن عبد القوي أخاه سيد الناس . وانتصب مكانه ، وحارب مشيخة توجين بسيرات ، فقاتلوه ، وتردى بـه فرسه ، فهلك لنحو عامين من امارته ، وخلفه عمر ابن أخيـه اسماعيل ، وبعد اربعة ايام اغتاله ابناء عمه زيان بن محمد ، وقدموا كبيرهم ابراهيم بن زيان ، وكان حسن الولاية عليهم . وكاد يحي عهد جده محمد ، فقتل باغراء عثمان الاول سنة 90 وبايع بنو تيغرين ابن عمه موسى بن زرارة بـن محمد . فاجلاه عثمان الى نواحي لمدية . وهلك هناك . وحوصر عثمان بعد . فملك وانشريس ابو بكر بن ابراهيم بن محمد بن عبد القوي نحو عامين . وهلك . فبايع بنو تيغرين اخاه عطية الاصم . وخالفهم اولاد عزيز وبقيـة توجين . فبايعوا ابن عمه يوسف بن زيان بن محمد . وحاصروا بني تيغرين بوانشريس عاما وأزيد . فملك العرب السرسو . ولحق يحي ابن عطية بالسلطان يوسف . فأغـراه بوانشريس انفة مـن غلبة بني عمـه .

ولما ملك مرين توجين ولت بوانشريس علي بن الناصر بن عبد القوي وأمره بيد يحي بن عطية شيخ بني تيغرين ، بتاوغزوت سعد ابن سلامة ، ولحق أخوه محمد بجبل راشد ، ثم هلك علي بن الناصر ، فخلفه محمد بـن عطيـة الاصم . وانتقض على مريـن سنة 706 قبيل مهلك سلطانهم . وعاد الامر لبني زيان . فاخضعوا توجين . وأجلوا آل عبد القوي . فلحقوا بالحفصيين .

ففي سنة 710 جاس ابو حمو الاول خلال معاقلهم . ورفع منزلة بني تيغرين وأولاد عزيز . وكانوا خولا لآل عبـد القوي يعرفون بالحشم . فعقد على وانشريس ليحي بن عطية بن يوسف بن المنصور . وعلى لمدية ليوسف بن حسن بن يعقوب العزيزي . وابقى سعد بن سلامة على بني يدللتن . وجعل أمر توجين راجعا لعامله يوسف بن

حيون الهواري . وهلك يحي بن عطية . فخلفه أخوه عثمان ثم عمر ابن عثمان . وكانت ثورة محمد بن يوسف من آل زيان . فخبت فيها توجين ووضعت ثم استقام يوسف بن حسن على طاعة ابي حمو سنة 17 ووالى عمر بن عثمان ابا تاشفين الاول . واعانه على قتل محمد بن يوسف سنة 19 فأبقاه على رئاسته . وعزل عن تاوغزوت سعد ابن سلامة باخيه محمد . وانحصرا معه سنة 35 وماتا في بعض ايام الحصار . وملك ابو الحسن المريني توجين سنة 36 فاستعمل على وانشريس نصر بن عمر بن عثمان . واعاد الى تاوغزوت سعد بن سلامة الى ان مات في طريق عوده من الحج . فخلفه ابنه سليمان .

وبعد نكبة ابي الحسن على القيروان ظهر بنو محمد بن عبد القوي طامعين في استرجاع امارتهم لكنهم اختلفوا . فبايع أولاد عزيز وبنو يرناتن بنواحي لمدية عدي بن يوسف بن زيان بن محمد . وبايع بنو تيغرين وشيخهم نصر بن عمر مسعود بن ابي زيد بن خالد بن محمد . وكانت وقائع بين الفريقين . ولم يتم أمر عدي فلحق بابي الحسن لما نزل الجزائر . وعادت تلمسان لآل زيان . وملكوا توجين فأبقوا على رؤسائهم .

وفي سنة 53 ملكهم ابو عنان . فالحق مسعود بن ابي زيد وسليمان بن سعد بوجوه جنده . وأفرد نصر بن عمر بأمر وانشريس . واقطع تاوغزوت ونزمار بن عريف . ثم ملك ابو حمو الثاني فأعاد سليمان بن سعد الى عمله . وكانت ثورة ابي زيان . فغمست توجين يدها فيها . ومات نصر بن عمر أثناءها . فخلفه اخوه يوسف وقتل ابو حمو سليمان . واقطع تاوغزوت اولاد عريف . وانقرضت الرئاسة من سائر بطون توجين الا بني تيغرين بجبل وانشريس . قال ابن خلدون : « ويوسف بن عمر لهذا العهد وهو سنة 783 صاحب جبل وانشريس . وحاله مع ابي حمو مختلف في الطاعة والخلاف » .

8 — الثوار من بني زيان

كان ملوك بني زيان أولي حزم وضبط متى رأوا باحد من اقربائهم مخايل المزاحمة في الدولة اشخصوه الى الاندلس ليشتغل بالجهاد ويستريحوا من فتنته ٠

وفي سنة 714 نزل ابو حمو الاول بوادي تهل موادفا لمغراوة ٠ وترك ابنه ابا تاشفين على تلمسان وسرح للغارة على بلاد الحفصيين محمد بن يوسف بن يغمراسن قائد مليانة في قواد آخرين منهم موسى ابن علي الكردي ومسعود بن ابراهيم بن يغمراسن ٠ فتفرقوا في البلاد ٠ واجتمعوا بظاهر بونة ٠ ثم قفلوا ٠ فتنافسوا ، وتنازعوا ٠ وسبق الكردي الى ابي حمو ٠ فاغراه بابن عمه محمد بن يوسف وبقي مسعود بن ابراهيم محاصرا لبجاية ٠

ولما بلغ محمد بن يوسف وادي تهل عزله السلطان ، فسأله زيارة ابن أخته ابي تاشفين ، فأذن له ، وكتب الى ابنه بالقبض عليه ، فابى ، وعاد محمد بن يوسف الى السلطان ، فأهانه ، فخشي على نفسه وفر الى لمدية ، فاعتقله عاملها يوسف بن حسن التوجيني ، ولكن قومه اشربوا في قلوبهم الفتنة ، فحملوه على بيعته وخرجوا فيمن انضم اليهم من العرب ، فهزموا ابا حمو الى تلمسان ٠

ونزل محمد بن يوسف مليانة ٠ واجتمعت اليه توجين ومغراوة ، وعاد اليه ابو حمو واستقدم مسعود ابن عمه ابراهيم من حصار بجاية ، فترك محمد بن يوسف بمليانة يوسف بن حسن ، ولقي مسعودا بمتيجة ٠ فانهزم الى جبل موصاية وحاصره مسعود به أياما ٠ ثم لحق بابي حمو وهو محاصر مليانة ٠ فدخلها عنوة ثم فتح لمدية ٠ وقفل الى تلمسان ٠ وعاد سنة 17 لتمهيد مغراوة وتوجين ، وترك بلمدية

يوسف بن حسن ـ وقد استقام على طاعته ـ موافقا لمحمد بن يوسف •

وبايع محمد بن يوسف ابا يحي الحفصي • فوعده المظاهرة • وبايعه بنو تيغرين • فانتقل الى وانشريس • ولحق به سماسرة الفتن من مغراوة وغيرهم • حتى قتل ابو تاشفين اباه • ونهض اليه سنة 719 فمال اليه عمر بن عثمان صاحب وانشريس وانحصر محمد بن يوسف فيمن معه بربوة توكال منه حتى اقتحمها عليه ابو تاشفين وقتله ، ولو امتثل أمر ابيه اولا بالقبض عليه لما كانت هذه الثورة •

وفي سنة 761 تكدر جو السياسة بين ابي حمو الثاني وابي سالم المريني وكان بنو عبد الحق قد كفلوا أبا زيان محمد بن عثمان بن ابي تاشفين الاول بعد قتلهم جده واباه ، فسرحه أبو سالم لطلب ملكه ، فنزل فيمن معه من المعقل وغيرهم على جبل بني يزناسن ، وبايعه بنو راشد شرقا • فنهض ابو تاشفين الى بني راشد غرة ربيع الاول ، وحصرهم بجبل أوشيلاس من غربس • وخرج اثره الوزير عبد الله ابن مسلم الزردالي الى بني يزناسن فأجلى ابا زيان الى المغرب •

وفي شعبان دخل ابو سالم تلمسان ، وغادرها بعد ايام الى مغربه ، وترك بها ابا زيان في جند من مغراوة وتوجين ، فأخرجهم منها ابو حمو في رمضان • ولحق ابو زيان باولاد عريف ، وثبت على بيعته الهداج وسويد وتوجين وبنو راشد وبعض بني عبد الواد ، فانتقل اليهم ، ولم يمهلهم ابو حمو ، فخرج في رمضان الى تسالة ثم منداس ثم السرسو ، فاصحر ابو زيان وشيعته في ذي القعدة ، ثم عاد الى ارض حصين في ذي الحجة ، وابو حمو بشلف ، فاجلاه عنها ، وعاد الى حضرته فاتح سنة 62 وغرب ابو زيان الى ذوي عبيد الله بانقاد ، فطرده الوزير الزردالي الى تاوريرت ، وانعقد الصلح بين ابي سالم وابي حمو ، فانتهت الفتنة •

وفي سنة 65 اعادت مرين ابا زيان لطلب مكله ، فاضرم الممالك الشرقية والغربية فتنة ، وكاد يفتح تلمسان وهزم ابا حمو بوادي مينة • فاعتمد التضريب بين جموعه حتى اختلفت كلمتهم ، وراجع طاعته اركان الفتنة عمر بن محمد بن مقن وسعيد بن موسى بـن علي الكردي وغيرهما ، فنزل ابو زيان بقصر مرادة على ونزمار بن عريف مذكي هذه النيران •

وفي سنة 763 ثار أيضا ابو زيان محمد بن السلطان عثمان الثاني وكان ابو عنان قد استحياه بعد قتل ابيه وعمه الزعيم ، وبقي تحت أيدي بني عبد الحق ، حتى انفلت منهم • ونزل على خالد بن عامر من شيوخ بني عامر ، فبايعه • وزحف ابو زيان الى تلمسان ، ونزل جبل بني ورنيد ، فاجلي في شوال الى رياح ، ووفد به يعقوب بن علي على ابرهيم الثاني الحفصي ببجاية ، ففر سنة 64 الى ابي الليل شيخ بني يزيد فبايعه • وخرج اليه الوزير الزردالي فاخضعه ، ولحق ابو زيان بتونس •

ثم استقدمه سعاة الفتنة من تونس ، فأسره امير قسنطينة أحمد ، وملك هذا الامير بجاية سنة 67 فخرج ابو حمو لحربه ، فارسل عليه ابا زيان ، ومال اليه أكثر جيش ابي حمو ، فكانت عليه أشنع هزيمة ، وعظمت فتنة ابي زيان بمبايعة أكثر بطون زغبة ، وملك الجزائر ولمدية ومليانة • وشغل به ابو حمو اربع سنين كانت أشد عليه من سني يوسف واوقع به ابو زيان عـلى تيطري في شعبان سنة 69 وقيعـة استأصلت قوته وكاد هو نفسه يؤسر ، وشهد هذه المعركة يحي بن خلدون ووصف انكسارهم وما لقوا في قفولهم من شدائد تفيض لسماعها نفس الجبان واقترب ابو زيان مـن تلمسان سنتي 68ـ69 ثم ملكها عبد العزيز سنة 72 فاصحر ابو زيان وابو حمو كلاهما •

وعاد ابو حمو الى تلمسان بعد موت عبد العزيز فعاد ابو زيان

الى تيطري في صفر سنة 75 وعادت الحرب جذعة • وكان اولاد عريف من سويد ذوي نفوذ في العرب والبربر • وبهم تقوى ابو زيان • وبهم فتح عبد العزيز تلمسان ففي سنة 76 استقاموا لابي حمو وتعهد لهم بمنح ابن عمه جراية سنوية • فانتهت الفتنة ثم ان ابا حمو أراد الانتقام من اركان هذه الثورة ، فعزم على عزل يوسف بن عمر صاحب وانشريس • وكان ابو بكر بن عريف خليلا له ، فنبذ طاعة ابي حمو • واستقدم ابا زيان سنة 777 فاسترضى ابو حمو ابا بكر • وانقبض ابو زيان الى سهل حمزة نازلا على ابي الليل اليزيدي ، ثم استقدمته الثعالبة سنة 78 فاجلاه ابو حمو ، ولحق بوادي ريغ فنقطة فتوزر فتونس •

وفي سنة 838 ثار على أحمد العاقل اخوه ابو يحي ، وعجز عن فتح تلمسان ولكنه ملك وهران ، فكانت بينه وبين أخيه حروب الى أن غلب على وهران في شعبان سنة 52 فركب البحر الى بجاية فتونس ، وبها مات سنة 55

وفي سنة 838 ثار على أحمد العاقل أخوه ابو يحي ، وعجز عن تاشفين الثاني فبايعه اولاد ابي الليل أهل حمزة ثم أهل متيجة ونواحي لمدية ، وحاصر الجزائر مدة طويلة حتى فتحها في رجب سنة 42 ثم ملك لمدية ومليانة وتنس ، واستقل بهذه الناحية الشرقية ، وتلقب المستعين وعظم أمره على عم أبيه أحمد العاقل ، وثقلت وطأته على أهل الجزائر ونواحيها ، فقتلوه في جملة من أصحابه ثاني شوال سنة 43 وكان ابنه المتوكل عاملا بتنس ، فضبط وطن مغراوة حتى ملك تلمسان سنة 866 •

وقد أضربنا عن ذكر ثورات ضعيفة ، وقدمنا الثوار الناجحين في فصل الملوك •

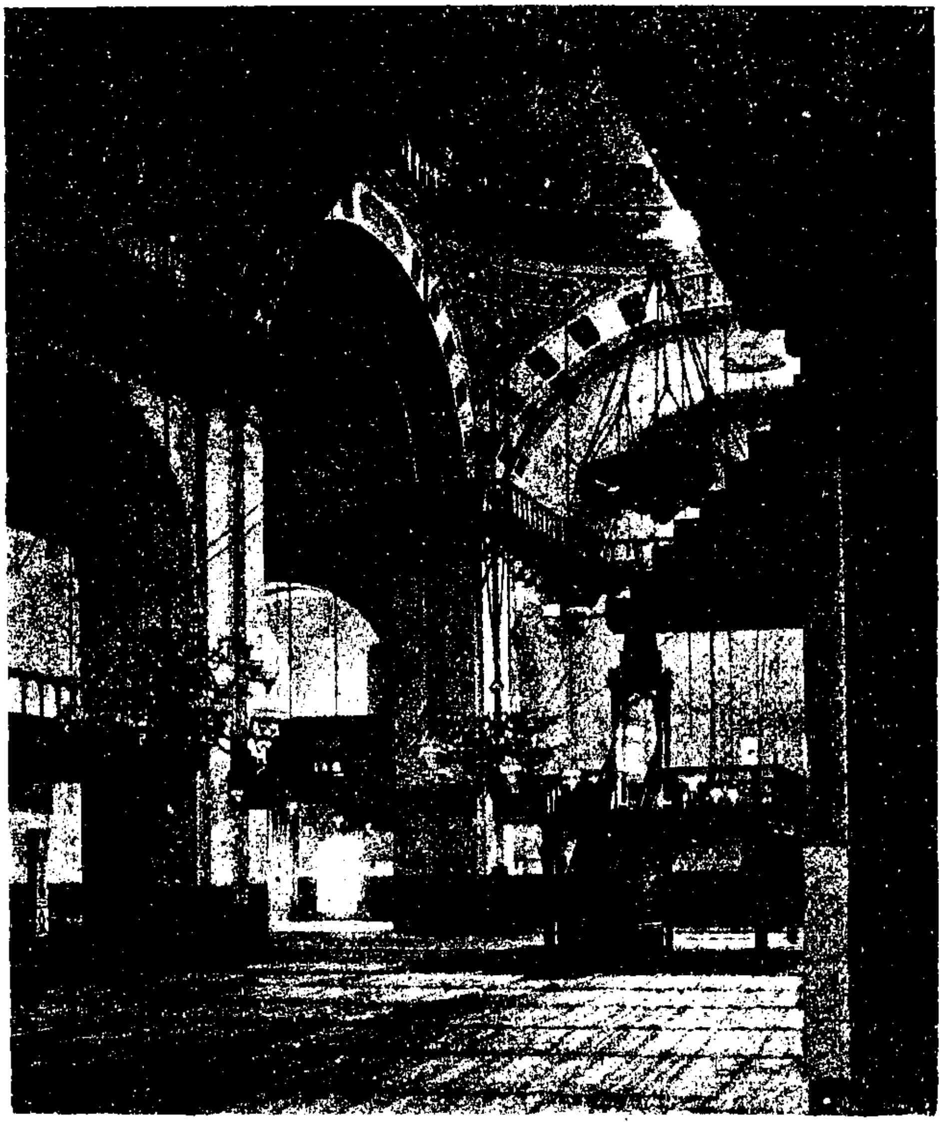

(ش44) جامع الصيد (الجامع الجديد) الجزائر

(ش45)

(ش46) منبر الجامع الكبير في الجزائر

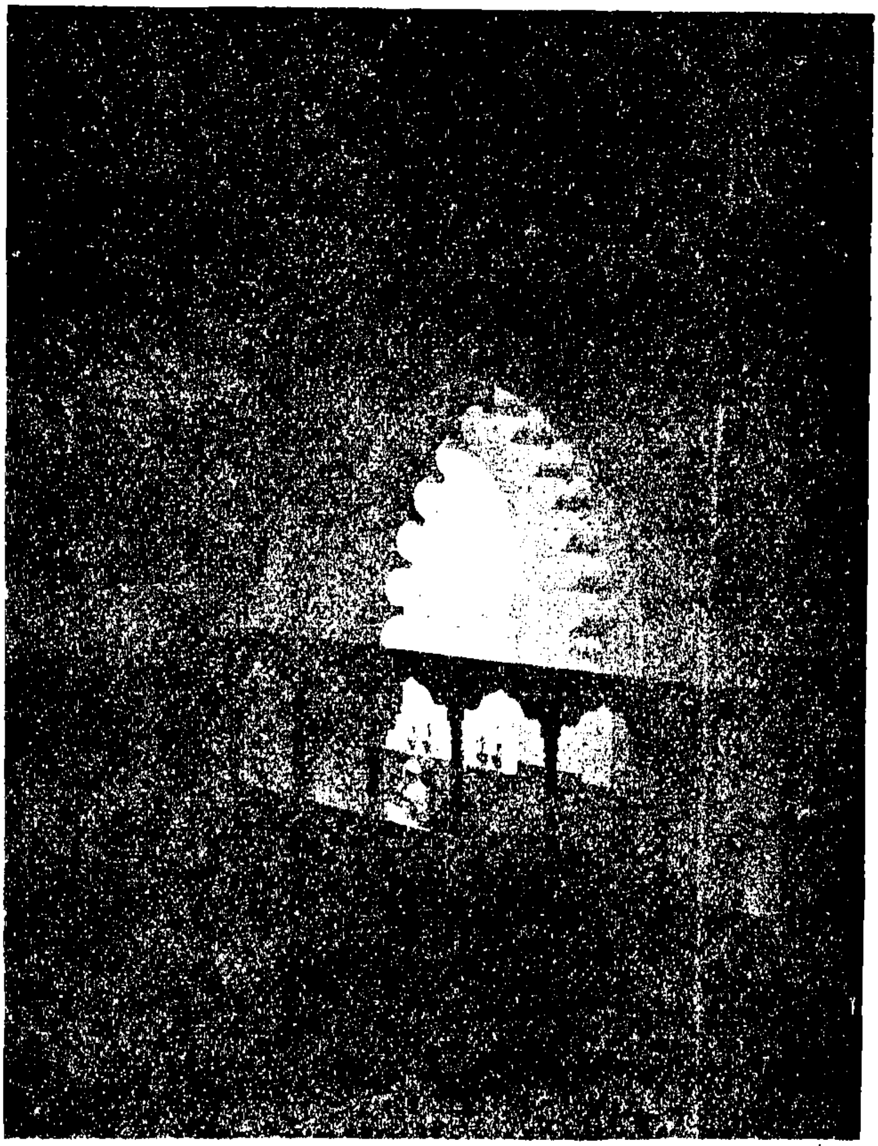

(ش47)

9 ـ الاقتصاد والعمران والحضارة

المملكة الزيانية فلاحية بطبيعة ارضها تجاريـة بطبيعة موقعهـا صناعية بطبيعة سكانها والقاح الجاليات الاندلسية والاسرى الاروبيين • وقد هضمت حضارات الدول الجزائرية الاولى • واخرجت بعنايـة ملوكها ونشاطهم حضارة زيانية ذات صبغة ممتازة • وبهـا ختمت الحضارات الجزائرية المحلية •

واقد كان حبل الامن بالبوادي مضطربا لا يستقر غالبا على حال من الفتن غير ان المدن سائرة في سلم رقيها تغتذي بفترات السلم القصيرة • وقد شكا العبدري سنة 689 فقد الامن من فاس الى الاسكندرية • واعتبر ابن قنفذ نجاته من تلمسان الى قسنطينة سنة 776 من خوارق العادات • ولكن يجب ان نقصر حكمهما على ما ماثل سنتيهما في الجوائح السياسية والحربية •

وكانت الفلاحة بهذه المملكة أهم منابع الثروة • وفلاحة القمح في الدرجة الاولى ويليها غراسة الزيتون • قال يحي ابن خلدون : « ربما بلغت اصابة الزوج الواحدة كما في سنة 758 اربعمائة مد كبير من القمح سوى الشعير والباقلاء • والمد ستون برشالة زنة البرشالة ثلاثة عشر رطلا » اهـ •

وكان من انواع الفلاحة القطن والكتان وقصب السكر وسائر الحبوب والثمار والفواكه والبقول والرياحين ، مع عناية بترقية اساليب الفلاحة واستخراج الميـاه واستجلابها •

ولهذه المملكة مواصلات تجارية أهمها أروبا والسودان • فقد كانت لها مراس كثيرة عني البكري بتعدادها ووصفها وذكر ما يقابلها من مراسي الاندلس • وكانت مدينـة تيزيل جنـوب تلمسان أول الصحراء ومنها تخرج القوافل الـى سجلماسة وورقلة ، وهما بابا السودان •

وأول شركة صحراوية عرفناها هي شركة المقريين الذين استوطن تلمسان جدهم عبد الرحمن بن ابي بكر صاحب ابي مدين ، نقل لسان الدين في الاحاطة عن شيخه ابي عبد الله المقري انـه كان لجده ابي بكر بن يحي بن عبد الرحمن اربعة اخوة اشتركوا في التجارة . ومهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار ، واتخذوا طبـلا للرحيل وراية تقدم عند المسير ، وكان ابو بكر ومحمد بتلمسان وعبد الرحمن بسجلماسة وعبد الواحد وعلي بايوا لاتن الواقعة في الشمال الغربي لتنبكتو على بعد اربعمائة ميل ، فكان التلمساني يبعث الى الصحراوي بمايرسم له من السلع، وذاك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران ويكاتبهما باحـوال التجـار والبلدان فاتسعت أموالهم وعظم شـأنهم اهـ .

وقد دخل ليون الافريقي تلمسان اواخر القرن التاسع ، فوصف تجارها وارباب الحرف بالنشاط والعفة ورغـد العيش . وفضـل لباسهم على لباس الفاسيين ولباعة الاقمشة ذراع سلطاني يوجد اليوم بدار الآثار منقوشا على رخامة .

ورقي الفلاحة والتجارة يستدعي رقي الحرف والصناعات وتعدد أنواعها فاختصت كل حرفة بسوقها ، واشتهرت تلمسان بالمنسوجات . فعرف قماش بالتلمساني وهو صوف خالص او حرير خالص مختم وغير مختم . وكان كساء الصوف او البرنوس من ثماني أواق ارقته .

وذكر يحي بن خلدون مـن انواع الملبوسات الثوب المرعـز والقهزي والحرير والملف والذرايع والعمائم والاحاريم اهـ .

ولسعة الثروة اتسع نطاق المدن . واتخذ الناس حولها القصور تحفها الحدائق تجري من تحتها الجداول . ذكر ليون الافريقي ان

تلمسان بلغت على عهد ابي تاشفين ستة عشـر الف منزل • وذكر غيره ان وهران كان بها اوائل القرن العاشر خمسمائة والف حانوت وعشرة آلاف دار •

واتساع ثروة الامة يفيد الحكومة • فقد كان آل زيان على ما منوا به من الحروب جادين في انشاء القصور الضخمة والمدارس الفخمة واقامة المصانع والمنتزهات وادرار الرزق على رجال السيف والقلم • وقد عرف ليون الافريقي الحكومة ايام ضعفها • فذكر ان عطاء ادنى جندي ثلاثمائة دينار شهريا • وحكي أن أحد متاخري بني زيان اهدى لملك اسبانيا فرديناند دجاجة وستة وثلاثين نقفا كلها من الابريز الخالص •

قال عبد الرحمن بن خلدون : « وكانت قصور الملك بتلمسان لا يعبر عن حسنها • اختطها ابو حمو الاول وابنه ابـو تاشفين • واستدعيا الصناع والفعلة من الاندلس • فبعث اليهما ابو الوليد بن الاحمر بمهرة البنائين استجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا عن الناس بعدهم ان يأتوا بمثله » •

« وكان أبو حمو الثاني قد خرب قصر ملك مرين بتازا وقصر مرادة لونزمار بن عريف • فلما دخل احمد المريني تلمسان سـنة 786 أغراه ونزمار بتخريب قصور الملك » اهـ •

وكان مقر الحكومة يدعى المشوار • وجددت قصوره من بعد • وادار عليه أحمد العاقل سورا سنة 850 وهي اليـوم مقر السـلطة العسكرية الفرنسية •

وكان ابو تاشفين الاول بصيرا بالتشكيل والاختراع • ولـه آلاف من أسرى الاروبيين • فيهم النجارون والزلاجون والزواقون وغيرهم • فاستظهر بهم على تحضير الدولة • وابتنى قصورا منها

دار الملك ودار السرور وابو فهر • ولعله ضاهى بابي فهره ابا فهر المستنصر الحفصي بتونس • ومن آثاره الصهريج الاعظم لم يزل الى اليوم قائما • ومنها بناء مدرسة جليلة عديمة النظير ازاء الجامع الاعظم • ولم يترك شيئا مما اختص بـه قصره الا وضع مثله بها •

قال احمد المقري في نفح الطيب : « رأيت مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني (صوابه ابو تاشفين) ــ وهي من بدائع الدنيا ــ هـذه الابيـات :

انظـر بعينـك بهجتي وسناءي	وبديـع اتقاني وحسـن بناءي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى	من نشـاتي بل من تدفـق ماءي
جسم لطيـف ذائـب سيلانـه	صـاف كذوب الفضـة البيضاء
قد حف بي أزهار وشي نمقت	فغدت كمثل الروض غـب سماء

ومن آثاره احاطة الجزائر بسور عظيم وانشاء قصبـة سيدي رمضان جوار الجامع المعروف اليوم بجامع سيدي رمضان وتوسيع الجامع الاعظم وبناء منارته ، وبالجامع اليوم رخامة فيها ان بنـاء المنارة شرع فيه يوم الاحد 17 ذي القعدة سنة 722 وتم غرة رجب سنة 723 اما الجامع الاعظم فأسس ايام الحماديين ، ومن الغلط ما يشاع من ان مؤسسه يوسف بن تاشفين او ابنـه علي ، فان المرابطين لم يملكوا مدينة الجزائر ، قال التنسي : « وكانت له شجرة من فضة على أغصانها اصناف الطيور واعلاها صقر • ينفخ في أصلها • فتصوت الطيور بصوت اشباهها • ثم يبلغ الريح الصقر • فيصوت • فتنقطع أصوات الطيور كلها » اهـ •

وابتنى ابو حمو الثاني بناءات جميلة غير ان ايامه كانت حربية أكثر منها سلمية • قال يحي بن خلدون : « فكانت دار الصنعة السعيدة

تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم واديانهم فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك » اهـ •

ومن دلائل رقي الصناعة أيامه الساعة المشهورة بالمنقانة • وهي خزانة ذات تماثيل من اللجين بأعلاها ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه • يخاتله فيهما أرقم خارج من كوة باصل الايكة • وبصدرها ابواب مرتجة ازاء كل باب ساعة من ساعات الليل • وبصاقب طرفيها بابان أطول من الاولى واعرض • ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك •

وينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن • وينهش الارقم احد الفرخين • فيصفر له ابوه • ويفتح باب الساعة الراهنة فتبرز جارية محتزمة كاظرف ما انت راء • بيمناها رقعة • فيها اسم ساعتها منظوما • ويسراها على فيها كالمبايعة •

وكان يقيم بمشوره ليلة المولد النبوي احتفالا شيقا تحضره الخاصة والعامة ، فما شئت من زرابي مبثوثة وبسط موشاة ونمارق بالذهب مغشاة ، وشموع كالاسطوانات قائمة على مراكز الصفر المموهة ومباخر كالقباب كانها تبر مذاب •

يجلس الخليفة صدر المجلس • وامامه خزانة المنقانة وحفا فيه الملأ من قومه ووجوه دولته مرتبين على مراتبهم • وترى ولدانا باقبية الخز الملون يطوفون بمباخر العنبر ومرشات الورد • والمسمع على بعد مقدر من الخليفة يردد نغمات الالحان منتقلا من فن الى فن منشدا مدائح في النبي الكريم مفتتحا بقصيدة من انشاء الخليفة ثم قصائد شعرائه •

وآخر الليلة يؤتى بموائد كالهالات من خرس شهي وانواع من المطاعم تعقبها الفواكه والحلواء • فيطعم الناس بين يدي الخليفة ، ويصلي معهم الصبح ، وهكذا كانت تمر المواليد مدته ، واقتفى أثره خلفه ، وزاد ابنه ابو تاشفين احياء ليلة السابع على هذا الوصف •

واول ما حدث الاحتفال بالمولد اواخر القرن السادس او اوائل السابع احدثه بالمشرق مظفر الدين ابو سعيد كوكبوري التركماني الذي كان واليا باربل بين سنتي 586ـ630 واحدثه بالمغرب ، ابو العباس احمد العزفي من بيت علم ورئاسة بسبتة ، ولد سنة 557 وتوفي سنة 633 ، وأمر السلطان يوسف المريني باقامة هذا الموسم في جميع ممالكه سنة 671 •

10 ـ سقوط الدولة الزيانية

في أواخر القرن التاسع اشتد الضعف بالحكومات الزيانية والمرينية والحفصية وعظم النزاع بين ملوك غرناطة ، فاعان الاسبان محمد بن ابي الحسن بن سعد على خلع عمه محمد بن سعد ، فارتحل هذا المخلوع سنة 895 الى وهران • واستقر بتلمسان • قال في نفح الطيب : « ونسله بها الى الآن يعرفون ببني سلطان الاندلس » اهـ ، ثم ملك الاسبان غرناطة في ربيع الاول سنة 897 فاصبحت منهم العدوة الافريقية على طرف الثمام •

وفي سنة 911 ملك الاسبان المرسى الكبير بعد حصار خمسين يوما ، وعاثوا فيما حولهم سلبا ونهبا ، وتكررت المعارك بينهم وبين المسلمين حتى انحصروا داخل أسوار المرسى سنة 913 وحاولوا فتح وهران ، فامتنعت عليهم لحصانتها حتى داخلوا ستورا اليهودي ورجلين من المسلمين ، فادخلوا بعض الاسبان المدينة • وفتحوها لاخوانهم ،

فذبحوا اربعة آلاف مسلم ، وأسروا ثمانية آلاف ، وانقذوا ثلاثمائة أسير مسيحي ، وغدا جاءت الجموع الاسلامية لاغاثة المدينة ، فوجدوا يد الخيانة قد فتحتها ! .

وأخذت اسبانيا المتسلحة بالنفاقين المسيحي والسياسي تستولي على السواحل لضعف الحكومات عن حمايتها ، واضطر ابـو حمو الثالث سنة 918 الى الاحتماء بها فأبت الامة هذه الاهانة ، وكان بربروس قـد ملك الجزائر ، فاستنجدته ، وأصبح آل زيان بـين الاتراك والاسبان .

ونفر التلمسانيون من قساوة الاتراك ، فاداروا وجوههم شطر فاس . واستنجدوا محمد الشيخ السعدي ، فاحتل تلمسان ، واخرج ابا زيان احمد ، وكانت اضطرابات حاول أثناءها أخوه مولاي الحسن استرجاع ملك سلفه ، فلم يحسن السيرة ، وخلعه العلماء ، فلحـق بوهران حوالي سنة 961 ثم مات بالطاعون سنة 964 وثبتت قـدم الاتراك بتلمسان بعدما احتلوها سنة 957 وقال ابو راس : سنة 956

وهكذا انتهت دولة آل زيان بعدما عاشت ما بين سنتي 633ـ957 اربعا وعشرين وثلاثمائة سنة ، ويقول ابو راس : أن أمدها : 291 وقيل 295 وليس بشيء .

وقد افترق بنو عبد الواد بعد ذهاب ملكهم في الاوطان ، قال أبو راس : « ويقال ان منهم بني شعيب وشوشاوة واولاد موسى في العطاف وفرقة بجبل اوراس » اهـ .

والمطلع على فصول هذا الباب وما قبله لا يحوجنا الى بسـط اسباب سقوط هذه الدولة العامة وعللها الخاصة ، فانها لم تزل منذ نشأتها تصطلي بنار الحروب الداخلية والخارجية ، فمن غارة مرينية الى حرب حفصية ومن مناهضة مغراوية أو توجينية الى منافسة زيانية ومن

دسيسة سويدية الى مشاقة عامرية ومن نفاق اسباني الى غلطة تركية ، ولا ظل في التاريخ العام لدولة صغيرة كهذه منيت بمثل ما منيت به وامتدت حياتها مثلها ؟

وآخر هذه الدولة جدير بقول محمد الفازازي يصف حياة الاندلس في القرن السابع :

الروم تضرب في البلاد وتغنم والجور يأخذ ما بقي والمغرم
والمال يورد كله قشتالة والجند يسقط والرعية تسلم
وذو والتعين ليس فيهم مسلم الا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها الله يلطف بالجميع ويرحم !

١١ ـ الحركة العلمية والادبية بالجزائر البربرية

نهضت الدول البربرية بالعلوم والآداب نهوضا رغب المفكرين في الرحلة الى ملوكها ، وكانت الدول الاوربية قد ملكت على المسلمين صقلية واغلب الاندلس ، فارتحل رجالها الى تونس وبجاية وتلمسان وفاس ، وبعد بني عبد المؤمن ظهر الحفصيون والزيانيون والمرينيون ، فكانت منافستهم في تقريب العلماء من مجالسهم تساوي منافستهم في ضخامة السلطان وامتلاك الاوطان فعمت المعارف المدن والقرى وكرع من مناهلها العربي والبربري ، ومن تصفح كتب التراجم ورأى كثرة المنسوبين الى القرى الصغيرة والقبائل البدوية حكم بعموم هذه النهضة وانتظام سيرها في طريق الرقي غير متأثرة بالانقلابات السياسية والنتائج الحربية ، فما استجدت دولة الا واستجدت قوى هذه النهضة ، وقد بلغت غايتها في القرن الثامن ، واخذت تتقهقر منذ القرن التاسع .

ذكر ابن قنفذ في الفارسية ان ابا زكريا الاول ترك من الكتب

سنة وثلاثين ألف سفر ، هذه عناية مؤسس الدولة فما بالك بمن بعده ؟ وذكر ابن ابي زرع ان سانجة ملك الاسبان وفد سنة 684 على يعقوب ابن عبد الحق يخطب سلمه فصالحه على ان يبعث له بما في بلاده من كتب المسلمين ، فبعث اليه بثلاثة عشر حملا .

وقد ابتنى سلاطين هذه الدول المدارس ووقفوا عليها الاوقاف . وجعلوا من مجالسهم حظا لمناظرة العلماء بين أيديهم ، واتخذوا الاطباء والمفاتي والشعراء فنهضوا بجميع فنون العلم وظهرت المؤلفات في مختلف المواضيع ، وقلد المغاربة الاندلسيين في موسيقاهم وموشحاتهم وأزجالهم ، فاحسنوا التلقيد .

وانشأ بتلمسان مدارس ابو حمو الاول وابنه ابو تاشفين وابو حمو الثاني وابنه احمد العاقل ، وانشأ خامسة بالعباد ابو الحسن المريني ، واول مدرسة اسست في الاسلام كانت بنيسبور اواخر القرن الرابع ، واول من عمم بناء المدارس في المدن الوزير نظام الملك المتوفي سنة 485 .

وذكر ابن خلدون في المقدمة صناعة التعليم ، فاستحسن تعليم تونس وبجاية وتلمسان ، وانتقد تعليم فاس بأنه لا يكسب ملكة ولا يفتق لسانا ولا يقرب مطلوبا .

قال الغبريني في ترجمة ابي بكر بن سيد الناس الاشبيلي نزيل بجاية المتوفي بتونس سنة 659 : « كان اذا قرأ الحديث يسنده الى النبي (ص) ثم يأخذ في ذكر رجاله من الصحابي الى شيخه كل واحد باسمه ونسبه وصفته وولادته ووفاته وحكايته ان عرفت له ثم يشرح الحديث ويتعرض لما فيه من فقه وخلاف عال ودقائق ورقائق ، كل ذلك بفصاحة لسان وجودة بيان » اهـ .

ووصف اقراء ابي القاسم ابن اندراس المرسي نزيل بجاية المتوفي

بتونس سنة 674 لكتب الطب ، فقال : « وكانت الابحاث في كل ذلك جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجلية » اهـ •

وانتقد القاضي ابو عبد الله المقري التلمساني المتوفي بفاس سنة 759 تعليم زمانه فنقل عن شيخه الابلي قوله : « انما أفسد العلم كثرة التواليف وانما أذهبه بنيان المدارس » • وشرحه بما محصله ان كثرة التآليف تجعلها سهلة التناول ، فتضعف الرغبة ويقل التحصيل ، وحياة المدارس يأباها كبار العلماء ، فيخسرهم الطلبة ، ثم قال : « وقد اقتصر أهل هذه المائة على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه ، وافنوا أعمارهم في فهم رموزه وحل لغوزه • ولم يصلوا الى رد ما فيه الى اصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح » اهـ •

ومن أراد الوقوف على الكتب المقروءة يومئذ فعليه بمجاميع الاسانيد • وقد ذكر الغبريني طائفة منها آخر عنوان الدراية • ولا نقر الابلي على انكار فضل المدارس • فان التعليم لم يكن قاصرا عليها حتى يخسر الطلبة مواهب من لم يوظف بها • وما دام التعليم الحر في الامة فلن يضيرها التعليم الحكومي •

وفحول العلماء ونبغاء الادباء بهذه القرون السابع والثامن والتاسع متفرقة أخبارهم في الرحلات وكتب التراجم والسير • والاسفار عن مبلغ المعارف في هذه الاعصار يحتاج الى أسفار • ناهيك بوسط يخرج أمثال لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون وابي حيان النحوي وابن عصفور واكثر ايمة العلوم انما هم من أهل هذه القرون •

انجبت تنس مثل ابراهيم بن يخلف الذي استقدمه يغمراسن مرارا الى تلمسان وبلغه وفادته عليها ذات يوم فركب اليه بنفسه ورغبه في المقام لديه • واقطعه اقطاعات • قال العبدري : « وكان شيخنا

زين الدين ابو الحسن بن المنير يثني عليه كثيرا • وسألني عن الغرب فذكرت له قلة رغبة أهله في العلم • فقال لي أما بلاد يكون فيها مثل ابراهيم التنسي فما خلت من العلم » اهـ •

وانتهت رئاسة الحديث وسائر الفنون في القرن التاسع الى محمد ابن عبد الله بن عبد الجليل الحافظ التنسي المتوفي سنة 899 نقل عن احمد بن داود الاندلسي انه سئل عن علماء تلمسان • فاجاب : « العلم مع التنسي والصلاح مع السنوسي والرئاسة مع ابن زكري » اهـ • والف للمتوكل « نظم الدر والعقيان في ذكر شرف بني زيان » وهو في جزءين كبيرين • من تامله علم مكانة الرجل في العلم والكياسة ونصح سلطانه وتنبيهه الى ما فيه صلاح الدولة باسلوب لا يشعر معه السلطان بتداخل في شؤنه أو انتقاد لحكومته • واسم الكتاب قاصر جدا عن مغزاه • ولعل قصوره مما اقتضته كياسة المؤلف •

وانجبت برشك ابا زيد عبد الرحمن واخاه ابا موسى عيسى ابني محمد بن عبد الله بن الامام • ارتحلا الى المشرق • وتركا به صيتا • واستقرا بتلمسان • فبنى لهما ابو حمو الاول المدرسة المعروفة بهما داخل باب كشوط • وعنهما اخذت صناعة التدريس بتلمسان •

وكان ببقية المدن اسر تتوارث العلم كالمقريين والمرزوقيين والعقبانيين بتلمسان وكالبادسيين والقنفذيين بقسنطينة • ذكر العبدري في رحلته حسن بن بلقاسم بن باديس واثنى عليه ، وولي القضاء هو وحسن بن خلف الله بن باديس واشتهر من بني قنفذ ابو العباس احمد بن حسين بن علي الخطيب المتوفي سنة تسع او عشر وثمانمائة ، كان قاضيا خطيبا كثير التآليف في مختلف الفنون ، منها الوفيات والفارسية ، وقد أخذ الزركشي في كتابه تاريخ الدولتين كتاب الفارسية بنصها لم يحذف منها الا قليلا ، ولم يصرح بالعزو اليها الا

نادرا ، ومع ذلك لما ذكر وفاته عرفه بقوله : « شارح رسالة الشيخ ابن ابي زيد وشارح جمل الخونجي وغيرهما » اهـ • هكذا اغفل ذكر الفارسية وهي بين يديه !

وكان حظ زواوة من هذه الحركة وافرا جدا ، فكان من مليكش كاتب الحكومة الحفصية محمد بن عمر بن علي بن ابراهيم المتوفي بتونس سنة 740 أثنى عليه لسان الدين بن الخطيب في الاكليل • وأثبت له شعرا جيدا ، وكان من مشدالة ناصر الدين منصور بن احمد المتوفي سنة 731 له رحلة الى المشرق ، وكان يحمل العلوم العقلية والنقلية ، وانشد فيه بعض من لقيه متمثلا :

ليس على الله بمستنكر ... ان يجمع العالم في واحد

وذكر ابن خلدون في المقدمة انه مجدد صناعة التدريس ببجاية ، وقال فيها أثناء حديثه عن الموشحات والازجال : « واشتهر ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة :

يد الاصباح قدحت زناد الانوار من مجامر الزهر

وابن خزر البجائي وله من موشحه :

ثغر الزمان موافق ... حياك منه بابتسام » اهـ

12 ــ الحياة الدينية بالجزائر البربرية

نصر عبد المؤمن وبنوه عقيدة الاشعري • فثبت أهل المغرب بعدهم عليها • وحملوا الناس على الكتاب والسنة في أخذ الاحكام والوعظ والتذكير • فعادوا بعدهم الى مذهب مالك (رض) والى طرق الصوفية متناسين النظر في الكتاب والسنة على وجه الاستقلال في الاستدلال والاهتداء بهما في مكارم الاخلاق وفضائل الاعمال •

ولم تزل بقية في القرن السابع لا تهتدي بغير الكتاب والسنة مباشرة • منهم في الفروع ابو زكريا يحي بن علي بن سلطان اليفرني تلميذ ابن عصفور واحد شيوخ ابني الامام • ذكر له المقري في نفح الطيب مسائل خالف في بعضها مالكا وفي بعضها الاجماع • ووفاته بتونس سنة 700 ومنهم في التصوف عبيد الله بن احمد الازدي الرندي نزيل بجاية المتوفي بها سنة 691 •

قال الغبريني : « وكان عبيد الله متنزها عن مقالة المتلبسين وشعوذة المشعوذين غير مسامح في شيء مما يخالف ظاهر الشريعة ولا عامل على شطحات المتصوفة • ولقد مضى بمسجده ابو الحسن الفقير المعروف بالطيار مع صحب له من الفقراء • ودخلوا عليه في وقت يحيا فيه المسجد • فجلسوا من غير تحية ، فأمرهم بالتحية ، فقال له الطيار ولذكر الله أكبر ، وامتنع من الركوع ، ووقع بينه وبينهم في هذا كلام ، فأصروا على مقالهم وحالهم ، فنفوا الى المغرب ، والنفي في أمثال هؤلاء قليل ، وانما الواجب أن يعاملوا باسوا التمثيل ، وهؤلاء جملة أغبياء لا علم ولا عمل و لاتصوف ولا فهم • وهم مع ذلك يجهلون الناس ويعتقدون ان مبناهم على اساس » اهـ •

ونقل صاحب نفح الطيب عن القاضي ابي عبد الله المقري ان العلماء كلما ابتعدوا عن عصر السلف اقتربوا من الامراء حتى صار جمهورهم يتطارحون عليهم • وهم يبتذلونهم في خدمة أغراضهم • ثم قال يصف الحياة الدينية : « وقد قص علينا القرآن والاخبار من أمر اليهود والنصارى ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا • سمعت العلامة الابلي يقول لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل فيهم لانا أتينا أكثر مما أتوا • يشير الى افتراق هذه الامة على أكثر مما افترقت عليه بنو اسرائيل • واشتهار بأسهم بينهم الى يوم القيامة حتى

ضعفوا بذلك عن عدوهم ، وتعدد ملوكهم لاتساع اقطارهم واختلاف انسابهم وعوائدهم حتى غلبوا بذلك على الخلافة . فنزعت من أيديهم وساروا في الملك بسير من قبلهم مــع غلبة الهوى واندراس معالم التقوى » اهـ .

وهذه أخبار ترشد الى أن من العلماء من دينه ارضاء شهوات السلاطين ، وان من السلاطين من دينه احترام ما تحترمه العامة من عادة أو قبر أو شيخ مشهور بالولاية ، وغرضنا التنبيه لا الاستقصاء :

كان من مشاهير صلحاء تونس ابو محمد المرجاني المتوفي سنة 699 فكان ابو حفص عمر يخدمه . ورام ان يلي عهده ابنه عبد الله وهو صغير . فنكر عليه الموحدون ذلك . فاستشار المرجاني فاشار عليه بتولية ابي عصيدة محمد بن الواثق . فقبل اشارته وكانت أم أبي عصيدة قد فرت حاملا به يوم مقتل الواثق الى زاوية المرجاني . فولد في بيته . وعق عنه ، واطعم عصيدة الحنطة يوم سابعه . ولولا مكانة المرجاني ما نزل ابو حفص على حكم اشارته .

ولما نزل يوسف المريني عــلى تلمسان في حصاره الطويل خرج اليه ذات يوم برسالة من صاحبها ابو الحسن علي بن يخلف اخو الامام ابراهيم بن يخلف ، فأقام لديه ، ومات ، فشــهد السلطان يوسف جنازته ، ونكر وصول الخيل التي خرجت معه الى ضريح ابي مدين ، وأمر بوضع خشبة تنتهي اليها الخيل ، وهكذا الافراط في احترام الاموات في حين أن التلمسانيين يموتون كل يوم جوعا وقتلا بغير حق .

وذكر صاحب الفارسية ان ابا يحي ابا بكر كــان في نزهــة في رياضه الكبير سنة 747 فادخل عليه رسم رؤية هلال رجب على عادة قضاة الحضرة ، فقال لا اله الا الله ، دخل رجب ، وكرر ذلك ، ثم قام وتطهر واخلص التوبة ، وهذا من احترام العادة دون الدين ، لانها حرمت شرب الخمر في رجب وشعبان ورمضان خاصة .

وقال ابن خلدون : « ان ابا عنان لما احتل تلمسان واسر عثمان الثاني احضر الفقهاء وارباب الفتيا ، فافتوا بحرابته وقتله ، فامضى حكم الله فيــه » اهـ • وهــذا حكم الدينار لا حكم الله ، ويرحم الله القائــل :

بنو الدهر جاءتهم احاديث جمة فما صححوا الا حديث ابن دينار

وفي سنة 757 زار ابو عنان أحمد بن عاشر نزيل سلا المتوفي بها سنة 765 ، فامتنع من رؤيته ، فحزن ابو عنان لحرمانه من الاجتماع بالشيخ ، وهو الذي أصر على محاربة ابيه السلطان ابي الحسن ، وتغلب على ملكه ، وعد عثمان الثاني من أهل الحرابة مع انه بايعه قومه واعترف هو بسلطنته •

وفي سنة 767 كانت على ابي حمو الثاني الهزيمة الشنعاء ناحية بجاية ، وسبيت حظاياه منهن ابنة يحي الزابي ، وكانت أعلقهن بقلبه ، قال ابن خلدون : « وخرجت في مغانم الامير ابي زيان ، فتحرج من مواقعتها ، حتى اوجده أهل الفتيا السبيل الى ذلك لحنث زعموا وقع من ابي حمو في نسائه » اهـ •

وكان من صلحاء تلمسان الحسن بن مخلوف المزيلي الراشدي المتوفي سنة 857 قال التنسي : فكان السلطان احمد العاقل يكثر من زيارته ، ويعتمد عليه في أموره ، وحكى ابن مريم في البستان انــه كان يكثر الشكاية اليه بعمارة الزردالي الثائر عليه ، فقال له ذات يوم اذهب الى موضعك ، فقد قضى الله الحاجة فلما عاد السلطان أتي له برأس عمارة •

ومن جزئيات الحياة الدينية ما حكاه صاحب نفح الطيب عــن القاضي ابي عبــد الله المقري • قال : انشــدت يوما الابلي قــول ابن الرومي :

أفنى وأعمى ذا الطبيب بطبه ... وبكحله الاحياء والبصراء
فاذا مررت رأيت من عميانه ... أمما على أمواته قراء

فاستعاذني حتى عجبت منه مع ما اعرف من عدم ميله الى الشعر ، فقال أظننت اني استحسنت الشعر ؟ فقلت مثلك يستحسن مثل هذا ، فقال انما تعرفت منه قدم قراءة العميان على المقابر ، وكنت أراها حديثة العهد » اهـ •

وههنا يتذكر المرء قول ابي مدين : « بفساد العامة تظهر ولاة الجور وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون » اهـ ولا يتسع للتدجيل غير ميدان التصوف المبني على الدعاوي والنواميس الظاهرية فكثر المنتمون لطريقتي ابي مدين وابي الحسن الشاذلي • على ان الشاذلية تفرعت عن المدينية • وسند المدينية عندهم هو ابو مدين عن ابي الحسن بن حرزهم عن القاضي ابي بكر بن العربي عن الغزالي عن امام الحرمين عن ابي طالب المكي عن ابي محمد الجريري عن الجنيد عن سري السقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي بن ابي طالب (ض) عن النبي (ص) وهذا السند مشتمل بزعمهم على المصافحة ولباس الخرقة ، وسواء كان السند صحيحا أم مفترى فان العبرة بالاقتداء لا بالانتماء •

وانتشار طرق الصوفية بين العامة في عصر دليل على تقصير علمائه في احياء كتاب الله وعلى ضعف الحكومة عن بسط نفوذها في الامة مباشرة ، أو تقول ان سيادة المتصوفة دليل على انحطاط الامة سياسيا وعلميا ودينيا • وفي الصحف السابقة ما يجلي لك هذه الحقيقة • قال ابو بكر الشاشي :

لحا الله دهرا سدتمو فيه أهله ... وأفضى اليكم فيهم النهي والامر
فلم تسعدوا الا وقد أنحس الورى ... ولم ترأسوا الا وقد خرق الدهر

وفي القرن التاسع انتشرت بالمغرب الطريقة اليوسفية المنسوبة الى الشيخ احمد بن يوسف الهواري وطنا الوابودي نسبا الملياني وفاة • كان في حياته ممن يعتقد فيـه الصلاح والخير يلقن الاسماء للعامة والنساء ، وكان أشد أصحابه غلوا فيه رجلا يدعى بن عبد الله • ادعى فيـه النبوة وتابعه الاجلاف من البوادي وأهل الاهواء من الحواضر •

وخشيت الحكومة الزيانية من اتساع نفوذ الشيخ ابن يوسف • فأمر السلطان بقتله أو اشخاصه اليه • وكتب عامل وهران الى قائد هوارة بذلك فأبى القائد حمله الى العامل • وأمره بالخروج • قال ابو راس : « فلما ارتحل الشيخ من وطنه قال شوشوا علينا شوش الله عليهم من البر والبحر • فلم يكن الا قليل حتى أخذ الكفرة وهران والاتراك تلمسان • واعترض الشيخ في طريقه محاربون من سويد • فأخذ ثلاثة أحجار • وحكها بيـده فصارت رمادا • وقال لهم ان تعرضتم لنا يسحقكم الله مثل هذه الاحجار • فأتوه تائبين • وكراماته لا تحصى وتوفي سنة 931 وقبره بمليانة من أعظم المزارات » اهـ •

واذا كان تغلب الكفرة على المسلمين كرامة فما هي الاهانة ؟

نسأل الله فكرة تلزم العقـــل الى حشمة تحوط المروة

13 — سيادة البربر بالبحر الرومي

في القرن الخامس أخذت القوة الاسلامية البحرية تتراجع بالمشرق لضعف دولة مصر الفاطمية بخروج المغرب عنها وضعف دولة بغداد باستبداد سلاطينها عليها وتحارب المتجاورين منهم • وكان السلاطين السلجوقيون معنيين بالجهاد فضايقـوا ملك القسطنطينية ألكسيس كمنانس ، فاستنجد أروبا • ولكن أخلاق ملوكها كانت أسوأ من أخلاق

سلاطين المشرق فلم ينجدوه • فاتخذ الدين آلة وأثار الحمية المسيحية على الاسلام •

وهنالك قام بابا رومة ورؤساء الكنائس بخطب اجادوا فيها وضع الروايات عن اضطهاد المسلمين للمسيحيين بالمشرق ، وحثوا أممهم على امتلاك بيت المقدس • فتجندوا • وشعارهم صليب أحمر في صدورهم وعلى أسلحتهم وأمتعتهم وراياتهم ، وتواعدوا في ربيع الاول سنة 489 اللقاء بالقسطنطينية ، ومنها ركبوا الى آسيا واشتبكوا مع المسلمين بحروب عرفت بالحروب الصليبية • ثم ظهر التتر ، فاتحدوا مع الصليبيين على الاسلام ، وانتهت هذه الحروب بخروج الصليبيين من سواحل الشام سنة 690 ملكوا بيت المقدس فيما بين سنتي 492_583 •

واحتفظ البربر بسلطانهم على ناحية البحر الغربية حتى تضاءل نفوذهم بالاندلس منتصف القرن الثامن ، فأخذت كفة أروبا البحرية في الرجحان ، واقتسم الاسبان والبرتغال سواحل المغرب أوائل القرن العاشر ، فكان للاسبان سواحل الجزائر وما يليها شرقا ، فتغلبوا عليها حتى آخرجهم الاتراك ، وسنفرد بابا لسلطة الاسبان بالسواحل الجزائرية في الكتاب الرابع ان شاء الله •

قال ابن خلدون آخر حديثه عن الاساطيل في الفصل الثالث من الكتاب الاول : « بطلت وظيفة قيادة الاساطيل من المشرق ، وبقيت مختصة بالمغرب • فكان الجانب الغربي من هذا البحر موفور الاساطيل لم يتحيفه عدو ، وبلغت الاساطيل ايام لمتونة الى المائة ، وقيادتها لبني ميمون ، ومنهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم ، واقام هذه الخطة على اتم ما عرف واعظم ما عهد ، وكانت قيادتها ايام ابنه يوسف لاحمد الصقلي ، واصله من سدويكش المستوطنين جربة ، فجلى في جهاد

النصارى ، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين ، وانتهت الاساطيل على عهده في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ، ولعدم عناية دول مصر والشام بالاساطيل اوفد صلاح الدين بن ايوب على يعقوب المنصور عبد الكريم ابن منقذ برسالة يستمده الاساطيل لمنع نصارى أروبا عن امداد اخوانهم بثغور الشام ، لكن لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين ، فخابت الرسالة » .

« ولما هلك يعقوب المنصور واعتلت الدولة بعده استولت أمم البحر ، وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من هذا البحر . فكثرت الجلالقة على الاكثر من بلاد الاندلس ، والجؤا المسلمين الى سيف فيه أساطيلهم . واشتدت شوكتهم . وتراجعت قوة المسلمين فيه . وتساوت القوتان ايام ابي الحسن المريني . ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين لضعف الدولة وغلبة البداوة وانقطاع العوائد الاندلسية . فرجع النصارى الى دينهم المعروف من البصر باحوال البحر وغلب الامم في لجته . وصار المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان او قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا . وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الاساطيل بالانشاء والركوب معهودا لما عساه تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية . والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله » اهـ بتصرف .

وكانت بجاية أهم الثغور البحرية بالجزائر البربرية . قال الغبريني في عنوان الدراية : « كانت بجاية بلدة غزاة . وكان غزاة قطعها يدخلون الى دواخل الجزر الرومانية وغيرها . ويسوقون السبي الكثير منها . وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها .

وهناك يخمس ويقع الفصل فيه • ولم يزل الحال على ذلك ، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين ان يباع بيضا وان من الروم بسوداء من الوخش » اهـ •

وقال ابن خلدون اواخر حديثه عن الدولة الحفصية ما ملخصه :
« ملك الافرنج جزائر البحر مثل دانية وسردانية وميورقة وصقلية ثم سواحل الشام وبيت المقدس ، وعادت سورة التغلب لهم ، وزاحمتهم أساطيل بني مرين اياما • ثم فشل ريح الفرنجة • وافترقوا طوائف في أهل برشونة وجنوة والبنادقة وغيرهم • فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم •

وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ، ويصطنعون الاسطول ويتخيرون له الابطال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة ، فيخطفون ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة ، فيظفرون بها غالبا ، ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية باسراهم وتضج طرق البلد بصخب السلاسل والاغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ، ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه او يكاد ، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة ، وعجزوا عن الثأر به ، وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان احمد الحقصي ، فصم عن سماعها • فتداعوا للأخذ بثأرهم ، واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم أو يجاورهم من أمم النصرانية ، وأقلعوا من جنوة ، فحطوا بمرسى المهدية منتصف سنة 792 وطرقوها على حين غفلة • ونصبوا عليها الحصار • فأمد المدينة السلطان حتى انجلى عنها الحصار » اهـ •

وقائد اساطيل بجاية لعهد احمد الاول محمد بن ابي مهدي •

كان زعيم البلد متقدما على أهل الشطارة والرجولية من رجل البلد ورماتهم • واسند اليه السلطان وزارة ابنه محمد لما وليه ببجاية • فاحسن القيام بها حتى مات الامير محمد وخلفه ابنه احمد • فكفله القائد مستبدا عليه • ومات هذا القائد ابن ابي مهدي سنة 805 فخلفه ابن اخته القلسطوني بامر السلطان عزوز • وهذا آخر اخبار كتاب الفارسية •

وكان لدولتي الموحدين المؤمنية والحفصية علاقات تجارية مع أروبا الجنوبية • ولما ملك الامير أحمد بجاية سنة 767 هنأه حاكم ولايات ايطاليا المتحدة وطلب منه تجديد المعاهدة التجارية مع دولته • فاسعفه بها • وفي سنة 844 كان لجمهورية البندقية خط مواصلة مع المعرب • صنعت له مراكب خاصة سميت « مراكب بلاد البربر » تخرج منتصف يولية كل سنة • فتقيم ثمانية ايام بطرابلس ومثلها بجربة ونصف شهر بتونس • واربعة ايام ببجاية ومثلها بالجزائر وعشرة ايام بوهران واياما بهنين •

وكان التجار الاروبيون علة الاضرار بالسواحل المغربية • ففي سنة 668 نزل لويس التاسع ملك فرنسا على تونس مدعيا ان لتجار مملكته قبل عامل المهدية ثلاثمائة الف دينار من غير مستند شرعي • وفي بعض نسخ ابن خلدون ثلاثمائة دينار وكانت لذلك أهوال مشروحة في غير ما كتاب •

وفي سنة 679 ثار بقسنطينة عاملها ابن الوزير • وكاتب ملك ارغون يستمده ويعده القيام بدعوته • فانتهز الملك الفرصة • ونزل اسطوله مرسى القل بعد قتل ابن الوزير فارتد على عقبه •

وفي سنة 686 غدر النصارى بالقالة • فثلموا اسوارها • ونهبوا أموالها واسروا أهلها • واحرقوا بيوتها • وفي سنة 689 حصروا بونة •

واسروا من ضاحيتها اشخاصا • وفي سنة 801 نزلوا عليها في نحــو سبعين قطعة • واقلعوا خائبين • ودخلوا مرسي القل فسلم الله منهم ونهبوا دلس •

ومن غدر النصارى ما حكاه الزركشي • قال ما ملخصه : « في سنة 827 بعث ملك النصارى القطلاني يطلب الصلح من الســلطان عزوز ، فوجد الرسول السلطان بالمغرب • فاخبر ملكه • فبعث اليه بعمارة ملكت قرقنة • وجاء السلطان ففاوضهم في افتدائها • ونزل بعضهم بعد الامان لمفاوضته • فقال المرابط بن ابي صعنونة : ليس لخائن أمان • فابى السلطان نقض عهده • ولم يتفقوا على ثمن الفدية ، فأقلع النصارى الى بلادهم بأهل قرقنة مأسورين » اهـ •

وحديث غدر النصارى بالسواحل وعبثهم بالمساجد طويل عريض ، واذا اكثر الاروبيون من تنقيص المسلمين في غزواتهم البحرية ورموهم باللصوصية فذلك مضرب المثل : « رمتني بدائها وانسلت » واذا جاراها كثير من اغرار شبابنا في هذه السبة فهو كما قيل :

الناس اعوان من واتته دولتــه   وهم عليه اذا خانته اعوان

تم تحرير الكتاب الثالث والحمد لله في رمضان سنة 1350 هـ

انتهى كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث •

بعض ما في الفصول من رجال ونساء

441 محكم الهواري
452 البزار ، ابو سهيل، ابو عبيدة
453 ابن الصغير ، ابن قريش
498 ابن قاضي ميلة
504 السفياني ، الحلواني
504 ابو عبد الله الشيعي
517 صاحب الحمار
520 الصوفي القيرواني
527 ابو القاسم بن هاني
536 حكاية السلجاماسي
539 ابراهيم الشيباني محمد بن يوسف
539 ابن عمران ابن سليمان ابن الجزار
540 يحي بن عمر . سعيد بن محمد
540 ابن خيرون. زيد بن سنان
541 متنبي تلمسان
567 الجازية
611 فتاة باغاية
612 ذات الكلب
627 امراة تاشفين
638 ابن النحوي. المخزومي. الريفي
644 ابو محمد الاشيري
649 فيونتشي الايطالي
653 عبد الله بن يس
658 زينب الهوارية
673 محمد بن تومرت
674 البيذق
683 ابن طاهر البجاءي
694 ابن فرسان
709 الحفيد بن رشد . ابو عبد الله الكومي الندرومي
710 الفقون
711 الاشعري
715 الجنيد ابو القاسم
720 ابو مدين شعيب الاندلسي
721 ابن عربي . الشاذلي . ابن سبعن
735 سعادة
736 ابن الازرق
758 ابن مرزوق المسيلي
802 ابن هيدور
825 هلال القطلوني
825 موسى بن علي الكردي
825 السنوسي . الزردالي
827 ابناء مقن . ابن خطاب . ابن خميس . ابن خلدون
845 طائفة من الوتشريسيين
867 التنسي ، باديس ، قنفذ
868 الميكش ، المشدالي
869 ابناء الامام
869 الفرني ، الرندي
873 احمد بن يوسف الهواري

بعض ما في الفصول مـن مدن وقرى

434 تامغيلت . ايزمامة . كرام
435 يلل . تامزغران . قلعةهوارة
قلعة دلول . ازكى .
451 تيلغت
458 تابغليت . سكيدال. تاسلونت
461 تيارات تاقدمت (374 ايضا)
476 البويرة . هاز. بورةالصحاري
477 موزية . الرمانة . تاورست
478 متيجة . قزرونة
478 مدكرة . الخضراء . واريفن
481 قارية . مليانة 370 (ايضا)
482 جليداسن شلف تاجنة غليزان
482 سوق ابراهيم . تنس
483 العلويين ، ترناتا ، ارشقول
484 جراوة
495 مجانة . بشرة . تيفاش .
باغاية .
496 تيجس ، بلزمة
496 نقاوس ، مقرة، ادنة ، طولقة
497 بادس ، الغدير ، بسكرة 280
497سطيف ، ميلة
504 ايكجان
508 مرماجنة ، الاربس
513 وهران
519 باتنـة
525 المسيلة
542 عنابة ، القلـة
554 ماوس ، دار ملول ، الباب ،
555 الخميس ، الاثنين
584 الاغواط
596 عين مليلة
644 اشير
645 القلعـة
647 بجايـة
674 ملالـة
665 تاقررت 706
706 البطحاء
733 فرفار
776 بنو ورار
778 تقرت ، تماسين ، ورقلة
787 قلعة بني عباس
814 تاونت
815 هنين ، ندرومة
816 المعسكر ، فكان
817 عمي موسى ، الجزائر
818 تلمسان
842 برشك ، مازونة
845 تاوغزوت ، تافرقينت
857 تيزيـل

مآخــذ الكتــاب

نثبت هنا للقارىء بعض الكتب التي استمددنا منها هذا الكتاب مقتصرين على اهمها ، غير مطيلين بذكر كل الكتب التي التقطنا منهــا عند المطالعة بعض الفوائد العزيزة الوجود .

ما كان في هذا الكتاب من رسوم فبعضه مأخوذ من بعض الكتب الفرنسية المذكورة من بعد . والبعض الآخر مأخوذ من دار الآثار بالجزائر. ونقود ملوك البربر ارسل الينا بطوابعها السيد احمد توفيق المدني شكر سعيــه .

المــآخذ العربيــة

1	الاخبار الطوال	لابي حنيفة الدينوري
2	اخبار الائمة الرستميين	لابن الصغير
3	الازهار الرياضية في ائمة وملوك الاباضية	لسليمان الباروني
4	اخبار ملوك بني عبيد	لمحمد بن علي بن حماد
5	اخبار المهدي بن تومرت	للبيذق
6	المعجب في تلخيص اخبار المغرب	لعبد الواحد المراكشي
7	الكامل	لابي الحسن بن الاثير
8	الانيس المطرب القرطاس	لمحمد بن ابي زرع
9	الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية	
10	واسطة السلوك في سياسة الملوك	لابي حمو الثاني
11	اعلام الاعــلام	للسان الدين بن الخطيب
12	الاحاطة في اخبار غرناطة	» » »
13	اللمحة البدرية في الدولة النصرية	» » »
14	الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية	» » »
15	رقم الحلل في نظم الدول	» » »
16	بغية الرواد في ذكر الملوك من بني الواد	ليحيى بن خلدون
17	الفارسية في مبادي الدولة الحفصية	لابن قنفــذ
18	الوفيــات	» »
19	تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية	لمحمد الزركشي
20	تاريخ الموحدين والحفصيين	لابن الشماع
21	نظم الدر والعقيان في ذكر شرف بني زيان	للحافظ التنسى

22 الحلل السندسية في الاخبار التونسية — لأبي عبد الله الوزير
23 الخلاصة النقية في أمراء افريقية — لمحمد الباجي
24 اخبار الدول وآثار الاول — لاحمد بن يوسف الدمشقي
25 نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب — لاحمد المقري
26 بهجة الناظر — لعبد القادر المشرفي
27 تحفة الزائر — للامير محمد
28 خلاصة تاريخ العرب (مترجم) — لسيديو
29 نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار — لمحمود مقديش
30 فتوح البلدان — لاحمد البلاذري
31 البلدان — لاحمد واضح اليعقوبي
32 معجم البلدان — لياقوت الحموي
33 الاستبصار في عجائب الامصار
34 تقويم البلدان — لأبي الفداء
35 الرحلة العبدرية — لمحمد العبدري
36 الرحلة العياشية — لأبي سالم العياشي
37 الرحلة الورتلانية — للحسين الورتلاني
38 الاحكام السلطانية — للماوردي
39 تقييد في الانساب — لعبد القادر الراشدي
40 طبقات علماء افريقية — لابي العرب التميمي
41 طبقات علماء افريقية — لمحمد بن الحارث الخشني
42 عنوان الدراية — لابي العباس الغبريني
43 التكملة لكتاب الصلة — لابي عبدالله بن الابار
44 الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب — لابراهيم بن فرحون
45 نيل الابتهاج بتطريز الديباج — لاحمد بابا التنبكتي
46 البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان — لمحمد بن مريم
47 طبقات الشافعية الكبرى — لعبد الوهاب السبكي
48 اخبار العلماء بأخبار الحكماء — للوزير علي القفطي
49 عيون الانباء في طبقات الاطباء — لابن أبي اصيبعة
50 الرسالة القشيرية — لابي القاسم القشيري
51 رسائل اخوان الصفاء
52 التصوف الاسلامي العربي — لعبد اللطيف الطيباوي
53 شرح مقصورة حازم — للشريف الغرناطي
54 سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر — لعلي بن معصوم

55 شرح قصيدة نفيسة الجمان في فتح وهران لمحمد ابي راس
56 نحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب لاحمد بن عمار
57 المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب لعبد الله البكري
58 العبر وديوان المبتدأ والخبر
59 المؤنس في اخبار افريقية وتونس لابن ابي دينار القيرواني
60 الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب لأبي القاسم الزياني
61 الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى لاحمد الناصري السلاوي
61 تاريخ دول الاسلام لرزق الله منقريوس
62 موجز التاريخ العام للجزائر لعثمان الكعاك

المآخذ الفرنسية

1 Kitab El Adouani *(traduction)* Féraud
2 Tlemcen L'Abbé Bargès
3 Le Djurjura S. A. Boulifa
4 Guide de Constantine P Alquier
5 Les siècles obscurs du Maghreb E. F. Gautier
6 Histoire d'Algérie S. Gsell - G. Marçais-G Yver
7 Les Arabes en Berberie G. Marçais
8 Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale E. Mercier
9 Recherche sur l'origine des peuples Carette
10 Description générale de l'Afrique Marmol
11 Traités de Paix concernant les relations avec les Chrétiens D. Mas. Latrie
12 Catalogue des monnaies Musulmanes H. Lavoix
13 Histoire de l'afrique septentrionale par Mercier
14 Les origines berbères — Rinn
15 Cirta — Vars
16 Histoire générale de l'Algérie — Garrot
17 L'antiquité — Malet
18 L'algérie dans l'antiquité — Gsell
19 Campagne de J. César en afrique — le Colonel Moinier
20 Le problème nord-africain — Peyronnet

فهرس

صفحة		صفحة	
الكتاب الثاني ـ في العصر العربي		**الباب الثالث ـ في الدولة الادريسية**	
الباب الاول ـ في غزو العرب لافريقية وتاسيس امارتهم فيها		تمهيد	93
جزيرة العرب	9	تأسيس الدولة الادريسية	96
العرب قبل الاسلام	10	الحكومة الادريسية	98
العرب بعد الاسلام	15	العلويون بالمغرب الاوسط	101
العرب في افريقية	21	ممالك بني محمد بن سليمان	105
العرب في الجزائر	24	سقوط الدولة الادريسية	112
الجزائر تحت ملوك البربر	28	**الباب الرابع ـ في الدولة الاغلبية**	
الفتح العربي	34	كلمة عن الدولة العباسية	118
البربر والاسلام	36	تأسيس الدولة الاغلبية	119
الفتح العربي والحضارات القديمة	40	الحكومة الاغلبية	121
العرب والبربر بعد الفتح	43	الجزائر الاغلبية	122
ولاة المغرب من قبل الحلفاء	47	سقوط الدولة الاغلبية	126
الباب الثاني ـ في الدولة الرستمية		**الباب الخامس ـ في الدولة العبيدية**	
تمهيد	53	تمهيد	130
الخوارج	57	الشيعة الاسماعيلية بالجزائر	131
الخوارج بالمغرب	57	تأسيس الدولة العبيدية	134
الامارات الاباضية	61	الحكومة العبيدية-	137
تأسيس الدولة الرستمية	63	تيهرت العبيدية وزناتة	141
المملكة الرستمية	65	العبيديون وجبل اوراس	144
الحكومة الرستمية	68	الجزائر بين العبيديين والامويين	149
الايمة الرستمية	71	امارة بني حمدون بالمسيلة	153
الاقتصاد والحضارة	75	الجزائر الصنهاجية	157
العلوم والآداب	77	الحالة السياسية والمالية بالجزائر العربية	163
ابو عبدالرحمن بكر بن حماد التاهرتي	80	الحالة العلمية والدينية	166
الحروب والفتن	82	سيادة العرب بالبحر الرومي	170
سقوط الدولة الرستمية	86	**الباب السادس ـ في نزوح الهلاليين الى المغرب**	
تيهرت	88	تمهيد	178
		نزوح الهلاليين الى افريقية	179

صفحة

الهلاليون بالجزائر 182
نتائج النزوح الهلالي 184
الحياة الهلالية 187
الهلاليون ومواطنهم بالجزائر 192

الكتاب الثالث – في العصر البربري

الباب الاول – في القبائل البربرية الجزائرية

تمهيد 208
زناتة 208
صنهاجه 215
كتامة وزواوة 216
لواتة وتفزاوة 219
بنو فاتن 222
هوارة 224
مصمودة وبقية القبائل 226

الباب الثاني – في الدولة الحمادية

تمهيد 230
تأسيس الدولة الحمادية 231
المملكة الحمادية 234
الحكومة الحمادية 236
ملوك الدولة الحمادية 238
العرب ايام الحماديين 247
زناتة ايام الحماديين 251
الحماديون والمسيحيون 256
العمران والحضارة 259
العلوم والآداب 265
سقوط الدولة الحمادية 267
العواصم الصنهاجية بالجزائر 272

الباب الثالث – في دولة المرابطين

تمهيد 280
المرابطون 281
المرابطون بتلمسان 282
حكومة المرابطين 284
امراء المرابطين 286
سقوط دولة المرابطين 288

الباب الرابع – في الدولة الموحدية المؤمنية

تمهيد 300
تأسيس الدولة الموحدية المؤمنية 303
الحكومة الموحدية المؤمنية 306
عبد المؤمن وبنوه 309
ولاة الجزائر المؤمنية 314
ثورة ابن غانية 317
العرب في الدولة المؤمنية 322
البربر في الدولة المؤمنية 326
المسيحية والاسرائيلية 330
الاقتصاد والعمران والحضارة 332
العلوم والآداب 335
الاعتقادات والمذاهب الفقهية 337
التصوف والصوفية 340
سقوط الدولة المؤمنية 349

الباب الخامس – في احوال العرب لعهد الحفصيين والزيانيين والمزينين

تمهيد 354
رياح والاثيج وسليم 356
امارة بني مزني ببسكرة 364
رئاسة الثعالبة بمتيجة واخيار المعقل 370
زغبة 373

صفحة

الباب السادس ـ في الدولة الحفصية

تأسيس الدولة الحفصية	383
الحكومة الحفصية	384
ولاة الجزائر الحفصية	391
رؤساء القبائل	400
الحفصيون وزناتة	405
سقوط الدولة الحفصية	413

الباب السابع ـ في دولة بني مرين

بنو مرين	419
بنو مرين بالجزائر	422
استيلاء ابي الحسن على الجزائر	427
استيلاء ابي عنان على الجزائر	430
الاستيلاءات الاخير على تلمسان	434

صفحة

الباب الثامن ـ في دولة بني زيان

تأسيس الدولة الزيانية	439
المملكة الزيانيــة	440
عاصمة المملكة الزيانية	444
الحكومة الزيانية ومشاهير من رجالها	447
ملوك آل زيان	454
مغراوة وبنو زيان	467
ملوك تلمسان	470
توجين وبنو زيان	471
الثوار من بني زيان	475
الاقتصاد والعمران والحضارة	483
سقوط الدولة الزيانية	488
الحركة العلمية والادبية بالجزائر البربرية	490

انتــــــاج

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) ـ الحمراء ـ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ـ ص . ب . 5787 - 113 بيروت ـ لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

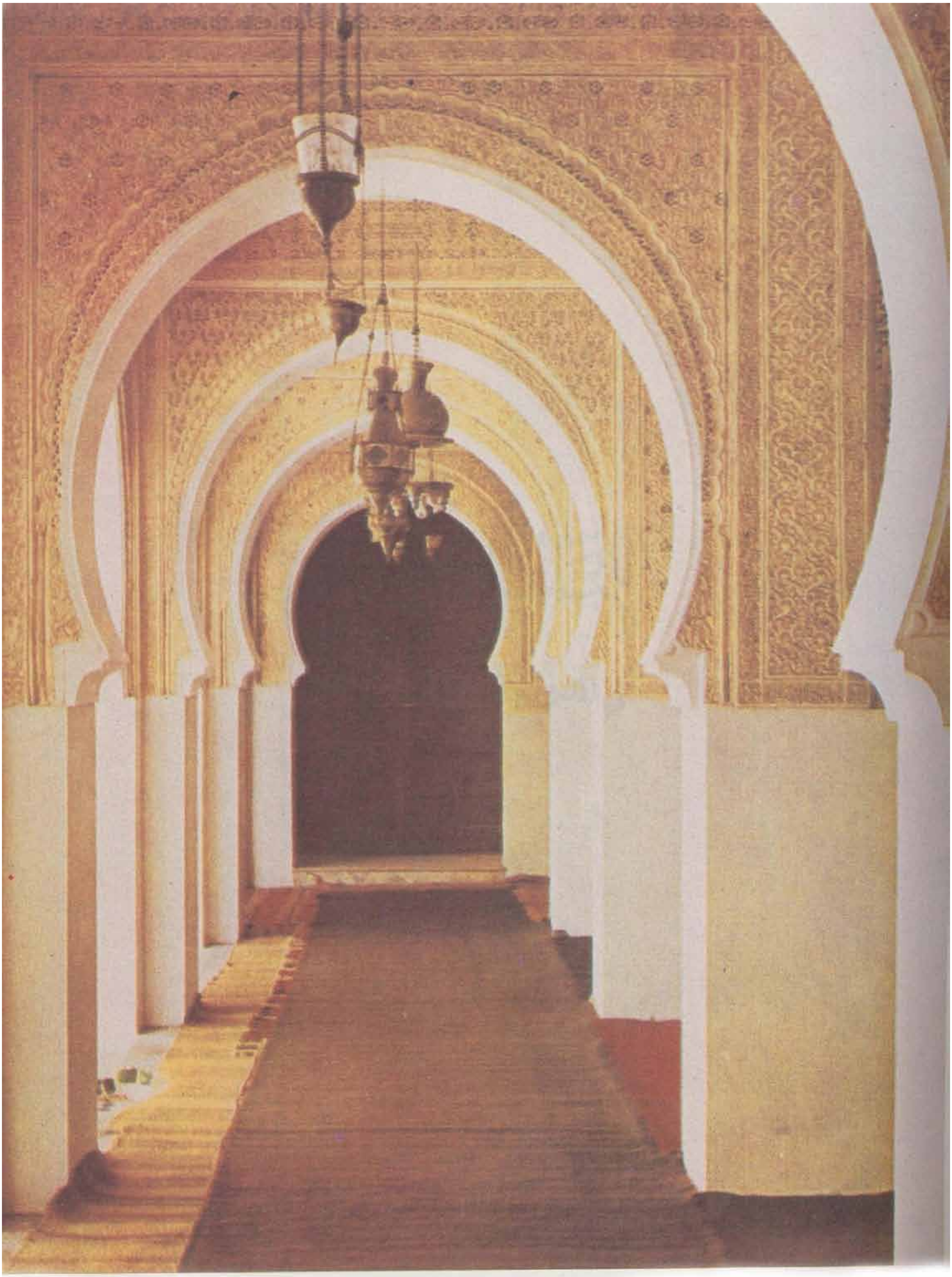

قاعة الصــلاة بجامع سيدي أبو مدين

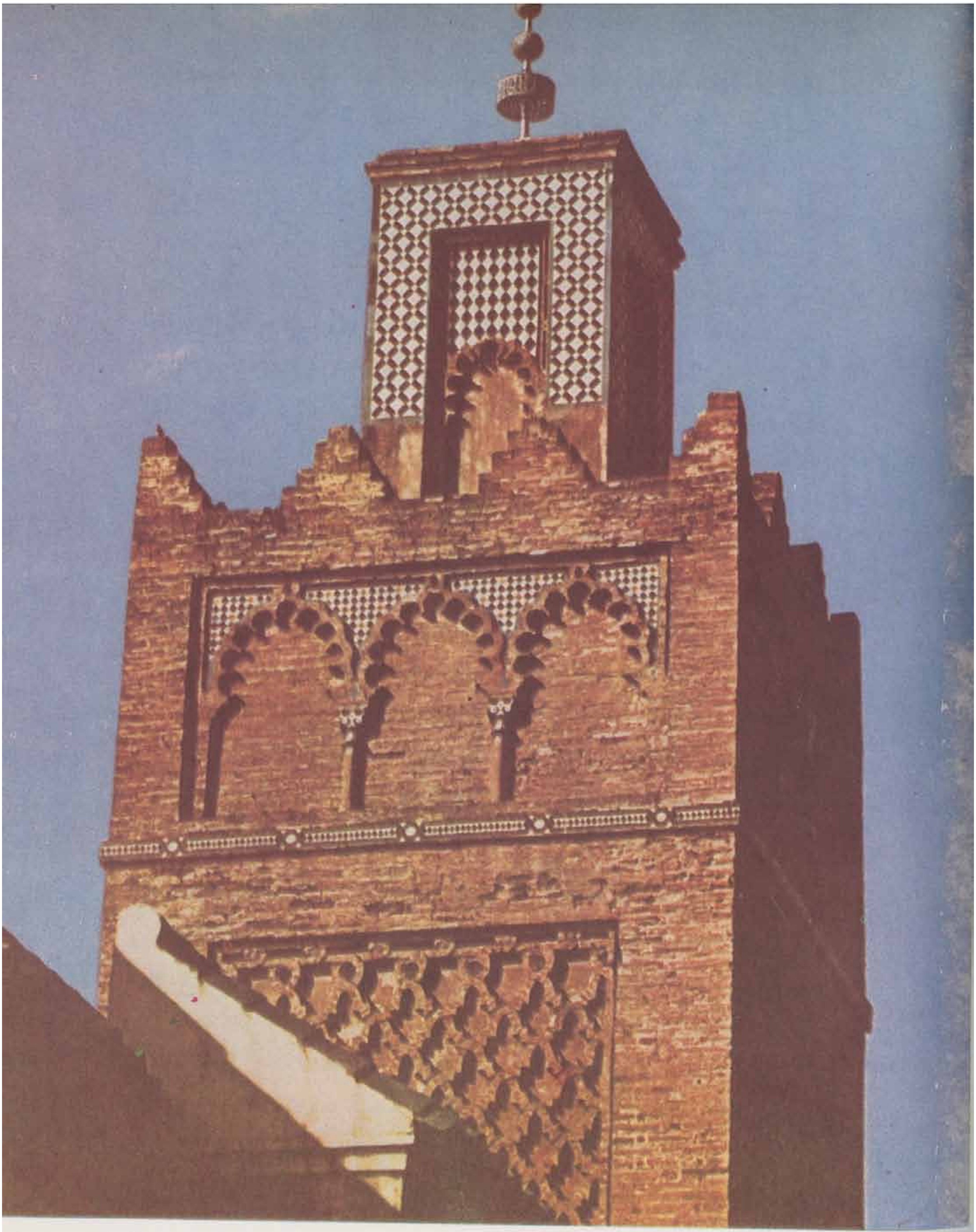

منـارة سـيدي أبـو الحسن

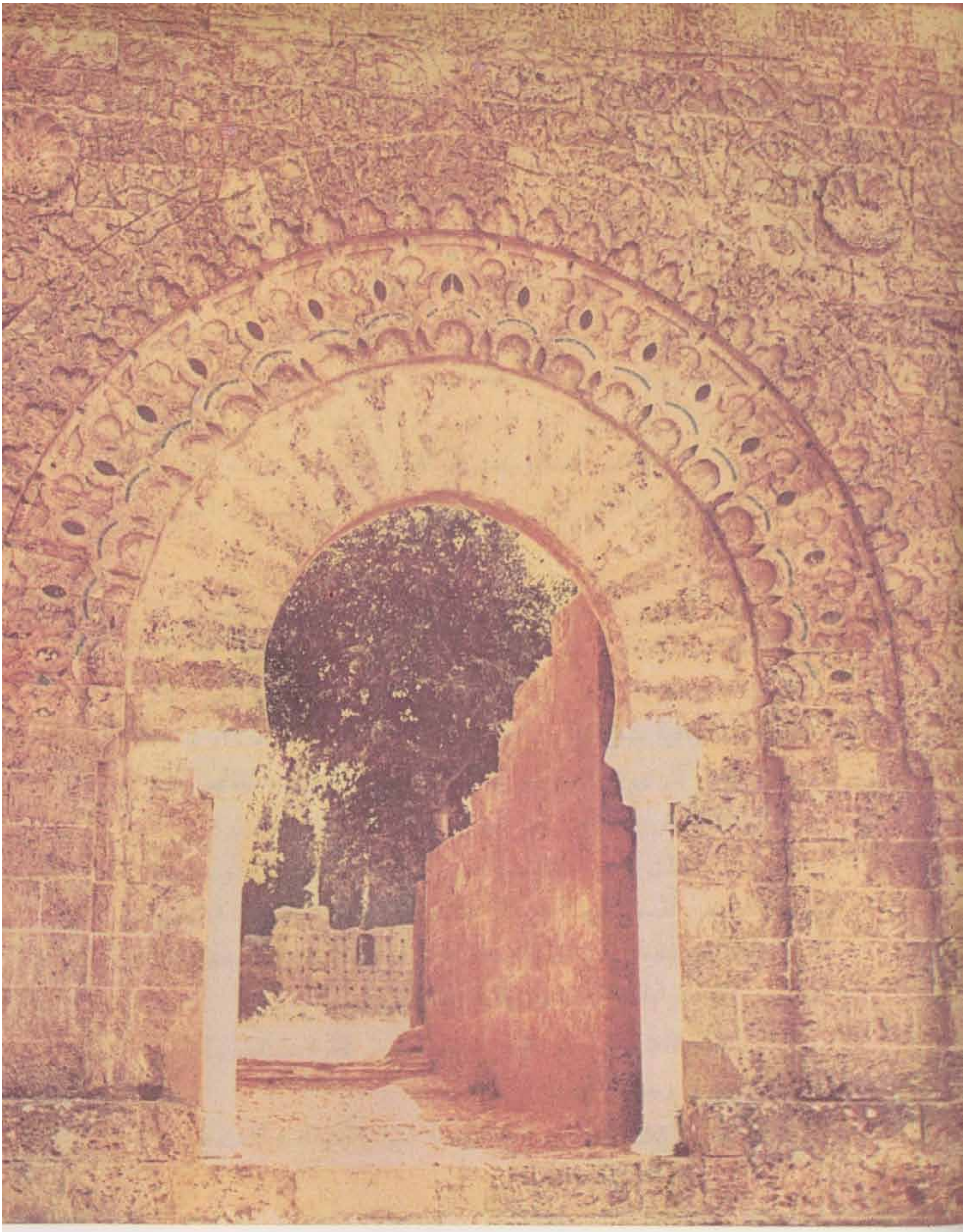

زخرفـة البوابـة

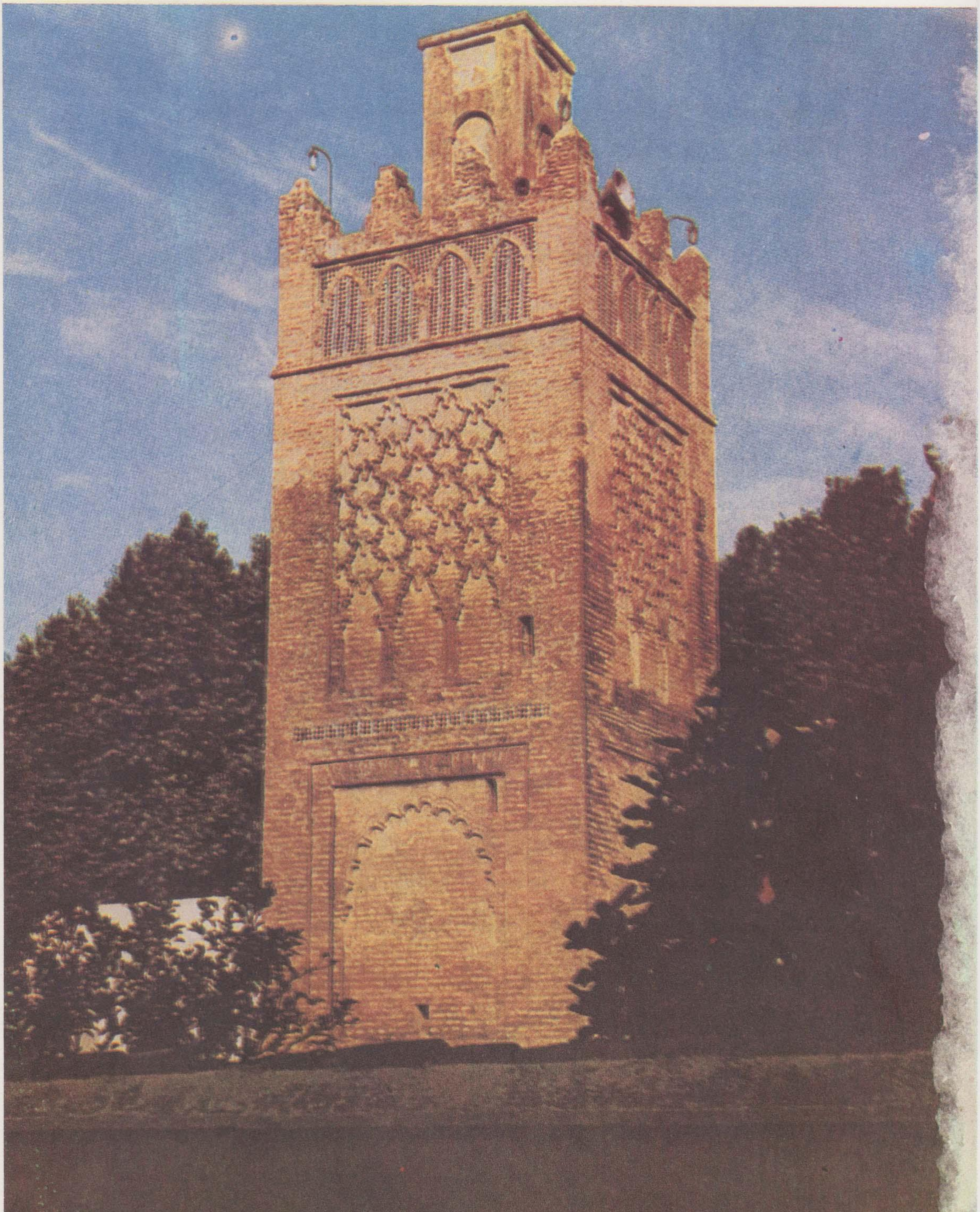

منارة سيدي ابراهيم

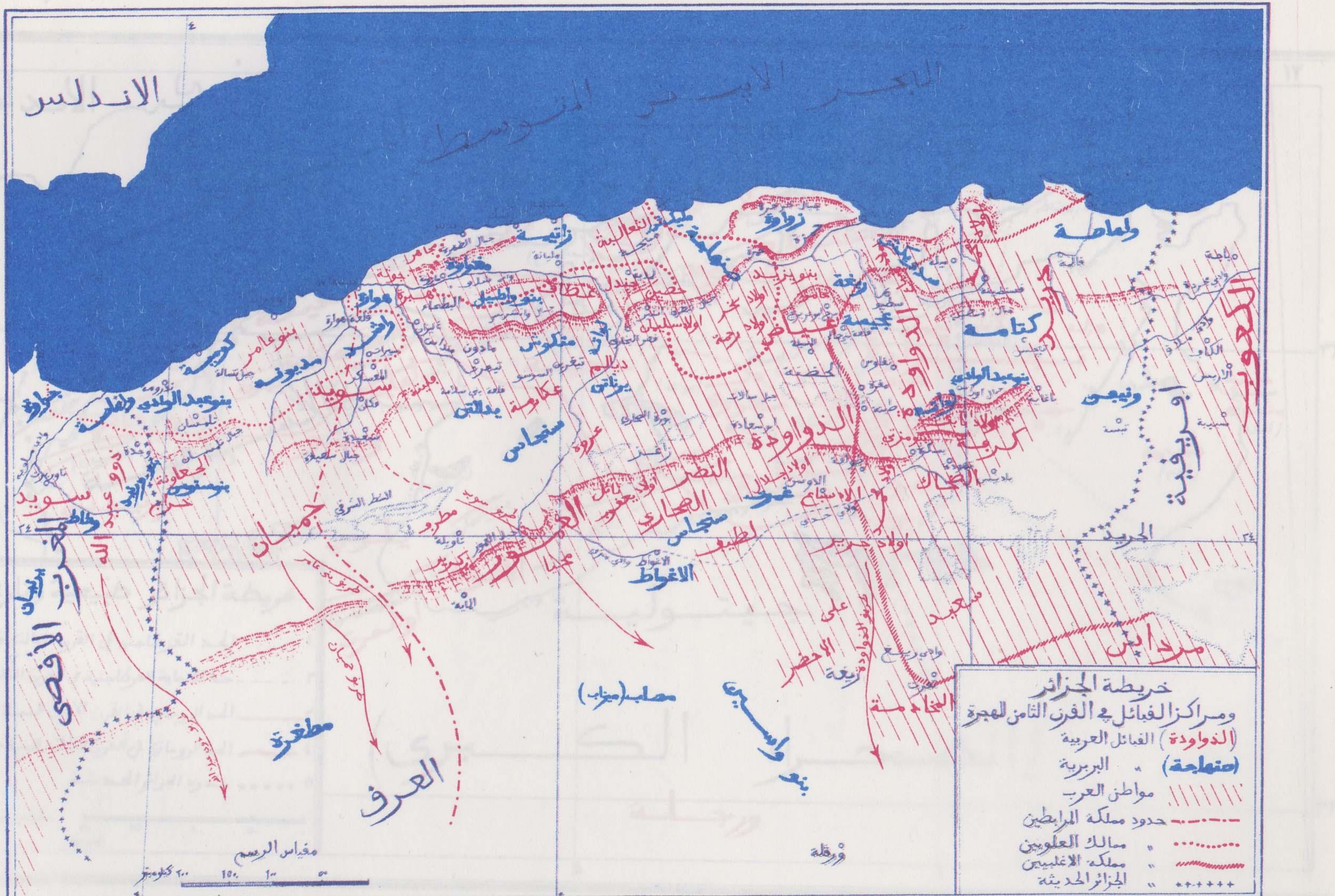

خريطة الجزائر
ومراكز القبائل في القرن الثامن للهجرة
(الدواودة) القبائل العربية
(صنهاجة) البربرية
مواطن العرب
حدود مملكة المرابطين
ممالك العلويين
مملكة الاغلبيين
الجزائر الحديثة
مقياس الرسم
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ كيلومتر
الاندلس
البحر الابيض المتوسط
المغرب الأقصى
العرق
مطغرة
مصاب (ميزاب)
ورقلة
افريقية
الكعوب
مرداس
الدواودة
سنجاس
الاغواط
كتامة
عياض
عكارمة
بنو عامر
سويد
حميان

البحر الابيض المتوسط
الاندلس
خريطة الجزائر طبيعية وتاريخية
١ .... الحد القرطاجني في القرن الثالث قبل الميلاد
٢ ـ ـ ـ ـ حد الحماية القرطاجنية في القرن الثالث قبل الميلاد
٣ ـــــ الحد الروماني في القرن الاول للميلاد
٤ ـــــ الحد الروماني في القرن الثالث للميلاد
٥ +++++ حدود الجزائر الحديثة
مقياس الرسم
كيلومتر
الصحراء الكبرى
ورجلة
جيتولية
موريطانية
نوميديا
كتامة
صنهاجة
زواوة
مغيلة
مطماطة
لماية
عجيسة
مغراوة
نفزاوة
الاغواط
يلومي
ومنو
بنو فاتن
ازداجة
ورنيديس
اوغمرت
قرطاجنة
القيروان